مصطفى منير

تلاوات المحو

"ثلاث دهشات لحياةٍ أخيرة"

رواية



المحروسة

تِلاواتُ المَحو

"ثلاث دهشات لحياةٍ أخيرة"

مصطفى منير

الطبعة الأولى 2019

إهداء

إلى "شروق"

التي تسألني في كل مرةٍ أطلب منها كوبَ شاي: "بالنعناع أم الفانيليا
أم الفراولة أم بالتفاح يا مصطفى؟"
شكرًا لأنكِ لم تغضبي يومًا وتطالبيني بتحديد النكهة من البداية.
زوجُكِ متردد حتى في أبسط الأمور..
وأنتِ الأمر الوحيد الذي سعى إليه بثبات.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

سورة البقرة - الآية 30.

"الإنسان مجموع نكباته".

ويليام فوكنر

"إن الإنسانَ -كل إنسانٍ بلا استثناء- إنما هو ثلاثة أشخاص في صورةٍ واحدة، الإنسان كما خلقه الله، والإنسان كما يراه الناس، والإنسان كما يرى نفسَه".

أوليفر وندل هولمز

"فقالَ الربُّ: أمحو عن وجهِ الأرضِ الإنسانَ الذي خَلقتُه، الإنسانَ مع بهائمَ ودبّاباتٍ وطيورِ السماءِ، لأني حزِنتُ أني عملتُهم"

إصحاح 6 - سفر التكوين.

أيام الدهشة الثانية

السارد الأول

في عُرفِ الحكي، مُنذ البداية المحفوظة، حدَّثنا السَّارد الأول، عن فتنةِ السرد، وعن شهوةِ الفضول، السَّارد الأول كان عليمًا، عرفَ كل الحكايات، حفظَها في لوحٍ فريد، تَمُرُّ الأحداث، تتوالى السِّير، تموت حكايةٌ وتُبعث أخرى، والسارد الأول يرى ويسمع، يكتب ويحفظ، إلى أن شعرَ يومًا بفقدان الشغف، رمى لوحَ التدوين، ونزل بين الناس، شهدَ التابعَ والمتبوع، الحاكمَ والمحكوم، المُخاطَب والمُخاطِب.

بعد أيامٍ معدوداتٍ، صعد إلى فراغِه العظيم، وخلقَ جيلاً كاملاً من الساردين، يوزِّع بينهم الحكايات، يجلسون جميعًا في غرفةٍ فسيحة، لا يتكلم الرجل إلى أخيه، يقرأ كل ساردٍ حكايتَه

المُكلَّف بها، يضع لمساته في حدود المسموح، يضربُ السقطات بمذبة، مثلما فعلتُ مع حكايتي، فمحوتُ مثلاً كل ما يخص التوقيت، ووسائل التكنولوجيا، وحكيتُ بنفسي أجزاء من الحكاية، وسمحتُ لأبطال الحكاية، في بعض الأجزاء، بالحديث عن ذواتهم، بأصواتهم ومشاعرهم، دون أدنى تدخُّل مني.

فرح السَّارد الأول، لأنني حاولتُ الخروجَ عن المألوف، وجعلتُ حكايتي حكايةً مُلهمة، تستحق السرد بكل ألاعيبه، بعيدًا عن بهرجة وزيف العصر الحديث، ولأنني الأنثى الوحيدة الساردة بين ملايين الساردين الرجال، حفظتُ حكايتي كاملةً، وجعلتُها مثاليةً، وأنتظر الأمرَ من السَّارد الأول.

وهو ما حدث هذا النهار، حين كلفني السَّارد الأول بمهمتي، لم ينطق حرفًا واحدًا، نظر إلى بابِ الغُرفةِ ففُتِحَ فجأةً، رفعتُ لوحي، قلتُ: "أستطيع حكي كل التفاصيل إن شاءت الإرادة السردية!" هزَّ رأسَه نفيًا، وعرفني أنه سيتدخل في الحكاية لمَّا يحين دوره، ولا حق لي في الاعتراض أو الجدال.

فباسم السَّارد الأول، نُسمِعُكم تلاواتِ المحو.

مُحيي ابن طاهرة

كل أهل المدينة صاروا بلا ملامح.

صحـوتُ عـلى صراخ أحدِهـم، أجهـل السـببَ وراء نومـي في الشـارع، تحديـدًا في هـذه الأيـام العصيبـة، مشـيتُ في الطرقـات، أراقـب الجنـون التـام، ومـع كل بـابٍ يُفتَـح، تخـرج الصرخـة قبـل صاحـب الـدار، ثـم يسـقط الرجـل بـلا ملامـح. لم تتمكـن الحكومـة مـن فهـم مـا حـدث، رجـال الديـن قالـوا: "طردنـا الله من سـلطانه!" رجـال السياسـة لم يتحدثـوا، كانـوا أسرع المتأثريـن بمسـح الحيـاة عنهـم، كيـف سنسـمعهم وتفاصيلهـم مبهمـة! لـن يصدقهـم أحـدٌ مطلقًـا!

لمحـتُ أطفـالاً يركضـون أسرع مـن الـبرق، وتقريبًـا هـذه المشـاهد مـن تأثـير الصدمـة، شيءٌ مُسـتحيل أن يركـضَ طفـلٌ بهـذه السرعـة! حاولـتُ بـكل الطـرق، بينـي وبـين نفـسي، التـضرع للـذي يجلـس عـلى العـرش ويسـمعنا، والـذي أشـك أنـه فعـل ذلـك، لأنـه يريـد نظامًـا جديـدًا للحيـاة.

أهـل المدينـةِ كلهـم صـاروا بـلا ملامـح، إلا أنـا، مُحيـي ابـن طاهـرة، اسـم شـهرتي في المدينـة، الاسـم الثـاني تحديـدًا، ذلـك لأنَّ الاسـمَ الأكـثر شـهرة يسـوع! لسـوء حظـي، أنـا نسـخةٌ طبـق الأصـل مـن يسـوع، كأننـي خرجـتُ مـن صـورةٍ مُعلَّقـة في بيـتٍ قديـم لعائلـةٍ مسـيحية، لأرعـى السـبيلَ إلى الجنـة أو الخـلاص، الشَّـعر الطويـل ذاتـه، الملامـح الوسـيمة الهادئـة، صفـاء الوجـه، طـول الجسـد، الهيبـة التـي تحاوطنـي. مكانتـي بينهـم -المسـلمين

والمسيحيين- مُحيِّرة، فمثلاً حين أمر بمسلمٍ أنا نبي، أما إذا كان مسيحيًّا فأنا ابن الإنسان!

ما حدث لهم بالخارج يؤنّب ضميري، أنا سعيدٌ سعادةَ الخليل إبراهيم حين أتاه أمر الكبش، أخيرًا لن يبهت أحدٌ لرؤيتي، لن يمجِّدني مسيحي، لن تمسك عجوز صليبًا وتقبِّله، لن يستغفر مسلمٌ، لن يمزح معي آخر ويدعوني للإسلام! المخيف في الأمر، إلى متى سيستمر وجودي بمفردي هكذا؟ هل ستقع عني معالم وجهي، مثلما حدث لهم، أم سأظل على هيئتي؟ مرَّ عام كامل، لم أتحدث مع شخصٍ من وقتها، مرَّ عامٌ كامل والأسئلة تحادثني يوميًّا، أفداني الإنسان هذه المرة؟ هل قالوا كلهم لربِّهم خذ ملامحَنا واترك ابن طاهرة؟ أم أن اللهَ غضبَ عليهم، فتركني لأنني نسخة من المسيح، وعذَّبهم بما يستحقونه، بعدما خذلوا المسيحَ الذي حمل عنهم الخطايا؟

سؤالان في غاية الأهمية، ماذا كنتُ أفعل في الشارع لأستيقظ وأجد نفسي نائمًا على الأسفلت؟ والسؤال الأكثر أهمية ينقسم إلى شقين، الأول: لماذا يوجد خلفي صليب؟ والآخر: هل هذا اليوم الأخير الذي تحدثوا عنه؟

فيليب

أبانـا الـذي في السـماوات، احمـل عنـي الـكأسَ إذا أمكـن، يـا يسـوع، حَمَـلُ الله الـذي يمحـو الخطيئـة مـن العـالم، أنـت تحـبُّ البشريـةَ كثـيراً، حتـى إنـك لا تتواضـع فقـط بتأنسـنك، بـل أنـت الحمـل الوديـع الـذي يحمـل جميـع خطايانـا، شـكرًا عـلى هبـة تواضعـك ورحمتـك ومغفرتـك، أبانـا الـذي في السـماء، أنـا خائـف والطمأنينـة والتَّحنـان في يـدك، التَّحنـان في يـدك يـا يسـوع.

أرجـوك هـل تسـمعني يـا يسـوع؟ لـن يسـمعني أحـدٌ غـيرك، لا أعـرف مـا الـذي جـرى، لقـد كنـتُ داخـل فـرن الفخـار، بعدمـا خَمـدتْ نـاره، ققـزتُ داخلـه كي أخـرج كل مـا أصبـح جاهـزًا، لفحتنـي الحـرارة العاليـة، لم تعـد تضايقنـي الحـرارة في المجمـل، سـمعتُ صـوتَ ابنـي مينـا: "يـا فيليـب، يـا فيليـب قلبـي منقبضٌ، تعـال ونُخـرج الفخـار في وقـتٍ آخـر"، ضحكـتُ وأنـا أشـعر بصـدق كلامـه، قُلـتُ: "بسـلامة أضطجـع بـل أيضًـا أنـام، لأنـك أنـت يـا رب منفـردًا في طمأنينـة تسـكنني.. انـزل يـا مينـا، انـزل يـا بـن أمـك".

والأفـران الموجـودة في قريتنـا، خاصـةً التـي تعمـل تحـت إشرافي، كانـتْ حديـثَ الجميـع منـذ بنائهـا، فقـد رسـمها وخطّـط شـكلها الباشـا الـذي أعمـل لديـه، وجعلهـا تُشـبه أفـران الخـزف القديمـة الضخمـة، الفُـرن الواحـد تشـعر أنـه عـلى هيئـة بـرج حـمام مثـلاً، بشـكلٍ دائـري، مـن أحجـار وطـوبٍ بلـدي، ويمـر بثـلاث مراحـل، الأولى هـي المحرقـة، وهـي بالأسـفل، نضـع فيهـا القـش والمطـاط، وكل مـا يسـاعدنا عـلى تغذيـة النـار، والمرحلـة الثانيـة هـي جسـم

الفـرن الداخـلي، الـذي نضـع فيـه الأشـكال الفخاريـة بعدمـا شـكّلناها لتحـترق وتصـير جاهـزةً، والمرحلـة الثالثـة هـي فوهـة الفـرن، التـي يصعـب عـلى الإنسـان تسـلُّقها أو القفـز لدخولهـا، لا بـد مـن اسـتخدام السـلم الخشـبي للصعـود إلى القمـة، وحملـه وأنـت بالأعـلى، ثـم وضعـه في فـراغٍ مخصـوص يتيـح لـك تمريـر السـلم مـن خلالـه والعبـور إلى داخـل الفُـرن، وهـذا الفـراغ مُغطـى بطـوب عـازلٍ، فـلا يحـترق السـلم بفعـل الحـرارة، ولا يحـترق الشـخص النـازل إلى الداخـل في حالـة لم تخمـد كل النـيران. التصميـم عجيـبٌ وغـير مفهـوم، وكان ردّي واضحًـا: "الباشـا الـذي اشـترى الأفـران يريدهـا هكـذا!!"

حـين نـزل مينـا بجانبـي، سـمعتُ صوتَ هبـوطِ جسـده، وهبوط شيءٍ آخـر، ظـل واقفًـا بـلا حـراك، قلـتُ في عصبيـةٍ: "يـا مينـا، الجـو هنـا ليـس سـاحرًا كي نبقـى طـوال اليـوم يـا.." صرخـتُ لمـًّا وجـدتُ جسـدًا فقـط، لا ملامـح، وجـه ممسـوح، أمسـكتُه وهززتُـه إذ ربمـا يتوقـف عـن هرجـه، إذا كان هـذا هرجًـا، لم يتحـرك، جلـس مكانـه، جلـس في ضعـفٍ وخنـوعٍ، كأنـه مسـافرٌ يجهـل أي بلـدةٍ نـزل إليهـا، يمسـح عـلى رأسـه، يمسـك بيـدي، استسـلامٌ تـام لأمـرك يـا يسـوع، الفـرن حولنـا شـديد السـواد، بـين قطـع الفخـار أرى حمـرةً، ونـورك يـا يسـوع بالأعـلى، الفوهـة فوقنـا، السـلم الخشـبي الـذي يسـاعدنا عـلى الطلـوع والنـزول، بجانـب مينـا، سـقط معـه نصفـين. هممـتُ بالـصراخ، لم يُطعنـي الصـوت، وضعـتُ يـدي عـلى رقبتـي في البدايـة، ثـم حركتُهـا إلى فمـي، تراجعـتُ إلى الخلـف، أسـندتُ ظهـري إلى الفخـار، حرارتـه تؤلمنـي، أيعقـل يـا يسـوع، أن نـارَ الفـرنِ أذابـتْ

ملامحنا؟ سقطت ملامحي عني، باستثناء عيني.. ماذا تريدني أن أرى يا يسوع؟ وهل هذا عقابك لي، على حياتي القذرة، التي عشتُها؟ لقد صليتُ كثيراً لتغفر لي!

نعمة

إذا كان عدلاً ما حدث، إذا كان انتقامًا سماويًا، أو تصحيحَ خطأ إلهي، ربما هو اليوم الذي تحدثوا عنه في كل مناسبةٍ، أو اعتذارٌ رسمي من صاحب العَرش عما أعانيه منذ سنواتٍ، فأنا موافقة وتقبّلتُ ردَّ الكرامة، كرامة بنتٍ مسكينة، وجسدٍ تستعمره بقعٌ خضراء، جعلتْ الأوساخَ يلقبونني بنعمة النّتنة، مع أن البقعَ لا رائحةَ لها، ولم تَضر أحدًا. رماني والدي وأنا ابنة السابعة، لكثرة المضايقات، ولقلقه من العدوى، ولقلة المال للتكفُّل بعلاجي، ومن وقتِها والشوارع أهلي وبيتي، أستقر في منطقةٍ معينة كل فترةٍ، الرجال يضاجعونني، ويحضرونني من أجل تنظيف بيوتهم، ومن أجل راحة زوجاتهم ظاهريًا، ومن أجل الفُرجة عليّ حقيقيةً.

أصحاب المحلات استخدموني في تنظيف أماكنهم وترتيب المخازن مقابل وجبةٍ أو مالٍ لا يُسدِّد، وفي أغلب الأحيان مقابل فتحتي السفلى الخلفية، التي صارتْ أوسع، ولم تمسها البقع.

اليوم، بعدما نظفتُ مخزنَ محلِ ملابس، وقميصي الأبيض الملطخ بحيواناتٍ منوية، خرج المالك المنتشي، البخيل في كل

شيء، إلى محلـه، فتـحَ درجَ مكتبـه، وأخـرجَ ورقـةً لم أتبينهـا، لأن عينيـه سـقطتا، صرخَ في فـزعٍ، صرختـه مختلفـة تمامًـا عـن تلـك التـي أخرجهـا وحيوانـات قضيبـه الصغـيرة تهاجـم قميـصي، ثـم وقـع أنفـه ولحقـه فمـه، وفي دقيقـةٍ تكـوَّم بجانـب المكتـب، جسـده يهتـز بعنـفٍ كأنـه يبـكي لمـوت أحدِهـم. قلـتُ لـه: "خمسـون جنيهًـا، موافـق؟" بالطبـع لـن يـرد إليَّ إجابـةً. سـحبتُ مـا طالتـه يمينـي مـن المكتـب، ورحلـتُ عـن المسـخ الـذي صـار مجهـولاً.

في الخـارج، يمينًـا ويسـارًا، النـاس عـلى الأرض، فـوق الرصيـف، ومنهـم مـن وقـف مكانـه، الجميـع بـلا ملامـح، أجسـادٌ مبهمـة، ضعـفٌ مُبهِـج، أخـيرًا رأيتُهـم مذلولـين مُهانـين، أتمنـى أن يكـونَ الأمـرُ حقيقيًـا، وليـس حلـمًا أو دعابـةً سـخيفة كسـخفهم المزعـج. السـيارات واقفـة بمنتصـف الطريق، الحافـلات والدراجـات البخارية، الحيـاة تعطلـتْ كسـاعةٍ قديمـة، يـا أولاد الكلـب، هـذه نهايتكـم لمـا فعلتمـوه بي. مـن هـذه اللحظـة لـن أضـع المرهـمَ الـذي وصفـه لي طبيـب الجلديـة، الـذي وعـدني بعـلاجٍ بعـد مضاجعتـي، واصفًـا اسـتخدامه لتهدئـة البقـع. نعمـة سـتتحرر مـن ملابسـها، وحجابهـا، وكل مـا يخفينـي عـن أعينهـم، يـا أولاد الكلـب، أنـا عاريـة بينكـم، أنـا الوحيـدة الكاملـة الآن وكلكـم ناقصـون!

عبد القوي

منذ متى وأنا في النهر؟ مثلي مثل ورقةٍ رماها أحدهم، كسمكة ميتة، أو غائط كلبٍ، أحب هذه اللعبة، لعبة الذي هو أدنى سميتُها، أرى نفسي أدنى مخلوقات العالم، أصلاً أنا عامل دوكو يدهن المانيكان بهذا اللون الوحيد الذي أملكه، لون لحم الهوانم، هكذا أطلقنا عليه، نحن وبائعو الرُّخام، بعد شهرة ذلك النوع الذي ينتج عن تمازج لونين، الأبيض والأحمر، فنجد الناتجَ لونًا زهريًّا يقترب من لون جلد الإنسان، تحديدًا الهوانم النظيفات جدًّا، بعد حمام وبخار وتنظيفٍ وإزالة شعرٍ، فنقلنا الاسمَ عنهن.

مهنة مملة، لا أعرف غيرَها، توارثتُها عن أبي، مهنةٌ من لا مهنةَ له، فمن الطبيعي ألا أشعر بإهانة إذا وصفتُ نفسي بأقذر وأكثر الصفات وضاعةً، وما حدث هو عقاب الله، ذلك لأنني ببساطة، والله العظيم ببساطة، كنتُ مع خطيبتي، عفوًا مع التي كانتْ خطيبتي، في مركبٍ صغير، أقبِّلُها وهي على وشك الاستجابة، وأعتذر عن هجري لها، ثم فجأة، لم أرَ ملامحها! بحياتي لم أتخيل نهايةً لمتعتنا كهذه. من الصدمة نهضتُ، ثم تراجعتُ إلى الخلف فكان طبيعيًّا أن أسقطَ، ومن وقتها وكلانا في النهر بلا معالم كأنها ذابتْ، هي على المركب وأنا أسبح، ممسوح الهوية والقدر، لا أعرف أين مرفئي، وهل ما حدث أمرٌ اختصه الله بي وخطيبتي أم البشر كلهم؟

العجيب في الحكاية أن شخصًا عاديًا مثلي تحفُّه نهاية غير عادية، خاصة أنني ابن الأشياء العادية، السجائر المحلية، عصير "جهينة" الرخيص، المقهى الشعبي، الفطائر الشرقية، الأماكن التي يذهب إليها الجميع، أنا ابن الانتشار، حتى خطيبتي، كانتْ تضع الهاتفَ فوق خدِّها الأيمن، وتسنده بحجابها، هذا المخبأ السري، وضعتْ به تذاكر السفر والأنفاق ومرآة صغيرة لتتأكد من رسمة حاجبيها! لم يعرفني التفرُّد يومًا، يستقبحني الاختلاف وأستقبحه، ولمَّا يأتِني ملك الموت. في أثناء رحلتي النهرية التي أتمنى مقابلة نهايتها، سيندهش من روتينية حياتي السابقة، سيستفسر: "إذا طلبتُ من الجبار أن يمدَّ في عمرك، هل ستتغير؟" سأجيبه حينها، ولا أعرف كيف دون فمٍ أو حتى أذنٍ تسمع: "سأتعرَّف إلى أشياء عادية جديدة، لن أصير مميزًا أبدًا".

أما ما يخص السؤال البدهي: "لماذا حدث ما حدث؟" أقولها وأنا في كامل قواي العقلية: "يُعاقَبُ أهلَ الأرضِ مَن خلقَ العقابَ والأهلَ والأرضَ!" نحن نستحق ما جرى، أنا على وجه الخصوص غير منزعج، فقط جل ما أريده الوصول إلى النهاية، صار الموتُ غايةً وفي موقفي الآن غوايةً! هل يا رب لأننا عرفْنا كل شيءٍ، ولم نتحرك، سدَّدتَ إلينا سهامَ غضبِك؟ ليس السؤال مَن الذي على صواب ومن اقترف الأخطاء، السؤال - إذا سمحتَ لي جلالتك- أنت من بدأ غريزةَ المَحو، صرنا نعرف كل شيءٍ عنَّا، وما حدث بعد ذلك كان رد فعلٍ. نحن البشر لن نتغير، فلماذا تعاقبنا على تواكلنا حتى نصل إلى مرادنا؟

عامـةً، اكتـب عنـدك يـا رب: أقـر أنـا المواطـن/ محمـد عبـد القـوي، عامـل الدوكـو، الـذي كان يقبـض في المانيـكان الواحـد خمســة جنيهـاتٍ، الســابح الآن في ميــاه النهــر إلى مــا لا نهايــة، غـير العـارف بمصـيره، أننـي آسـف عـلى فعلتـي، ولـن ألمـس منـة خطيبتـي مجـددًا حتـى نتـزوج، فهمـتُ عقابَـك لنـا، أمـا إذا كان مـا حـدث أصـابَ البـشر جميعهـم، وهـذا هـو يـوم القِيامـة، فهـل تحاســبنا الآن؟ كفــاني ســباحةً في النهــر وحــدي.

المدينة الفاضلة
(تفاصيل الدهشة الأولى)

عامل الدُّوكو

في أثناء قعوده على المرحاض، صباح يومٍ عادي، في حين تتناوم عيناه، دخلتْ إليه الحمَّام فكرةٌ بلا استئذان! صفعه الانتباه، والمفروض أن شخصًا مثله يستفيق، الحقيقة لا نعلم ماذا سيفيد العالم، استيقاظ عاملِ دوكو مبكرًا! على أي حالٍ بدأ في استيعاب الدنيا من حوله، سألَ الصمتَ فجأةً: "لماذا لا يُحسَب عمرُنا منذ الحمل؟ أعني بعدما لفظني رحمُ أمي -رحمها الله- لم يدوِّن أبي اسمي وعمري وقتها، الذي -حسب المنطق والتفكير الصحي- تسعة أشهر! أنا في الحياة -على نحو

مـا- منـذ تسـعة أشـهر وليـس لحظـة ولادتي! هـل هـذه الفكـرة التـي عرفـتُ أننـي سـأفكر فيهـا؟ أم أنهـا صدمـة مـا بعـد الحلـم اعجيـب المُتكـرر، حلـم قتـل الطفـل الصغـير؟"

خـرجَ إلى الصالـة الضيقـة، ومنهـا إلى غرفتـه الوحيـدة الأكـثر ضيقًـا، شـقته غرفـة نـوم وصالـة وحـمّام ومطبـخ، لا مفـر مـن الذهـاب إلى العمـل، الفكـرة بنـت الأبالسـة تتقافـز حولـه. سـمعَ صوتًـا يسـبُّ الديـن بالأسـفل. في منطقتـه -شـارع السـد بالسـيدة زينـب- قـد تقـوم الخناقـة في ثـوانٍ، ثم تهـدأ في ثـوانٍ. فتـحَ النافذةَ، إذ ربمـا تكـون خطيبتـه منـة مـن تتعـارك، عاجلتـه جارتـه التـي تسـكن أمامـه مبـاشرةً، ويعـرف متـى ينـام معهـا زوجهـا بسـبب قـرب البيـوت مـن بعضهـا: "صبـاح الخـير يـا محمـد، لا تشـغل بالـك، عربجـي لا يؤمـن بفكـرة مدينتنـا الفاضلـة، غـازل بنتًـا مـن بنـات مدرسـة السـنية". دخـلَ وصـدر جارتـه الخـارج مـن عرينـه يـزأر في مخيلتـه، يسـارر نفسَـه بفـرجٍ قريـب، أعصابـه قاربـتْ عـلى الانهيـار، ومنـة بنـت محترمـة ترفـض تحرشـاته البريئـة.

اليـوم هـو يـوم اليتيـم، طبقًـا لقانـون المدينـة الفاضلـة الجديـد. ظـنَّ محمـد أن ربمـا هـذا العربجـي منهـم، ولمّـا لم يجـد مـن يحنـو عليـه ثـار عـلى مبـادئ مجتمعهـم المُسـتحدثة. هـذه -كـما يقـول عبـد القـوي لنفسـه- السـيئة الأولى التـي يراهـا أمامـه منـذ مـا حـدث لعالمهـم.

رنَّ هاتفـه القديـم، الـذي نـسي بسـبب قدمـه متـى أو مـن أيـن حصـل عليـه. رقـم منـة العجيـب، تركتـه غاضبًـا منـذ البارحـة

بسـبب ملابسـها التـي تتحـرر مـن الحشـمة مؤخـرًا. نعـم يعشـق البنـات وأجسـادهن وفتنـةَ صدورهـن ومؤخراتهـن، لكـن الأدبَ أدب! لم يـرد عـلى مكالمتهـا، لبـسَ القميـصَ الأسـود السـادة، البنطال الأسـود، الحـذاء الأسـود، النظـارة السـوداء، بقـرفٍ مـن الحيـاةِ قالهـا: "اجعلـه يـا رب يومًـا أسـود عـلى المحـل وزبائنـه".

نـزلَ إلى شـارعهم، الزحـام مـن الثامنـة صباحًـا، صبـاح الخـير يـا أم العواجـز، يـا صاحبـة المقـام يـا سـيدة زينـب. المحـل يبعـد عـن البيـت مسـافة عـشر دقائـق، ومـع ذلـك كان أول الحاضريـن دومًـا، وذلـك لسـببين، أولهـما كي يـرى منـة، التـي تعمـل بمحـل ملابـس حريمـي بالقـرب مـن المحـل، قبـل بـدء ورديـة عملِهـا، وثانيهـما لأنـه الوحيـد عامـةً، فـلا يوجـد صنايعـي أو صبـي يُسـاعده!

رائحـةُ الفـول تلاطـف الطعميـة، بائـع المخلـلات يفتـح محلـه، شـحاذو المقـام وعاملـو النظافـة، كلهـم في أماكنهـم، يسـتعدون ليوم رزقٍ جديـد. يتخيـل الشـمسَ فوقـه، تـشرب قهوتَهـا مـع السـحاب، تقـول لـه: "لـن ألسـعهم، يـا الله! أطفـال المـدارس شـكلهم لطيـف! انظـروا! موظـف غلبـان يمـر! خـذ لسـعةً عـلى قفـاك!" أبـواق السـيارات وعربـات النقـل العـام، الشـد والجـذب، ميـدان السـيدة زينـب المزدحـم طـوال الوقـت، رائحـة ملابـس المـدارس الجديـدة، عـرفَ مـن الحركـة الغريبـة والمضطربـة أن اليـومَ هـو بدايـة العـام الـدراسي.

وصـلَ إلى محـل منـة، تكنـس الـتراب، تتظاهـر بعـدم رؤيتـه، مـرَّ بجانبهـا كأي غريـبٍ يمـر، نادتـه في حنـقٍ: "محمـد!" حـين تنطـق

اسـمَه، تغسـله مـن عفـن يـوم عمـلٍ، مـن روائـح العـرق ورذاذ الكمـسري، مـن عبـوس الزبائـن وطلباتهـم الغريبـة، حتـى صـدر جارتـه، ينسـاه مـع جـمال اسـمه، الواقـف خلـف مشربيـة فمهـا. رجـعَ إليهـا، خطـفَ نظـرةً إلى صدرِهـا، الـذي يعـاني ليعلـن وجـوده مـن خلـف العبـاءة السـمراء، والـذي يعـرف جيـدًا أنهـا تلبـس حمالـةَ صـدرٍ لترفعـه أعـلى مـن وضعـه المعتـاد. سـألته في هـدوءٍ مصطنـع: "أهكـذا يعجبـك وسـع ملابـسي؟ أم تريـدني أن ألبـسَ كالمهرجـين؟" إذا قالـتْ منـة جملـةً كاملـةً دون أن تنهيهـا بقـرفٍ أو خـراء الـكلام، سيشـعر أنهـا ليسـت بخـير!

"صبـاح الخـير يـا منـة، نعـم يعجبنـي هكـذا، أنـتِ جميلـةٌ عـلى أي حـالٍ، ولا يحتـاج جمالُـكِ إلى إضافـاتٍ لتُظهـره، مـع الوضـع في الاعتبـار كلام مجتمـع السـيدات، طبقًـا لدسـتور مدينتنـا الفاضلـة، عـن الحشـمة والتخلـص مـن العُـري! بالمناسـبة سـنخرج بعـد الورديـة، سـنذهب إلى دار أيتـامٍ أولاً ثـم إلى السـينما، أرجـوكِ لا تخبرينـي بوضـع المبلـغ في تجهيـز الشـقة، وهـذا أفضـل مـن صرفـه في تفاهـات المخطوبـين، المـال الآن بـلا قيمـة، مدينتنـا الفاضلـة تكره المـال، وزواجنـا يقـترب بصـورةٍ مُبـشِّرة، عـلى مـا أعتقـد يعنـي". مـشى إلى المحـل، لم ينتظـر جوابًـا منهـا، يتـصرف اليـوم بغرابـةٍ. مـما عُـرِفَ عـن محمـد عبـد القـوي، حياتُـه العاديـة، لا يفكـر كثـيرًا، لا يُرهـق بالـه بالتفكـير عمومًـا، نظريتُـه البسـيطة في الحيـاة: ضيـاع الأيـام حتـى المـوت مجهـودٌ يسـتحق الراحـة يوميًـا.

وعـلى الرغـم مـن نظريـة عبـد القـوي في الحيـاة، فإنـه يعـرف معلومـات عـن الأشـياء، يُقسـم لنفسـه يوميًـا إنـه لم يقـرأ أو يسـمع

عنهـا، ولا يعـرف مـن أيـن لـه بتلـك المعلومـات، لذلـك ينـصرف عـن التفكير بدافـعٍ داخـلي يُخـبره أنـه موسـوعة متحركـة، وبدافـع آخـر، يتدافـع مـع الدافـع الأول، ويوصيـه في كل يـومٍ: "دع التفكـير، سـنموت بـلا قلـقٍ!"

رفـعَ بـابَ المحـل الصغـير الكئيـب، الإضـاءة الخافتـة بالداخـل التـي ينسـاها ولا يطفئهـا قبـل رحيلـه، رائحـة الدُّوكـو والمـاء المختلـط بالزيـت والدهانـات، الجـو المكتـوم نتيجـة سـوء التهويـة، الكحـول والمزيـلات والسـكاكين المعدنيـة، العطـور الرخيصـة التـي ينثرهـا أحيانًـا للتغلـب عـلى رائحـة الزفـت النفـاذة الـذي يفضّلـه بعـض الزبائـن في طـلاء المانيـكان بالأسـود، روائـح صمـغ الملصقـات، ماكينـة غسـيل السـيارات الصفـراء الموضوعـة منـذ زمـن بعيـد، يسـتخدم مسـدسَ المـاء خاصتهـا في تنظيـف المانيكانـات. كان أبـوه -رحمـه الله- يغسـل السـيارات إذا مـا نامـت الحـال، ولكـن مـع اختفـاء المهنـة، أو بمعنـى أدق مـع اختفـاء المتخصصـين في مهنتـه، لم تنَـم الحـال معـه عامـةً، جنيهـات قليلـة ولكنهـا يوميـة، اليـوم يمـر وجيبـه عمـران بالخمسـات.

أدار المُذيـاعَ عـلى صـوت السـت، تغازلـه بالشـوق وتأوهاتِهـا مـن الشـوق وعمايلـه. وقـف أمـام مانيـكان لونـه أبيـض وصاحبـه يحتـاج إليـه بعـد نصـف سـاعة مـن الآن. نـزع ورقـةً ملتصقـة بكتـف المانيـكان، تركهـا لنفسـه البارحـة، فتحهـا وهـو يسـعل: "لحـم الهوانـم".

سـمعَ صـوتَ نحنحتِهـا، قالـتْ في دلالٍ يعشـقه: "بعيـدًا عـن جلفـك في التعامـل مـع الأنثـى، نسـيتَ إفطـارَك معـي يـا سـيدي وتـاج رأسي". تأمـل جسـدَها النحيـف مجـددًا، ونظـر إلى الورقـة قبـل أن يرميهـا، بسـملَ وخلـعَ حـذاءه، لم يجـد علبـةَ السـجائر في جيبـه، السـت تسـأله في المذيـاع ومـا العمـل؟ وتسـتنكر عليـه حرمانـه منهـا وهـو الأمـل! سـألَ منـة: "هـل يـأتي يـومٌ ويطلـب منـي العـالم أن أدهنَـه بلحـم الهوانـم يـا منـة؟" لم تفهـم السـؤال، ضحـكَ حـد السـعال، أشـاح بيديـه، وجـد سـيجارةً فـوق ماكينـة غسـيل السـيارات، سـحبَها ليسـحب فتنتَهـا إلى رئتيـه، قـال لمنـة الواقفـة في ذهـول: "منـذ صحـوتُ والأفـكار تتلاعـب بي يـا منـة، مـن الواضـح أن عقـلي ينبهنـي لـضرورة اسـتخدامه قليـلاً، ولكـن لمـاذا أرهـق نفـسي في التفكـير أو إثبـات خطـأ مـا فعلـه الغـير؟ السـينما يـا منـة بعـد الورديـة. اذهبـي الآن، رزقـي واقـف، إذا كنـتِ تعرفـين مـا هـو رزقـي أصـلاً!"

ابنة الشوارع

في حـارةٍ ضيقـة، داخـل بنايـةٍ قديمـة، بشـقةٍ أكـثر قدمًـا وضيقًـا، لا يدخلهـا هـواءٌ ولا تعرفهـا النظافـة، تنـام نعمـة عـلى بطنِهـا أرضًـا، ذلـك لأن صاحـبَ الشـقة طلـبَ هـذا مقابـل وجبـةٍ وربمـا يعطيهـا مـالاً. البنـتُ سـمعت الـكلام ونفـذتْ مـا أمـرَ بـه، الرجـلُ يتـودد إليهـا لتخلـع بنطالهـا كـما علَّمهـا، يُقسـم بعـدم لمسِـها تمامًـا، سيشـاهد مـن مكانـه، لم ترفـض لـه طلبًـا، تخلـع البنطـال وتثبتـه

بعد عجيزتها، تجلس في وضع السجود فتبرز مفاتنها السفلى في شكلٍ يحرك الجبل والحجر، مدحَ الرجلُ النبي، ثم مَدحَ الخالقَ ومدحَها، ولم يتكلم بعدها، يمينه تكتم فمه، ويساره تكتم على لحمٍ منتصبٍ بالأسفل، قبل أن يسبَّ نعمة: "الله يحرق سنينك يا نعمة! عليكِ الدورة وتأتيني وأنا هائج!"

نعمة، ابنة الشوارع والعشرين، الجميلة بهدوء، الفاتنة بهدوء، المثيرة وهي بملابسها، المرعبة دونها، كلما شاهد أحدهم بقعَ جسدها هدأتْ ثورته وابتعد عنها، إلا هذا الرجل، كان الأذكى بينهم جميعًا، صاحب محل كشري، وهذه الشقة لنزواته، التي كثرت مع نعمة، صاحبة الرقم القياسي في فك زنقته، كما يقول لها دومًا.

إذا ما تغاضينا عن بقع نعمة المنتشرة في أماكن مختلفة على جسدها، فهي صاحبة ملامح هادئة، وجهُها عادي، ليس نحيفًا ولا يدركه الخير الوافر، البين بين هو الوصف الأدق، جسدُها ثورةٌ في حد ذاته، قصيرة القامة، الأرداف تغذيها الطبيعة، الصدر هو أكثر ما يلفت الناظرين إليها، وطبقًا للمقولة القديمة: "كثرة الضغط عليهما يفجرهما حجمًا وجمالاً"، وهذا ما يعتقده الجميع، صدرها كبيرٌ لكثرة ماسكيه وضاغطيه، قوامها قوام الساعة الرملية، وهذا في عرف النساء وسوقهن نعمة من الله عليهن، ولكنها لم تشكر واهبَها قط، يوميًا وهي ترى أن أي رزقٍ أو أي إضافةٍ إليها ما هو إلا اعتذار منه على مرضها، الذي لا علاج له.

رفعتْ بنطالها وقامتْ، تمسح يديها في قميصها، تسأله بنظراتِها عن الوجبة أو المال، نظر إلى الباب فخرجتْ قبله، قال لها وهو يغلق الباب: "هذه المرة ليست محسوبة يا بنت الحرامي، اذهبي إلى المحل، عطوة معه كل شيء، وجبتان وعلبة عصير وتفاحة، الله يسامحُكِ على هذا القرف".

ركضتْ إلى المحل، لم تركض من الفرحة، ما يدفعها هو العوز، وتصميمُها العنيد في الحصول على حقها، لن تترك فرصةً أبدًا، كلمة "فرصة" في قاموس نعمة تعني مالاً أو طعامًا أو شرابًا أو كل شيءٍ يفيد، كل شيءٍ ستحصل عليه، بجسدها المُعطَى، وهذه هي المفارقة العجيبة في حكاية نعمة.. أنثى تغريك وهي بكامل ملابسها، أو تزيح البنطال قليلاً حتى رسمة الصدر التي يلهث خلفها الرجال، لم يلهثوا خلفها عند نعمة، يكتفون فقط بمشاهدة شكل الصدر في الملابس الضيقة والمداعبة، ما زرع في نفسيتها غضبًا عظيمًا، يبدأ ضد الخالق وينتهي إلى أضعف مخلوقاته.

تجهل نعمة الملابسَ القصيرة أو المفتوحة، فستانها دومًا ضيق، يصف الجسد بكامله، لكنه طويل والأكمام أطول، وأسفله البنطال القماشي، أسود وضيق جدًّا، صيفًا شتاءً لم يتغير نمط تفكيرها، ستدثر البقعَ ولو على حساب نسماتِ الهواء، تضع مساحيقَ التجميل خاصة البودرة، لأن بقعةً تكبر يوميًّا، فوق حاجبها الأيمن، ما يدفعها لتغطية الأمر، حتى لا تخسر نظراتِ الناس نهائيًّا، الناس الذين تكرههم، وفي الوقت ذاته

تتعامل معهم مجبرةً، الناس الذين يتغزلون في جمال جسدها، ظاهريًا فقط.

الشارع ليلاً في مركز أبي حماد بمحافظة الشرقية مفعم بالحياة، المقاهي الشعبية ومحال الحلويات والبقالة والكشري، العربات تمر والدراجات البخارية لا ترحم، سائقو التوك توك يعرفونها اسمًا وجسدًا، لا يجرؤ أجدعهم على مغازلتها، لا يجرؤ أحدهم على الحديث إلى نعمة، التي تمشي بكيس من البلاستك لونه أزرق، به أكل وفوط صحية وسكين لزوم ما يلزم.

وقفتْ على الرصيف المُقابل للمحل، اللافتة الكبيرة المضيئة: "كشري أبو عطوة"، لمحتْ عطوة يدخن ولا يهتم للزبائن، تأكدتْ من اختفاء البقع تحت ملابسها، نادتْه بصوتٍ واثق، تغافل عنها متعمدًا، رفعتْ حجرًا كبيرًا من الأرض، ضحكَ من جنونها، أشار لها أن ترميه بعيدًا، تحرك ناحيتها، عطوة هو الرجل الوحيد الذي تحبه نعمة، عطوة هو الشخص الوحيد الذي يعرف ما تفعله مع أبيه، ولا يمانع لأنه لا يحب نعمة، بل يشبع من جسدها فقط، الحكاية المعروفة التقليدية، البنت الفقيرة التي يتسلى بها الغني، وهي هبلة وتصدقه. أما بالنسبة إلى نعمة، البنتُ متأكدةٌ من أنه لا يحبها، وهي تقنع نفسَها بحبِّها له، كي تشعر أنها مثل البنات، لديها حبيبٌ يعذِّبُها بقسوته عليها. المسكينة تراه وسيمًا إلى حدٍّ ما، جسده الضئيل وقامته القصيره، شعره الأسود الطويل، الشارب الخفيف، البشرة القمحية، الأسنان الصفراء بفعل السجائر،

رجلٌ شعبي درجة أولى، في الحياة العادية لن تنظر إليه أنثى حيوان الكوالا، ولكنها حكمة الله ولن نعترض.

غازلَ جمالَها، لم تتفاعل معه، طلبتْ منه الأمانة، سألها في وقاحةٍ فجّة: "هل استمتع أبي؟ هل أخرج من خيره كثيرًا عليكِ؟" لم تجب عن السؤال، طلبتْ منه الأمانة مجددًا، قال لها: "لن تحصلي على شيءٍ قبل أن أعرفَ! هل استمتع؟ الإجابة مقابل الأمانة يا بنت الوسخة!" بإيماءةٍ بسيطة فهمَ، ضحكَ وهو يُخرج من جيبه ورقةً بخمسين جنيهًا: "خذي يا سافلة، لقد أكلت الكشري والفاكهة وشربتُ العصير، ليس خسارةً في حبيب قلبِكِ، بهذا المال هاتي ما تريدين"، تمنّتْ لو تقتله الآن، لو رفعتْ الحجرَ مجددًا ورمتْه عليه، تمنّتْ لو سقط من السماء أهل الجنة فوقه جميعًا.

بحركة إغراءٍ مُحترفة رفعت فستانَها من الخلف لتضع الورقةَ في جيبها، جيبها المحظوظ، لأنه ساكنٌ فوق مؤخرتها. بلع ريقه وحرك قضيبه من تحت الجينز المُستفز، ثم هددها بصوتٍ واثق: "إذا عرفَ أحدٌ بما يحدث بينك وبين أبي، سأقتلكِ يا نعمة! أنا لا يهمني إطلاقًا مدينتنا الفاضلة، أنا أحبُّ الذنوبَ عامةً، وخدمة أبي خاصةً. مع السلامة يا نقمة". المزاح السخيف الذي تكرهه، حين يستبدل حرفًا من اسمها ليغيِّر معناه تمامًا. مشتْ إلى موقف السيارات دون أن تردَّ له تهديدًا أو وعيدًا أو حتى سبة، لم يعجبها الموقف المزدحم الذي يستطيع الواحد من خلاله الذهاب إلى الزقازيق، فرجعتْ وجلستْ على الرصيف المُقابل لمسجد "العسال"، وهو أجدد المساجد المُفتَتحة قريبًا،

وجعـل للشـارع قيمـةً ووقـارًا، لحداثـة طـراز البنـاء، وللراحـة النفسـية التـي قللـتْ مـن دخـان المقاهـي المنتـشرة.

راقبـت المـارة، سـبتهم بصـوتٍ عـالٍ، بعدهـا نظـرتْ إلى السـماء وقالـتْ: "أيـن العـدل يـا صاحـبَ العـدل؟ أيرضيـك مـا يحـدث لي؟ طبعًـا لا يهمـك، أنـت إلـهٌ جالـسٌ فـوق العـرش، يعبـدك الـكل، يسـبِّح لـك الـكل، وأنـا المطـرودة مـن كل شيء. لمـاذا كتبـتَ عـليَّ الشـقاء؟ لـن تجيبنـي عـلى أي حـالٍ، كعادتـك كل يـومٍ".

عامل الفخار

يجلـس في المنتصـف، يمسـح عـلى الخبـز، يعطيـه لتلميـذه، يشـير إليـه أن يقـترب، يقـوم مـن مكانـه فـورًا، يبتسـم ويربـتُ عـلى كتفه، ينهـض ليخـرج معـه مـن غرفـةٍ نورُهـا هـو، إلى حقـلٍ بديـع فـرحٍ بنـوره، أعـواد القمـح وسـنابله ترقـص لوجـوده بالوسـط، نسـمة هـواء خفيفـة تداعـب ممشـاهما، يقـول لـه: "يـا فيليـب، حـين تحـل عليكـم المُصيبـة، أريـدك أن تذكـرني كثـيرًا، أنـت رجـلٌ مؤمـن، نـبراسُ إيمـانٍ في ظلمـة دنياكـم". لا يتكلـم فيليـب، ينظـر إليـه فقـط ليشـبع مـن ملامحـه الدافئـة، وجهـه المُريـح، ابتسـامته الممزوجـة بالحكمـة، جمالـه العظيـم الهـادئ، شـعره الناعـم المنسـدل، نظرتـه التـي تحملـه إلى الراحـة، جلبابـه الطويـل المصنـوع مـن الصـوف، رائحتـه التـي لا تفارقـه.

يحدّثه: "يا فيليب، النار لن تمسّك، أبناء الملكوت لا يعرفون العذاب، حين يحدث ما يحدث، اذكرني، صلِّ لي، أنت غيرهم، الملكوت في بياض قلبك"، ثم يسبقه بخطواتٍ، يلتفت إليه، يشق الحزنُ مساراتِ وجهه، يمدُّ يده، يخلعُ فمه، بعده أنفَه، فأذنيه، يراقب فزعَه، ينزعُ عينيه، ثم يصلبُ نفسَه في الهواء، جسدٌ يتلوى من جراحاتٍ لا يحتملها سواه.

يفتح عينيه، حلمُ كل يومٍ، في الماضي كان يستيقظ مفزوعًا، لكنه منذ فترة أقنعَ نفسه بأن رؤيتَه للمسيح وكلامَه كافٍ. حاولَ كثيرًا أن يغيرِ مسارَ الحلم، خصوصًا مسألة مبادلته الحديث، بلا فائدة، يتكلم ويسمعه، متى يا فيليب يبارك الرب اسانَك؟ يدٌ ناعمة تمسح على شعره، يد الست أم مينا، تسأله في وداعة مريم: "الحلم يا فيليب؟" من ابتسامته تعرف الإجابة، ومن حركتها المفاجئة يعرف الآتي، حين تنهض بجسدها المملوء لحمًا وحبًا، تسند رأسَه إلى صدرها الحنون المكتنز، تقول بعدها: "يسوع يحبك يا فيليب، حظُّك من السماء، إياك والبوح لأحد يا فيليب! أنا بئر سرِّك الوحيدة!"

تساعده على النهوض من السرير، تنظر إلى عضوه المنتصب بفعل طبيعة الصباح وطبيعة صدرها، تضحك في غنجٍ لم يتغير منذ ثلاثين عامًا، تفهم من نظراته مدى شوقه، تتحرك بسرعة ناحية الدولاب، تختار قميصَ نومٍ، تضعه على السرير بجانبه، تخرج وتغيب قليلاً، ترجع بطست الماء وآخر خالٍ، العادة التي أقسمتْ عليها، ما دامت الروح لم ترافق يسوع بعد، لن يغسل وجهه أو يبول بنفسه، تسحب ذكَره ليتبول، تنتظر

رعشة جسده، حتى ينتهي، تغسل وجهه بالصابون، تسند إلى فخذيه لتقوم، تخرج بالطستين، ليبدأ فيليب في ارتداء ملابسه المتهالكة، البنطال الذي نسي لونَه الأصلي، القميص الأحمر المثقوب من المنتصف، ينظر إلى المرآة المثبتة إلى باب الدولاب، يتأمل مظهره الكئيب ثم يخرج إلى الصالة متوسطة المساحة، يجد مينا جالسًا على الأريكة الخشب، يقرأ في الإنجيل، يغلقه حينما يلمحه، يقوم إليه وينحني ليقبّل يمينه، يقول له كل مرة: "يا مينا، نحن نقبّل يد القساوسة ليمنحونا البركة، لماذا تقبّل يدي؟" يضحك وهو يقبّل اليسرى.

"يا فيليب الروح ويا مينا القلب، الفول جاهز".. ثلاثون عامًا وهي تقول له "يا فيليب الروح"، ولمّا شرفهما مينا بالمجيء صار "مينا القلب". جلسوا إلى المنضدة المستديرة التي تجاهِد لحمل طعامهم، المفرش الذهبي العتيق، صحون الفول والطعمية، البطاطس والجبنة والمخللات والسلطة، أم مينا هي أسرع من يحضِّر الطعام!

جلسوا والمسيح رابعهم، يراه أمامه بلا ملامح، يُطمئن دواخله، بأنه يبتسم خلف هذا الوجه الممسوح، وقبل أن يمد يده إلى الرغيف يسقط مينا على الأرض، ينزف من عينيه، يتقيأ دمًا، تصرخ أمُّه، تقول للمسيح: "افعل شيئًا!" لا يتحرك المسيح ولا يتحرك مينا! تضربه في عنفٍ: "هل مات يا فيليب؟" ثم تضحك فجأة، وتقول له، وهي تتعرى لترقص: "نعم يا فيليب! لقد مات! مثلما ماتوا من قتلتهم بنفسك! يا حامل الأكاذيب!"

يقوم فزعًا من النوم، الحلم الطويل المتكرر، في الواقع هما حلمان متداخلان، يعجز عن تفسيرهما، يقتلان راحةَ نومِه على فتراتٍ متقاربة. ينظر إلى ساعة يده، الثانية صباحًا، لا تشاركه القلقَ أم مينا، تقول له وهي نصف نائمة: "البصارة صعبة الهضم لمعدتك، نَم يا فيليب، نَم".

ابن طاهرة

كما جاء المسيح مخلِّصًا للبشرية، وعرفوه فاديًا وقدَّم خلاصًا تامًّا أبديًّا، كذلك فعل محيي ابن طاهرة، نظرًا إلى تطابق الشبه بينه وبين المسيح، ظل يبحث عن وظيفةٍ تُكسبه ما يعينه على المعيشة، ولا تطلب منه مغادرة البيت، فيقابل كائناتِ العالم الخارجي المخيف، حتى عثر على مراده، وعمل مصححًا ومدققًا لغويًّا، أقنع نفسَه بأنه مخلِّص البشرية من الأخطاء اللغوية، هذا الأمر الوحيد الذي تقبّله في مسألة تطابق الملامح، سيصحح أخطاءهم، سيكرس حياته لتخرج كتبٌ إلى النور، كتبٌ صحيحة مُصحَّحَة، فلا يشعر قارئٌ بالضجر من كتابٍ ركيك غير مُدقَّق، ولا يحس كاتبٌ أنه بلا فائدة لضعف لغته وركاكتها وعدم تمكنه، خاصةً أنه تم حظر النشر بصورة عامة في مصر، واقتصر الأمر على مجموعةٍ من الكُتّاب تنشر لهم الحكومة منتوجهم الأدبي.

في ما يتعلق بالنشر حاليًّا، فالحكومة هي من تتكفل بالأمر، مع تخصيص أماكن لبيع الكتب، وضرورة الاحتفاظ بإيصال

الـشراء للتأكـد مـن حصولـك عـلى الكتـب المـراد توزيعهـا، وذلـك مـا تعـاد إذاعتـه في النـشرة اليوميـة، سـواء في التلفـاز أو المذيـاع، بجانـب تذكـير المواطنـين بعقوبـات المخالفـين، السـجن عـلى أي حـالٍ هـو النهايـة الثابتـة، واختـلاف المـدة هـي الحقيقـة المتغـيرة.

لم توافـق الحكومـة عـلى تعيـين محيـي، الحضـور يوميًـا هـو الـشرط الأسـاسي الأول، وشـهادة تخصـص في اللغـة هـو الـشرط الأسـاسي الثـاني. راسـل محيـي دورَ النـشر العربيـة والخارجيـة، لم يُكمـل قـراءة سـيرته الذاتيـة أحدهـم، الاسـم والعنـوان، ثـم المؤهـل التعليمـي، وهـو حـيرة محيـي الأدبيـة، لذلـك كتبـه (مؤهـل متوسـط)، ودائمًـا مـا كانـت الجملـة الأخـيرة، قبـل رفـض طلبـه، حتـى حدثـتْ معجـزة المعجـزات، كـما أطلـق عليهـا محيـي ابـن طاهـرة.

في يـومٍ مـن أيـام الرفـض، غـادر منزلـه، لم يخـبر طاهـرة عـن وجهتـه، خـرجَ ليجـاور خيباتـه في تمشـيةٍ، وجـد عجـوزًا تبـكي عـلى بعـد خطـواتٍ مـن عمارتـه في شـارع رمسـيس بالقـرب مـن مسـجد الفتـح، العجـوز تشـير إلى المسـجد وتـصرخ: "افتحـوا جامـعَ بـاب البحـر، افتحـوا جامـعَ بـاب البحـر". لم يسـاعدها المـارة، يضحكـون عـلى جنونهـا، إلا محيـي ابـن طاهـرة، هـو الوحيـد الـذي اقـترب منهـا، سـكتتْ لمَّـا شـافتْ رجـلاً يشـبه المسـيح، بكـتْ وقالـتْ: "هـل حـان وقتـي؟ أسـتقبض روحـي بنفسِـك؟ مـلاك المـوت مشـغولٌ إلى هـذه الدرجـة؟ هـل أنـا مهمَّشـة ولا تـراني السـماء فيرسـل الله إليَّ المسـيح ليقبـض روحـي؟" بكـتْ بحرقـةٍ، طلبـتْ منـه أن يمهلَهـا وقتًا حتـى تفتـح جامـعَ بـاب البحـر، قـال لهـا إن هـذا المسـجد اسـمه

الفتح، وإنه ليس المسيح ولن يقبض روحَها. صرخَتْ به: "هذا جامع باب البحر، ارجع إلى تاريخك واعرفه، أم أنك مسيحي كالمسيح الذي تشبهه؟" رفضت العجوز التكلمَ معه، والتفَّت إلى الناس تناشدهم فتحَ الجامع.

تركها للتهيؤات، مشى بعيدًا، مشى طويلاً، لا يتحدث إلى أحدٍ ولا إلى ذاتِه، لم يزعجه صوتُ العربات أو آلات التنبيه، لم ينتبه إلى نداءات الباعة أو شتائم السائقين. ما سحبه من دوامات التيه صوت أنثى تستغيث بمن حولها من ذلك الشاب الذي يدَّعي أنها حبيبته، وقف بين المشاهدين، البنتُ تُقسِم للجميع إنها لا تعرفه، والشاب يضحك ويقول: "إذا لم تكن حبيبتي، هذه تهمة خطف صريحة! لماذا قد أفعل ذلك بنفسي!" قالت امرأةٌ في تهكمٍ واضح: "من الواضح أنها تخلع من علاقتكما، الواسع يحمل من الأحباب كثيرًا، اتركها تذهب إلى القوَّاد الذي تريده، أنت شاب محترم". البنتُ تبكي وتستغفر، تقسم وتحوقل، الجمهور بدأ في الصياح، صاحوا كلهم: "اذهبي مع خطيبك يا شرموطة!" لم يدافع أحدٌ عنها، ولمّا أحس الشاب بانتصاره، وانضمام الجمع إلى صفِّه، سحبها من شعرِها، وعند اقترابهما من المرأة، صفعتْ مؤخرة البنت وقالتْ بصوتٍ مسموع: "هذه المؤخرة فعلاً لعاهرة، والله الواسع يحمل من الأحباب كثيرًا، ومؤخرة البنت هذه تُغري الملائكة قبل البشر!"

رفضَ التدخُّلَ هذه المرة، رجموها بإهاناتهم، رموها بحجر سوء الظن، تقاعسوا عن التأكد، اكتفوا بحجة الشاب. أكمل محيي ابن طاهرة مسيرته، مسيرة الخيبة والألم، حتى توقف

أمـام كاتدرائيـة القديـس مرقـس، الشـهيرة بكاتدرائيـة العباسـية، تعجَّـب مـن طـول المسـافة التـي مشـاها، ولم يشـعر، قبـل أن يـرى نـورًا في السـماء فوقهـا، النـور يجـذب الناظريـن، يتقلـص ليشـكِّل جسـدًا، الجسـد تظهـر ملامحـه، الجسـد للمباركـة العـذراء مريـم، تطـل مـن السـماء، بنظرتهـا الحانيـة، وجلبابهـا الأبيـض الفضفـاض، حجـاب رأسِـها الأزرق، تحيـط بهـا هالـةٌ، هالـة سـماوية تُثبـت المعجـزة. نظـرتْ إليـه وقالـتْ: "ولـدي"، سـمعها واهتـز قلبـه، وقـع عـلى ظهـره، لم يجـرؤ عـلى تحريـك عينيـه بعيـدًا، تنظـر إليه، تشـبع منـه، بكـتْ فسـقطَ المطـر، قالتْها ثانيـةً: "ولـدي" واختفت، سـاعده عـلى النهـوض شـاب بسـيط، اكتشـفَ أنـه مـن أمـن الكاتدرائيـة، ركـض معـه إلى الداخـل، بمجـرد ولوجـه إلى المـكان رأى الشمامسـة والقساوسـة والراهبـات وزائـري الكاتدرائيـة، مجَّـدوا كلهـم اسـمَ المسـيح، وباركـوا نعمــه وظهـوره الآن لهـم. وضَّـح محيـي ابـن طاهـرة مـن هـو، اسـمه وأنـه ليـس المسـيح، والشـبه الـذي بينـه وبـين الصـور، ضحـك أسـقُف الكاتدرائيـة، وطلـب مـن الجميـع المغـادرة.

قـال الأُسـقُف: "يدعوننـي نيافـة الحـبر الجليـل الأنبـا بطـرس، الأسـقف العـام في القاهـرة، نحـن نعـرف مـن أنـت، نـراك كل فـترة، الكثـير مـن أحبـاب يسـوع حكـوا لنـا عنـك، نعمـة كبـيرة يـا ولـدي أن تشـبه ابـن الإنسـان، أنـت تذكِّـر النـاس بوجـوده، بمـا فعلـه لهـم، لضعيـف الإيمـان الـذي شـكَّك، تذكُّرهـم بمـن فداهـم ليخلِّصهـم مـن خطاياهـم. يـا ولـدي، أنـت لا تعـرف كـم الراحـة التـي أشـعر بهـا لمجـرد وقـوفي معـك، وهـذا نـادرًا مـا يحـدث، الراحـة لا تعـرف

الأساقفة، نحن نحمل الهم الأكبر لكل الكنائس في المدينة. ماذا أقول لك؟ أعتذر عن حديثٍ لن يفيدك ولا يهمُّك. قُل لي يا محيي ما مهنتك؟"

بعد توضيحٍ لما يمر به محيي ابن طاهرة من مضايقاتٍ وحواراتٍ وتنمُّر، عرضَ الأُسقف على محيي العملَ لديهم في تصحيح كل الكتب الصادرة عن دار نشرٍ تابعة للدعوة التبشيرية، ومُصرَّح بها من قبل الحكومة، تدخل في نطاق النشر الحكومي، وشرحَ له أنها كتبٌ متنوعة، أبحاثٌ وسير ذاتية واجتهادات وروايات وقصص، والمطلوب منه تصحيح الأخطاء والتدقيق، وأي خطأ في المعلومات الواردة إذا كان يملك دليلاً. فليتواصل معهم أولاً، ويستطيع البدء غدًا.

شكره محيي على كرم عرضه، وقبل أن يغادرَ سأله عن النور الذي ظهرَ في السماء. ابتسم الأسقف وقال له: "أي نورٍ يا محيي؟ عامةً هنالك معجزات لا تظهر إلا لصاحبها، فلا تقلق، ما رأيتَه يخصك وحدك، نحن رأينا فقط المطرَ الذي باركنا في الصيف". عاد محيي إلى منزله، ومعجزة المعجزات في باله، ذكَّرته طاهرة بأن اليومَ هو يوم المُسنين، وأنها في طريقها إلى زيارة أحدهم، مع جملتها الشهيرة: "الأكل في الثلاجة، سخِّنه وبالهناء والشفاء على قلبِك".

أيام الدهشة الثانية

محيي ابن طاهرة

طبقًا للتقرير الشهري الذي ترسله الكنيسة، لقد صححتُ لهم ما يفوق الثلاثمئة كتاب، لم أقابل كاتبًا واحدًا، لم أرَ البهجة اللامعة في أعينهم، كل خطأ لغوي اختفى زاد من ثقةِ المؤلف. في الحقيقةِ ما ضرني عدم رؤيتهم، بل ساعدني في سمو رسالتي، الرجل الذي محا أخطاء! يوميًا يهاجمني الهاجس الأشهر: "الخطية كلمةٌ مختلفة تمامًا عن الخطأ"، ومع ذلك تجاهلتُه، فديتُهم بوقتي ونظري ومكوثي في البيت، فديتُهم بمعاناتي المستمرة، فديتُهم باستسلامي التام لتناسخنا.

قبل خضوعي ذاك، ولحماقتي وعدم نضجي، ظننتُ أنني مع حلق شعري مثلاً لن أشبهه. الغريب أنني مع كل خطةٍ في

حربي لقتل الشبه بيني وبين المسيح، تطابق الشبه أكثر! أذكر هذا الوقت الذي صرتُ فيه حليقَ الرأس والذقن، خرجتُ إلى الناس، إلى أماكن لا يعرفني الرجل فيها، حتى لاحظتُ نظراتهم، التعجب ذاته. كم صرختُ بداخلي: "ألا يوجد ولو واحد بالمئة اختلاف عنه!" بعد عشرات المحاولات، والبُكاء في حضن طاهرة، أيقنتُ أن المسيحَ لن يتركني إلا مع نزولي إلى القبر.

ثم تأتي المعاناة الثانية، أين سأُدفَن؟ طاهرة ليست أمي، هذه الطاهرة وجدتني أمام البناية، سكان العمارة كلهم رفضوا الاقتراب مني، كنتُ -وفقًا لما قالته- في حالةٍ مُزرية، فاقد الوعي، وبعدها عرفتُ أنني فاقد الذاكرة. حملَ جسدي البواب وطاهرة ورجلٌ عجوز إلى شقتها بالدور الخامس، ثم غادر البواب وقال العجوز: "فليكن معلومًا عند جميعكم وجميع شعب إسرائيل، أنه باسم يسوع المَسيح الناصري، الذي صلبتموه أنتم، الذي أقامه الله من الأموات، بذاك وقفَ هذا أمامكم صحيحًا"، سأله البواب عما يقول، فابتسم العجوز ورحل.

لمَّا قامت الروح وسحبتْ معها الإدراكَ بما حولي، وفتحتُ عينيَّ، سألتني طاهرة: "من أنت؟" السؤال كان صعبًا، وقتها كان من الممكن أن أخبرَها أين الله، لكن من أنا؟ لم تُمهلني وضربتني بالأصعب: "ما ديانتك؟ ما مدينتك؟ كيف جئت إلينا؟" السؤال الواحد بمثابة مسمارٍ، مسمار معدني طويل، مثل الذي استخدموه في صلب المسيح، صلبتني طاهرة بأسئلتها.

شرحتْ طاهرة الوضعَ لي، رجلٌ غريبٌ، لا نعرفه ولا يعرفنا، يشبه المَسيح، فاقد الذاكرة، يجهل اسمَه وديانتَه ومدينتَه، رجلٌ بحسب ما لدينا، أتى من السماء. رفضني الناس، آوتني عجوزٌ، ولسهولة التواصل معي سمتني "محيي". تغاضتْ عن أي شيءٍ آخر، لم تدفعني لدينٍ بعينه، الناس شافوا ما فعلته، عرفوا قصتي، فعُرِفتُ بينهم بمحيي ابن طاهرة، الذي يخرج أحيانًا، حتى لا ينسى البَشرَ والشوارع.

منذ هبطتُ إلى حياة طاهرة، وهي تتحمل تكاليفَ المعيشة، معاشٌ بسيطٌ مباركٌ بطريقةٍ عجيبة، طوال وجودي معها لم تقل لي يومًا: "نفد المال!" وبالصدفة البحتة اكتشفتْ طاهرة أنني أستطيع القراءة، فوفرت لي كتبًا، لعل كتابًا ينتشلني من جهالتي، كتابٌ يتبعه كتابٌ، كوّنتُ حصيلةً لغويةً ومعرفيةً مرعبة، ومع أي موقفٍ تنمُّرٍ، كنتُ أرجع إلى البيت وأقرأ، القراءة كانتْ ملجئي الوحيد من عالمٍ كئيب يهزأ بك ساكنوه، مع أنه لا علاقةَ لي بالأمر، الله من ورطني، لماذا لم يوجهوا سخريتهم إليه؟

الحياة صارتْ أكثر جمالاً الآن، بقعودِهم على الأرض، بوجودهم في كل مكانٍ، ضعفاء، لا يقدر الواحد منهم على المشي خطوة، أو التفوه بكلمة، بلا ملامح، وأنا أسير بينهم، بملامحي وكمال جسدي، العالم صموتٌ، هدوءٌ عظيم، يُجبر المرءَ على القراءة، أو الاستماع إلى الموسيقى، ربما التأمل في حياته، ومحاولة تذكُّر الماضي، الحياةُ بصحبةِ كتابٍ، بلا ضغوطات، توقفت الحياة بالكامل، لا وظائف، لا سعي نحو رزقٍ أو تحقيق ذات،

لا صراعـات، لا نحـت في صخـرٍ، لا خـوف، لا نصائـح مسـتهلكة، لا نظـرات تعجيزيـة، لا قصـص نجاحـات مبتذلـة، لا تنافُس بـكل أنواعـه، لا شركات ترفـض وترفـد، لا زواج وتناسـل والـذي منـه، لا تلفـاز أو مذيـاع، لا جديـد بالمـرة، فعـلاً لا جديـد نهائيًـا، الذيـن يفعلـون كل مـا سـبق في مصيبـةٍ، وأنـا تتوسـدني راحـةٌ، أتمنـى مـن الله دوامَهـا.

توجهـتُ إلى طاهـرة، الجالسـة في الصالـة، بـلا أي حركـة، يعلـو صدرهـا ويهبـط، أمسـكتُ بيديهـا، فضغطـتْ عـلى يـديَّ وانتفـض جسـدُها، حركـت رأسَـها في اتجاهـاتٍ مختلفـة، بسرعـة وبعشـوائية، تشـعر أنهـا تبحـث عـن شيء، ثـم مالـتْ برأسِـها عـلى صـدري ببـطءٍ، تفهـم منـه أنهـا تحسـب المسـافةَ إليـه لعـدم قدرتهـا عـلى البـصر، شـعرتُ بأنّهـا تبـكي مـن الداخـل، قلـتُ لهـا: "مسـكينة يـا طاهـرة، لا تسـتحقين مصيرهـم نفسَـه".

فيليب

هـل سـنخرج مـن الفـرن؟ ومـن مصيبتنـا؟ ومـن هـذا العـالم المخيـف؟ تحـدَّث إليَّ يـا مينـا يـا ولـدي، حتـى لـو بلغـة الإشـارة، قُل لي كيـف أخفـف عنـك يـا صغـيري، لا أطيـق النظـرَ إليـك وأنـت ضعيـف، أبـوك أضعـف منـك يـا ولـدي، يـا ليـت نظـري ذهـب قبـل أن يذلنـي هكـذا، نحـن الآبـاء يسـندنا وجودكـم، أنتـم عـكاز العُمـرِ يـا مينـا، ليسـوع حكمـة في بقـاء نظـري، لكـنَّ الحـزنَ هـو مـن يقتلنـي كل ثانيـةٍ.

علـو المسـافة بيننـا وبـين فوهـة الفـرن يؤكـد طـول مـدة بقائنـا هنـا، إلى أن يمسـك بأيدينـا مـلاكُ الـرب، ويذهـب بنـا إلى ملكـوت يسـوع، ولأنني يـا مينـا لا أسـمعك ولا تسـمعني، فسـأراقبك ولـن أتـركك مهـما حـدث. مـاذا تفعـل يـا مينـا؟ لمـاذا تـضرب حائـطَ الفـرن؟ هـل تظـن أن شـخصًا سيسـمعنا بالخـارج؟ أنا واثـقٌ بتعميم المصيبـة يـا مينـا، كلنـا يعـاني، تعـالَ في حضنـي يـا ولـدي، لا تخَـف يـا مينـا، أنـا أبـوك، لا تخـف، لا تخـف يـا مينـا، باسـم الصليـب، اهـدأ يـا مينـا، اهـدأ يـا صغـيري، لا تنتفـض، أنـا خائـف مثلـك، بـل وأكـثر منـك، منـذ كـبرتَ وأنـت ذراعـي والشـعور بالأمـان. الموقـف يذكّـرني بيـوم مولـدك، الضعـف والخـوف ذاتهـما، خرجـتَ مـن ظـلامٍ إلى دنيـا تجهلهـا، نهدهـدك ونلاعبـك، فتكـف عـن البـكاء، تذهـب إلى بـز أمـك لترضـع منهـا، تسـمع نبضاتهـا فتتعـرف عـلى هـذا الصـوت الـذي لطالمـا صاحبـك وصاحبتـه، لا تخـف يـا صغـيري، أنـا هنـا، الموقـف واحـد مـع كثـير مـن الاختلافـات، لا بـز أمـك ولا صـوت تسـمعه، لا رائحـة ولا بـصر، غمـوض مفاجـئ تـام، الدهشـة التـي لا دهشـة بعدهـا.

سـأفعل مثلـما فعلـتَ يـا مينـا، سـأضرب حائـطَ الفُرن بـكل قوتي، لعـلَّ معجـزةً تحـلُّ علينـا، وينقذنـا أحدهم، سـأضرب الحائـطَ لأثبت لنفـسي أننـي قـوي يـا مينا، سـأضرب الجـدارَ بجانبـك، فتشـعر بقليلٍ مـن الأمـان بسـبب المحـاولات، هـذه طبيعتنـا يـا ولـدي، نطمـئن حـين نحـاول أو نشـعر بمـن يحـاول لأجلنـا، هـذه نظـرتي في الحيـاة مـن البدايـة، نظريـة (الإنسـان محـاولات)، محاولـة الوصـول والنجاح والـزواج والوجـود والعيـش والفـرح والبقـاء وتحقيـق الـذات، نظرية

عظيمـة أومـن بهـا منـذ.. الحقيقـة يـا مينـا هـذه نظريـة وليـدة اللحظـة، ومـا العيـب في ذلـك؟ نعـم هـي نظريـة سـأومن بهـا مـن الآن، حتـى إن لم تسـمعني، لـن أكـذب عليـك، حـين ينتهـي كل هـذا البـؤس، سـأجعلها إنجيـل حياتـك، الإنسـان محـاولات يـا ولـدي، وأنـا محاولـة سـتنجح لأن يسـوعَ يرعاهـا.

نعمة

وقتـما رمـاني أبي إلى الشـارع، ليـلاً بعدمـا نـام الجميـع، وجـدتُ قدّامـي رجـلاً، لا أعرفـه ولا يعرفنـي، خلـعَ ملابسَـه وركـض، أسرتنـي الفكـرة، مشـيتُ عاريـةً لأننـي كنـتُ وحـدي، نـام الشـارع والطريـق وأعـين النـاس. وأنـا ابنـة السـابعة، خلعـتُ عنـي قـماشَ السـتر، جريـتُ ابتهاجًـا، تقافـزتُ كالفراشـات، إلا أننـي وجـدتُ هـذا الرجـل يقـترب منـي، ويطلـب أن نلعـبَ معًـا، وركـض، فجريـتُ خلفـه، حتـى وصلنـا إلى مصنـعٍ مهجـور، دخلـتُ معـه وأنـا خائفـة، وخرجـتُ منـه وفتحـة شرجـي يسـيل منهـا الـدم. قـال لي الرجـل وقتهـا: "أنـتِ جميلـة وزوجتـي، لا بـد أن نفعـل مثـل الكبـار، أنـتِ كبـيرة وجميلـة، ويجـب أن تفعـلي مثلهـم!" فعلهـا الوسـخ وهـرب، ولم أرَ وجهـه ثانيـةً. والحقيقـة لم يهـرب لأنـه وضـع فرجـه الكبـير في فتحـةٍ تُخـرج برازهـا بصعوبـة، بـل ركـض لمّـا وجـد الـدم الخـارج منـي لونـه أبيـض، ملمسـه لـزج، فخـاف وركـض، لم يخـف مـن اغتصـاب طفلـة، ولكـن خـاف مـن دمهـا الغريـب.

وهـا أنـا، أركـض وأتقافـز مجـددًا، في هـذه اللحظـة، وهـم كلهـم حـولي، في كل مـكانٍ، مهـما كان وضعهـم. مـر وقـت وأنـا أعيـش حيـاتي عاريـةً، لم يخطـر عـلى بـالي، ولـو في الحلـم حتـى، أننـي يومًا مـا سـأواجه هـذا العـالم، مثلـما جئـتُ إليـه، وأننـي الوحيـدة المعفـاة مـن العقـاب، التـي يعتـذر لهـا خالقـه عـمًّا ابتلاهـا بـه.

الدهشـة الأولى بالنسـبة إليَّ، منـذ حـدث مـا حـدث، لمَّـا دخلـتُ محـل ملابـسٍ، ولم تطـردني البائعـة، أو صاحبـة المحـل، جوَّلـتُ بالدّاخـل، في سـلامٍ تـام، في عـريٍ كامـلٍ، بيمينـي علبـة كـشري، بيسـاري زجاجـة ميـاه غازيـة، كلمـة "جيـوب" نسـيتُها تمامًـا، مـا فائـدة الجيـب؟ لمـاذا قـد أحمـل شـيئًا لوقـتٍ آخـر؟ فكـرة الاحتيـاج إليـه لاحقًـا تلاشـتْ، مـا أريـده سـأحصل عليـه، في أي وقـتٍ ومـن أي مـكان، الحريـة العظيمـة التـي عاشـها آدم وحـواء، عـلى الرغـم مـن عـدم معرفتـي لقصتهـما كاملـة، إلا أننـي سـمعتُ هـذا المُعلّـم يـشرح لتلاميـذ صاحـب بيـتٍ، عندمـا كان يضاجعنـي أبـوه - صاحـب البيـت- في المطبـخ، وابنـه بالخـارج مـع زملائـه، يسـتمعون إلى درسٍ يتحـدث عـن حيـاة آدم وحـواء، عـن الحريـة العظيمـة، وكيـف سـترا عورتهـما، وهـو أمـر عجيـب، أو متناقـض مـع فكـرة الحريـة، لمـاذا أسـتر عـورتي وأنـا حـرة؟ بحسـب فهمـي لقصـة آدم وحـواء لم يكـن عـلى الأرض سـواهما!

أمـا الدهشـة المسـتمرة، هـي تلـك الروائـح التـي تهاجـم أنفـي مـن حـينٍ إلى آخـر، منـذ سـقطتْ ملامـح النـاس، وأجهـل مصدرهـا، رائحـةُ خبـزٍ، رائحـةُ وقـودٍ، ورائحـة ذهـب! الدهشـة ليسـت في وجودهـم -مـع أنـه أمـرٌ يسـتحق التدبـر- عامـةً، الدهشـة في مـا

يحل بجسدي، فمثلاً عندما تمرُّ رائحةُ الخُبز، في حركةٍ لا إرادية وأنا واقفة، يتسمر جسدي، أرفع ذراعيّ، أحرك قدمي اليمنى، أضعها أمام اليسرى، ثم أضمها إليها، وأنظر إلى الأرض مجبرةً، وضعيةٌ غريبة تستمر لدقيقةٍ، ثم أعود إلى حالتي الطبيعية.

الأغرب هو رائحة الوقود، في اللحظة التي تضرب فيها أنفي أشعر بحكّاتٍ من بقع جسدي، ويتطور الأمر إلى خروج شعرٍ قصيرٍ جدًا، يميل إلى اتجاهٍ مُحدّد. شككتُ كثيرًا بضرورة الاستجابة، والمشي إلى ما يشير، أو على أقل تقدير الاقتراب من الوجهة، الأمران يتكرران على نحو متفاوت، وثالثهما هو الحلم المرتبط بهما، الحقيقة لست متأكدة مما إذا كان مرتبطًا بهما، ذلك الحلم الغامض الذي لا تفسير له.

أرى في المنام بقعًا كثيرة خلفي، العدد يصعب حصره، البقع تتحرك في خنوعٍ، إذا مشيتُ يمينًا جاءتْ، إذا مشيتُ يسارًا فعلتْ، بُقع بأقدام إنسان، يفزعني صوتُ الخطوات، لا أعرف كيف أقودها، والنهاية في الحلم واحدة، بعد مسيرةٍ، نقف أمام رجلين، أحدهما يمسك شيئًا ضخمًا، أعتقد أنه صليبٌ، والآخر ينظر إلينا في رهبةٍ، حامل الصليب يقول له: "جاء الضعيف إليك، فهل ترفضه؟" وينتهي بركض البقع فوقي، فأقوم من الألم.

أما رائحة الذهب، فلا تؤذيني، ولكنها في الفترة الأخيرة تتزايد، وصارت الأوضح بين الثلاث روائح، أوقاتٌ لا تلتقط

أنفـي سـواها، الموضـوع غريـب ويحتـاج إلى قـرارٍ يـا نعمـة يـا صاحبـة القـرار!

عامـةٌ، أنـا قبلـتُ اعتـذارك يـا رب عـمًّا حـدثَ لي، وأطلـب منـك دوامَ الحـال، الوضـع ممتـاز، لدرجـة أن الملـلَ لم يوسـوس إليَّ نهائيًّـا.

والآن يـا نعمـة، يـا مالكـة العـالم، فلنذهـب إلى محـل الكـشري، لنـضرب صاحـبَ المحـل، ونغتصـب ابنَـه، الـذي يخـاف في البدايـة ثـم يستسـلم. مـا أعظـم حيـاتي! أنـا مـن يحـدد كلُّ شيءٍ وفقًـا لرغبـاتي! وحياتـك يـا رب أنـا قبلـتُ اعتـذارك!

عبد القوي

لمـاذا لا يتأثـر جسـدي؟ أسـأظل عائمًـا في النهـر؟ هـل مـنَّ الله عـليَّ بجسـدٍ، يتحمَّـل المـاءَ كل هـذه المـدة؟ أيـن سـأقف؟ متـى سـأصل؟ كيـف لم أغـرق؟ لِـمَ أشـعر بأننـي أسـبح عكـس تيـار النهـر؟ مـا السـبب وراء فشـل كل محـاولاتي للسـباحة خـارج النهـر؟ أتسـحبني قـوةٌ مـا؟ أيّـان اللقـاء مـع ملـك المـوت؟ تقتلنـي الأسـئلة، أكثر مـن رحلتـي المجهولـة في النهـر، لمـاذا لا أمـوت؟ كيـف تتمسـك روحـي بالحيـاة؟ أي حيـاةٍ تتمسـك بهـا؟ حتـى الجنـون يرفـض أن يمسَّـني، الزمـان مجهـول، الفصـل مجهـول، المـكان مجهـول، عـدد الأيـام التـي مـرتْ لا أعرفـه، وهـل هـي أيـام أم شـهور أم أعـوام؟

أنـدم في كل لحظـةٍ عـلى عمـري الـذي كنـتُ تافهًـا فيـه، كنـتُ شـخصًا عاديًّـا، لا تشـغله الأمـور، لا يسـأل عـن شيء، لا يرهـق

دماغـه بالتفكـير، ومـع ذلـك يعـرف كل شيءٍ بطريقـة غرائبيـة، وكانـتْ أمـي لا تصدقنـي حـين أقـول لهـا: "يـا أمـي! والله العظيـم أنـا أعـرف هـذه المعلومـة! ولا تسـأليني كيـف!" وكنـتُ أقـول لهـا: "افتحـي أي كتـابٍ، مهـما كان، وأقسـم لـكِ سـأعرف إجابة سـؤالك!"

أنـدم عـلى أنني كنـتُ شـخصًا مهمتـه مواصلـة الحيـاة، ليتـم دورَه، ثـم يمـوت ولا يتذكـره أحـدٌ. فلسـفةُ فـردٍ يفهـم اللعبـة الموضوعـة مـن صانـعِ كل الألعـاب، أنـار بصـيرتي عامـلٌ في ورشـتنا، سـمعتُ منـه الكثـير حـين كنـتُ صغـيرًا، فصلـه أبي لأنـه كان فاشـلاً بحسـب وصفـه، لا يملـك هدفًـا، لا ينظـر إلى الأمـام، يجهـل بواطـن الأمـور والأمـورَ نفسـها، لا يشـغل بالـه نهائيًـا، يسـتيقظ، يـأكل، يعمـل، يـأكل، ينـام، حتـى لمَّـا تـزوج، تغـيرتْ دورة حياتـه تغيـيرًا طفيفًـا، صـار يسـتيقظ، يـأكل، يعمـل، يـأكل، يعـاشر، ينـام!

سـحرني هـذا الرجـل! أذكـر يـومَ بـكى أبي وقتـما سـمعني أحـكي لأمـي عـن عـم آدم، وكـم تمنيـتُ أن يكـون أبي مثلـه، كـم تمنيـتُ أن يكـرهَ أبي تحقيـقَ الـذات، والسـعي خلـف الـرزق، والنجـاحَ لترفـع رأسـك بـين النـاس، وكل هـذه الشـعارات الخائبـة إلى مـا لا نهايـة. عـم آدم كان أسـطورةً بيننـا، أسـطورة تسـتحق تمثـالاً، وأنـا واثـق بأنـه كان ليرفـض مثـل هـذا التكريـم، سـيقول لنـا -وهـو يتابـع بنتًـا حلـوةً تمـرُّ- بهـدوء: "هاتـوا ثمـنَ التمثـال، أدخـل بـه السـينما وأشـتري مـاءَ الأنـس وأكلـةً تُشـبع!" وإذا مـا مازحـه أحـد بـشراء قـرصٍ ليسـاعده عـلى المعـاشرة، سـيجيبه: "اسـأل أمـك إذا كنـتُ أحتـاج إلى قـرصٍ وهـي سـتقول لـك!" يـا ليتنـي مـا جعلتُـك مثـلي الأعـلى يـا عـم آدم!

لم يكـن العـم آدم، والمعرفـة الشـاملة، ومثاليـة أبي الزائـدة عـلى الحـد، أسـباب همـي وحـزني، كان هنـاك الحلـم الغريـب الـذي أراه عـلى فـتراتٍ متقاربـة، أراني وأنـا أقتـل طفـلاً، يبـدأ الحلـم هكـذا فجـأة، أركـض تجـاه طفـلٍ، ينظـر إليّ في خـوفٍ، أُخِـرجُ سـكينًا، أذبحـه، ثـم يظهـر عجـوزٌ، لم أرَه مـن قبـل، يـصرخ ويسـألني عـن فعلتـي، فـلا أجيبـه ونكمـل المـشي في طريـقٍ لا أول لـه ولا آخـر.

السـؤال الـذي يفترسـني، مـن اليـوم الأول لمصيبتـي، أو مصيبتنـا إذا حلَّـتْ بالنـاس مثـلي، هـل مـا يحـدث لنـا هـو نتيجـة معرفتنـا للغيـب؟ أم هـذا عقـابٌ لمدينتنـا الفاضلـة التـي تغـيرت فجـأة بسـبب الكتـب؟ أنـا واثـق بـأن هـذا هـو اليـوم المقصـود، اليـوم الـذي تحدثـوا عنـه جميعًـا، ولم يفهـم فـردٌ واحـدٌ مـا هـو!

الدهشة الأولى

مامل الذوكو

ربما الحكاية تستحق توضيحًا مثاليًا، والمثالية في إتمام الأشياء -خاصةً بين مجتمع الساردين- تستلزم لمسات أنثوية، لمسات توضح الحكاية، فلا يتعجب السامع، أو يسقط عنه الانتباه للأحداث، إذا بدأنا بالدهشة الثانية، وهي تساقط الملامح، وأخّرنا الدهشة الأولى، مع الاحتفاظ بالاسم ذاته، ما ،ام السارد عاشقٌ -وفي حكايتنا هي عاشقة- للتمايز، فيحق لها ،،لويع نص الحكاية، وتفصيل سير الأحداث كما تهوى، فنعرف م..ا هذه اللحظة أن الدهشة الثانية هي أحداثٌ وقعتْ، بعد أ، ،اث الدهشة الأولى، ولشرح التفاصيل أكثر نرى البدايةَ مع

محمد عبد القوي، يوم ذهب ليخطب منة، التي تلبس عباءةً ضيقة، ويعاني صدرها ليُعلن ظهوره.

"هنا يا أسطى، شكرًا، والعقبى لأولادك، الأجرة يا طيب"، نزلَ من سيارة الأجرة، هو وعُلبَةُ الحلويات الشرقية، بعدما حدثه السائق عن صعوبات الحياة، عن ابنِه المعاق، وزوجتِه التي يشك في سلوكها، صاحبِ السيارةِ الظالم، الجنيه العاجز أمام حاجتهم، ابنته التي يشك في سلوكها استنادًا إلى مبدأ القُلَّة التي تَقلِبُها، عن أخيه الغشاش، وأختِه الجالسة على حِجر مديرِها طمعًا في ترقيةٍ أو زواجٍ سري، أمه التي لا يشك في سلوكِها، عن أبيه القعيد، وجده السعيد المتزوج بأربع، زواجه الثاني الجميل الذي لا تعلم زوجته الأولى عنه شيئًا، التي يشك في سلوكها. أعطاه الأجرة المطلوبة، لم يقع في فخ الحيلة القديمة المتوارثة، حكايات سائقي الأجرة من زمنٍ فات، حكايات عن مدى البؤس والشقاء لتدفع لهم أكثر.

حمدَ عبد القوي اللهَ على خروجه من مستنقع الدناسة والدياثة. وقفَ أمام واجهة محل، زجاجُها نظيفٌ يعكس صورته، تأكدَ من وجاهته، البدلة السوداء، رابطة العنق الحمراء الرفيعة، وَصلَ الرجلُ الأكثر أناقةً إلى بولاق، لا مفر من إكمال نصف الدين، منة بنتٌ مهذبة، تستحق كل خيرٍ، ومحمد عبد القوي -والحقُّ يَشهد- كل الخير!

لأعوامٍ وهو يرى منة نقيضَه التام، هي الطاقة وهو الكسل، هي النعمة وهو النقمة، وتعجَّب من حماسها منذ أول يوم

لهـا بالمحـل، بهجـة البدايـات، الحـماس غـير المـبرر والمفهـوم، وفي النهايـة ومـع الغلطـة الأولى سـيفصلونها!

الشــهادة لله منــة كســاعةٍ قديمــة، لا تخطــئ، صنعَهــا خواجــةٌ سـويسري، في جلســةِ أنــسٍ، مــع كأسِ الخمــر، وأغنيــة ســويسرية قديمـة، فلنقـل أغنيـة لأم كلثـوم سـويسرا، العدسـة المُكـبرة، الـتروس، العقـارب، الجسـم المعـدني المصنـوع بمـزاجٍ، أي نعـم الجسـم المعدني غـير متكافـئ، ولكـن بـلا ضررٍ، في النهايــة هــي أنثــى، والرجــال يبحثـون عـن أي ثقـبٍ، يحتـوي سـن مثقابِهـم!

هـذا الوصـف الخـاص بالسـاعة وأم كلثـوم، الـذي يعيـده عبـد القـوي في كل مـرةٍ يلمـح منـة، كان قـد اسـتعاره مـن عـم آدم، لما حـكى لـه عـن بنـتٍ، تظهـر وتختفـي في المنطقـة، ولا يعلـم عنهـا شـيئًا، يومهـا لم يصـدق عبـد القـوي، كيـف خـرج مـن عـم آدم، الرجـل الـكاره للتفكـير، والمحـب لـلا شيء، مثـل هـذه المشـاعر؟ وتفاجـأ أكـثر عندمـا قـال لـه: "يـا عبـده، بعدمـا فصلنـي أبـوك، فتحـتُ محـل العَجَـلِ هـذا، مهماتـه سـهلة جـدًا، بالـكاد قـد أشـعر بالتعـب، ولكـن تلـك البنـت -الله يحفظنـا مـن رد فعـل زوجتـي إذا عرفـتْ- تسـتحق التعـبَ والتفكـيرَ والمجهـودَ!"

وفي يـومٍ مـن الأيـام، عـرفَ عبـد القـوي عنـوان بيـت منـة، في دقيقـةٍ فقـط، دون أي كلمـةٍ زيـادة، مـع ابتسـامة خفيفـة، وهـا هو الآن في شـارع ناهيـة ببـولاق الدكـرور، أمـام العـمارة التـي ترتكـز على حلـواني العروسـين، محـل حلويـاتٍ رخيـص، قطعـة الجاتـوه بخمســة جنيهــات فقــط، تقريبًــا مصنوعــة مــن لــبن الــكلاب،

الواجهة باللون الرمادي، الاسم مكتوبٌ بخط أحمر غليظ، أطراف الحروف بها أسلاك كهربائية، يتراقص الضوء بداخلها، يومض ويختفي في سرعةٍ مستفزة، الناس يتهافتون على حلواه، سمعَ منة يومًا تقول لزميلاتها بالمحل في وقت راحتهن: "تقدَّم لخطبتي عاملٌ، أعتقد شيف بسبوسة، من حلواني العروسين الموجود أسفل العمارة، رفضتُه طبعًا، رخيص ولا يعجبني"، لم يشغل عبد القوي باله وقتها، بمن "الرخيص" الذي كانتْ تقصده، العامل أم المحل؟

صعدَ درجَ البيت القديم، عدد السلالم بين كل طابقٍ كعددها في عمارةٍ كاملة! الطابق الثالث، الشقة اليسرى، طرقَ الباب. صوتُ أقدامٍ تركض بالداخل، كلماتٌ لا تكوِّن جملةً، ولكن المقصودَ مفهوم، مثل: "لقد أتى، بسرعة، لا تخرج، استر نفسَك يا زفت، هل ستقابل الرجل بالبوكسر يا بن الوسخة؟" عاد الهدوء في لحظاتٍ إلى أهل البيت، خطواتٌ تمشي في رصانة، فُتِحَ الباب، استقبله الأب بحفاوة مبالغ فيها، دخلَ الشقة، العائلة كلها في انتظاره، عشرات الأيادي توجهه: "من هنا تفضل، تفضل".

الرجل يجلس في أدبٍ، بجانبه زوجته، تبتسم والقلق بالمثل، اختفى كل المُستقبلين، الصمتُ يشاركهم الجلسة، لا يُزعج عبدَ القوي الجوُّ العام، لم يزعجه إطلاقًا طقمُ الصالون المُذهب المعروف، لون قماشه أحمر غامق، والحائط بنفسجي، والسجادة زرقاء! تشكيلة ألوان مُقرفة، ولكنه لم يهتم، اقتحم المناخَ الصامت، دقاتُ كعبٍ تتهادى، طرقتِ البابَ، جاءتْ منة

القلـب، في خجـلٍ تقـدم الشربـات، أو يقدمهـا الشربـاتُ إليهـم، الفسـتان الأخـضر الفاتـح، المنفـوخ مـن الوسـط إلى الأسـفل، شـالٌ أخـضر شـفاف مـن الشـيفون، شـعرُها يرقـص فـوق كتفيهـا، كحـل وأحمـر شـفاه وبـودرة حُمـرة وغـيره، وقـد أقسـمتْ لـه منـة، في يـومِ بعـد الخطوبـة، أنهـا لم تضـع الكثـيرَ مـن زينـة التجميـل!

"عمـي، يسـعدني ويشرفنـي، أن أطلـبَ يـد سـت الحُسـنِ والجـمالِ، منـة". الـرد لم يـأت مـن أبيهـا، الـرد جـاء مـن السـماء.. حرفيًّـا!

سـمع الجميـع صـوتَ ارتطـامٍ متواصـل، لم يفهـم أحدُهـم مـا يحـدث، تحـرك عبـد القـوي ناحيـة النافـذة، وصـل إليـه صراخُ النـاس بالشـارع، وقبـل تفسـير الموقـف، ضرب رأسـه كتـابٌ! نظـر إلى أعـلى لعلـه يجـد إجابـةً فوجـد إجابـاتٍ!

السـماء تمطـر كتبًـا، حـاول الإمسـاك بكتـابٍ وفشـل، تجاهـل نـداءات أبيهـا تمامًـا، نـزل إلى الشـارع، كل الأسـئلة التـي في عقلـه تدفعـه، خـرج مـن بـاب البنايـة، ليُسـقطه كتـابٌ ضخـمٌ أرضًـا، نظـرات الخـوف عـلى وجـوه النـاس، وقـف رجـلٌ أمامـه وقـال: "إنها القيامـة يـا نـاس! هـذه كُتبُنـا! انظـروا! أعـمالي كلهـا مُدونـة! القيامـة يـا نـاس! والله العظيـم القيامـة!"

قـام عبـد القـوي مـن مكانـه، وبعـدم اسـتيعاب رفـع كتابَـه، يجهـل سـببَ ثقلِـه، هـل هـي ذنوبـه أم همومـه؟ وكيـف يكـون كتابـه ثقيـلاً هكـذا، وحياتـه خاليـة مـن أيِّ حكايـاتٍ؟ أيامـه عاديـة ورتيبـة، يمكـن حصرهـا في صفحـاتٍ، مـع توفـير وقـت المُـدون،

بكتابة هذه الجملة: "اليوم نفسه، الاختلاف فقط في كذا أو كذا!" تأمل المشهدَ حوله، ليجد الناس راكعين، لا صوت أكثر وضوحًا سوى البكاء، لم يركع عبد القوي ولم يبكِ، ومشى إلى أقرب محطةٍ للحافلات.

عامل الفخار

كل شهرٍ يسافر مينا بن فيليب إلى القاهرة، إلى الباشا صاحب الأفران بقريتهم، قرية النزلة مركز أبشواي، محافظة الفيوم، ليحصل على راتبهما. يتراوح عدد الأفران بين خمسة عشر وعشرين، يملك الباشا بمفرده النصف أو أكثر، لا يُرسلُ إطلاقًا المالَ بالبريد، أو في حسابٍ بنكي، مذ بدأ معه فيليب من ثلاثين عامًا وهو يطلب حضورَ العمال بأنفسهم، لن يحصل أحدهم على راتب زميله مهما كانت الظروف، والده توفي، زوجته حامل، ابنه خُطِفَ، ابنته تتزوج، كل ذلك آخر همه، المال لمن أتى. كان فيليب الاستثناءَ الوحيد، ذلك لأنه اختار اسم الباشا لابنه، فَرِحَ حينها، ووعده لما يكبر مينا ويعمل لديه، يمكنه المجيء بمفرده، وقد كان.

حجز مينا تذكرتين، درجة ثانية مكيّفة، من الفيوم إلى رمسيس بالقاهرة، كراسي القطار زرقاء، الطلاء الداخلي رمادي، قطار كئيب، لا يحمس ركابه على الابتهاج، أو حتى على الفرحة بالسفر، جلس فيليب بجانب النافذة، ضحك مينا: "المنظر الذي تحبه يا أبا مينا، خذ سيجارةً ولن أخبر أمي، سرك في بئر

يـا فيليـب، تعـالَ نشربهـا في المـكان المخصـص، مـع كـوب شـاي يـرد الـروح، أشـعر أن الباشـا يريـدُك في أمـرٍ سـيبهجنا كلنـا". فهـم مـن صمتـه، الـذي يشـبه الرهبـان في خلواتهـم، ونظراتـه الحائـرة بـين الزجـاج وصورتـه المنعكسـة عليـه، والشـجر والطريـق بالخـارج، أنـه ليـس مطمئنًـا، وكيـف يهجـره القلـق والباشـا أرسـل في طلبـه؟ مـاذا يريـد مينـا جميـل مـن فيليـب وفخـاره؟

بعـد رجوعهـما إلى مقعديهـما، لمَّـا دخنـا سـيجارتين مـع كـوبي شـاي، نـام مينـا وتركـه مـع الطريـق، رأى فيليـب المسـيحَ يمـشي في الممـر، يُخـرجُ مـن سـلةٍ خبـزًا ومـاء، ينـاول كل راكـبٍ بابتسـامة حنـون، وإذا رأى طفـلاً حملـه وقبَّلـه، وقـف أمـام مينـا، مسـح عـلى رأسـه، مـد يمينـه ليسـاعد فيليـب عـلى القيـام، ثـم خرجـا مـن القطـار، سـارا في الهـواء، في منتصـف الصحـراء، يـضرب وجهـه هـواءٌ لطيـف، وصـلا بعدهـا بفـترةٍ إلى بحـيرةٍ كبـيرة، مشـيا عليهـا معًـا، كلـما نظـرَ فيليـب إليـه ابتسـم، قـال بصـوتٍ رخيـم: "يـا فيليـب، هـل سـتكرهني يومًـا؟" نفـى سـؤالَه بهـزة رأسٍ، أعـاد سـؤاله، كـررَ إجابتـه، سـأله: "متـي يـا فيليـب سـتتحدث إليَّ؟ هـل تكرهنـي؟"

مـن هـول الكلمـة، نطـق فيليـب بصـوتٍ مبحـوح: "كيـف أكرهُـك يـا يسـوع، وأنـت منقـذي ومـأواي وحيـاتي وقلبـي وحبـي، البركـة منـك ولـك، يـا يسـوع المجيـد، يـا مـن قلـتَ تعالـوا إليَّ أيهـا المتعبـين وثقيـلي الأحـمال وأنـا أريحكـم، هـا أنـا أمـشي معـك فـوق المـاء، لا أخـاف، لأن إيمـاني عظيـم بـك، يـا شـاطئ الإيمـان، خـذ بقلبـي إلى ملكـوت رحمتـك، أنـا سـاكت بسـبب عجـزي وضعفـي في حضـورك، يـا يسـوع الـذي حمـل الصليـب ومـشى بـه إلى قـدره،

احمـل عنـي همومـي وصليبـي وارحمنـي، ارحمنـي يـا يسـوع مـن رؤيـاي المتكـررة، مـن وقـوع الملامـح عـن البـشر، الحلـم محـزن ومخيـف، أكملـه فقـط لأنـك بـه".

ربـت المسـيح عـلى كتفـه: "ولـدي فيليـب، لا تكرهنـي، افهـم مشـيئتي، سـينقلب القطـار، بمجـرد أن تفيـقَ مـن غفوتـك، سـتدخل في أخـرى، هـذا أفضـل لـك يـا فيليـب، محبتـي الخالصـة يـا بنـي البـار، وطلبـي الأخـير لا تسـمعه لأننـي لـن أسـامحه يـا فيليـب!" اختفـى، تركـه بوسـط المـاء، تعجـز قدمـاه عن الحركـة، تهتـز البحيرة كاهتـزاز بيـتٍ قديـم مـر قطـار بجانبـه، يسـمع صفـيرًا عاليًـا، صراخَ أطفـال، ولولـةَ نسـاءٍ، البحـيرة تنفجـر أمامـه، الميـاه تصعـد إلى السـماء، يقـف في الهـواء، عـلى أرضٍ مبتلـة رطبـة، ومـاء البحـيرة بكاملهـا فوقـه، تبتعـد بسرعـة، صـوتُ مينـا يناديـه، يجهـل مكانَـه، جسـده يهتـز بعنـفٍ، صـوتٌ مرعـبٌ في السـماء يقـول: "المشـيئة يـا فيليـب"، الأرض تجـف مـن تحتـه، تتشـقق، تخـرج الثعابـين والعقـارب مـن شـقوقِها، يلمـح عملاقًـا بـلا هويـة أو معـالم، يـضرب بمطرقـةٍ حديديـة، بعشـوائية فجـة، لا يحـدد هدفَـه، كأنـه يلهـو، يقـترب منـه في سرعـةٍ مُربكـة، صوبهـا نحـوه مـن بعيـد، كل عظمـةٍ في جسـدِه تؤلمـه، كل مسـامِ الجلـد تنـزف، كل ثانيـةٍ تمـر، وهـو طائـر في الهـواء، مـن شـدة وقـوة الضربـة، يبـكي وجعًـا، تهشـم جسـده تمامًـا، غـابَ الشـوف، ضَعـفَ السـمع، غـاب عـن الوعـي.

صـوتُ مينـا يجاهـد ليصـل إليـه، في بحـةٍ تصـف ضعفًـا: "هـل تسـمعني يـا أبـا مينـا؟ قُـم وحيـاة حبيبـك يسـوع، لا نفهـم مـاذا يجـري، كتـبٌ كثـيرة تضربنـا مـن السـماء، قُـم يا فيليـب! قُـم وحياة

حبيبـك يسـوع!" شـعر فيليـب في رؤيـاه بأحدهـم يهـز جسـده، همـس في أذنـه بـشيءٍ، لم يسـمعه مـن المـرة الأولى، أعـاد كلامَـه: "لمـاذا تـراه طـوال هـذه الفـترة في ملامحـي؟ أنـا لسـتُ يسـوعكم يـا فيليـب، لمـاذا تريـد أن تـراه مثلهـم؟ أنـا يهـوذا يـا فيليـب! إن كنـتَ لا تسـمعني أعيدهـا عليـك.. أنـا يهـوذا الإسـخريوطي!" قـام يهـوذا ليراقـص بنتًـا صغـيرة، يضحـك وحبـلٌ ملفـوف حـول رقبتـه، يسـأله: "قُـل لي يـا فيليـب، هـل هـذه مريـم ابنتـك؟ أم واحـدة أخـرى مـن الذيـن قتلتهـن يـا فيليـب؟" لم يقـوَ عـلى الـرد، فقـد الوعـي مجـددًا، وكل مـا يسـمعه في أذنـه: "لمـاذا قتلتنـا؟ مـا ذنبنـا في ذلـك؟ هـو مـن فعلهـا وليـس نحـن!"

ابلة الشوارع

لمـا كانـت البنـتُ جالسـةً، داخـل محـل الكـشري، في ترقـبٍ وريبـةٍ، بيمينهـا السـكين، التـي تضعهـا دومًـا في الكيـس الأزرق البلاسـتيكي، وبيسـارِها حجـرٌ صغـير، تُراقـب النـاس المهرولـين خوفًـا من الكتـب التـي تسـقط مـن السـماء، البنـتُ لا تقـرأ، ولا تعـرف حـرفَ الألِـف مـن لـوح الخشـب، لذلـك لم تهتـم، تضـع نصـلَ السـكين فـوق بقعـةٍ، تقنع نفسـها بفلسـفةٍ خاصـة، أنهـا إذا حددتْ أطرافَ بقعـةٍ، وأزالتهـا عـن جلدِهـا، ربمـا لـن تنمـو ثانيـةً، ومـع الوقـت قـد يلتئـم الجـرح، وربمـا لا، ومـع ذلـك تـرى بعـين حكيـم على السـنين بـين العلـم والحكمـة، أن جـرحَ إنسـانٍ مـن صُنعِـه، يتقبلُه أخـوه الإنسـان، أمـا الإنسـان المخلـوق بعيـبٍ، سـينظر

إليـه الشـخص الصحيـح بعـين التفضيـل أولاً، ثـم عـين الشـفقة، أمـا الأولى فهـي نظـرة بسـبب الخالـق الـذي أوجـده في أحسـن صـورة، والنظـرة الثانيـة -وفقًـا لفلسـفة بنـت الشـوارع- بنسـبة كبـيرة لـن تحـدث.

كل النائحـات الباكيـات الشـاكيات الـلاتي لمحتهـن نعمـة في مصيبتهـن، سـبَّتهن في رضـا تـام، وكل الرجـال الراكضـين الخائفـين السـاجدين، الذيـن لمحتهـم نعمـة في مصيبتهـم، سـبَّتهم ولعنتهـم وبصقـتْ عليهـم في رضـا تـام وسـلامٍ نفـسي، ولم تسـتثنِ أحـدًا، حتـى الأطفـال طالهـم سـبابها ولعناتهـا.

وعـلى عكـس فطـرة الكـون، تكـره نعمـة الأطفـالَ، تراهـم السـببَ الرئيـس وراء كل المصائـب، فهـم الدافـع خلـف الجنـس، الهـدف الأسـاسي مـن أي علاقـةٍ شرعيـة، الخـوف الـذي يمنع النشـوة مـن الوصـول إلى الكـمال، العـار الـذي يصاحـب الأهـالي إذا مـا كان الطفـل فاشـلاً أو معاقًـا أو مصابًـا بمـرضٍ، وهكـذا، لم تبتسـم يومًـا لطفـلٍ، لم تلاعـب أو تلاطـف قـط طفلـةً. سـاعدها أحدهـم عـلى الهـرب، مـن محافظـة الإسـكندرية، بعدمـا عـرف أهـالي المنطقـة التـي كانـت تسـكنها مؤقتًـا حينهـا أنهـا تضاجـع أطفـالاً دون العـاشرة، أو أكـبر مـن ذلـك بعـامٍ أو عامـين، ثـم تجـرح أعضاءهـم بمـوسى حلاقـة، وتهددهـم بعـدم حسـبان أنفسـهم الأسـمى، قبـل أن تضعَهـم في حـيرةٍ مـن أمرهـم حـين تنهـي تهديدهـا بجملـة: "ولا نحـن النسـاء أيضًـا! إيَّاكـم ومضايقـة الضعفـاء عامـةً والمخلوقـين بعيـوبٍ خاصـةً!" لم تـرَ نفسَـها بطلـةً؛ نعمـة مخلوقـةٌ مـن الكراهيـة وعـدم الاقتنـاع بـأي شيء، مـن الإنـكار التـام لمـا تعانيـه، مـن أسـئلة

كل شـخصٍ مصـابٍ بعيـب إلى خالقـه، مـن سـؤال (لمـاذا أنـا؟) بالتحديـد.

دلـف صاحـب المحـل إليهـا، طلـبَ منهـا الغفـران والصفـح، ظنـتْ في بدايـة الأمـر أنـه يمـزح، لكنهـا بـدأتْ تصـدق طلبَـه، لمـا جثـا عـلى ركبتيـه وقـال لهـا: "وحيـاة أغـلى حاجـة سـامحيني، يـا نعمـة هـذه الكتـب هـي كتبُنـا، وهـذه علامـة مـن علامـات القيامـة، وحيـاة ربنـا سـامحيني، هـاتي يـدَكِ أقبّلهـا!" قامـتْ مـن مكانهـا، رفعـتْ فسـتانَها، وأنزلـت بنطالهـا، وأشـارتْ إلى المسـتور بقطعـة قـماشٍ: "بـل قبّـل هـذا الـذي كنـتَ تريـده دومًـا، أنـت وابنـك!" لم يرفـض أمرَهـا، ولم تقـف طويـلاً أمامـه، تركتـه وخرجـتْ إلى الشـارع، سـحبتْ كتابًـا ورجعـتْ إليـه، طلبـتْ منـه أن يقـرأ لهـا المكتـوب، هـز رأسـه نفيًـا: "يـا نعمـة كل شـخصٍ يقـرأ كتابَـه فقـط، إذا نظـرتُ إلى كتابِـك سـأجده أبيـض". سـألته كيـف تعـرف أنـه كتابهـا، شرحَ لهـا: "مـا فهمنـاه منـذ تسـاقطت الكتـب أن الفكـرةَ ليسـت في وقـوع كتـابٍ صحيـحٍ عـلى صاحبـه، متـى فتحـتَ أي كتـابٍ، سـتجده كتابـك، الله قـادرٌ عـلى كل شيء! وهنـاك مـن أخبرنـا أن اللهَ يأمُـر الأيـادي بسـحب كتـب أصحابِهـا، لذلـك لـن تخطـئ يـدٌ أبـدًا، لا يهمنـي التفسـيران، مـا يهمنـي أن النتيجـةَ واحـدة! أي كتـابٍ هـو كتابُـك مهـما كانـتِ الطريقـة!"

تأملـتْ نعمـة الكتـابَ، جلـده بُنـي، رائحـة الجلـد الطبيعـي تفـوح منـه، ملمسـه ناعـمٌ جـدًا، حجـم الكتـب وعـدد صفحاتهـا واحـد، فتحتـه لتتفاجـأ بصـورٍ! رأتْ صـورًا منـذ يـوم مولدهـا، مـرورًا بأيـام طفولتهـا، وطردهـا مـن البيـت، حتـى تلـك اللحظـة التـي

قبّل فيها صاحب المحل فرجَها، ظلت تقلب الصفحاتِ، تلهث خلف يومٍ يتغيَّر به كل شيء، أو تجد صورةً لها دون بقع، أو تجد نفسَها في بيتٍ وتزوجتْ كسائر البنات اللاتي تحسدهن، لم تجد ما تبحث عنه، كتابُ الشقاء والبؤس، هو أنسب ما يصفه، صفعتْ صاحبَ المحل وقالتْ في عصبيةٍ: "الحياة المعتادة! الهروب إلى الشوارع، مضاجعة الغرباء، البقع لن تختفي، بل العكس، في بعض الصور بالأمام البقع كَبُرتْ!"

سألها صاحبُ المحل بصوتٍ خفيض: "نعمة، ركزي جيدًا، الكُل بالخارج يسأل السؤال ذاته: هل آخر يوم في كتابِك هو يوم الأربعاء الثالث من أبريل؟ فقط دون تحديد في أي عامٍ؟ سأرسم لكِ شكل الأرقام، فقط نريد معرفة هل الشكل ذاته أم ثمة اختلاف؟"

محيي ابن طاهرة

عرفنا عن السارد الأول، في جلسة صفاءٍ، تخلو من أي تكبرٍ، أو أي تعظيمٍ في الذات السردية، أن مصائبَ قومٍ عند قومٍ فوائد، ضحك لمَّا قالها، وعندما سألناه عن السبب، أوضح بهيبةٍ لائقة: "ستُنسَب هذه المقولة إلى شاعر عظيم، وهذه هي الكارثة! أنا الأصل في كل شيء، ويعتقد السامع المجهول أن القائلَ هو المصدر! كل الأشعار والكتب والروايات والحكايات والقصص، المكتوبة والتي تُكتب والتي ستُكتب، مني أنا! ينكرون وجودي بكلمةٍ ماسخةٍ، يقولون عني الوحي!" وما دام

السارد الأول قد أقنع نفسَه بفكرةٍ، مهما حاولنا تغيير رأيه سنفشل، لن ينزعها عنه إلا نزع الروح، وهذا لن يحدث ولو مات الساردون جميعًا، وبُعثوا من جديد.

وفي موقف محيي ابن طاهرة، مصيبة الناس كانت فائدةً، وقتها كان جالسًا يقرأ كتابًا جديدًا، ليبدأ بعدها في تصحيحه، هكذا كانتْ عادته، ينتهي من الكتاب قراءةً، ثم يعيش رحلته معه تصحيحًا، وفي أثناء مرور عينيه على سطرٍ، نادتْه طاهرة بصوتٍ هادئ: "يا محيي، الجنون ضربَ الشارع! حاول يا بني أن تعرفَ ما الذي يجري بالخارج؟" فتحَ النافذةَ ولم يصدق المشهد! لم يتفوه بكلمةٍ، طاهرة اقتربتْ ببطءٍ، وأشارتْ بسكينٍ كانت تقطع بها البصل مستفسرةً: "هل تمطر السماء كتبًا يا محيي؟ أم أنني صرتُ عجوزًا يلاعبها الخرف والخبل؟"

عيناه تتابعان الكتبَ، التيه في نظرته مدهشٌ، الجمعُ بين الشغف والتكذيب، في البداية كان مصدومًا، كرجلٍ حارب جيشًا بمفرده وعضه فأر في النهاية، تغيَّرتْ ملامحه فجأةً، من التردد إلى الثقة، من عدم التصديق إلى عظيم الإيمان، خطفَ كتابًا ونجح من المحاولة الأولى، فتحَ الكتابَ ليجد اسمَه، تأكدتْ ظنونه، لم تفهم طاهرة سر سعادته، أعاد فعلته، وحصل على آخر، ناولها إياه مبتسمًا، ثم أغلقَ النافذة وقال لها: "هذه أبناؤنا يا طاهرة، كل صغيرةٍ وكبيرةٍ دُوِّنتْ هنا، الآن سأعرف من أنا!"

أيام الدهشة الثانية

فيليب

هـل تؤمـن يـا مينـا بالخـروج مـن هنـا؟ أعـرف أنك لا تسـمعني،
،لا أنـا أسـمع نفـسي، ولكننـي سـأتحدث مهـما حصـل، وسـأحكي لك
، ا مينـا عـن مواضيـع تُقلـق راحتـي منـذ زمـن طويـلٍ، سـأتخيل
أ ـك تسـمعني، وتفهـم مـا أقولـه، وأنـك ستسـامحني عـلى مـا خـرج
م ن بـئر حيـاتي، أبـوك يـا مينـا يـرى أحلامًـا تُقلـق منامـه، وتعكـر
ليـه صباحَـه، وتجعلـه حزينًـا مهمومًـا، يذهـب إلى عملـه، وهـمٌّ
ا ثقيـلٌ فـوق قلبـه، كأنني مثـلاً أحمـل صليـب المسـيح، وأمـشي بـه
يوميًّا.

أرى مثـلاً بنتًـا صغـيرة، لا أذكـر أننـي قابلتُهـا مـن قبـل، تحـترق
داخـل فـرن الفخـار، تضحـك وجلدهـا يـذوب، تقـول لي: "تعـالَ

ضاجعني، نشوتي تحترق لرؤياك!" وأوقاتٌ اخرى، أرى مريم، لا يهم أي مريم التي أراها، أنا لستُ متأكدًا مَن هي، وتسألني: "لماذا؟" وهي تركض عاريةً، وخلفها رجلٌ أكبر مني، يجري عاريًا، يحمل قضيبًا بحجم برج القاهرة، يُريد أن يُدخله فيها، وهي ترفض خوفًا، وأوقاتٌ أخرى أرى فتياتٍ يركضن كلهن حولي، ثم يسكبن عليَّ ماء بولهن، ويقلن في نفسٍ واحد: "لماذا فعلتَها؟ ما ذنبنا في ما حدث؟ هو من قتلها وليس نحن!"

وأنا يا مينا لا أعرف عمن حديثهن، تقلقني جدًا تلك الأحلام، مع نظرات أهل البلد إليَّ، نعم يا مينا تقلقني نظرات أهلد البلد جدًّا! أبوك يا مينا محبوبٌ في البلد طبعًا، ولكنني أسمعهم كثيرًا وهم ينظرون إليَّ ويقولون في وجهي بصوتٍ مسموع: "أنت من قتلته!" هم لا يقولونها فعلاً، لكن نظراتهم تفضح شعورهم تجاهي، وأبوك غير عليم بمن الذي قتله، ولماذا أنا تحديدًا، الذي سيقتل!

ومع ذلك، أمك في يومٍ وضّحت شيئًا في غاية الأهمية حين قالت: "من الممكن أن تكون تكلمتَ عن يهوذا الإسخريوطي وسط الناس والقهوة، فسمعك المسيحيون، ودفنوها في قلوبهم احترامًا لك ولمكانتك عند الباشا، ولأنك أكبر وأقدم منهم جميعًا. حذرتك كثيرًا يا أبا مينا من تأثير كلامك، ومن تكذيبك وكسب عداوة، مع ناس تُحبهم ويُحبونك"، وما الذي يضرهم يا مينا إذا قُلتُ إن يهوذا بريء؟ أو إنني متعاطف معهم؟ ذنبُ الرجل كبيرٌ، وغيره في تاريخ ديانتنا كانت ذنوبه جبالاً، ومع ذلك الجميع يسمع قصص التوبة، ويبصقون بمجرد سماع قصة

يهوذا! أتعرف يا مينا؟ أوقاتٌ كنتُ أشعر بأنني إذا مجدتُ الشيطان ابن الوسخة، لن يُعارضني أحدهم! المهم ألا أتكلم عن الشرير، صاحب القلب الأكثر شرًا، يهوذا الإسخريوطي.

إذا سألتني يا مينا عن السبب الرئيس لقلقي من كلامهم ونظراتهم، سأقول إنها الأفران! كل يومٍ يسألونني لماذا بنيتَ الأفران بهذا العلو؟ ويحذرونني من سقوط أي شخصٍ بداخلها، لا أنكر يا ابني أن إجابتي حاضرةٌ: "الباشا يريدها هكذا!" ولكن يا مينا إلى متى؟ أشعر بأن الشك يلعب في صدورهم، وقد يتسلل أحدهم إلى الأفران ويرى ما بداخلها! ماذا تقول يا مينا؟ ماذا بداخل الأفران؟ الفخار طبعًا يا مينا! وماذا سيكون بداخلها غير الفخار؟

لا أريد أن تكرهني لكثرة كلامي وشكواي، يرحم الرب عمك نجيب، صديق عُمري، الذي كان يسمعني، أتذكره يا مينا؟ سلْ له يا حبيبي، عمك نجيب كان صديق المقهى، وصديق العمر، في كل رحلاتي، من قريتنا، إلى القاهرة، إلى مُختلف قرى ومحافظات مصر، وكان يضرب رأسه، حين تجلس على مقهى وأطلب فقط الأرجيلة! ويقول لي: "معقول يا فيليب! لا تشرب الشاي أو القهوة! كيف تعيش يا صديقي؟ الحياة بنت وسخة، يجب أن تُبهج دماغك لتتحمل تعب الشُغل!" الله يرحمك يا نجيب، كنتَ وفيًا جدًا لي، وكنتُ وفيًا جدًا لك.

بعيدًا عن عمك نجيب، أتعلم أنني حاولتُ منذ حدث ما حدث أن أخرج من الفرن؟ السُلم الخشبي مكسور، أواني

الفخـار هنـا ليسـت كثـيرة لأجمعهـا وأصعـد فوقهـا، وحتـى يـا حبيبـي لمـا تسـلقتُ كتفـك، لم تفهـم وظللـتَ تـضرب في الهـواء، تعتقـد أننـي شـخصٌ أريـد الأذى لـك، لذلـك قـررتُ البقـاء هنـا، وعـدم تكـرار مـا يزعجـك أو يُخيفـك، سـنخرج مـن هنـا معًـا، أمواتًـا أو أحيـاء! آسـف يـا بنـي، الفضفضـة معـك دائمًـا تسـير بي إلى طـرق الـرب، وإلى الراحـة.

يسوع، يا سيد العالم، أنقِذنا بمشيئتك من النكبة والمحنة.

نعمة

دخلـتُ البيـوت الفقـيرة، وشـاهدتُ الأهـالي واقعـين أرضًـا، يـا سـلام يـا نعمـة، أنـتِ الوحيـدة التـي تمـشي بحريـة، ولأنـكِ مُباركـةٌ، كـما قـال لـكِ هـذا الرجـل أو المـلاك العجيـب، الـذي قتلتُـه تقريبًـا، فطبعًـا لـن يحـدث لـكِ شيء.

مـن وقـت مسـح الملامـح وأنـا أرفـض تلطيـخ جلـدي بهـذا المرهـم الرخيـص الـذي وصفـه لي الطبيـب الشـاب الهائـج، حـين رشـحني بائـع البوظـة لـه، وكيـف أننـي ماهـرة في كل فنـون السريـر، وهـي بالمُناسـبة خـبرةٌ ربانيـة، كأننـي نزلـت مـن بطـن أمـي أحمـل معـي أسرار الجنـس كلهـا، وفي محافظـات مـصر أن تعـرفَ الأنثـى أسرارَ الجنـس، قبـل الـزواج، فهـذه مصيبـة! عـلى حـد علمـي مـن المتزوجـات، الـلاتي حكـت كل واحـدةٍ منهـن وأنـا أنظـف لهـن بيوتهـن، أو أزيـل شـعر أجسـادهن الزائـد، كيـف

كانتِ الواحدة منهن على علاقة حب مع رجلٍ قبل زواجها، وتعلمتْ على يديه الجنس وأموره، وحين تدخل بيت زوجها يجب ألا تُظهر له أي معالم خبرة عن التقبيل أو المصمصة، أو عن الكلمات الغريبة التي تخرج مع النشوة، وتحذر كل أم ابنتها من الشخير في أثناء المُضاجعة، إلا إذا طلبَ منها زوجها ذلك.

أذكر كيف أقنعني هذا الطبيب بمدى جمالي وجمال جسدي، وفي أقل من ثانية، لم يقدر ابن الوسخة وقتها على إخفاء ضيقه من البقع المُنتشرة حين خلعتُ ملابسي لننتهي ويُحاسبني، وأضحكني جدًّا لما تحجج بالذكاء، وقال لي: "ارتداء الملابس في حالتنا سيكون أفضل، حتى لا يدخل علينا مريضٌ فجأة، أو حالة طارئة، ويجد الطبيبَ يركب مريضته!"

تعمدتُ معاملته بأوسخ طريقة، وإحراجه لما قذف مُبكرًا: "طيبٌ وتجيبهم بهذه السرعة؟ يا ميل بختك يا نعمة، ربنا يبارك في الخيار والباذنجان الأسود". أعطاني مرهمًا، ونبهني لاستخدامه ثلاث مراتٍ، وفي كل زيارةٍ، بعدما ننتهي من متعتنا، سيعطيني مالاً وأجمل الملابس، ولأنني نعمة المُباركة وعدتُه بزيارةٍ أخرى، لم تحدث إلى وقتنا هذا.

يا سلام يا رب.. منظر الناس حولي، بهذا الضعف والذل، في الشوارع والميادين، وأنا ماشية وعارية، أخيرًا تحررتُ من الفستان والبنطال الضيق، يا سلام يا نعمة، منظرٌ جميل وحياة النعمة، جعلني أسامح في ما حدث لي، لما كانوا يلتفون حولي،

في أي منطقـةٍ أنـزل إليهـا، ويقذفوننـي بالحجـارة وأكيـاس المـاء، ويقولـون: "نعمـة التتنـة، نعمـة التتنـة". الله يرحمـك يـا عـم سـند، يـا رجـل يـا طيـب، كان الوحيـد الـذي يقـول لي: "التتانـة فيهـم لا فيـكِ، أنـتِ بنـتٌ جميلـةٌ، تسـتحقين حيـاةً كريمـةً، هـوني عليـكِ يـا بنتـي"، أنـت يـا عـم سـند مـن كان يسـتحق الحيـاة الكريمـة كلهـا، وأن يـرى كل هـذا الجـمال.

عـم سـند أنقـذني وأنـا صغـيرة مـن عيـالٍ أولاد وسـخة، ربطـوني بحبـلٍ، وجـردوني مـن ملابـسي، وعلقـوني في فـرع شـجرة عاريـة، يضربوننـي عـلى طيـزي بعصـا، ومنهـم مـن يُدخـل إصبعـه في مؤخـرتي، وأنـا لم أكـن أصرخ، كنـتُ أكتـم الـصراخ، حتـى لا أظهـر أمامهـم ضعيفـةً، لكـن حـين لمحنـي عـم سـند وهـو راجـعٌ مـن عملـه بالصدفـة، بكيـت لأننـي وجـدتُ الحائـطَ الـذي يسـندني ويمكننـي البُـكاء عليـه، بكيـتُ لمـا رأيتُـه، مـن فـرط حنانـه الظاهـر حولـه، كأنـه نـور خـارج منـه، بكيـتُ وأنـا أقـول لـه: "يـا عـم سـند أنـا بنـت كلـب، ولسـتُ طيبـة وجميلـة كـما تقـول لي، يـا عـم سـند اقتلنـي الله يكرمـك، وخلصنـي مـن عـذابي".

صحيـح يـا عـم سـند.. إنكنـتَ حيًّـا بيننـا الآن هـل سـتكون مثلهـم؟ أم لطيبـة قلبـك لـن يؤذيـك الله؟

عامـةً الله يرحمـك، ويرحـم أنفـي مـن رائحتَـي الوقـود والخبـز اللتـين لا أعـرف مصدرهـما، رائحتهـما تسـتزفني، وتجعلنـي مجنونـةً أريـد البحـث عنهـما حـالاً!

عبد القوي

متـى يـا رب سـأصل إلى نهايـة رحلتـي؟ لقـد كفـرتُ بهـذا السؤال، لكثرة عـدد المرات التـي سـألتُ نفسي فيهـا: متـى سـأصل ومتـى سـأخرج ولمـاذا أنـا؟

ولـكي أخـرج من دوامـة الأسئلة، أقنعـتُ ذاتي الضعيفـة بالتفكير في أمـرٍ آخـر قـد يُلهينـي عـن الوصـول، فقـذف عقـلي بسـؤالٍ مهـم: لمـاذا فقـدتُ القـدرة عـلى التخيـل أو اسـتحضار أي صـورٍ؟ حتـى شـكلي لا أتذكـره! كأن تـروسّ دماغـي تعطلـت، وكلـما عافـرتْ لتـدور، أوقـف دورانَها حجـرٌ صغـير، مزنـوق بينهـا، فـلا هـو قـادر عـلى الفـرار، ولا هـي قـادرة عـلى فرمـه ومواصلـة العمـل.

كيـف يفقـد الإنسـان قدرتـه، عـلى رؤيـة الأحـلام، عـلى تذكـر شـكل أبيـه مثـلاً، كيـف يفقـد الإنسـان عامـةً قدرتـه المُعلنـة والمعروفـة للـكل عـلى تطويـع خيالـه الخصـب، وترويـض أفـكاره كـما يحلـو لـه، لتعـرض لـه أجمـل مـا يريـد، في عـالمٍ مخلـوقٍ مـن خيـالاتٍ تُرضيـه؟

الصدمـات تتـوالى، ورأسي المسـكين يُطالبنـي بمسـاندته، ولأنَّنـي رجـلٌ نبيـلٌ، لم يُرهـق بالـه في التفكـير، مـع أن لديـه كثـيراً مـن المعلومـات، سـألتُ رأسي المسـكين، الـذي يحتـاج إلى مسـاعدة، سـؤالاً جديـدًا، ليضيفـه إلى قائمتـه: هـل مـا قالـه لي العـم آدم في آخـر أيامـه صحيـح؟ أيقصـد مـا قالـه؟ هـل أنـا فعـلاً لسـتُ ابـن الحـاج عبـد القـوي؟ دماغـي يسـتعطفني لطـرد هـذا التسـاؤل،

ويقـول لي: العـم آدم وقتهـا كان في عـالم آخـر صنعتـه لـه الخمـر المُعتَّقـة، فـلا يجـب علينـا تصديـق كلام السـكران.

ولأننـي رجـلٌ لم يُرهـق بالـه بالتفكـير، وهـو يعـرف كل شيءٍ في الوقـت نفسـه، ضربـتُ رأسي بسـؤالٍ مُحـيِّر: إذا كان العـم آدم كاذبًـا، لمـاذا فعـلاً لا أذكـر أي شيءٍ مـن مراحـل طفولتـي؟ فيجيبنـي دماغـي بـكلام أبي، أقصـد الـذي أنـا محتـار في أمـره هـل هـو أبي أم لا، ويقـول لي: "حـين كنـتَ صغـيرًا يـا محمـد، سـقطتَ عـلى رأسـك، لأنـك كنـتَ طفـلاً شـقيًا يقفـز هنـا وهنـاك، ويلعـب مـع كل شيءٍ، وفي كل شيءٍ!" ومـع أننـي لم أفهـم الجملـة الأخـيرة، وأشـعر أنهـا سـافلة، إلا أنـه يكمـل بأننـي فقـدتُ الذاكـرة عـلى نحـو مؤقـت، ولمـا عـادتْ، لم تعـد مـع غالـب ذكرياتي، وهـو كلامٌ لا يدخـل عقـلَ طفـلٍ.

إذا كان كلام العـم آدم صحيحًـا، وأنـا لسـت محمـد عبـد القـوي، عامـل الدوكـو، ووريـث الحـاج عبـد القـوي الوحيـد، إذًا مـن أنـا؟

محيي ابن طاهرة

منظـر الصليـب الـذي وجدتُـه خلفـي حـين صحـوتُ مـن نومـي في الشـارع، يظهـر لي كثـيرًا، أيـن كنـتُ؟ ولمـاذا كنـتُ نائمًا في الشـارع فعلاً ؟

أعتقـد أن شـخصًا غـيري، في مثـل هـذه الأيـام، ووسـط كل هـذا الصمـت، كان سـيضربه الجنـون إذا لم يكـن قارئًـا! الكُتـب هـي مـا يهوِّن عـليَّ وحـدتي، الله يهـون عليـكِ يـا طاهـرة، كانـتْ تقـول لي

"أنت تحب الكتبَ يا محيي، أكثر مني ومن الأكل!" والحقيقة هي لم تكن مخطئة، أنا لا أجحد دورَها في حياتي طبعًا، ولكنني لا أعرف من هي؟ سألتُها كثيرًا عن تاريخها، والإجابات لم تكن كافيةً، إجاباتٌ من نوعية: "أنا عجوز وحيدة" و"تركني زوجي منذ زمنٍ" و"لا تسألني يا محيي، المهم أننا معًا، وأنني وجدتُ من أعامله كابنٍ لي"، كلها إجابات تفتح باب الشك، وتدعوه للدخول إلى قلبك، والاستمتاع بكرم الضيافة، لأطول فترة إذا ما أراد.

قدرة عقلي على الاستيعاب، والحفظ في الآن نفسه، قدرة مُرعبة! كنتُ أقرأ الكتابَ، فيجلس في العقل الجواني، ويقول لي: "أنا هنا! سأخدمك متى تشاء، أي معلومةٍ أو سرد قصة، لا لردد يا بطل!" وهو ما ساعدني كثيرًا على امتهاني للتدقيق والتصحيح، قرأتُ معظم ما يخص اللغة، شروح السابقين في أمور اللغويين، والكثير في بحور الشعر، وعلم العروض، عرفتُ فروقًا عظيمةً بين أصغر الكلمات، وكيف تستخدم التعبير هذا ولا استخدم ذلك، مثال بسيط: قُل وزعت الجوائز بين الحاضرين ولبستْ على الحاضرين، وذلك بسبب.. ما الذي أفعله؟ هل لمن عقلي؟ أنا أعرف هذه المعلومة، لمن أقولها؟

بعيدًا عن اللغة، وعن التصحيح والتدقيق، من أنا حقًّا؟ لماذا لا أعرف من أنا؟ ما الذي يُخفيه الله عني؟ هل كنتُ قاتلاً مثلاً والله منَّ عليَّ بالتوبة فأفقدني ذاكرتي؟ هل كنتُ شاذًا فعالجني الله بضياع الهوية؟ هل كنتُ مُقامرًا فحفظني الله من السجن، ومن ضياع أموالي، بنسف ذكرياتي وذاكرتي؟ هل أنا

يسوع فعلاً؟ كما قالتْ لي بنتٌ صغيرة، كانتْ تمشي مع أمها في ميدان رمسيس، وقابلتني صدفةً وأنا ذاهبٌ إلى الكاتدرائية لتحصيل مقابل الكتب التي صححتُها، البنتُ صرختْ حينها: "انظري يا أمي! يسوع!"

سأعود إلى المنزل، ربما تقلق طاهرة من غياب هكذا بالخارج. مسكينة طاهرة، لا تستحق ما يحدث لها والله.

ثلاثة أشهر من الدهشة الأولى

عامل الدوكو

لمـا نـزلَ عبـد القـوي مـن الحافلـة، ورجـع إلى بيتِـه بكتابـه، بعدمـا كان في منـزل منـة، حـين ذهـب ليتقـدم إليهـا، لم يتخيَّـل أنـه سـيعود بـكل أفعالـه، بـدلاً مـن الموافقـة عليـه وقـراءة الفاتحـة وتحديـد موعـد الخطبـة! قعـدَ بمنتصـف شـقته، لا يصـدق ماهيـةَ الـشيء الموضـوع أمامـه، ينظـر إلى الكتـاب بمـا لا يليـق بالموقـف، نظـراتٌ كتلـك تسـتحقها أنثـى، أنثـى تقـف في حفـلٍ، فسـتانُها يُسـكِر النـاس، مـع رائحـة عطـرٍ تمسـح خطايـا الـروح!

الموقـف صعـبٌ عليـه، أصعـب مـما يواجهـه غـيره، رجـلٌ مثلـه لا يُرهـق بالـه بالتفكـير، ويعـرف كل شيءٍ في الوقـت ذاتـه، يتعـرض لدهشـةٍ تسـاوي -مـن وجهـة نظـره- دهشـة رجـلٍ عـرفَ أنـه صـار

نبيًّـا! فتـحَ الكتـاب ببـطءٍ مُتعمَّـد، وجـد الأيـام بتواريخهـا، منـذ ولادتـه وصـولاً إلى يـومٍ صفحتـه بيضـاء، كل صفحـةٍ تـسرد تفاصيـلَ حياتـه، تفصيلـةً تفصيلـةً، كأن المُدونَ لم يفعـل شـيئًا سـوى مراقبته، سـخافاته، ملـل أيامـه، كلامـه مـع نفسـه ولغـيره، مواقفـه النبيلـة والحقـيرة، تقاعسـه عـن بـذل أي مجهـودٍ، كل فرصـةٍ رفضَهـا بدافـع الكسـل، عدميـة تفكـيره، نظراتـه إلى السـيدات ومؤخراتهـن، كل مـرةٍ مـارس العـادة السريـة، حتـى آخـر يـوم فعلهـا، كيـف تـصرف عامـةً، وكيـف سـيتصرف في المواقـف المُسـتقبلية.

تحـدث إلى ذاتـه بصـوتٍ عـالٍ: "سـأقرأ حيـاتي مـن اللحظـة التـي أجهلهـا، حتـى تلـك الصفحـة البيضـاء، لـن أخـرج إلى الدنيـا إلا وأنـا عليـمٌ بـكل سـطرٍ في كتـابي!" قـام إلى المطبـخ، أعـد كـوبَ شـاي، ومـع أي خطـوةٍ يخطوهـا يصاحبـه الكتـاب، يقـرأ في كل لحظـةٍ ومـكانٍ، يقـرأ وهـو الـذي لم يقـرأ بصـورةٍ مسـتمرة سـوى الكتـب الدراسـية، يتعجـب مـن معرفتـه للغيـب، يعـرف مثـلاً أنـه بعـد يومـين سـيتعارك مـع شـخصٍ خبطـه في أثنـاء ذهابـه إلى المحـل، والشـخص سـيضربه ضربًـا لم يـرَه (حرامـي في مطلـع). يضحـك لتصرفـه مـع مواقـف بعينهـا، يركـز مـع خناقـةٍ أو مشـكلةٍ، وكيـف خـرجَ منهـا، مـع ضرورة التفكـير في مخـرجٍ آخـر، وذلـك لأنـه رأى أن التـصرفَ الصـادر منـه وقتهـا كان طبقًـا لعـدم معرفتـه بالأمـر، والآن صـار يعـرف، ثـم تراجـع عـن قـراره في لحظـةٍ، معلـلاً بقولـه: "ولِـمَ أشـغل بـالي بالتفكـير؟ تكفينـي معرفـة المصائـب وكيفيـة الخـروج منهـا!"

ما لم يفهمه في بداية الأمر تلك الأرقام الصغيرة المكتوبة في نهاية بعض الأحداث، لم يجد لها تذييلاً أو مرجعًا في صفحةٍ أخرى، ركزَ مع حدثٍ من تلك الأحداث، قرأ المكتوب ليفسر لنفسه: "في أثناء قعوده على المرحاض، صباحًا، وعيناه تتناومان، سيفاجأ بفكرة، سيتعجب من التفكير، سيحاول إثباتها" توقف المُدون عن التوضيح، كلامٌ عام لا يفيد، دُهِشَ لكلمة (فكرة) وجملة (سيتعجب من التفكير)، دهشته لم تكن لمعرفة المُدون بطباعه، دهشته لأنه فكر بل وسيحاول إثبات تلك الفكرة، التي لا يعلم عنها شيئًا!

يفر الصفحات، لا يتذكر طفولته، زملاء المدرسة، أفعاله المشاغبة، شهقَ لما قرأ، عن تعمده إسقاط القلم في أثناء الحصة لينزل أسفل التختة ويرى سيقان الفتيات، أو ما بين فخذي المُعلمة التي كانت تجلس بتنورةٍ قصيرة، فيظهر لباسها الداخلي الأحمر، وما يخفيه من وحشٍ، سيبتلع ما يقترب منه. بلذةٍ وآهات كاد يغلق الكتاب من شدة الإحراج حين قرأ عن وقوفه خلف الفتيات وقت الفُسحة، في أثناء شراء الحلوى من مطعم المدرسة، ليضع قضيبه المنتصب المتدثر ببنطاله، الذي كان في مراحل نضجه وقتها، في مؤخراتهن المختفية خلف قماش التنانير، وكم كان يعجبه حين تقاومه إحداهن، وتدفعه بمؤخرتها ليبتعد، اعتراضًا على ما يفعله، فيزيد هو من تحرشه، ويدفع قضيبه بقوة، مع غمزةٍ من عينيه لزميله المُراقب للموقف، المُتعجب كيف لم تنهره أي بنتٍ منهن، وكيف كانتْ تصمت

الفتيات، بل وتنظر إلى عضوه المنتصب، وتستفسر عما يفعله، مع ابتسامةٍ ورفعِ حاجب.

تساءلَ بصوتٍ مسموع: "أنا لا أذكر هذا! وإن حدث ذلك، لقد كنا أطفالاً! لماذا دُوِّنَتْ تلك الحقارات الصغيرة؟" قرأ صفحةَ يومٍ جديد، فعرف مثلاً أن غدًا، حين يفتح محله، سيزوره صاحبُ مصنع ملابس، وسيطلب منه طلاءَ تمثالٍ من الجرانيت. تعجب من هذا الرجل المجنون، هذا فقط رزقه طوال اليوم! ثم شاهد العلامة نفسها التي يجهل معناها، فقال: "لن أنزل غدًا من أجل زبون واحد!"

توالتِ الصفحات، مُحي الغيبُ من حياتِه، فرحَ لما تأكدَ من خطبته لمنة، المحل لن يغلق، الرزق موجود، لا يدرك معنى تقسيم الأيام، ما هو يوم اليتيم أو يوم المُسنين، ولماذا رفض في إحدى الصفحات مبلغًا ضخمًا مقابل ضمانه لدخول الجنة، وأن في صفحةٍ أخرى فوَّت عليه فرصةً يتمناها غيره! أيقن أن التنقلَ السريع بين سطور كتابه لن يفيد إطلاقًا، ولا مفر من قراءة الكتاب صفحةً صفحةً.

-1-

العامة

تأويـل الواقعـة لا يُنسَـب إلى العامـة في المُطلـق، ولم يحـدث في أي عـصرٍ، مـع أن الفكـرةَ عظيمـةٌ، أن تـسردَ حكايـةً مـن وجهـة نظـر العامـة، والبُعـد عـن أبطـال الحكايـة! ومـع ذلـك، نكـرانُ قدرهـم جحـودٌ، والسـارد لا يعـترف بنقصـان التفاصيـل، ولا يهـول مـن مكانـةٍ، أو يـسيء إلى ذِكـرٍ بالتجاهـل، لـذا وجـب التطـرق إلى سماتهـم.

وليـل العامـة لا يختلـف عـن نهارهـم، ووجـوب تفكيرهـم أو غيابـه لا يـضر، العامـة المطحونـون في السـعي خلـف الـرزق، في محـاولات البحـث عـن بنـت الحـلال أو ابـن الحـلال، في إرضـاء المديـر أو النـوم معـه، أيهـما أسرع للحصـول عـلى ترقيـة أو مكافـأة،

في التحايل على الحكومة، والهروب من الضرائب، وإتقان فن الفهلوة، فالعامة إذا ما حصلوا على شيء، بنصف الثمن أو أقل، نظرًا إلى مهاراتهم -هكذا يحسبون- في الفِصال، شعروا بنشوةٍ لعدة أيامٍ، وقد تمتد إلى شهورٍ، ولا يمل أحدُهم من تكرار سرد تجربته على مسامع الجالسين، وكيف خدعَ البائعَ المُتمرس! انتصار عظيم يُحسب لهم، نظرًا إلى بساطة مساحة وجودهم، في بؤر الأحداث على نحو عام، ولبساطة مساحة دورهم، في سير الحياة على نحو خاص، حتى في الأفلام تجدهم دومًا هم الفئة الأدنى، والتركيز كله مع الشخصيات الرئيسة، إلا أفلام الأبطال الخارقين، يحاربون من أجلهم، ويهمهم جدًّا اعترافَ العامة بقدراتهم، أو الثناء على مجهوداتهم في الحد من مصيبةٍ.

في حكايتنا، واجه الناس مصيبتهم، بالهروب إلى الفقر، والتقرب من الخالق الأعظم، بمختلف الديانات، لم يغيِّر شخصٌ ديانته، على سبيل الاعتقاد بصحة دينٍ بعينه! المشهد العام صار عبثيًا، يصحو الفردُ على مكالمةٍ، من قريبٍ غني أو صاحب عملٍ، يرجوه ضرورةَ التوجه إلى أقرب بنكٍ للحصول على نصيبه من "وديعة الخير"، الاسم الذي أطلقه أحد القساوسة في أثناء لقاءٍ بقناة فضائية، ووافق الجميع عليه، إلا أن العبثيةَ تغلغلتْ ببطءٍ محسوب، فجعلتِ الفقير المحتاج يرفض المال!

المحال خفضتِ الأسعار، تعطل سوق السيارات، المشي مع التسبيح وذكر الله، وفضل المسيح ونعمه، أفضل من رفاهيةٍ تدخلنا النار! ولما وجدَ الناس صعوبةً في الوصول، خاصةً مع المسافات الطويلة، زهدوا فكرةً سيارة لكل شخصٍ، واجتمعوا

على شراء سيارة لكل جماعةٍ مكان عملهم واحد، أو طريقهم واحد، مع المشاركة في المصاريف على نحو عادل.

خلت السجون من مقيميها، حتى المقبوض عليه بتهمةٍ واضحة خرج إلى العالم، ومع معرفة الأمر الجلل، صارت المدينة حقًا مدينةً فاضلة، الرجل يعتذر لأخيه إذا أخطأ، والمرأة رفضتْ ترك البيوت، وخرجتِ الإعلاميات على الشاشات يحذرن النساء من الملابس غير المحتشمة، وتدعوهن لإقامة حلقةً نارٍ كبيرة، في مختلف الشوارع والميادين، لحرق كل فتن القماش! اختفت الموضة، الكل سواء في طريقة اللبس والتفكير، المساجد والكنائس والمعابد يوميًا تكتظ بروادها، الإعلام كلف كل موظفيه بتوجيه الناس إلى الأخلاق، ورفض أي رشوةٍ، والتصويت في الانتخابات لمن هو أجدر، مع الوعد -ببكاءٍ يفطر القلب- بعدم التلاعب في النتائج.

أصحاب العقارات طرقوا أبواب المستأجرين، خفضوا الإيجارات لملاليم لا تُذكر، وإذا تعذرتَ في الدفع، لا يهم فكلٌّ بثوابه! أصحاب الملايين مشوا في الشوارع يطلبون من الناس التكرمَ بقبول عطاياهم، فيردهم المواطن صارخًا: "مال! أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!" ولما تمكن منهم اليأسُ، وضعوا أموالهم في حسابٍ، وأعلنوا في كل صوبٍ، عن وديعة خير تقدر بالمليارات، لن يسألك موظف البنك عن أي شيء، فقط خذ ما تريد وارحل في صمتٍ!

ثـارت إدارات البنـوك، الأمـوال في تزايـد مسـتمر، الاسـتثمارات قليلـة ومحـددة، في الخير فقـط، لبنـاء الجوامـع والكنائـس، لإعـمار القُـرى، ترميـم المبـاني، توسـيع مقـرات دار المسـنين والأيتـام، إنشـاء المــدارس المجانيــة بالكامــل، وعــلى أحــدث الأســاليب، وكانــتِ المفاجــأة هــي رفــض المدرســين لأي رواتــبِ عاليــة، مــا يكفــي فقــط للحاجــة، وإذا مــا تبقــى مــن راتــب الشــهر، يتــم التــبرع بــه لصنــدوق المدرســة -غــير المحتاجــة إطلاقًــا- فــورًا! تــم إلغــاء الـدروس الخصوصيـة، مجانيـة التعليـم بالكامـل، الطـلاب حـاضرون، الذمـة الخالصـة لوجـه الخالـق في كل شيء كانــتْ حـاضرة، بدايـةً مـن أصغـر عاقـل ومُلـم بمـا يحـدث، وصـولاً إلى أكـبر وأعقـل وأكـثر النــاس علـمًا!

اقـترح أحـد الشـيوخ، في برنامـج يتحـدث عـن السـماحة وقتـل الفتنـة بـين الطوائـف، ضرورة تخصيـص سـاعتين يوميًـا لفعـل الخير، فالأحـد مـن كل أسـبوع هـو يـوم اليتيـم، والاثنـين يـوم المُسـنين، الثلاثـاء يـوم البحـث عـن الغارمـات وتخليصهـن مـن حِمـل الدفـع، الأربعـاء يـوم تمجيـد أصحـاب الاحتياجـات الخاصـة، الخميـس يـوم زيـارة المريـض، سـواء في المشـفى أو البيـوت، الجمعـة يـوم الحديـث مـع أخيـك في الوطـن، واسـتقبال سـكان الأقاليـم في العاصمـة، أو الجلـوس مـع أخيـك الـذي عـلى غـير دينـك، والاسـتماع إلى تعاليـم دينـه، دون خـوضٍ في جـدالات عــن الديــن الصحيـح، أو مقارنـة بـين الأديـان، السـبت يـوم الـزواج، فـلا يرفـض الأهـل عريسًـا، مـع تسـميته بسـبت الفرحـة، ولفـترةٍ ليسـت قصـيرة، ظلـتِ الزغاريـد تطـرب النـاس كل سـبت.

أمـا مـا يخـص الكتـب والنـشر، فقـد وافقـتِ الحكومـة عـلى طلـبٍ، جـاء مـن كاتـبٍ غـير مشـهور، ولا يهـدف للشـهرة إطلاقًـا، عـن حتميـة التخلـص مـن الروايـات والشـعر والقصـص، وكل كتـابٍ -مهـما كان موضوعـه- لا يشـجع النـاس عـلى التقـرب إلى الله، مـع الاحتفـاظ بـأي عمـلٍ موضوعـه يتناسـب مـع الطلـب، وضرورة إعـادة نـشر الأعـمال المنـاصرة للفقـراء، وفتـح بـاب النـشر للكُتـب ذات الطبـع الدينـي والتربـوي، والابتعـاد عـن أي إسـفافٍ يُعرضهـم للمحاكمـة يـوم القيامـة عـن تفاهـاتٍ لا تسـتحق، وذيَّـل الكاتـب طلبَـه بأهميـة مراجعـة الأعـمال الموافق عليهـا، لحذف كل المشـاهدِ الخارجـة، والألفـاظِ البذيئـة، ورفـض العمـل -حتـى لـو كان مناسـبًا للطلـب- إذا تعـدى الخطـوطَ الحمـراء.

قـررتِ الحكومـة في أسرع وقـت وقـف النـشر نهائيًـا، وإغـلاق دور النـشر المصريـة، ووقـف التعامـلات الثقافيـة، وإعـدام الكتـب مثلـما جـاء في الاقـتراح، مـع تخصيـص لجنـة لتفنيـد الكتـب، والتفرقـة بـين المُناسـب وغـير المُناسـب، واقتصـار مهمـة النـشر عـلى المجلـس الأعـلى للثقافـة، وأي شـخصٍ يرفـض القـرار سـتقام عليـه تهمـة الخيانـة، ذلـك لأنـه يريـد للرذائـل الاسـتمرار، والنـاس في هذه الفـترة مـا زالـوا متخبطـين مـا بـين هـل القيامـة عـلى الأبـواب، أم أن الـربَ يعطيهـم فرصـةً، للتعـرف عـلى ذنوبهـم ومراجعـة أنفسـهم.

في كل مصيبـةٍ دونهـا التاريـخ، كان هجـر الملـذات دومًـا حـلاً، والتقشـف الحقيقـي المُصاحِـب لنـدمٍ صـادق! لم يـدون التاريـخ قط، حتـى وقتنـا هـذا، عـن محاولـة العامـة معرفـة السـبب خلـف المصيبـة، عـادةً مـا ربـط العامـةُ مصيبتَهـم بسـوء أفعالهـم، عـادةً

ما يسأل كل شخصٍ نفسَه: "هل نقص إيماني هو السبب؟" لم يفهم العامةُ يومًا معنى تفسير الظاهرة، لم يفكر أكثرهم حكمةً في فرضية (ما السبب؟)، كل مصيبةٍ فُسرتْ: "سوء النهاية من سوء الأعمال!" كأن الحياةَ بندولٌ يتحرك بين الأفعال والعقاب فقط، وكأن الحياةً لا تعترف مثلاً، بكلمةٍ عظيمة، اسمها (المعجزات).

-2-

العامة: آدم

حدثنا ساردٌ عن أسطورةٍ واحدة، وهجرَ الحكي بعدها، ولم نعرف لماذا اختفى، ولم يعطِنا السارد الأول إجابةً قط!

عامةً، حدثنا هذا السارد عن أسطورة تتناول قصة مجذوبٍ من مجاذيب أرض الله الواسعة، صحا من نومِه على صوت النداءِ، ولما شاف امرأةً أمامه، عارية تمامًا، قبل أن يسألها عن سبب وجودها، قالتْ له بصوتٍ ناعمٍ يذيب الجليد ويطفئ النار: "بمجرد خروجك من هذه الغُرفة، كلما رأتك أنثى ستجري خلفك لتُقبّلها، ومنهن من ستسجد لك، ومنهن من

ستطلب منك الذهابَ معها إلى مكانٍ لتنهل منك حتى تشبع، وتعاود تَقبُّلَ الحياة مع زوجٍ تقليدي تكرهه".

اختفت صاحبةُ النبوءة، النبوءة التي ظهرت فجأة لرجلٍ باهلٍ، لا يعمل ولا يجد قوتَ يومِه، يسكن غرفةً قذرةً في أفقر مدن الرب. قام الرجل يبحث عنها، صورةُ جسدِها الفاتن لا تفارقه، خرج إلى الناس ليتأكد من كلامها، ولم تتركه امرأةٌ في المنطقة إلا وضاجعته، للدرجة التي أجبرته على الهروب منهن، لم يتخيل أن كل امرأةٍ مرت من أمامه يومًا، وحسد رَجُلَها أو من سيصبح رَجُلها، على جسد أنثاه، ستترجاه ليمنحها رضاه.

ظلتِ النسوة يتهامسن في ما بينهن عن وسامة الرجل الذي ظهر كنبي في منطقتهن، وينام في غرفةِ مجذوب المنطقة، لم تهتم ولو كلبةٌ لاختفاء المجذوب، كلهن ينتظرن خروجَ الوسيم من الغرفة، وإذا تأخر أرسلن ولدًا صغيرًا ليعرف لهن سببَ غياب شروقه، والمجذوب يحادث نفسه كل يومٍ عن سر ما جرى له، ولماذا لم يطرق شخصٌ بابَه ليستفسر عن اختفائه، كل الطرْقِ يتبعه السؤال اللئيم: "هل الرجل الوسيم بالداخل؟" تختلف الأصوات بين أطفال ونساءٍ، والسؤال واحد.

لذا قرر الرجل البقاءَ في غرفته، وهداه تفكيره إلى فكرةٍ ستعيد سيرةً المجذوب إلى الناس، لن يخرج إلى العالم، لن يأكل ولن يشرب، إلى أن يقفَ ملاك الموت أمام غرفته، وحين يموت بالتأكيد سيعود إلى هيئته المعروفة، فيخرج الناس على الأقل في جنازته. ظل على حاله لأسبوعٍ كاملٍ، ثم أسبوعين، حتى

مـات الرجـل، وبينـما الـروح تخـرج، رأى صاحبـةَ النبـوءة ثانيـةً، قالـتْ لـه بصـوتٍ تدفعـه الحـسرة والألم: "تلـك الهبـة كانـت لـك، ليتقبلـوك بالخـارج، ولكنـك رجـلٌ عظيـمٌ، اسـتمتعتَ قليـلاً، قبـل أن ترفـضَ وتبحـثُ عـن أصلِـك، نـادرون مـن فعلـوا مثلـك، لذلـك أُسـشركَ بنهايـةٍ تليـق برجـلٍ، لم ينـسَ جوهـرَه".

مـات الرجـل وصعـد جسـده كامـلاً إلى السـماء، وليسـتِ الـروح فقـط، ثـم انفجـر وتفتـتَ، وطـارتْ كل فتفوتـةٍ إلى أرحـام النسـاءِ في مـدن مختلفـة، فصـار في كل منطقـةٍ مجـذوب، وعرفنـا مـن السـارد بعدهـا أن هـذا الرجـل كان المجـذوب الأوحـد بينهـم، الـذي رفضـه النـاس لاختلافـه عنهـم، فـترك المجاذيـب بعـده يخلـدون ذكراه، ذلـك لأن اسـمَ الرجـل كان "مجـذوب" أصـلاً، فبـات اسـمُه وصفهـم، بعدمـا تذكـر النـاس مجذوبَهـم، ولمـا ظهـر رجـلٌ آخـر، قالوا عنـه: "مجـذوب جديـد!" وتناقـل النـاس في مـا بينهـم الاسـم، فخلّـدت سـيرته أبـد الآبديـن، وسـافر الاسـم إلى كل البلـدان، حتـى صار الوصـف الأمثـل والحـاضر دومًـا.

أسـطورة كتلـك، تليـق كتقديـمٍ، وتفـرش الطريـقَ لي، فأحـكي سيرةً أخـرى لا تقـل في عَظَمَتِهـا عـن أي حكايـةٍ مجيـدةٍ، تنتمـي إلى عـالم المجاذيـب، حكايـة الأوحـد والأول بـين أبنـاء مدينتـه، آدم، الرجـل الـذي غلـبَ كل أسـبابِ المنطـقِ بحجـةٍ واحـدةٍ لا غـير، حجـة "آدم لم يفهـم اللعبـة"، والمقصـود بمقولتـه هـو آدم أبـو البشر، وقصتـه المعروفـة في تاريخهـم، إذ يـرى أن آدم أخطـأ حـين أكل التفاحـة، ذلـك لأنـه يعلـم أن الـرب يعـرف مـا سـيحدث، وكل شيء مكتـوب ومُـدوَّن، فـما كان عليـه إلا أن يجلـسَ وينـام، ولا

يفكـر في شيءٍ إطلاقًـا، وسـتأتيه التفاحـة متـى أراد، ولكـن الـكلامَ عـن الوسوسـة، وعـن مختلـف التأويـل، فتـارة إبليـس هـو السـبب، وتـارة أخـرى حـواء، كل هـذا محـض هـراء، المسـألة محسـومة مـن البدايـة، الـرب لم يعجبـه حـال آدم، وكيـف أنـه يجلـس بجانبـه دون شـقاء أو عمـل، أو دون الحاجـة إلى السـعي والنجـاح، والـرب شـعر بـأن الجميـعَ هكـذا سواسـية، سـيرى الـكل النعيـمَ، الـذكي والماكـر والماهـر والداهيـة والفيلسـوف والغبـي، فكـرةُ التحـدي عامـةً تعجـب الـرب، وإلا لمـاذا لم ينـهِ حيـاةَ إبليـس في لحظـةِ تمـرده؟

هكـذا كانـتْ حيـاة عـم آدم، الرجـل الـذي يُفكـر قليـلاً، ومـع ذلـك يُخـرج أفـكارًا عظيمـة، الرجـل الـذي سـحر عبـد القـوي، وصـار مثلـه الأعـلى، الرجـل الـذي يـترك الأمـرَ لصاحـب الأمـر، لا يشـغل بالـه بشيء، ولا يعنيـه كلام النـاس، وجـود المـال مـن عدمـه لا يهمـه، هـذا غنـي وذلـك فقـير، أرزاق، هـذه عاهـرة والجميـع يراهـا شريفـة، سـتر، هـذه شريفـة والـكل يُقسـم إنهـا عاهـرة، غـيرةٌ وعجـز عـن الوصـول إليهـا!

كان فيلسـوفًا بالفطـرة، معجـزة تتحـرك بـين النـاس في حـي السـيدة، مـع أنـه لا يؤمـن بالمعجـزات ولا الكرامـات، تفـرُّده الواضـح جعـل اسـمه فقـط، دون ألقـاب أو تلميـح، هـو الـذي يسـاعد النـاسي عـلى تذكـره، فـلا يقـول الفـرد لصاحبـه مثـلاً عـم آدم العجـلاتي أو الحكـواتي أو القـرداتي، عـم آدم فقـط، فيعـرف المُسـتمع عمـن الحديـث، حتـى إن قابلـه المُخاطَـب مـرةً عابـرة، سـيتذكره كأنـه معرفـة سـنين.

حين حدث ما حدث، كان عم آدم جالسًا في دكانه الضيق الذي لا يعرف المار بالمنطقة، منطقة الناصرية بالسيدة زينب، ماذا يبيع هذا الدكان؟ والسائل الفضولي سيعرف أنه عجلاتي، على الرغم من عدم وجود ما يدل على مزاولة المهنة، إلا أن عم آدم يبرر دائمًا: "ولماذا أحتاج إلى لافتة أو شيءٍ يخبر الناس بوجودي؟ أنا رجلٌ لي زبوني، يعرفني ويأتي إليّ حينما يريدني، زبونٌ واحدٌ في الشهر رضا!" عرفنا أن أهلَ المنطقة تبرعوا لدفع إيجار الدكان، وأن الزبائنَ ما هم إلا أصحاب وأقارب أهل المنطقة، ومع ذلك لم يهتم عم آدم بالآتي ولا الراحل، كوب الشاي وصوت الست، ومشاهدة مؤخرات البنات، والتنبؤ بمن ستصبح امرأةً كما يقول الكتاب لما تكبر، ومن ستكون مشاكسةً في السرير، ومن سترفض الإتيان من الخلف، ثم الضحك وطلب المغفرةَ من الله، فهو رجل يُسلي وقتَه بالملذات والتَخيُّل لا أكثر.

وقع كتابه أمامه مباشرةً، سمع من الناس بأمر الكتب، واقتراب يوم القيامة، وشكوكهم بأن ما يحدث الآن هي العلامات، كل ذلك وكتابه واقع على مقربة منه، ينظر إليه مبتسمًا، يحسب الناظر إلى المشهد أنه خائفٌ من فتحه، يركض الناس في ذعرٍ، النسوة يصرخن، الرجال مذهولون، الأطفال يبكون، وعم آدم يراقب كتابَه، وهو جالسٌ على كرسيه الخشبي الصغير، المقترب من الأرض أكثر من اللازم، تشعر كأنه يجلس القرفصاء أرضًا، وليس مستندًا إلى شيء، لا يتحرك، يراقب في صمت.

سـمعنا عـم آدم يقـول، بصـوتٍ واضـحٍ جـلي، يسـمعه البعيـد قبـل القريـب: "أتعاقبهـم لمـا فعلتُـه بتلـك الفتـاة الصغـيرة؟ أذكـر اسـمَها جيـدًا، نعمـة، تلـك البنـت التـي تكرهـك لأنـك خلقتهـا معيوبـةً، أعلـم أننـي إذا فتحـتُ هـذا الكتـاب، سـأجد تفاصيـلَ الليلـة كلهـا، أنـا لسـتُ فضوليًـا لأعـرف مسـتقبلي، أنـا شـخصٌ فاهم جـدًا لـكل شيءٍ في هـذه الحيـاة، إذا كان مـا قُمـتُ بـه يسـتحق أن تقـومَ القيامـة، فامنحنـي ميتـةً تليـق برجـلٍ عـرفَ حقيقـةَ اللعبـة مـن البدايـة، رجـلٌ مثـلي يجـب أن يمـوتَ في سريـرِه، بـلا قلـقٍ أو خـوف، وعقلـه خـالٍ مـن أي موضـوعٍ".

ظـل آدم يراقـب النـاس وكتابَـه، الدنيـا تغـيّرتْ، المدينـة أمسـتْ فاضلـة، وآدم لم يقـرب كتابَـه مـن وقتهـا، كل النـاس عرفـوا مسـتقبلهم، وآدم يفتـح دكانـه ويعمـل، يذهـب إلى بيتـه ويجـيء، زوجتـه تقـرأ كتابَهـا وهـو يضحـك، كلـما تكلـم معـه أحدهـم، تمسَّـك بموقفـه، وقالهـا بـكل جـرأةٍ: "سـأعيش حيـاتي كابـن آدم المطـرود مـن الجنـة، وسـيفاجئني القـدر، بتغـيُّر الحـال أو المـوت. أيهـما أقـرب!"

-3-

العامة

في البـدء كان الخـوف، ثـم القلـق، بعدهـا التسـتر، لم يتحـدث العامـة عـما تحويـه كتبهـم، تـصرفُ النـاس العـام صـدرَ طبقًـا لما سمحوا لـه بالظهـور، فلـم تجـد أي منهـم يخـبر الآخـر -حتـى أقرب النـاس إليـه- بتفاصيـل حياتـه، كلٌّ يعيـش وفقًـا لما حددتـه الحكومـة، والقنـوات والشـيوخ والقساوسـة، الأمـر العـام المعـروف للكل، لا مشـكلة في خـوض النقـاش عنـه، أمـا مـا يخـص الفـرد، والـذي لم يُسـمَح بمعرفتـه، فبـات مخفيًّـا بصـورة مؤقتـة، حتـى يطمئن المواطـن إلى إظهـاره، إذا مـا أظهـره المواطنـون بالمثـل!

وهـو مـا حـدث سريعًا، ببسـاطة الكتـبُ جعلـتِ النـاس يعرفون مـا سـيحدث لهـم لمـدة عـام واحـد فقـط! ثـم تفاجـأ الجميـع بهـذا اليـوم، الثالـث مـن أبريـل، صفحتُـه بيضـاء تمامًـا، لا وجـود لكلمـة واحـدة، وصـار الأمـر عامًـا، عـن طريـق مصادفـةٍ، أكـدتْ شـكوكَ الكُل.

في البدايـة، قبـل تلـك المُصادفـة، ظـن قـارئ كتابـه، المُتوجـس وكاتـم أسرار حياتـه، أنـه سـيموت يـوم الثالـث مـن أبريـل، فالكتاب وضّـح كل شيء بتفصيـلٍ صريـحٍ، ليتجـه السـلوك النفـسي للفـرد الواحـد إلى فـرض طريـق تعاملاتـه بنـاءً عـلى اسـتنتاجه وفهمـه، ليبـدأ الأحبـاء في الاعـتراف، والتعليـل واحـد: "سـأموت قريبًـا"، جملـة سـأموت قريبًـا جعلـتِ القائـلَ والسـامع في حـيرةٍ مـن أمرهـما، فالقائـل توقـع رد فعـلٍ بعينـه مـن السـامع، فيفاجـأ بـرد فعـلٍ مُغايـر ونظـرةِ حـيرةٍ، كأن السـامعَ يقـول لـه، بنظراتِـه وقلقـه الواضحـين: "وأنـا أيضًـا!" ثـم تحولـتِ النظـرات إلى ردودٍ مبـاشرةٍ صريحـة، فـما عـاد السـامع يقـول بنظراتـه: "أنـا أيضًـا"، بـل صـار يقولهـا بـكل شـجاعةٍ: "أنـا أيضًـا سـأموت قريبًـا!"

تحـرك الشـك مـن مكانـه، بمعنـى أدق، مـن الفـرد الواحـد إلى فرديـن، ثـم إلى ثلـة مـن الأفـراد، فمجموعـة قوامُهـا في تزايـد، إلى مجموعـاتٍ كبـيرة، إلى سـؤالٍ مبـاشر يـتردد: "هـل سـتموت قريبًـا؟" لم يجـرؤ أحدهـم عـلى تحديـد التاريـخ، لم يجـرؤ شـخصٌ عـلى قـول "هـل سـتموت الثالـث مـن أبريـل؟"

أمـا بخصـوص المُصادفـة، فـما جـرى يُفصـح عـن مهـارةٍ، في صياغـة القَـدر، وتوجيـه الوعـي العـام، إلى فكـرةٍ واحـدة، فكـرة أجـبرتِ الواحـد عـلى التخـلي عـن حـذره، والتكلـم مـع شـخصٍ آخـر، قـد يزيـح عـن صـدره حَجـرَ الخـوف، وهـذا مـا جـرى، لما صـارت جملـة: "أريـده قبـل الثالـث مـن أبريـل" الجُملـة الأكـثر انتشـارًا بـين النـاس، فتجـد مثـلاً الباحـثَ عـن تسـديد ديونـه، في كل مـرةٍ يدفـع مـا عليـه، يقـول لدائنـه: "أعـدُك بدفـع كل شيء، قبـل الثالـث مـن أبريـل"، وفي أمـرِ الديـون كانـت الحـيرة، فبسـبب فضيلـة المدينـة، كان الدائـن يتنـازل عـن المبلـغ، والمُسـتدين يرفـض ويـصر عـلى الدفـع، والنتيجـة الحتميـة هـي الوصـول إلى وضـع المبلـغ تحـت بنـد وديعـة الخـير، فيرتـاح كلاهـما، وتـزداد البنـوك مـالاً لا يتحـرك إلا في الخـير.

ثـم بـدأ صـوتُ السـؤالِ يُسـمَع، فيسـأل الواحـد عامـةً بصيغـةٍ مازحـة: "تعـال نلعـب لعبـةً بدافـع قتـل الملـل، فأقـول لـك مثـلاً شيئًا مـن كتـابي لا تعرفـه، وأنـت أيضًـا، وهكـذا!" اللعبـة في البدايـة لم تجـذب أحـدًا إليهـا، ثـم فكـر النـاس في اليـوم الملعـون، فظهـرت الاسـتجابة للسـائل بدافـع قتـل الملـل والمعرفـة!

الأحاديـث الجانبيـة بـين الأفـراد، الـزوج وزوجتـه، الأب وعائلتـه، الدوائـر الضيقـة، الرافضـة لإعـلان الأمـر حتـى يصبـح عامًـا، ثـم دخـل الأطبـاء في الدائـرة، فيسـأل الطبيـب مريضَـه عـن اليـوم الأخـير في كتابـه، مُعلـلاً ذلـك بتحديـد فـترةَ الـدواء والشـفاء، فهـذا مرض -عـلى سـبيل المثـال- يوجـب عامًـا مـن المُتابعـة، فهـل كتابـك يُخبرك بـأنَ في حياتِـك عامًـا؟ والجـواب بالطبـع مـن المريض-مهـما

كان ذكاؤه- التسويف الشهير: "إن شاء الله" ولا غيره، فلا يرتاح السائل، ولا تهدأ شكوك المُجيب!

انتقل الشك إلى الموظفين، فيخترع الموظف حجةً ليسأل الشؤون الإدارية عن إمكانية حجز إجازة في العام المقبل، فيجيبه موظف الشؤون في ريبة: "أي مدةٍ قبل شهر أبريل متاحة، أما أبريل نفسه فلا نعرف!" وعندما يستفسر طالبُ الإجازة عن السبب، مع استخدام حيلة ماكرة، ألا وهي أن الإجازةَ المطلوبة ستكون في أبريل، فينتفض موظف الشؤون من مكانه: "إذًا كل شيءٍ طبيعي في كتابك، في شهر أبريل ومايو أو أبريل ومارس؟"

لن تتغير طبيعة الإنسان، لن يتخلى عن المُراوغة، كيف يترك المرءُ الحذرَ، ويذهب بكل بساطةٍ إلى الصراحة، كيف يقول لصديقه: "الثالث من أبريل هو يوم القيامة كما فهمتُ!" التصرف الدائم المعروف، كما عرفنا عن الإنسان، فهو مثلاً لن يطلب ببساطة مبلغًا من المال، لأنه يحتاج إليه، بعد نفاد ما يملكه، بل سيبتكر حكايةً كاملةً، من شخوصٍ وأزمنةٍ وأزماتٍ، ليطلب من أخيه المبلغ، تاركًا لديه الشعورَ بأن الدنيا تؤذيه، وهو يدافع عن وجوده!

البساطة والطبيعة البشرية، شأنهما شأن الجنة والنار، أما التعقيد والطبيعة البشرية، شأن الجسد والروح.

أيام الدهشة الثانية

ابن طاهرة

عامٌ ونصف مع وحدتي، أشاهدهم ضعفاء مقهورين، أعيش حياتي ملكًا، ملكًا يخدم نفسه، أقرأ في هدوءٍ، أنام في راحةٍ، أدخل البيوتَ كما أريد، آخذ ما يساعدني على المعيشة التي بدأت تزداد سوءًا، لتوقف الحياة والعمل، المخزون لا يساعد، أطعمة ومشروبات كثيرة فسدت، الأكل المحفوظ هو النجاة، لكن تاريخَ الصلاحية لا يرحم، وبالطبع ليس هناك من ينتج أو يصنع، الخيارات تتضاءل، مع السؤال الذي بدأ يظهر منذ فترة، أين الحيوانات والطيور؟ هل ركضت مثلما ركض الأطفال بسرعة البرق؟ ولماذا كنتُ نائمًا في الشارع؟ ولماذا كان الصليب خلفي؟ ستقتلني الأسئلة!

منذ محو ملامحهم، وأنا أبحث عن كلبٍ يرافقني، أو قطةٍ تؤنس وحدتي، في بعض الأيام تمنيتُ العثورَ على فأرٍ، حتى الحشرات لم يعد لها وجود، ومع ذلك، أنا أتعايش مع كل المُعطيات، وكل الكتب، وكل محاولات البقاء المُتاحة، إلى أن أعرفَ نهايةَ الحكاية.

ظننتُ في بداية الأمر أن الواقعين في كل مكانٍ، هؤلاء الممسوحة عنهم ملامحهم، سيموتون من الجوع، تفكيرٌ منطقي طبعًا، لكن الفكرةَ الوحيدة الواضحة هي بقاؤهم على قيد الحياة، مع نحالة أجسادهم، صاروا عظامًا يكسوها لحمٌ، بنيةٌ ضعيفة، تقسم لك بقُرب الموت، فينفي الموتُ ذلك، ويُقسم إن الإنسانَ عنيدٌ مُتمسكٌ بالبقاء.

قررت اليوم التوجه إلى منطقة جديدة، تقريبًا لم أترك بيتًا في رمسيس إلا ودخلتُه، وبكلمة رمسيس أنا أقصد كل ما يحاوط المنطقة. منذ اليوم الأول للمحو، وحتى تلك اللحظة، مسحتُ المرافق مسحًا، مترو الأنفاق والبيوت والمحال والجامع وقسم الشرطة، المطافي والإسعاف وأي مشفى، عربات الكبدة ومحطة القطار والأكشاك، مقرات الجرائد والشركات وفرشات الكتب والبضائع، وصولاً إلى الحمامات العامة، التي وجدتُ بداخلها أشخاصًا قاعدين على الأرض، وسط الروائح النتنة، وبرازهم وبولهم، سحبتُ خرطومًا من الحمام وحممتُهم، بعدها أمسكتُ بكل شخصٍ منهم وأخرجتُه إلى الشارع العام، كإنسانٍ لا يفرق معه تمامًا فعلتي، ولكنني فعلتُ ذلك لأنهم في النهاية، وهذه حقيقة ثابتة إلى أن يتغير الأمر، بشرٌ من لحم

ودم، ولكـم يؤلمنـي أن يحـادثَ شـخصٌ نفسَـه، فيقـول: "نهايتـي بـين خـراء البـشر، يـا رب هـب لي بـصري لأقـوم مـن هنـا وخـذه مجـددًا".

السـير عـلى القدمـين مـع كتـابٍ، دون أي خـوفٍ مـن سـيارة آتيـة، أو شـخص قـد يصدمـك، شـعورٌ يهـوِّن كثـيرًا عـليَّ، ولأننـي تعـودتُ اختيـار الكتـاب بطريقـة الحـظ والغُميضـة، وذلـك عـن طريـق وقـوفي أمـام أي مـكانٍ بـه كتـبٌ، سـواء بيتـي أو مكتبـة أو فرشـة كتـبٍ في الشـارع، ثـم أغمـض عَينـيَّ، وأسـحب كتابًـا، والصدفـة اليـوم جعلتنـي أسـحب كتابًـا، ضحكـتُ كثـيرًا بسـبب اسـمه، (بـشرٌ نسـيهم الله) لكاتـب مـصري، عـاش في فرنسـا طـوال عمـره، اسـمه ألبـير قصـيري، ولأن الكتـابَ يتحـدث عـن الفُقـراء، ومـا يفعلـه بهـم الفقـر والعـوز، فمشـيتُ مـع نفـسي وصفحـات الكتـاب إلى السـيدة زينـب.

وفي طريقـي إلى السـيدة زينـب، شـعرتُ بـشيء يشـدني، التعبـير الأدق هـو رائحـة، رائحـةُ دهـانِ سـيارات، رائحـةٌ تخـبرني بـأن شخصًـا مـا زال هنـا، يعمـل في صمـتٍ، شـخصًا يحـاول أن يرشـدَني إلى شيءٍ، ربمـا يحـاول إخبـاري مـن أنـا؟ خاصـةً أننـي الوحيـد الـذي لمسَ كتابـه، فوجـد تفاصيـل حياتـه منـذ ظهـر فجـأة! كأن الكتـابَ مجـرد تسـجيل لحيـاتي، مـن اللحظـة التـي ظهـرتُ فيهـا لطاهـرة والنـاس، وعرفـتُ طبعًـا عـن الأحـداث التـي سـتتم في خـلال العـام، حتى يـوم الثالـث مـن أبريـل، اليـوم الـذي حـدث فيـه مـا حـدث.

أحداث عامي المقبلة في الكتاب كانت مكررةً على نحوٍ فج، تصحيح وتدقيق الكتب، مقابلات بولس الرسول، هكذا أطلقتُ على الشخص الذي يجيء إليَّ كل أسبوعٍ، من طرف الكنيسة، ليتحدث معي عن طبيعة الأعمال الجديدة المُرسلة، وتذكيري بعدم تصحيح أي معلومةٍ مغلوطة، ودفع مقابلَ التصحيح، مع أنني طالبتُهم بتسديد المبلغ دفعةً واحدة، ولكن بولس كان يرفض دومًا، ويقول لي: "وهل تحرمني رؤيتك يا محبي؟" وكان بولس كلما صافحني قبل الرحيل، رأيتُ في عينيه سعادةً، تزداد مع كل مرةٍ يزورني.

لم أخبر أحدًا بخيبتي تجاه كتابي، طاهرة شعرتْ بمدى فتوري، وأنا على يقينٍ بأنها تعرف كل شيء. مسكينة طاهرة، لا تستحق مصيرهم نفسَه.

فيليب

يا واهبَ النعمِ يا يسوع، هبني بمحبتك ومعيتك، لن تجد مني إلا الشكر والحمد، يا صانع المعجزات، يا مجد الأمجاد، يا يسوع المحبوب، دعني أتوجه إليك، معبراً عن شكري وعرفاني، على كل النعم، وعلى تكريس ذاتي لأمك القديسة، عن طريق التعبد الطوعي لها، لكي تكون محاميةً عني أمام عظمتك، وعوني الدائم في شقائي، فأنا دونها -العطوف الجوادة- إنسانٌ حقير مُعرض للضَياع، يا يسوع، أشكرك لأنك كنتَ معي، خلال الأوقات الصعبة، من حوادث سيرٍ وأمراض، أشكرك لأنك

تشفيني من كل جراحي، تخفف حِملي، تبعد أحزاني، تعطيني فرحَك وسلامَك، أشكرك لأنك معي الآن هنا، تسير معي، عبر كل لحظةٍ من حياتي، وحتى هذه الثانية بالذات، التي أحتاج إليك فيها، ببركة يديك، وطُهر قلبِك، يا يسوع المجيد.

بقاؤنا هنا سيطول يا مينا، لذلك كي نقتل الوقت إلى أن يقتلَنا هو، سأظل أحكي لك، مع أنك لا تسمعني ولا صوت لي، ولكن دعنا نتسلى، سأحكي عن اليوم الذي ظننتُك تحارب الظلام، داخل رحم أمك، لتخرج إلى نور الدنيا وبز أمك. كانتْ سهرة زوجتي تشعر بقرب المخاض، تركتُها تنام صباحًا، لم أزعجها بالصَحَيان معي، وطلبتُ من يسوع بركتَه في الفطور، برفقة زملائي في الأفران، يكفيني رغيف، أو نصفه، حتى لو دون أي حشو، المهم نأكل وبركة يسوع تغمرنا، جاءني الخبر، عن طريق ابن الداية، وأنا أتأكد من جفاف الطمي الذي تركتُه لعشرة أيام، لأننا في الشتاء، أو ثلاثة أيام إذا كنا في الصيف كما تعلم، بعدما جرفتُه من الأراضي الزراعية، وخلطتُه بتبن البرسيم والقمح، ونهار هذا اليوم، كان دوره ليحترق بالفرن، فنشكله كما نريد.

ركضتُ بجنونٍ وفرحة، الهواء البارد يخبطني، أرى يسوع يسايرني في الجري والضحك، شعره الناعم يتطاير إلى الخلف، يتحرك في خفةِ طفلٍ، نسي أنه مُخلصُنا، يجري مثل الصغار، يزيح عنه همنا ولو لثوانٍ، يبتسم ويتأكد من أنني بخير، يطير إليّ، فأعرف أن حجرًا ربما يعرقلني، أشكره، ألمحه بطرف عينيّ بجانبي تمامًا، جلبابه الأبيض الصوف يلمسني، يطهرني

مـع كل لمسـةٍ، مـن حـزنٍ أو فـزعٍ أو قلـقٍ، يقـول: "مينـا يـا فيليـب، أنـا أُحــب اســمَ مينــا"، وريثــي ولــدٌ، بــشرني بالخــير يســوع، مــا أجمـل الركـض مـع سـيد النعِـم، لا يفهـم أهـل القريـة لمـاذا أضحـك وأجــري، مســاكين، لــو شــاهد أحدهــم مــا أنعــمَ بــه عــليَّ، لظــل يشــكره إلى نهايــةِ الأيــام.

وصلنـا إلى البيـت، يمسـحُ عـن وجهـي العَـرق، يلمسـه بحنـانٍ، يهمـسُ في أذني: "أنـا هنـا يـا فيليـب"، أسـمع صـوتَ بـكاءٍ متقطعًـا، صرخـةَ حيـاةٍ، المولـود يعلـن قدومـه، الزغاريـد، الدعـاء مـن الدايـة أم عفــاف بــدوام الحــال والذريــة، يُفتَــح البــاب، أدخــل غرفتــي، سـهرة عـلى السريـر، تبتسـم لي، يسـوع يدخـل معـي، يبحـث مثـلي عنـك بترقـبٍ ولهفـة، ينظـر إليَّ مبتسـمًا، يرفـع حاجبيـه ويهـز رأسـه، كأنـه يسـألني أيـن هـو، يتظاهـر بعـدم المعرفـة، لذلـك تحبـك يـا يسـوع المتأنسـن، نمـشي -أنـا ويسـوع- عـلى أطـراف أصابعنـا، حتـى لا تسـتيقظ، نقـترب مــن السريــر، كائــنٌ صغــيرٌ للغايــة، بجانــب سـهرة، تضـع يمينهـا عليـه، تقـاوم تعـبَ الـولادة، أشـير إليهـا ألا ترهــق نفسَــها بالحركــة، أنــزل عــلى ركبتــيَّ، ويســوع يســتند إلى كتفـي لينـزل هـو الآخـر، نتأملـك، تضع إبهامـك في فمـك، ملامحـك غـير واضحـة، "يشـبهك يـا فيليـب"، شـكرتُه عـلى حسـن المجاملـة، مـا أعظـم أن يجاملَـك الـرب.

دخلـتِ الدايـة، بعدمـا غسـلتْ يديهـا، تطالبنـي بحـق الـولادة والإكراميـة، يضـع يسـوع يمينـه في جيبـه، رفضـتُ أن يدفـعَ، كرمُه ونعمُـه في كل مـكانٍ، لحـم أكتافنـا مـن خـيره، قالـتْ أم عفـاف، وأنا أبحـث عـن المـال في جيبـي: "البنـت مـا شـاء الله، بـدرٌ في السـماء

اسـم مريـم هـو مـا يناسـبها!" مـن الصدمـة لم أرد عليهـا، توجهـتُ إلى يسـوع، فتـح ذراعيـه وقـال: "أنـا أحـب اسـمَ مينا، هـذه معلومة لـك، أراك صديقًـا رائعًـا، يسـمعني ويحبنـي، فقلـتُ لـك عـما أحبـه مـن الأسـماء، لمـاذا ظننـتَ أن ولـدًا جـاء مـن رحمتـي؟" مـا أعظـم أن يتخـذَك الـرب صديقًـا يـا مينـا!

حكيـتُ لـك كل مـا سـبق، ليـس لقتـل الوقـت، الوقـت لا يُقتَـل يـا مينـا، بـل لأنني سـمعتُك كثـيرًا تسـألني، في أثنـاء غيبوبتـي، بعدمـا انقلـب القطـار، عـن اسـم مريـم الـذي كنـتُ أردده، أنـت عـوض الـرب، عـن البتـول مريـم التـي ماتـتْ، حـاول أن تهـدأ، يـا مينـا كفـاك خوفًـا، أنـا أثـق بعـون يسـوع القـادم، وأتمنـى أن تقـومَ قريبًـا، لأنني بـدأتُ أرى خرافـاتٍ حـولي، كأشـكال بنـاتٍ، لم أرهـن مـن قبـل!

لعمة

نـزلَ منـي دم الـدورة، بعـد نصـف سـاعة بالظبـط، مـن قـراري بالخـروج، والسـعي خلـف تلـك الرائحـة، رائحـة الوقـود، وقـررتُ ألا أعـود إلا والرائحـة مختفيـة! أو عـلى الأقـل أعـرف مكانَهـا، شعرتُ بدمـي يسـيل عـلى مقعـد العجلـة -التـي لقيتُهـا في طريـق خروجـي- بعدمـا وجـدتُ نصفـي الأسـفل، المرتكـز فـوق المقعـد، غير ثابـت وعـلى وشـك الانـزلاق. توقفـتُ عـن الحركـة، نزلـتُ عـن العجلـة، لأفاجـأ بالسـائل الأبيـض اللـزج الغريـب، الـذي يخـرج مني، رائحتـه نتنـة، عرفـتُ منـذ صغـري، وقتـما جاءتنـي للمـرة

الأولى، وأنا في بيت العم سند، بمساكن السناجرة، بالقرب من قرية العباسة بالشرقية، عرفتُ أن هذه هي الدورة، وأنني حالة غريبة، لأن المعروفَ عن الدورة أنها دمٌ فاسد، لونُه أحمر يميل إلي اللون البُني، ومع ذلك كان دمي باللون الأبيض، لا أذكر اللون الإضافي الذي وصفه به الطبيب، ولكنه لونٌ يعني أبيض غامقًا.

يومها ساعدني عم سند، الرجل الطيب، الذي وجدني بالصدفة على الطريق العام المُظلم، بين بلبيس ومركز "أبو حماد" بالشرقية، حين طردني أبي من بيتِنا الفقير بأنشاص الرمل، القرية التابعة لمركز بلبيس، وبعدما اغتصبني الرجل ابن الوسخة الذي هربَ من لون دمي، الواقع من فتحة شرجي. مشيتُ وقتها حتى الطريق العام، أبكي من الوجع أحيانًا، وأسكتُ أحيانًا، لأجد رجلاً طيبًا، يقف أمام سيارة، يحاول تصليحَها، وبمجرد أن لمحني، طلبَ مني الاقتراب، وأخرج من جيبه حلوى، قال لي في صوتٍ حنون: "يا صغيرتي تعالي، هذه الحلوى كانتْ لابني أحمد، ولكنكِ تستحقينها، لشجاعتك ولوجودكِ بمفردكِ، في هذا الوقت من الليل!" خطفتُ منه الحلوى، وصممَ على معرفة الذي حدث، كان يربت على كتفي، ويبتسم مع كل قطعةٍ تذوب في فمي، ويضحك على تعابير وجهي، إذا ما بصقتُ شيئًا، لأن طعمَه مر!

ذهبتُ مع عم سند حينها إلى بيتِه بمساكن السناجرة، وهي عبارة عن ثلاث بناياتٍ ضخمة، في منطقة جانبية، تبتعد عن الطريق العام، وشكلها يوحي بالأمان والطمأنينة، وكانتْ

مفاجأةً لزوجته وأطفاله، لم ترفضني زوجته، خصوصًا بعدما
حكى لها، سمعتُها تقول: "يا سند جزاك الله خيرًا، لكن هل
تعتقد، وسامحني في ما أقوله، أن هذه البقع غير مؤذية أو
مُعدية؟ أحمد من سنها تقريبًا، وعندنا عروس ستتزوج في أي
وقت، أنا على أتم الاستعداد أن أرعاها، ورحمة أمي سأفعل
ذلك، لكن دون المبيت هنا، والكلمة كلمتك في النهاية يا سند".

توصل عم سند إلى فكرةٍ، لأنه يملك ورشةً لتصليح السيارات،
فعرض عليَّ المبيت هناك، ويمكنني في أي وقتٍ المجيء إلى بيتِه،
سواء للأكل أو للمذاكرة، أو حتى للجلوس واللعب. شكرتُهم
وطلبتُ منه الذهاب إلى الورشة لأنام، ومن وقتها ولمدة خمسة
أعوامٍ وأنا مع عائلة العم سند، يرعاني ولم يبخل بشيءٍ عليَّ،
حاول كثيرًا إقناعي بالتعليم، وفصول محو الأمية أو الجلوس
بالقرب من أم أحمد في أثناء استذكار أحمد لدروسه، فربما
يلتقط سمعي معلومةً أو معلومتين، ولكنني قلتُها يوميًا: "يا
عم سند، العالم لا يحبني، ولو صرتُ أستاذةً في الجامعة!"

جاءتني الدورة للمرة الأولى وأنا بنتُ الثانية عشرة.. كنتُ في
الورشة مع عم سند، أساعده في عمله بطريقةٍ بسيطة، أناوله
مفتاحًا أو مفكًا، وأوقات أمسك له مصباحًا، من الآخر كانت
مهماتي بسيطة، حتى وجدتُه في مرةٍ يطلع من تحت السيارة
ويقول: "يا نعمة! هناك سائل أبيض يسيل على ساقكِ اليمنى!"
لمستُه وشممتُه، رائحةٌ لا تُطاق، بكيتُ لما عجزتُ عن تفسير
ما هو، وضعني في سيارته، وطار بي إلى أقرب وحدة صحية،
بعد الكشف والأسئلة عن البُقع، وهل هذه المرة الأولى التي

يخرج منها سائلٌ، شرح الطبيب كل شيءٍ، في هدوء وتعجب: "يا عم سند، لقد بلغتْ، هذا دم دورتها الشهرية، السائل يشبه كل شيءٍ، له علاقة بدم الدورة، لكنه ليس مثله تمامًا، الرائحة، مستوى اللزوجة، التخثر، هذه حالة غريبة، أُرجح أن السببَ هي تلك البُقع، قد تكون غيرت اللون، الله أعلم، لكن لا تقلق، هذه بداية مرحلة سن البلوغ، لا أكثر"، رحمَك الله يا عم سند، كنتَ الإنسان الوحيد الذي بأفعاله، وبطيبة قلبه، منعني من قتل البشر جميعًا!

ألم الدورة مُستفز، وأنا لن أتراجع عن مُلاحقة الرائحة، ولو كانتْ في آخر الدنيا! لما مسحتُ عني الدم، فتحتُ الكيس الأزرق البلاستيكي، السكين موجودة، وبعض المعلبات والخضراوات، وطبعًا لأني نجسة فلا وجود للفوط الصحية، وهذا يعني ألمًا وقرفًا في الوقت نفسه، ولأنني لا يغلبني ألمٌ كهذا، سحبتُ الفوطة الصغيرة التي وضعتُها فوق رأسي لتحميني من الشمس، دسستُها بين فخذيّ، وتأكدتُ من وضعها بصورةٍ لا تسمح بأي تسربٍ، وسأتعمد نسيان الرائحة، حتى تمسك أنفي بالرائحة المطلوبة! كل ما أتمناه أن تكون لشيءٍ ضخم يحترق منذ فترة، وليست لإنسانٍ في مكانٍ ما!

عبد القوي

منذ فترة، وحركة سرياني في النهر تتجه إلى بطءٍ غير مفهوم، فقدتُ الأملَ عامةً، لن أبشر نفسي بالوصول، لأنني إذا وصلتُ، فماذا بعد؟ إلى ماذا وصلتُ؟ هل سأقوم مثلاً وأمشي؟ هل سأرى أحدَهم، فأحكي له عما صار في أثناء رحلتي النهرية؟ سأظل كما أنا، وإذا حسبتُ وجودي، على يابسةٍ بدلاً من نهرٍ، انتصارًا عظيمًا يستحق الاحتفال، فهذه أقصى درجات اليأس، وأنا في غنى عنه تمامًا، في أثناء تلك النكبة التي أجهل متى ستنتهي.

رحلتي عبر النهر قوتني، المياه التي توغلتْ داخل كل شبرٍ في جسمي الذي لا يذوب، ويزداد جسارة وتحملاً، جعلتْ مني رجلاً يطلب المزيد، البُكاء كان حاضرًا في أيامي الأولى، تلاه اليأس، ثم الحيرة الحاضرة حتى الآن، بعدها التفكير الذي قادني إلى تحويل مسارات وضعي، وتفسيره بصورةٍ تليق بالموقف، ماذا بُتر مني؟ الملامح والإحساس عامة بكل شيءٍ، بالزمن وبالوجع والمكان والطقس، إلى آخره.. ماذا أيضًا؟ الخوف والأماكن، البشر والأحباب، مسار حياتي، كل شيءٍ يستحق الحياة لأجله، وعلى الرغم من كل ذلك، الروح مُصممة على خوض المغامرة، حتى النهاية، روحي لم تُبتَر مني، الشيء الوحيد المبتور من البداية، وليس مع تدافع الأيام خلال التجربة، هو اليأس!

علمتني رحلتي الكَذب، التظاهر باللاشيء، ادعاء القوة، التركيز على هدفٍ محدد، الوصول إلى نقطة النهاية مهما

كانتْ، فالعزيمة للوصول إليها هي المطلوبة، نقطة النهاية قد تكون خروج الروح، أو خروج علامات الساعة، وربما خروجي من الموقف، وقد يكون خروج الله عن صمته، وإعادة الأمور إلى ما هو متعارف عليه، لأن -بصراحة وقحة- الحياةَ صارتْ معمولةً من الغرائبية والعبثية، ولا يجوز وجود مثلهما في كونٍ خلقه ويحكمه رب كالذي نعرفه ونعبده.

ولأنني إنسانٌ مصنوعٌ من طين، ومن الصُّدَفِ السيئة، شعرتُ بحركةٍ غريبة، حركة غير مستقرة، كأني سفينةٌ دخلتْ دوامة، أو أن أحدَهم استخدمَ صندوقَ الطرد، فكَسَحَني إلى عمقِ قذر، أتحرك في دوائر، بسرعةٍ غير محسوبة، بحركةٍ عشوائية، كعشوائية الموقف من البداية، وبعد التطويح الذي تتعرض له، للمرة الأولى في حياتك، مع ما تبقى من شعورٍ، لما يدور حولك، أيقنتُ أنني أغرق، وهنا السؤال، أي غرقٍ سأتعرض له؟ خاصةً مع عدم تأثر الجسد بشيء، وتقريبًا الروح محبوسة بالداخل، فالغرق هنا يعني النزول إلى القاع، مع الاستمرار -إن أمكن- في السريان، أو الاستقرار.

وبعد الاستقرار في القاع، يُهاجمني السؤال الأبشع، من أنت؟ إذا كان كلام العم آدم صحيحًا، فمن أنت؟ ولماذا لا تتذكر شيئًا من طفولتك؟

ستة أشهر من الدهشة الأولى

العامة

صارتِ المدينـةُ حلـمًا جميـلاً، تـرك الغَنـي مالَـه ومـا لـه، وسـار بخطـواتٍ ثابتـة، نحـو الجنـة ومتاعِهـا، ليجـاور أخيـه الفقـير، ولأن الفقـرَ يُدخِـلُ الجنـةَ بـلا شـك، ولأن الشـكَ يَدْخُـل القلـوبَ دومًـا، قـررت الحكومـةُ، بعـد التشـاور والتـداول، إلغـاء كلمتَـي (غنـي وفقير)، والـكُل سواسـية، أنـت مواطـن صالـحٌ، أو مواطـنٌ فقـط، لا وجـود لأي طبقيـةٍ أو عنصريـةٍ، ثـم تراجعـتْ عـن نصـف قرارِهـا، واتفقـتْ عـلى نفـي كلمـة (غنـي)، وأن النـاس جميعهـم فقـراء، لذلـك أصبحـتْ جملـة (أنـا مواطـن فقـير) مدحًـا عظيـمًا، يتسـابق الكل غنـي أو مـن لـه أمـلاك للحصـول عليـه، فتجـد المـال في البنـوك، وفي أفعـال الخـير، وعـلى الأرض!

لم تقـرأ في صحيفـةٍ واحـدةٍ عـن جريمـةٍ حدثـتْ، ولـو مصادفةً أو دون قصـد. المدينـة الفاضلـة في أبهـى صورهـا! الرجـل يشـكر أخـاه شـكرًا وافـرًا إذا مـا قـال لـه صبـاح الخـير، فـيرد عليـه تحيـةَ الصبـاح، مـع الشـكر عـلى كـرم فعلتـه. النسـاءُ كرهـن النميمـةَ تمامًـا، كل مجالسِـهن عـن الخـير والسـيرِ الطيبـة. الأزواج في مـا بينهـم، إذا مـا أراد الـزوجُ حقـه الشرعـي في ممارسـة الجنـس مـع زوجتـه، يسـألُها في ود إذا كان مزاجهـا يسـمح لمجاسـدةٍ بريئـة، تزيـد مـن مقـدارِ الحـب بينهـما، ولا ترنـو إلى أي شـهوةٍ، فالشـهوة للحيوانـات فقـط!

تخللـتِ الفضيلـة مجـالات عـدة، فتجـد الرياضـة تغـيرت تغـيُّرًا عجيبًـا، فـكان لرياضـة كـرة القـدم النصيـب الأكـبر، يرفـض اللاعـب التوقيـع عـلى أي عقـدٍ، وأي مبالـغٍ خرافيـة، ويطلـب مـن إدارة النـادي التعاقـد معـه لأطـول فـترة ممكنـة، بثمـنٍ بخـسٍ، ولا مانـع لديـه إطلاقًـا، إذا كانـتِ الصفقـة مجانيـة، فهـو يلعـب ليفيـد جسـدَه، وناديـه الـذي وثـق بـه، ويمتـع الجماهـير الحـاضرة، التـي تكرمـتْ وسـمحتْ بسـاعتين مـن وقتهـا لمشـاهدته، سـواء بحضورهـا في الملعـب، أو بالجلـوس أمـام التلفـاز، أو لسـماع المبـاراة في المذيـاع! الأنديـة ذاتهـا، في كل الألعـاب والمجـالات، أصـدرتْ بيانًـا واضحًـا قويًـا، ينـص عـلى عـدم وجـود نجـم للفريـق، الفريـق كتلـةٌ واحـدة، لـكل لاعـبٍ شـخصيةٌ مميَّـزة، والخسـارة ليسـت بفعـل فاعـلٍ، الفـوز للجميـع والخسـارة للـكل.

عيَّنـتِ الحكومـةُ سُـفراء للأعـمال الحسـنة، كل سـفيرٍ واجبـه التحقـق مـن عمـوم الجـمال والسـلام، وضرورة التنبيـه عـلى البُعـد عـن أي كلمـةٍ مُسـيئة لأخيـك الإنسـان، فـلا تصفـه بالبخيـل أو

الكئيب أو السمين، أو الأسمر أو القصير أو الماكر أو النمام وهكذا، مع عرض إمكانية التغيُّر إذا شاء، والتغيُّر هنا يجب أن يكونَ نابعًا من الشخص نفسه ولنفسه، لا لأنه سئمَ سماع كلماتٍ موبقاتٍ، ولا لأن تلك الصفات غير حميدة.

وبعيدًا عن الفضائل، لم تعرف الراحة مكانًا بالمدينة، بسبب الشك المتزايد بين الناس، وذلك اليوم الذي يقتل فرحتَهم، فتجد الواحدَ يمشي في الشارع، ينظر إلى المارة، يود أن يسألهم بصراحةٍ مباشرة: "متى آخر يوم في كتابك؟ أهو الثالث من أبريل؟" وفقًا للمدن المختلفة، والثقافات المختلفة، لم يفعلها أحدهم، الشيء الوحيد المُشترك، بين سكان المحافظات، هو المكر البشري، الحَذَر الساري في عروقهم، الأسلوب الطفولي المعروف بـ"قُلْ وسأقول"، فظل المواطن الفقير الصالح، كما كان من قبل، يؤدي رسالته المعهودة له دائمًا، يعمل بإخلاصٍ وأمانة، يذهب إلى عمله مبكرًا، ويغادر بعدما يشعر بتمام فعله، يضاجع زوجتَه باستئذان، يعيش حياتَه على أقل القليل، وذلك لأن الفقرَ سيُدخله الجنة، ولأن الفقرَ الآن حالٌ عامة، وليس بسبب الحكومة ولا غلاء الأسعار، فالأسعار صارتْ في متناول الجميع، ومن يرى غلو سعرٍ، فعليه الذهاب إلى جهاز حقوق المُستهلك، ولن يرجع مخذولاً أبدًا.

الأوراق الحكومية الرسمية لم تعد جحيمًا، في اليوم ذاته ستحصل على ما تريده، يذهب المواطن فلا يجد طابورًا، يطلب الموظفون منك الجلوسَ في صالةٍ واسعة، وعند سماعك الرقم تعالَ، وخلال محادثتك مع الموظف سيتم الأمر، لن

تنتظر طويلاً، الإجراءات كلها صارت فورية، مع مبالغ رمزية، تعين الحكومة على دفع مرتبات العاملين، القليلة طبعًا، مع عدم تذمر أي موظفٍ من قلة ما يتقاضاه.

سحبتِ الحكومة من الوزراء ألقابَهم، من بقي معهم صار سفيرًا، مع السُفراء المُعيّنين من قبل، فتجد سفيرَ المالية وسفير الداخلية، سفيرَ التجارة وسفيرَ البترول، وذلك بعدما أحس المواطنون بقلقٍ من أي مفرداتٍ رسمية كانتْ تُستخدَم في الماضي، وطلبوا من المواطنين التريُّث في تحويل الاسم من الحكومة إلى السفارة العامة، وذلك حتى لا يختلط الأمر على الأجانب.

خصصتِ الحكومة أرقامًا تليفونية للاستفسار عن أي شيء، من فتاوى دينية، نصائح للعلاقات الزوجية، بلاغات لتركيب الغاز، طلبات صيانة للأجهزة الكهربائية، استشارات طبية ونفسية، التعرف على مختلف أنواع العلاجات، حتى العلاج بالفن له خط، في البداية تعجب الناس منه، وبمرور الوقت صار معروفًا وشيئًا عاديًا، مثله مثل جلسات الكيماوي لمريض السرطان.

كانتْ تلك الخطوط هي السبب الرئيس وراء التحقق من القلق العام، فكل يومٍ، في مختلف المحافظات، يتصل مواطنٌ، يتعمد إخفاء هويته، ويسأل سؤالاً واحدًا، وإذا لم يحصل على إجابةٍ يغلق الخط فورًا، ثم صار المواطن مواطنين، وصارا السائلان سائلين، إلى الحد الذي استغنى فيه الموظفون عن

أدبهم في الرد على المكالمات، والسؤال صار جوابه سؤالاً، فيسأل المُتصِلُ ليجيب المُتصَل عليه: "لِمَ تسأل؟ أتعرف شيئًا؟" ما أجبر الحكومة على تعيين موظفين كل مهمتهم مهاتفة أشخاصٍ بعشوائية، والقيام باستطلاع آراء عن أداء الحكومة، ومحاولة التودد على نحو مستمر، فيرتاح الشخص لمن يهاتفه، ويسأله في نهاية المكالمة: "قبل نهاية حديثنا، أتود أن تستفسرَ عن أي شيءٍ أو الحديثُ عامة؟ مثلاً، وأقول مثلاً، هل هناك ما تجهل تفسيره في كتابك، وتريد منا الإجابة؟"

لم يكن الأمر سهلاً، أن تطلبَ من إنسانٍ، طبيعته تسوقه إلى المكرِ، إلى اعتناق الذكاء وحُسن التصرف -من وجهة نظره- تجاه ما يعرِّض سير حياته للخطر، أن يعرِّض حياتَه بنفسه للخطر! وإن كانت الراحة في الكلام والبوح، فلا راحة لإنسانٍ بقتل الكلامَ والبوحَ ليحافظ على سره حيًّا، إلى أن يحدثَ غير ذلك، فيعترف إذا ما اعترف الجميع.

ابن طاهرة

من مهازل الحكاية التي نسردُها، والتي تجعل المرءَ يضحك، والتي حاولنا مع السارد الأعظم في تغييرها ولكنه أجبرنا على تلاوتها، أن ابنَ طاهرة، شبيه المسيح، الذي يمجده كل من سار أمامه، يخاف من السباحة عمومًا، ومن وجوده في مكانٍ يحاوطه الماء خصوصًا! فلما وجهتِ الكنيسة دعوةً إليه لحضور اجتماعٍ مع ممثلي الحكومة بخصوص موضوع النشر، وترجمة

وتدقيق ومعالجة النصوص لتتوافق مع المدينة الفاضلة، رفض لأمرين، أولهما لوجود الحدث على مركبٍ بالنهر، وثانيهما لقلقه الدائم من ملاقاة الناس.

ثم توصل بولس، الذي يحبه محيي وسماه بولس الرسول، إلى حل يرضي جميع الأطراف، فقال لهم: "نجلس أنا ومحيي مع اثنين من سُفراء الحكومة، بمكانٍ قريبٍ من المركب، وسأقول لهما إنني السبب وراء ذلك، الأمر بسيط!" وهو ما تم، وأكد بولس على زملائه ضرورة اختيار السفراء المسيحيين، ما قد يُسّهل إقناعهم، والسبب معروف! ولما جلس السفيران مع بولس ومحيي، لم تتحرك أعينهما بعيدًا عن محيي، كلما قال شيئًا وافقاه، كلما ابتسم في خجلٍ، أو سألهما عن سبب الجلسة، قالا في صوتٍ واحد: "لنراك!" أغضبتِ الإجابة بولس، إلى الدرجة التي جعلته يسألهما: "لماذا نحن هنا أصلاً؟ كفاكما تحديقًا إليه! من فضلكما، هذا أكل عيش!"

في البداية احتد الحديث بين السفيرين، أيهما يقرأ قراراتِ الحكومة، وقائمةَ الإعدامات، لم يفهم بولس ومحيي، ثم استقرا في النهاية، وتكلم السفير الأكبر سنًا بعدما عرض محيي الفكرة عليهما، فأخرج كلاهما البطاقاتِ الشخصية، ليثبتا أيهما الأحق بالكلام، تعجب بولس من قدرةِ محيي على قيادة دفة الحديث، مع أنه خجولٌ صموتٌ خائفٌ.

قال السفير بصوتٍ جهوري: "قررتِ الحكومة إعدامَ كل نص يخالف فضائل مدينتنا، وذلك بعدما وجدنا أن مجهودًا

عظيـمًا سـيبُذَل لتدقيـق وتصحيـح كل روايـةٍ أو قصـةٍ أو قصيـدةٍ، لنتأكـد مـن خلوهـا مـن أي مشـاهدٍ خارجـة، أو مـا هـو ضـد القيـم والأخـلاق، وخصوصًـا هـؤلاء الكُتـاب، عاشـقو هـدم المحـذورات، لذلـك طلبنـا مـن كل دور النـشر، التـي صـارت فروعًـا للمجلـس الأعـلى للثقافـة، تجهيـز قائمـة بالنصـوص المُخالفـة، وإعـادة نـشر الأعـمال الأخلاقيـة، ونـشر أعـمال جديـدة تُفيـد، بـل وإعـادة التركيـز مـع المـسرح مجـددًا، لعـدم احتـواء معظـم أعمالـه عـلى مشـاهدٍ خارجـة". ثـم أخـرج إضبـارةً، وأعطاهـا لمحيـي، المُتعجـب مـن القـرارات التعسـفية، فتحهـا ليجـد أوراقًـا تحمـل أسـماء كتـبٍ فقـط، وعنـوان كل صفحـة: "كتـب يجـب إعدامهـا"، وفقًـا لخـبرة محيـي بالكتـب، لم تحزنـه الأسـماء المُرفقـة، بـل أحزنـه مبـدأ التخلـص منهـا عامـةً.

ذُيِّلَـتْ كل صفحـةٍ برقـم هاتـفٍ للتواصـل، والسـؤال عـن سـبب إعـدام النـص، وذلـك لأن الحكومـةً لـن تقبـل أي إتهـامٍ بعشـوائية أفعالهـا، والاتصـال متـاحٌ للكاتـب والنـاشر والمُترجـم، سـواء كان العمـل مـن الكلاسـيكيات، أو الأدب الحديـث، الـكل سـواء! غـادر السـفيران بعـد وقـتٍ ممـل، لم يتحدثـا فيـه عـن التقاريـر أو القائمـة، قـالا مـا عندهـما، ثـم طلبـا مـن محيـي الحديـثَ، أو رأيـه في مـا ورد عـن الحكومـة.. لم يُعلـق، قـال لهـما: "سـنفعل مـا تطلبـه الحكومـة، الـرأي الصـواب دومًـا منكـم". قبـل أن يرحـلَ محيـي أيضًـا، سـأله بولـس في ود حقيقـي: "اجلـس يـا محيـي، دعـك مـن تفاهاتهـم. اسـمعني يـا محيـي، مـذ عرفتُـك يـا صديقـي وأنـت حزيـن، ولكـن بعـد واقعـة سـقوط الكتـب، أراك حزينًـا أكـثر مـن

ذي قبـل. إذا كنـتَ تعتـبرني صديقًـا، أو عـلى الأقـل زميـلاً يسـتحق الثقـة، فهـل تحـكي لي عـما يحزنـك ويقلقُـك هكـذا؟" سـؤال بولـس كان بمثابـة مسـحة مـن الـرب عـلى رأس محيـي.. التشـبيه عجيـب عـلى المُسـتمع المسـيحي، أن يربـتَ الـرب عـلى نفسـه!

بعـد بلـع ريـقٍ وشـهيق تفكـيرٍ وزفـيرِ يـأسٍ، خـرج الـكلام مـن محيـي، خـروجَ الـروح مـن الجسـد: "كتـابي يـا بولـس لم يخـبرني بـشيءٍ عـن مـاضيَّ، عرفـتُ الآتي فقـط، أشـعر كأن الـرب يعاقبنـي عقابـين، الأول هـو الشـبه الـذي بينـي وبـين المسـيح، والثـاني للشـبه الـذي بينـي وبينـه! كأنـه يعاقبنـي عـلى شيءٍ، مـن فعلـه هـو! مـا ذنبـي يـا بولـس في كل هـذا؟ مـا ذنبـي في تلـك الحيـاة؟ لمـاذا عـليَّ التخفـي مـن النـاس؟ أشـعر أننـي قتلـتُ وأهـرب مـن ثـأر! ظهـرتُ فجـأةً، كأننـي ابـن اللحظـة الخاطفـة، وكأننـي وُلـدتُ مـن رحـم السـماوات، لُفِظـتُ في السـماء السـابعة، وفي كل سـماءٍ عشـتُ فـترةً، حتـى كـبرتُ ورمتنـي السـماء الأولى إلى عالمكـم!

سـامحني في مـا أقولـه يـا بولـس، فهـو طبقًـا لـكلام المسـلمين، الذيـن اعتـبرتُ نفسـي منهـم. أحيانًـا يـا بولـس يهاجمنـي هاجـسٌ أننـي تصحيـح خطـأ الـرب تجـاه البـشر، حـين جعـل عيسـى نبيًـا، ومـن دون أب، وكل معجزاتـه مـن إحيـاء المـوتى والـكلام في المهـد، وإعـادة البـصر وعـلاج الأبـرص، فعبـده البـشر! الحكايـة غريبـة مـن البدايـة يـا بولـس. أنـا آسـف يـا صديقـي لمـا أقولـه، أعلـم جيـدًا أنـه إلهـك، وأنـه في ديانتـي نبـي، ولكـن هـذا تفكـيري، شـكوكي كلهـا، لا أشـك في كونـه إلهًـا أم نبيًـا، أنـا أقـول فقـط لمـاذا؟ البـشر تفكيرهـم محـدود يـا بولـس، حتـى العباقـرة منهـم، عبقريتهم

محـدودة، فلـماذا إذًا فكـرة نبـي، ثـم يصبـح ابـن الله، فالإلـه نفسـه! بعدهـا تخلـق بشريًـا كنسـخةٍ منـه، يمـشي بـين النـاس، يمجدونـه أو يسـخرون منـه، الحيـاة بـين التمجيـد والسـخرية فظـة يـا بولـس!

أعلـم جيـدًا أنـك تقـول داخلـك إننـي في نعمـة لأننـي أشـبهه، ولكـن يـا بولـس فكّـر في جملتـي هـذه، لم يمجدني شـخصٌ أو يسـخر منـي شـخصٌ لنفسـي أنـا، لم يشـكرني شـخصٌ أو يسـبني، لم يمازحنـي أو يطلـب منـي مغفـرةً، لم يعاملنـي شـخصٌ لأننـي محيـي، كلهـم بـلا اسـتثناء يعاملـون عـلى أننـي عيـسى المسـيح ابـن مريـم، أنـت لا تعلـم يـا بولـس جحيـمَ الحيـاةِ في كنـفِ شـخص آخـر، وليـس أي شـخصٍ، إنـه الرجـل الـذي تتصـارع الديانـات كلهـا لتثبـت رأيهـا تجاهـه، وأنـا أعنـي كلمـة الديانـات كلهـا، ليسـتِ المسـيحية واليهوديـة والإسـلام فقـط.. هـل تعلـم يـا بولـس بوجـود النظريـة التـي تعتقـد أن هنـاك مسـيحًا في كل ديانـة؟ وملامـح هـذا المسـيح تختلـف تمامًـا في كل عقيـدة، فتجـد مسـيحًا آسـيويًا، ومسـيحًا أسـود، ومسـيحًا مـن الهنـود، إلى آخـره".

كانـتْ تلـك أطـول مـدة يتحـدث فيهـا محيـي إلى شـخصٍ، ردوده كـما عرفـه النـاس، قصـيرة مبـاشرة مقتضبـة، لا يتحـدث كثـيراً ولا يريـد، وقبـل أن يكمـلَ حديثَـه، سـمعَ شـخصًا يقـول: "اللهـم صـلِّ عـلى النبـي! عيـسى نبـي ومـوسى نبـي!" ولمـا نظـر تجاهـه، أيقـن أنـه يمازحـه، فقـام محيـي مـن مكانـه، ذهـب إليـه ولم يتفـوه بكلمـة، لكمـه ثـم ركلـه، الشـاب يـصرخ مـن شـدة انفعـال وعنـف محيـي معـه، كل مـن حـاول أن يبعـدَ محيـي عنـه فشـلَ، كأنـه يـزداد غضبًـا مـع أي محاولـةٍ لتهدئتـه، لم تفلـح مقـولات مثـل صـلِّ

علـى النبـي أو شـيطان ودخـل بينكـما.. ولمـا جـاء رجـلٌ عجـوزٌ لا يفهـم الموقـفَ ولا يفهـم مـدى الشـبه بـين محيـي والمسـيح، قـال مبتسـمًا: "مـن ضربَـك عـلى خـدك فاعـرض لـه الآخـر أيضًـا، ومـن أخـذَ رداءَكَ فـلا تمنعـه ثوبَـك أيضًـا"، اللحظـة التـي دخلـت أذن محيـي هـذه الآيـة، كانـت هـي اللحظـة ذاتهـا التـي قـام فيهـا مـن فـوق الشـاب، وجـرى ناحيـة خـوانٍ رفعـه بـكل قوتـه ورمـاه تجـاه العجـوز صارخًـا: "أنـا لسـتُ المسـيح لأفعـل ذلـك، أتسـمعني يـا بـن القحبـة؟"

ابنة الشوارع

اقتعـدتْ نعمـة مجموعـةً مـن الكتـب، تمسـك عجينـةَ الحـلاوة، تفركهـا بيمينهـا فـركًا، تقـول لصاحبـة البيـت: "نتـف الشـعر لـه سـعرٌ آخـر، بعيـدًا عـن التنظيـف"، لا تجادلهـا السـت اعتـدال، الأربعينيـة ذات الجسـد الملـبن، ورائحـة العطـر التـي لا تغيِّرهـا. الشـعر المصبـوغ بالأصفـر، الظاهـر مـن تحـت قـماشٍ تضعـه عـلى رأسـها، كأنهـا قديسـة لا تريـد لأحـدٍ أن يـرى كامـلَ جمالهـا، الوجـه الأبيـض الناعـم، المُسـتدير كطبـقٍ مـن ذهـب، نُحِـتَ بدقـةٍ وبمـزاجٍ. صـف الأسـنان اللـولي، الجـمال الفلاحـي الـذي لا يُقـاوم، تحـرّك فخذيهـا في عصبيـةٍ خوفًـا مـن وجـع النتـف، لحـمُ الفخذيـن يرقص، أسـفل العبـاءة الزرقـاء الخفيفـة، في إغـراءٍ لذيـذ.. تفـرج السـت اعتـدال عـما بـين فخذيهـا، وتحبسـه بسرعـة في حركـةٍ مُعـادة، إذ تفتـح رجليهـا وتغلقهـما. لاحظـتْ نعمـة أن السـتَ اعتـدال لا

لستر ما يجب ستره، ولأن نعمة لا تعرف كثيرًا، أو مطلقًا، عن قواعد تمهيد الحديث، سألتها: "هل سننتف شعرَ ذلك أيضًا؟" وأشارت بكل وقاحةٍ إلى فرج الست اعتدال، لتجيبها في غنجٍ واضحٍ: "كلكِ نظر يا نعمة هانم".

كلمة "هانم" التي مرتْ وسارتْ فوق كل الجُمل التي سمعتها وقالتها، والسباب والشخر والشخير، والتأوهات وكلمات المدح في براعتها حين تداعب بفمها، حتى وصلت إلى أُذن نعمة، جعلتها وللمرة الأولى في حياتها تحرك جزءًا من شفتيها، كتعبيرٍ غير مباشرٍ عن ابتسامةٍ كانت تفكر في الظهور، ثم سحبتها في لحظةٍ، قامت من مكانها، ولما سألتها الست اعتدال إلى أين تذهب، وضحتْ لها أن العجينةَ تحتاج إلى ليمون، الليمون ناقصٌ فلا يُكسبها طابع الميوعة المطلوب، عجينة ناشفة لن تساعد على النتف نهائيًا. حين قامتِ الست اعتدال وراءها، ورفعتِ العباءة عن فخذيها، نظرتْ نعمة إلى البَياض المُبهِر، وإلى اكتناز الفخذين باللحم، وإلى نعومة الأرض الظاهرة، حتى لما بالغتِ الست اعتدال وكشفتْ أكثر، لم تجد نعمة أي وجودٍ للشعر، المكان كله لامع، كيوم ولدتها أمها.

اقتربت الست اعتدال من نعمة، ودون أي مبرراتٍ قبَّلتها! لم تفهم نعمة ما الذي يجري، دفعتْها إلى الخلف، لتسقط الست اعتدال على الكنبة، وترتكز على مؤخرتها، وترفع قدميها مع شخةٍ تليق بعاهرةٍ محترفة.. لما رأت نعمة كل هذا اقتربت منها وسألتها: "أنتِ منهم يا ست اعتدال؟" ضحكت اعتدال ضحكةً رقيعةً قد تُنزل الإلهَ إلى الأرض، الجواب كان غريبًا،

لم تتفوه اعتدال، بل أخرجت لسانَها المبتل تمامًا، ووضعتِ البنصر والوسطى عليه لتبلهما، ثم نزلت بهما على الواسع الأبيض المليء باللحم وبعض من الاحمرار، وبهدوءٍ تداعبه متأوهةً، تغلق عينيها في نشوةٍ، تحرك صدرها ببطءٍ مع كل لمسةٍ، ثم تقول لنعمة في دلالٍ: "تعالي يا نعمة، سأذيقُكِ عسلاً كالخمر"، تقترب نعمة بترددٍ، حركتُها أبطأ من المعتاد، كأنها تفكر في حيلةٍ، للخروج من هذا المأزق، ثم قالتْ لها، قبل أن تركع أمامها: "ستّ اعتدال، اللحس له ثمنٌ غير التنظيف والنتف، اتفقنا؟"

ولم تكذب اعتدال حين ذكرتِ العسل والخمر. في البداية حركت نعمة لسانها فوق فرج اعتدال، بخوفٍ من المجهول، من غير المعروف في عالم المِثلية، ثم وجدتْ طعمًا طيبًا، ورائحةً أقرب إلى العطر، تعجبت نعمة إلى الدرجة التي جعلتها تحك يدها بفرجها، وتشم الرائحة الصادرة منه، فتنفر منها، لتضحك اعتدال على فعلتها، وتقول لها: حين ننتهي سأخبرك بالطريقة يا نعمة. تحمستْ نعمة للفكرة، ومارستْ ما تتقنه من مداعبة، إلا أن الستّ اعتدال طلبتْ منها التوقف، وقامتْ بسرعة، يهتز لحمها مع حركتِها وركضها، ثم رجعت وهي تحمل بين يديها ما يُشبه أداة الفحول الذكورية، لونُه أسود ويرتج، حجمه ضخم غير عادي، وقالتْ لها: "يا نعمة، مع مداعبتك أدخلي هذا كله، أريدُها ليلةً لا تُنسى!"

قرابة الساعة، ونعمة تدك اعتدال، بالمُداعبة والأداة، بالقُبل حين تريد، بالضغط على صدرِها، بإدخال الأداة في كل الفتحات

الممكنة، ولما شبعت اعتدال، وعرفتِ الراحة، نامتْ في سريرِها، نامتْ نومًا لم تعهده من قبل. جلستْ نعمة بجانبها تتأمل هذا الجسد البض، طريقةَ رسمه، جسدها الذي يصرخ أنوثةً، المرتفعات والمنخفضات، اللحم المشدود، الفتحة البيضاء لحمًا والحمراء متعةً، حتى الفتحة الأخرى، التي تراها بشكلٍ مقرف عند بعضهن، كانت عندها كقطعة فراولة، تشتهيها.

وبعد فترةٍ، قالت اعتدال بصوتٍ هادئ: "لا يا نعمة، أنا لستُ منهم، أنا مخلصة لزوجي جدًا، ولكنه ليس مُخلصًا لي، وعرفتُ بالصدفة يا نعمة أنه يركبُكِ ويضاجعكِ وقتما شاء، والغبي قال لي إنه يريد راحتي، وسيُحضر نعمة البنت المسكينة بالمنطقة لتنظف الشقة.. طبعًا كان يعتقد أنه سيجلس اليوم هنا، ولكنني أقسمتُ عليه أن يذهب إلى عمله، ثم فكرتُ يا نعمة، أنا سأموت خلال سبعة أشهر، هذا ما يرصده كتابي، تلك الصفحة البيضاء التي لا تخبرني شيئًا، لذلك قررتُ تحقيقَ كل ما رأيتُه محذورًا، ومن ضمن تلك المحذورات كان النوم مع أنثى.. الموضوع ليس بسيطًا، وكتابي وضح لي ذاك، لما لقيتُ اسمَكِ في أحداث اليوم من حياتي، المفروض أنكِ كنتِ آتية لتنظيف البيت، كما قلتُ لكِ، وعبد السلام الوسخ، يقول لي هناك مئات الخادمات، لكن نعمة تنظيفها رائع، وأضمنها لكِ، بشهادة كل من رشحوها! لذلك ضاجعتُ أنا أيضًا من يخونني معها.. لا ذنب لكِ يا نعمة في ما حدث، الرجال كلهم أوساخ، وبا نعمة سأجيبُكِ عن سؤالكِ قبل أن تسأليه، نعم يا نعمة، كان من الممكن أن أقولَ لا لرغباتي، ولكن الكتابَ يسرد أن

الأمرَ تم بالفعل، ما يعني أنه سيحدث يعني سيحدث، فلماذا أخالف ما هو مكتوب؟"

ضحكتْ نعمة حد السعال، فسّرت لاعتدال ما رأته في كتابها اليوم من صورٍ، وكيف أنها عرفتْ ما سيحدث، مع وجود صورٍ في الكتاب، لبداية الزيارة، وكل صورةٍ تأخذها إلى موقفٍ مختلف، فمثلاً إذا رفضتْ، كانت اعتدال ستتهمها بالسرقة، وإذا حاولتِ الوصول إلى حلٍ آخر، فلن تعطيها اعتدال ثمنَ التنظيف، أما إذا حاولتْ قتلَها دفاعًا عن النفس، لن يصدقها أحدٌ، لأن اعتدال متزوجة ومنتقبة، والشارع البُساطي كله، خلف المحكمة في أبي حماد، يشهد لها بحُسن أدبها وسيرتها. ضحكتْ نعمة وقالت لاعتدال: "حتى ونحن نعرف المستخبي، لن نختار ما نريد يا ست اعتدال".

لم تحنث اعتدال بوعدها، دفعتْ لها ثمنَ مختلف ما فعلته، التنظيف والمُداعبة بل وحاسبتها على النتف، ثم أخرجت لها كيسًا به عبوتان صغيرتان: "اسمعي يا نعمة، سبب احمرار فرجي هو هذا الكريم، كريم كعب الغزال، المفروض أنه لكعب القدم وتوريده، لكنني استخدمته في فرجي، وأما الرائحة والنعومة فبسبب المخمرية، وهي لتعطير وتنعيم جسد البنات، خاصةً ليلة الدخلة، وبالمناسبة الرائحة الحلوة موجودة في كليهما، لذلك إذا وضعتِ فقط كريم الاحمرار سيعطيكِ احمرارًا ورائحة حلوة، أما إذا طلب مزاجُكِ رائحة حلوة ونعومة وفرجًا أحمر، فضعي الاثنين يا نعمة".

لم تسـمع نعمـة الكلـمات التاليـة لكلمـة "الدخلـة"، ظلـتْ واقفـةً عندهـا، تنظـر إلى عبـوة المخمريـة، تتخيـل ذاتَها بفسـتان العـروس، وعـم سـند الرجـل الوحيـد الـذي عاملهـا كإنسـانة يتأبطها ليسـلمها إلى عريسـها، الـذي تخيَّلتـه لاعـب كـرة قـدمٍ معروفًا، تـراه كثـيراً في شاشـات المقاهـي، خيالُهـا في هـذه اللحظـة كان صافيًـا، كانـت جميلـةً جـدًا، ورائقـة ورائعـة ورقيقـة، اختفـت البُقـع تمامًـا، تبتسـم في خجـلٍ كـما تُشـاهد العرائـس في المسلسـلات أو الأفـلام.. نعمـة تخيَّلـت ليلـة الفـرحِ بكاملهـا، وصـولاً إلى لحظـة رمـي باقـة الـورد، لم يمنعهـا خيالُهـا مـن جلـب صديقـاتٍ وهميَّـاتٍ، ليقفـن خلفها وينتظـرن بشـوقٍ.

طـردتْ نعمـة كل الجـمالِ مـن مخيلتهـا، نزلـتِ الى الشـارع، ولم تشـكر الســت اعتـدال، قبـل أن تتذكـرَ أنهـا لـن تعـرف الفـرق بين المخمريـة وكريـم التوريـد، جلسـت أمـام بائـع الفـول، وفتحـت جوالهـا، لتجـد الصـور التـي تـشرح الفـرق بينهـما، قالـتْ نعمـة بينها وبـين نفسـها: "ربمـا يسـاعدني الله عـلى المعيشـة، كنـوعٍ مـن أنواع الاعتـذار عـما حـدث".

عامل الدوكو

لما مشت منة كما أمَرَها عبد القوي، وجلس وحيدًا مع تماثيله في المحل، تذكر تلك الفكرة التي داعبته صباحًا، فكرة العُمر الذي يجب أن يُحسبَ منذ بداية نفخ الروح، وليس بعد الخروج من ظلمة الرحم إلى ظلماتِ الدنيا.. حدَّث نفسَه بصوتٍ مسموع عن ضرورة السعي خلف الأمر مهما كانت صعوبته. لم يفكر كثيرًا، ترك مُسدسَ الماء، فتح كتابَه ليعرف كيف سيتصرف، خاصةً أن الفكرةَ جديدة، وفي حالة عبد القوي، الحداثة هنا ليست في الفكرة ذاتها، بل في ممارسة عبد القوي لفعل التفكير عامةً!

ما وجده كان كفيلاً بإغلاق الصفحة، فيجب عليه -وهو ما يكرهه- الذهاب إلى مشاوير رسمية، ما بين مكتب الملكية الفكرية، ثم التوجه إلى السجل المدني لمناقشة الأمر مع مسؤولٍ، بعدها إرسال صيغة رسمية إلى سفارة الأفكار، ليقوم سفراء الأفكار بعقد جلسة مع السفارة العامة.

صعوبة الإجراءات بالنسبة إليه ليست في الوقت تمامًا، الأمور الحكومية في الوقت الحالي تنتهي في غمضة عين، لذلك تتمثل الصعوبة في هم التحرك بين أكثر من مكانٍ، وهو ما يرفضه عبد القوي مثل رفضه لشرب الخمر أو السرقة، ولعبد القوي في رفض أو تقبل الأمور غرائب المقاييس وازدواجيتها؛ فيرفض -مثلاً- مضاجعةَ النساء في بيوت الدعارة، ولكنه لا يمانع تمامًا النظر، عبر فتحة بابٍ أو نافذةٍ مواربة، إلى أنثى في بيتها

يمشي وتتبختر بما لا يستر، وقد يتعمد لمسّ جزء من آنسة في مواصلاتٍ، ويعتذر في الحال، كنوع من أنواع نفي فعل التحرش عنه، وربما يشاهد كل أفلام الجنس، مع نفسه، وإذا ذُكرَ في جلسةٍ مع صديقٍ أو زبونٍ، أي مقطعٍ من تلك المقاطع، يستغفر ويحوقل، فيعرف الغائب قبل الحاضر مدى حُسن أخلاق عبد القوي.

وضع كتابه جانبًا عندما رأى زبونًا يدخل.. تعجب من قدومه، فالكتابَ لم يخُض في شيء بخصوص الرزق. اقترب منه شاب أسمر البشرة، رفيع قصير، عطره فواح جميل، حليق الشعر والذقن، يحمل حقيبةً ضخمةً، ينظر المرء ويحتاج إلى وقت ليفسر سهولةَ حركته بها. بعدما رد السلامَ والتحيةَ، عرَّف الشاب بنفسه، اسمه بكار وصانع عرائس خشبية تتحرك بالخيوط والأحبال تُعرف بين الناس باسم "عرائس الماريونت"، أخرج من الحقيبة مروحة يد إلكترونية، حديثة الصنع، وشغلها على أعلى سرعة، ثم شرح له سبب المجيء: "بعد أقل من شهرٍ ستُعرض لي مسرحيةٌ، وهناك فصلٌ كاملٌ عن عروسٍ خشبيةٍ تشبه المانيكان في لونها الزهري، العرائس تكرهها لأنها ليست من خشبٍ مثلها، ويحاربونها. حاولتُ مرارًا صنعَ اللون فشلتُ، عرفتُ من صاحب مصنعٍ أنك الأمهر في مزج الألوان، تصنع لنا لحمَ الهوانم، وها هي المطلوب تغيير لونها، اسمها سارة". سأله عبد القوي عن المروحة، قال له: "مرضٌ غريبٌ، الله يبعده عنك".

ناوله بكار سارة، وعبد القوي يُفكر في المرض الغريب الذي يعاني منه بكار، ثم تأمل سارة في إعجابٍ ودهشة، وفي زهوٍ وفخر، فهي المرة الأولى التي يمدح فيها أحدهم عمله، الكل يجيء لمهمته ويرحل، في روتينية يعرض مطلبه، وفي روتينية أكثر يُحاسبه ويُغادر. وافقَ عبد القوي وقال له: الاستلام بعد يومين. رفض بكار بذوقٍ وعرَض عليه المُساعدةَ إذا أراد، أو الدفع ليتم الأمر الآن، فلما سأله عبد القوي عن ماذا يعني بالمساعدة، قال على الفور: "أي شيء يا أسطى عبد القوي! عاملني كأنني صبيك! لا بد أن أرجعَ بسارة اليوم!"

حرك عبد القوي سارة بين يديه، قطعةٌ من خشبٍ، لم تلمسها الأحبال بعد، تميل وتتحرك في ليونةٍ مع كل هزةٍ من يد عبد القوي، شعرُها سيئ الصنع من ألياف بلاستيكية، يظهر كيف تم تثبيته في عدم دقة وبلا أي لمسةٍ فنية، مساحات صغيرة ونتوءات بارزة، فهم عبد القوي أن صانعَها لم يتمهل في تركيبه، وأنه أراد بهذا الشكل أن يقتنعَ الناظرَ إليها أنها من لحمٍ ودم، وتحمل مساماتٍ وفروةَ رأسٍ. عبد القوي لم يكن من محترفي صيد الأخطاء، ولكنه أمين في مهنته، يعرف الكثير عن الدقة عمومًا، حتى لو لم يكن اختصاصه. سأله: "اسمها سارة؟" فرد بكار: "من التي اسمها سارة؟" فأشار عبد القوي إلى العروس الخشب باستغراب، فقال بكار في تلعثمٍ واضح: "نعم.. نعم.. سامحني.. الاسم وليد اللحظة فنسيته!"

حدَّث عبد القوي نفسه بغرابة بكار، وقال إنه من الواضح عليه علامات فقدان الذاكرة، وعامةً وافق عبد القوي، وبدأ

تحضير كل ما يلزم، وشرح لبكار الأدواتِ، بطريقةٍ عامة، تفيده فيما بعد، دون التوضيح المُفصل، طبقًا للمقولة المتوارثة: "سر المهنة"، ولأن المادةَ المطلوبة لتغيير لونها من الخشب وليست مثل المانيكان، وعرف من بكار أنه استخدم في صنع سارة خشبَ "الكونتر" الطبيعي، فبحث في الورشةِ عن معجون أساس، واستقر على اختيار ورنيش فرنسي، بعدما تأكد من نعومة السطح، فهي دون ملامح تمامًا كما المانيكان، طلب من بكار أن يبتاع كيسَ قطن من أقرب صيدلية ليساعده في عملية العزل، عن طريق استخدام "السيلر الناري" بالرش، وهي تعتبر أولى عمليات الدهان، قبل عملية العزل، أخرج ورقةً سنفرة لتنعيم معجون الأساس، يشرح له عبد القوي كل خطوةٍ، ليقاطعه بكار: "آسف يا أسطى عبد القوي، أنا أعرف خطواتِ رش الخشب جيدًا، كل ما أحتاج إليه فقط هو رش سارة باللون، وفر طاقتَك ومزاجَك لتلوين سارة، يا نجم الألوان وعمها".

لم يقتل عبد القوي غيظَه من قلة ذوق بكار، بل استمر في النفخ والاستغفار بصوتٍ مسموع، مع التعامل بشيءٍ من القسوة في كل مرةٍ يحرك سارة ليدهنها، حتى كاد يخلع ذراعًا منها. لاحظ بكار طريقةَ تعامل عبد القوي، فقال بذكاءٍ يحسب له: "لا تقلق يا أسطى عبد القوي، أنا صانعٌ ماهر، مهما عاملتَها بقسوةٍ لن تكسرها، عرائسي تشبه الزمن، في قوته وصموده وبقائه". ابتسم عبد القوي لذكاء بكار في اعتذاره عما بدر منه، بخفة دم وتمجيدٍ شخصي، ولم يسمح لكلمةٍ أن تغادرَ بين شفتيه.

غاب عبد القوي بتفكيره في ما يفعله، نقدر أن نقولَ سافرَ إلى عالمٍ آخر، حيث يرى نفسَه واقفًا على مسرحٍ ضخم، خلفه عددٌ مهولٌ من المانيكان، والمقاعد أمامه شاغرة، يجلس شخصٌ واحدٌ، لا تظهر ملامحه، يصفق لهم، فينحني عبد القوي وتماثيله احترامًا لجمهور، نقصد شخصًا واحدًا حضرَ، وعبد القوي ينهج بشدة، كأنه صعد جبلاً ونزله عشرات المرات. خطفه بكار من خياله، وسأله عن إمكانية التعامل معه مجددًا، في دهان عدد أكبر، وهل سيكرمه في الثمن وقتها أم لا.. جاوبه عبد القوي بالموافقة. صفَّر بكار إعجابًا لما صارتْ سارة عليه، شكرَه جدًّا، أعطاه أكثر من الثمن المطلوب تحت بند عربون لما هو آت، مع الوعد بتكرار الزيارة، وعلى فتراتٍ متقاربة.

دفع بكار ثمن الشُّغل، وأعطى لعبد القوي الكارت الخاص به، وقال له: "بالمناسبة يا أسطى عبد القوي، أنا أبحث عن عمال، لأنني سأصنع عددًا مهولاً من العرائس، إذا أعجبك الموضوع، ستجد عنوان مسرحي في الكارت، أنت تعرفه، كان اسمه تاون هاوس، في شارع جانبي بوسط البلد، اسمه شارع النبراوي، الجميع يعرف هذا المخزن، وفقني الله واشتريته، وصار الآن مسرحًا ومخزنًا للعرائس الخشب، تعالَ وأعدك أنك ستفرح جدًّا".

مشى بكار، وأثر العرائس الخشبية يمشي هو الآخر داخل ممرات فكر عبد القوي، يبني أعمدةً كبدايةٍ لمعبدٍ، يقيم به شعائرَ عبادةٍ جديدة، أو يمارس عقائدَه بمحرابه، عقائد الاكتمال

بالخيال، وعدم التحرك خطوةً تجاه حلم أو تحقيق فكرة أو رسم طريق لمستقبل.

منذ الصغر وعبد القوي يلاحظ مدى تكاسله وتقاعسه عن أي فعلٍ أو أمرٍ يساعده ويؤهله لما يبحث عنه. كثيرًا ما تحدث عبد القوي إلى شيوخٍ، يسألهم عن تراخيه الدائم، وعن معرفته لكثير دون أي جهدٍ أو دراسة، وكيف أنه كلما همّ بتحقيق شيء، لعز بأيادٍ تثبته أرضًا، تسحبه وتخنقه، تلصقه كورقة إعلانات رخيصة، لونها أصفر ولا يهتم لأمرها أحدٌ، والده يوبخه إلى أن مات، والدته تدعو له حتى ماتت، كان عبد القوي وحيدًا، وفي وجود منة لم يتغير الوضع، كل يومٍ، منذ بدايات فهم عبد القوي لطبيعة الحياة، وهو يسأل نفسَه سؤالاً واحدًا، بعد تساؤلات واستفسارات عدة بلا إجابة: "هل أنا ملبوس بجنٌ كسول؟ جن يكره الحركة والتفكير، جن يغذيني بالمعلومات حتى لا أفعل أي شيءٍ؟ جن يجعلني شخصًا تمر حياته مرورَ الغريب بجانبك؟" ولا يشغل باله بعدها بشيءٍ، كأنه لم يكن يفكر منذ لحظاتٍ.

العامة

سردية بكار

ما ميَّز فعل الحكي، في كل العصور، هو اختلاف صوره وطرق عرضه، ما بين الحكي في الجلسات، والحكي في الطرقات، السير الشعبية والأراجوز، الحكايات المعزوفة على ألحان الربابة، الحكايات المُتخيَّلة بعقول الأطفال، حكايات الجدود والجدات، حكايات الأمهات الجميلة، حكايات الآباء السيئة المهرتلة، وحكايات العرائس الخشبية، ولنا في المثال الأخير سرديةٌ تتشعب من الحكاية الرئيسة، وتستحق تناولَها بما يليق بصاحبها، بكار.. الحكاء الموهوب وصانع العرائس الخشبية.

وحياةُ بكار عبارة عن سردية ألم مُبهرة، فهو لا يتعرق ولا يتألم، جسدُه كريمٌ جدًا، يرفض طردَ السموم، ويحافظ على آلا[م] أوجاعه بالداخل، جلس مع عشرات الأطباء، في سعيه الدائ[م] لمحاولة العلاج من مرض عدم التعرق، المرض الذي يؤذي[ه] على نحو متكرر، كل طبيبٍ يُعيد عليه التحذيراتِ المعتاد[ة] ضرورة الابتعاد عن فعلٍ خطير، قد يسبب جرحًا، بسبب طو[ل] مدة الالتئام في حالته، وتجنب الحركةَ السريعة، قد يُكسَر و[لا] يشعر، ناهيك بالمضاعفات، درجة الحرارة المنخفضة هي مأوا[ه] ست وعشرون درجة مئوية بالتحديد، أعلى من ذلك، سيتـ[ألم] والتالي لن يعجبه.

سردية ألم مُبهرة فعلاً، شاب بالخامسة والعشرين، منذ الـ[...] لا يبذل مجهودًا مراعاةً لفخامة العَرَق، لا يلعب، لا يركض، [...]

الصعـب التفكـير في الـزواج، مـن سـتتحمل زوجًـا يتحـرك عـلى مهـل؟ العـلاج موجـود لكـن غـير فعـال، الوقايـة علاجـه، ولأنـه فنـان حـكاء، خـرج بـكار للدنيـا بـروحٍ مُسـالمة، كثـيرًا مـا ينظـر إلى المـرآة ويسـب وجـودَه، يقتلُـه يوميًـا الشعورُ بأنـه هـم ثقيـل عـلى كل الذيـن حولـه، أهلـه والأصدقـاء، لـن يخـرج إلى مـكانٍ عـام إلا في فصـل الشـتاء، وليـس الفصـل بكاملـه حتـى، لأن ليسـت كل أيامِـه بـاردة، غرفتـه هـي عالمـه الصغـير، أمـا عالمـه الكبـير فهـو ورشـة العرائـس، التـي سـاعدته أمـه في بنائهـا، بعدمـا نجحـتْ في الحصـول [illegible]لى مـكانٍ رائـع، مخـزن كبـير بوسـط البلـد، في شـارع جانبـي اسـمه [illegible]ـارع النـبراوي، وحوَّلتـه إلى مـسرح ومخـزن، وذلـك بعدمـا أُحيلـت إلى المعـاش، فوقفـتْ بجانـب ابنهـا المريـض ليسـتطيع تصنيـعَ وبيـعَ [illegible]رائسـه، ثـم تطـور الأمـر ليصـير مسرحًـا، يعـرض عليـه بـكار أعـمالاً [illegible]، أو لمـن يريـد مكانًـا ليخـرج عملـه إلى النـور.

[illegible]رديـة ألمٍ مُبهـرة حقًـا، أبـوه الملـول يكرهـه، ويعـرف بـكار ذلـك [illegible]دًا، يفهمـه مـن نظراتـه، تكاسـله في مسـاعدته إذا مـا كانـت [illegible] مشـغولة، وأبـوه لم يكـن المشـكلة الأكـبر، بـل ذاكرتـه السـافلة [illegible] تهزمـه دومًـا في لعبـة التذكـر، تتلـذذ بـركل الأشـياء بعيـدًا عنه، [illegible] مثـلاً بـين عرائسـه للحظـاتٍ، يسـأل المشـهدَ المهيـبَ أمامـه، [illegible]رائـس كاملـة وغـير كاملـة، مـن خشـبٍ عـلى الأرض وفـوق [illegible]، مـن ألـوانٍ وزيـتٍ ومـياهٍ، مـن مطرقـةٍ وأحبـالٍ مفصـلاتٍ، [illegible]ـبب وجـوده بينهـم؟ فيفتـح دفـترًا صغـيرًا، يـدون بـه مهامَـه [illegible] أدويتـه، المكالمـات الهامـة واليوميـة، العـروض المسرحيـة [illegible] بـه أو بالآخريـن، مـع تكـرار كلمتَـي "صُنـع" و"تلويـن"،

فيكتب رقمًا جانبهما، ليذكُر نفسَه في اليوم التالي ماذا سيفعل بورشته، وكم مخلوقًا خشبيًا جديدًا سيخلقه.

سردية ألمٍ مُبهرة بلا شك، فكل مرةٍ يستفسر من طبيبه: "هل هناك علاج لحالتي؟ أو حتى علاج لضعف ذاكرتي؟" فيجد الإجابة الواحدة عامةً، تخرج بعدما يتلعثم الطبيب، يجفف عرقه، ينظر إلى الورق، ربما يخرج سيجارة ويشعلها، يخبره بأن حالته هي الأصعب، وذلك لأنه مصابٌ بالمرض في كل غدد جسمه، ينصحه فقط بالوقاية، والمقولة الشهيرة: "الطب في تقدمٍ كل يومٍ".

مدحَ الزائرون والممثلون مسرحَ بكار، خاصة الديكور وجوّه العام، رائحة الياسمين تحتل المكان، الخشب الذي اختاره ليتسيَّد الموقف، الأرض خشب، الحائط خشب، كأننا في كوخ داخل غابة، المساحة الهائلة، الارتفاع الرائع، فيمرح صوت المؤدين، غرفتُه الصغيرة، التي يجلس فيها مع مكتبته وعرائسه، ومنها يخرج إلى مكان خلفي يطلق عليه "المخبأ"، وهي ورشته الصغيرة لصناعة العرائس، عبارة عن أرفف خشبية مُعلقة في جميع الأرجاء، فوق كل رفٍ ما يحتاج إليه من أدواتٍ، ولوحٌ خشبي كبير ثُبِّتَ إلى الحائط، يستخدمه كمسندٍ أو منضدة ليخلق فوقه عرائسه، يمزح في كل مرةٍ مع قطعة خشبٍ خام لم تتحول إلى عملٍ فني بعد، يقول بصوتٍ رخيمٍ مثل الممثلين القُدامى فوق خشبة المسرح: "تعال أيها الخشب إلى المَذبح! ستقدم حياتَك قربانًا للفن ولآلهته!"

في يـومٍ مـن الأيـام التـي كان بـكار قـد انتهـى فيهـا مـن عملـه، أمسـك بإحـدى عرائسـه، وبـدأ في ارتجـالِ نـصٍ، لم يفهـم بعدهـا مـن أيـن جـاءت تلـك القصـة، فقـد قـال عـلى لسـان القطعـة الخشـبية: "هـل إذا كنـتُ ضاجعـتُ السـافلَ، في أثنـاء دورتي الشـهرية، ضاربـةً بـكل المرفوضـات عـرض وطـول وارتفـاع الحوائـط، ووافقـتُ عـلى سـخافة هـذا الغريـب، ووقّعـتُ لـه الروايـة، وتركـتُ الفـوطَ الصحيـة دومًـا في الحـمام، وسـألتُ والـدي إلى أيـن يذهـب يوميًـا، وهجـرتُ الكتابـة، وعملـتُ كعاهـرةٍ أو راقصـة، ربمـا مقدمـة برامـج طبـخٍ، بجـمالي وعلاقـاتي أو بمـا يحملـه جسـدي مـن مفاتـن، أو باحثـة في النسـوية، أو أي شيء يلتحفـه العـراء، بعيـدًا عـن الوسـط الثقـافي والكتابـة والكتـب، وقلـق النـشر ووجـع الدمـاغ والتدقيـق، والبحـث عـن دار نـشر وهـل سـيبيع كتـابي أم لا، هـل إذا كنـتُ كلبـةً، تشـم مؤخرتهـا كل كلاب الشـوارع، ولا تقـول لا مطلقًـا لأي كلـبٍ، هـل إذا كنـتُ فوطـةً صحيـةً، في علبـةٍ واحـدة، تسـتخدمني -أنـا وإخـوتي- امـرأة عجـوز، شـارفتْ على انقطـاع الطمـث، فأضمـن وجـودي نظيفـةً بـلا دمـاء، هـل إذا كنـتُ منضـدةً في مطعـم غـالٍ، ينظفنـي كل يـومٍ نـادلٌ بمقـتُ وظيفتـه، وفي الليـل، بعدمـا يرحـل الجميـع، تضـع عاملـة النظافـة يدها عـليّ لأن مديـرَ المـكان يتحـرش بهـا، فـلا تتحـدث، وأنـا لا أتحـدث، هـل إذا كنـتُ بـلا فائـدة يـا ربي، تافهـةً، يومـي يمـر بـين التسـوق والبرامـج والأفـلام، أو ربـةَ منـزلٍ، حيـاتي مـا بـين العيـال وأبيهـم، مـا بـين سريـر أطفـالي للنـوم، وسريـري للنـوم مـع زوجـي، هـل إذا كنـتُ قطعـةَ خـراءٍ، يكرهها الجميـع لسـوء رائحتهـا، هـل

إذا كنتُ ورقةً تغلف منتجًا رخيصًا، يفتحُها طفلٌ سمج، يلعقها ويرميها، هل إذا كنتُ كل ما سبق، ولم أكن المقصودة في هذه اللحظة، أو المقصودة في هذا اليوم، أو المقصودة في هذه الحياة، أو المقصودة في خلقي منذ البداية، هل ستصير لحظتي أفضل؟ يومي أفضل؟ حياتي أفضل؟"

منذ تلك اللحظة، آمنَ بكار بأن تلك العرائس لها حياةٌ أخرى، بعيدًا عن استخدامها في العروض، بعيدًا عن كونها مخلوقة من خشب، حاول كثيرًا شرحَ الفكرة لأهله وأصدقائه، وكالعادة اتهموه بالجنون لكثرة مجالسته للعرائس والوحدة، فكفَّ عن تفسير أي ظاهرةٍ غريبة، وتعامل مع الأمر على نحو عادي، واستمر انبهاره فقط في كل مرةٍ يقول كلامًا على لسان عرائسه، ولا يفهم من أين جاء هذا الحوار.

لذا عاش بكار، الحكاء الموهوب، المنفي بإرادته داخل ورشته المُجهزة خصوصًا لحالته المَرَضية، الذي ينسى دائمًا، مع مهنته، كصانع ولاعب العرائس الخشبية، مهنة لا تحتاج إلى مجهود خارق، ولا إلى قوةٍ وحمل أثقال تنهكه، عاش بكار في حياته من أجل هدفٍ واحد، صُنع العرائس والاستماع إلى حكاياتها، ولما سقطتِ الكُتبُ، عرفَ من كتابه أن مهمتَه الباقية، خلال العام الساري، هي صُنع الآلاف من تلك العرائس، دون سببٍ واضح، ما أجبره على استخدام نجارين وفنانين لمساعدته، مقابل راتب رمزي أو تخزين بضاعةٍ للنجارين، أو عروض خاصة للفنانين، لم يبخل بكار بشيء على العرائس وعالمهم، ولم يهتم تمامًا لآراء مساعديه تجاهه، بكار عرفَ من اليوم الأول لسقوط الكُتب

ومـن اليـوم الأول لسـماعه لهـم، أنـه في مهمـة تحـت رعاية السـماء، في وقـتٍ لاحـق سـيعرفها، بعدمـا يخـبره كتابُـه بمعلومـة مختلفـة، غير صنـع العرائـس يوميًّـا!

الوحيـد في بلـدٍ كامـل، الـذي يقـرأ مـن كتابـين، كتابـه السـماوي، وكتابـه اليومـي الـذي يُذكِّـره بصنـع العرائـس، وبمواعيـد خروجـه، وبأعيـاد ميـلاد مـن يهتـم لأمرهـم، وبقـراءة كتابـه السـماوي، الـذي سـقط عليـه مـن حيـث لا يحتسـب. فتـح الكتـاب اليومـي فتذكـر موعـد المُقابـلات مـع العـمال الذيـن جـاؤوا مـن أجـل مسـاعدته لصنـع العرائـس.

خـرج بـكار مـن مكتبـه ليُقابـل العـمال الموجوديـن، بعـد ترشـيحاتٍ مـن نجاريـن، ومـن نـاس أخـرى، وشرح لهـم مـا هـم مقبلـون عليـه، وقالهـا واضحـة: "سـنصنع الكثـيرَ مـن العرائـس يـا جدعـان، وأنـا أعنيهـا فعـلاً، الكثـير والكثـير مـن العرائـس الخشـبية، ولا داعـي للقلـق، مـن يجهـل فـن صناعتهـا سـيتعلم!"

عامل الفخار

منـذ حادثـة القطـار وفيليـب في عـالمٍ آخـر، هـذا العـالم كاد يصيبـه بالجنـون، ذلـك لأنـه يسـمع أصـواتَ العالمـين، عالمـه الداخـلي وصـوت يهـوذا المُصاحـب لـه في أثنـاء الغيبوبـة، عالمـه الخارجـي وصـوتُ المجتمعـين حولـه داخـل غرفـة بمشـفى حكومـي، تارةً يعـرف أن المُتحـدثَ هـو مينـا، وتـارةً أخـرى أم مينـا، ومـرةً

وحيـدة كان الباشـا حـاضرًا، في تأفـفٍ واضـحٍ، كأنـه يلعـن اليـومَ الـذي سـقطتْ فيـه الكتـب، ونظـامَ الدولـة الحديـث، والفضائـلَ التـي جعلـتِ الجميـعَ متسـاويًا، فقـد تغـيَّر كل شـخصٍ ليضمـن مكانَـه في الجنـة، إلا الباشـا مينـا، قالهـا صراحـةً لحاشـيته وموظفيـه والفقـراء ورجـال الدولـة والسـفراء: "اتركـوني في حـالي، مـن يريـد العمـلَ لـديَّ بالأفـران فأهـلاً وسـهلاً، أمـا مـن يرفـض فهـو حـر في أمـره، أمـا مـا يخـص مـالي أو سـوء سـلوكي -وفقًـا لمـا تقولونـه- فـلا يشـغل بالكـم".

وفي غيبوبـة فيليـب أمـورٌ عجيبـة، كخُطـبِ يهـوذا وإنجيلِـه الـذي ظـل يتكلـم عنـه كثـيرًا، وعرَّفـه أنـه لا مهـرب مـن عالمـه إلا وهـو مُلـم بحكايتـه، ومـدى الظلـم الـذي تعـرض لـه.

فحـكى يهـوذا لفيليـب عـن موضـوعٍ واحـد، يعيـده عليـه كل يـومٍ كأنـه عـرضٌ مسرحـي يُعـاد في حفـلاتٍ يوميًـا: "يـا فيليـب، لم ترحمنـي السـماءُ مـن ظلـمٍ بـيِّن، ولم يمهلنـي الـرب وقتًـا للتوبـة، تركنـي لشـيطانٍ لئيـم، جعلنـي أُنهـي حيـاتي بعدمـا حـدث مـا حـدث، بـل وزاد الأمـر وصرتُ أنـا المصلـوبَ، في ديانـةٍ أخـرى، وفي كل ديانـة تعـرض قصتـي، كنـتُ الخائـنَ الـذي يسـتحق كل هـذا، تخيَّـل يـا فيليـب، ديانـاتٌ تطالـب بالتسـامح والغفـران والمحبـة والعَفـو، نسـوا ذلـك، وذكـروني كعـبرةٍ في القصـص، أنـا -يهـوذا سـمعان الإسـخريوطي- الـذي كنـتُ يومًـا مـن الحواريـين، كلـما ذُكِـرَ اسـمي مجَّـدوا في مسـيحهم ولعنـوني في أي مناسـبةٍ، حتـى إنجيـلي المكتـوب، المذكـورة فيـه كل تعاليـم المسـيح لي، نفـوه بعيـدًا، ولم يعترفـوا بـه.

لا تصدقنـي؟ نعـم يـا فيليـب أنـا كتبـتُ إنجيـلاً! كنـتُ أراه أمامـي يوميًـا، وهـو مدفـون في منطقـة مغاغـة بشـمال المنيـا، حاولـتُ كثـيراً رفعـه واحتضانـه، ولكـن كيـف ترفـع الـروح شـيئًا؟ هـذا الإنجيـل يـا فيليـب هـو إنجيـل غنـوصي، كتبتُـه عـام مئـة وخمسـين ميلاديًـا، كتبتُـه عـن علاقتـي بالمسـيح، وكيـف أنـه كان مُعلمـي، يحبنـي ويحترمنـي، بـل ويعرِّفنـي عـلى كل أسرار الكـون، اصطفـاني مـن بـين كل حوارييـه، لأنـه يعـرف أننـي مـن سـأجادله، ومـن سـيتحدث ويفهـم مـا يقولـه، كانـتْ رحلتـي مُدونـةً فيـه، كل حـرفٍ وكل كلمـةٍ، كانـتْ صادقـةً وخارجـةً مـن فـم يسـوع، إلى قلبـي أولاً، ثـم إلى الكتابـة في النهايـة.

كل كارهـي يهـوذا ألقـوا بإنجيـلي بعـد مـوتي، ومسـحوا الخـيرَ مـن سـيرتي، لتفـوح الكراهيـة والـشر فقـط مـن اسـم يهـوذا ولا غـيره، كأننـي بالأصـل نبـي، وليـس إنسـانًا ضعيفًـا!

أتعـرف يـا فيليـب، لقـد تحـدث النـاس جميعًـا عـن الضعـف في كل المخلوقـات، حتـى الأنبيـاء، هـل تذكـر قصـةَ الشـاب الغنـي يـا فيليـب؟ الشـاب الـذي طلـب مـن يسـوع أن يدلَّـه عـلى سر الحيـاة الأبديـة؟ فنظـر إليـه يسـوع وأحبـه وقالـه لـه يعـوزك شيء واحـد، اذهـب بِـع كل مالِـك وأعـطِ الفقـراءَ فيكـون لـك كنـز مـن السـماء، وتعـالَ اتبعنـي حامـلاً الصليـب.. رحـل الشـاب حزينًـا يـا فيليـب، ذلـك لأنـه كان ذا ثـروة، هنـا يـا فيليـب مـا أريـد الوصـول إليـه! فكـرة الضعـف، القصـص كلهـا تتحـدث عـن مـدى صعوبـة الاختبـار، وتحمُّـل الشـاب لفكـرة الاسـتغناء، مـع ذلـك لم يذكـر

أحدهـم نقطـة ضعفـه وقتهـا، حبـه للـمال، الـكل صفَّـق للحكمـة وتـرك العنـصرَ الإنسـاني الموجـود، الضعـف!

أشـعرُ مـن نظراتِـك الباهتـة عـدم فهمـك لما أقصـده.. سـأشرح لـك وجهـةً نظـري في نقـاطٍ بسـيطة.. بطـرس تلميـذ الـرب يـا فيليـب، نقطـة ضعفـه كانـت الاندفـاع، وتومـا الرسـول عرفنـا عنـه الشـك، ويعقـوب أبـو الآبـاء كانـتْ نقطـة ضعفـه الاعتـماد عـلى الحيـل البشريـة، وقايـين يـا فيليـب نقطـة ضعفـه كانـت الحسـد! حتـى صـارتْ خطيئـته وقتـل أخيـه هابيـل! كل قصـةٍ لهـولاء، هنـاك دافـع وراء أفعالهـم، فسَّرهـا النـاس وعذروهـم، إلا أنـا! صـار اسـمي بينهـم يهـوذا التلميـذ الخائـن الـذي أضـاع نفسَـه! لم يفكـر ولـو شـخصٌ واحـد أن نقطـةَ ضعفـي حينهـا كانـت حبـي للـمال؟ مثـلي مثـل قصـة الشـاب الغنـي؟

هـل لاحظـتَ يومًـا يـا فيليـب مثـلاً ذِكـرَ يهـوذا بـن حلفـى في بعـض آيـات الإنجيـل، وكان مـن الممكـن أن يُكتـبَ تَـداوس ليعـرف القـارئ مـن المقصـود، ومـع ذلـك لكرههـم ليهـوذا، لشـخصي، تعمـدوا تـركَ اسـمه يهـوذا بـن حلفـى، كأنهـم يقولـون للنـاس هـذا يهـوذا الآخـر، وليـس الخائـنَ الـذي نكرهـه! الخائـن الـذي بـاع المسـيحَ بثلاثـين مـن الفضـة.

مـاذا تقـول يـا فيليـب؟ لمـاذا شـنقتُ نفـسي؟ هـذا سـؤال يضحكنـي، يقولـون إننـي فعلتُهـا كي أقابـل المسـيحَ في العـالم الآخـر وأطلـب منـه العفـو! تخيَّـل يـا فيليـب، إنسـانٌ يتخلـص مـن حياتـه ليعتـذر لمعلمـه عـن خطيئتـه الخالـدة إلى يـوم النهايـة! أنـا لم أشـنق

نفسي يا فيليب! ولإجابة سؤالك التالي، سأخبرك فيما بعد كيف انتهت حياتي.

منذ موتي وأنا روحٌ مُعذبة، مغضوب عليها، هائمة لا تعرف طريقًا إلى الخلاص، حاولتُ كثيرًا الوصولَ إلى المسيح، للتحدث معه، لطلب عفوه أولاً، ولتذكيره بعهدنا معًا، وكيف كنا أصدقاء، لقد أنهكني وأنهك روحي السفرُ يا فيليب، التيهُ يزاملني منذ النقطة السوداء في تاريخي، يوم خنتُ المسيحَ، يوم قالها لي: أتبيع ابن الإنسان بقُبلةٍ؟"

ولكن يا فيليب، لماذا لم يغفر لي المسيح وغفر لبطرس الرسول؟ وللص اليمين؟ لماذا تغنّى الناس بتوبة بطرس؟ ولماذا رفض كل شخصٍ توبتي وندمي؟ لقد أنكره بطرس ثلاث مرات يا فيليب! ومع ذلك من نظرة واحدة تاب عليه يسوع!

وهنا يا فيليب السؤال، لماذا تاب على من أنكره ثلاث مرات، ولم يتُب على شخصٍ ضعيفٍ يحب المال؟ لماذا يا فيليب تعامل يسوع معي بقلبِ إنسانٍ يرفض العفوَ؟ لماذا تعامل معي ومع بطرس بمبدأ أنا أحب بطرس ولا أحب يهوذا؟ يا فيليب، لماذا من البداية اختارني وهو يعرف مدى ضعفي وحبي للمال؟ هل ظن أنني سأتغير؟ نظرًا إلى تعاليمه؟ ولِمَ تلك المُعاملة، حتى وهو يغسل أقدامنا جميعًا، قال لنا كلكم طاهر ولكن ليس جميعكم!

لماذا لم يتحدث المسيح معي، وينبهني لخطورة أمري، وضعف إيمان قلبي وحبه للمال، لماذا يا فيليب قال لبطرس

عـن خطيئتـه وعرّفـه قبلها وأنـا تركنـي هكـذا حتـى أقـع بنفـسي في شر أعـمالي! سـمعتُ كل شـخصٍ عـلى وجـه البسـيطة يـبرر لبطـرس خطيئته، يقـول بنغمـة المُسـامحة إن خطيـّةَ بُطـرس عارضـةٌ، وليـدة اللحظـة، لم يكـن يعرفها قلبـه، لكـن خطيتـي كان قلبـي عارفًـا بهـا، بـل ويحكـون عنـي كيـف أننـي قضيـتُ أيامًـا أفكـر كيـف سأسـلمه لهـم.

أضحكنـــي جـــدًّا يـــا فيليـــب هـــذا القـــس الـــذي دافـــع عـــن بطـرس مـرةً، حـين كان درس الكنيسـة يومهـا عـن الخطايـا، وقـال للحاضريـن: "مثـلاً يـا أحبـاء المسـيح، خطيئـة يهـوذا الخائـن كانـت مولـودةً في قلبـه كشـهوةٍ، وظـل جنينها ينمـو في قلبـه، حتـى جـاء الوقـت ليلـد رحـمُ شره، كقـول الكتـاب (ثـم الشـهوة إذا حبلـتْ تلد خطيـةً، والخطيـة إذا كملـتْ تنتـج موتًـا)، لم يجـرؤ ولـو طفـلٌ عـلى تنبيـه النـاس كيـف تعامـل المسـيح مـع بطـرس عـلى أنـه حبيبـه، وتعامـل معـي عـلى أننـي عـدوه اللـدود! العـدو الـذي يقربـه منـه ليعـرف شرورَه وشرورَ أعمالـه.

يـــا فيليـــب، طـــوال فـــترة وجودنـــا معًـــا، ستســـمعني فقـــط، هـذه فرصتـي الوحيـدة، سـأتكلم معـك عـن كل مـا يخصنـي، لـن تعارضنـي في شيءٍ، لـن تعـرض حججًـا كـما علمـوك في الكنائـس والكتـب الرخيصـة، لـن تُسـمِعُني كلامًـا غبيًـا عـن الفرق بـين توبتي المرفوضـة وتوبـة بطـرس المقبولـة، وسـأريك كوابيـسي يـا فيليـب، سـأجعلك تعيـش معـي الكوابيـس التـي تهاجمنـي منـذ صرتُ روحًا مطـرودةً، باختصـار، أنـت ملكـوتي المؤقـت يـا فيليـب".

أيام الدهشة الثانية

لعمة

بعد مسيرة يوم، من محافظةٍ إلى محافظةٍ، من الشرقية إلى القاهرة، والعجلة التي تساعدني في رحلتي، لم تتحمل حرارة الأسفلت، لتنفجر الطارة الأمامية، ووجع الدورة الشهرية، وألمها المُستفز، ورائحتها المقرفة، المُصممة على الاختلاط مع رائحة الوقود التي أتبعها، وقلة الموارد الموجودة، الماء هو الشيء الوحيد الذي أجده، فقد ملأتُ زجاجتين من النيل في أثناء رحلتي.. كم حذرني عم سند رحمه الله من خطورة الشرب مباشرةً منه، وكنتُ أقول له: "يا رجل يا عجوز، النيل يعرف أنني طيبة ومظلومة، فيعطيني ماءً نقيًا أشربه، ويزيد من تلوث جرعاتهم، فيؤذيهم كما يفعلون بي!"

مشيتُ غالبَ الطريق، الحرارة بنت الكلب تضربني، البُقع تتحرك بطريقةٍ غريبة، الرحلة جعلتني أكره الحياةَ أكثر، وأقسمتُ بتعبي لو أن الرائحةَ مصدرُها إنسان، سأقتله في الحال! فبماذا سيفيدني وهو بلا ملامح؟ وهو ضعيفٌ عديم الحيلة؟ الشك بدأ يلعب في عبي، كل خوفي أن يكون رجلاً أو طفلاً، وحياة بقعي التي أكرهها إذا حصل، لن أرحمه! الغريب في الحكاية أن الرائحةَ لشيء يحترق، وهذا معناه مثلاً فرنٌ للعيش، أو مصنعٌ ما زال يعمل، أو رائحةُ وقود كما هي، دون أي تفسير.

مشيتُ على طرقٍ لا تصلح للسير، عبرتُ أسفل كبارٍ، رأيتُ مصانعَ إنتاجٍ وتعبئة، عرباتٍ واقفة بمنتصف الطرق، فتشتُ كل سيارة، تركتُ الناس بداخلها يرتجفون في خوفٍ أحبه، يا سلام يا نعمة، خوف الظالم عبادة وليس النوم.. حالفني الحظ بوجود مُعلبات، طبعًا واحدة جاهلة مثلي، لا تعرف القراءة ولا الكتابة كما ينبغي، كنتُ أعتمد على الرائحة، إذا كانتْ طبيعية، فهو شيءٌ صالحٌ للأكل، معظم ما وجدته فسدتْ صلاحيته، وكان أملي كبيرًا أن أصادفَ محلاتٍ بقالة، حيث الثلاجات قد تعطيني شيئًا يساعدني في رحلتي. أعترف أن الموضوعَ صار أصعب من البداية، الأشياء تتناقص فقط، لا وجود لأي شيءٍ جديد، صارتْ حياتي عبارة عن النجاة، بأقل القليل، ومحاولة العيش حتى تحدث معجزة.

خلال رحلتي قعدتُ أكثر من أربعين مرة، قلتُ إنني سأسير كل مسافةٍ إلى أن يتمكن مني التعب، فأجلس لأرتاح، وأرى الموجودات حولي، ربما أعثر على شيءٍ مفيد، ثم أقوم

لأحصل عليه وأكمل طريقي، جلستُ بداخل سيارات، وحافلات ومقطورتين، وهناك مرة لم أجد شيئًا إلا رجلين، فنمتُ فوق واحد ليحميني من حرارة الأسفلت، ووضعتُ الآخر فوقي ليحميني من الشمس، كلاهما حاول فهمَ ما يحدث، لكني ضربتُهما بحجرٍ أفقدهما الوعي.. شعور جميل، يا سلام، أن تضربَ شخصًا، لا يرى ولا يسمع، يتحرك بجنونٍ، يجهل أين يجري أو يختبئ.. إنسانًا مكشوفًا، ككلبٍ لا يعتقد أن صاحبَه يراه، مع أن ذيله يرقص من الفرحة، فيفضحه.

وصلتُ إلى مكانٍ واسعٍ، أعتقد من هيئته أنه موقف، كنتُ أسمعهم يقولون عنه: "موقف السلام"، لهؤلاء الذين يسافرون من وإلى المحافظتين. عرباتٌ كثيرة وناسٌ أكثر، كلهم على الأرض، يرتجفون فقط، فتحتُ كل حقيبةٍ وشنطةٍ وكيسٍ وبؤجةٍ، لقيتُ علبةَ فوطٍ صحية بحقيبة امرأة، زجاجات ماءٍ، منها ما يصلح للشرب، ولم أترك مليمًا واحدًا في جيب أي شخصٍ، معلبات، حلوى، المعظم فسد ولا يمكن تناوله.. فوق إحدى العربات لمحتُ شوالَ بصل، لما فحصتُه وجدتُه ما زال جيدًا، سحبتُ بصلتين، وركلتُ رجلاً، من الواضح أنه يعمل بالزراعة، لأنه حين أحس بي فزع وضربني بقدمه كي أبتعد، فركلتُه في وجهه وخصيتيه، بعدما رفعتُ جلبابه، وسحبتُ كل ما تحته إلى أسفل، لأجد قضيبًا جائعًا، وخصيتين كبيرتين بهما لبنٌ وافر، قلتُ لن يضر أن أشرب شيئًا غير الماء، نظفتُه ثم حلبتُ الرجل، حتى خرج ماؤه ثلاث مرات، وكلما حاول الهرب، ضربتُه بين خصيتيه، فجلس مكانه، يتألم في صمتٍ.

قـررتُ أن أسـحبَه معـي، وأن أشربَ مـن خـير قضيبـه، ولمـا ينتهـي مـا تحملـه خصيتـاه، سـأرميه إلى الشـارع، وأسـتخدم غـيره، مـا أكـثر الرجـال النائمـين عـلى الأرض بخصيـات عامـرة. حلبـتُ رجـلاً ثانيًـا، لأتأكـد مـن معلومـة بـرودة اللـبن الخـارج منهـم، الصراحـة طعـم لبنهـم غريـب وبـارد، وأنـا نـادرًا مـا أجـد مشروبًـا بـاردًا، غـير المـاء، أنـا في حالـةٍ خطـرة، المـوارد قليلـة لذلـك يجـب التفكـير في حلـولٍ تفيـد، وشرب لـبن الرجـال حـل جميـل ومفيـد.

الرائحـة تقـترب عـلى نحـو مُبـشِّر، مشـيتُ فـوق جثث، وأسـقف سـيارات واقفـة، مشـيتُ فـوق أجسـاد نسـاء، كشـفتُ عنهـا لأرى مـا تسـتر الواحـدة منهـن، ثـم وقفـتُ أمـام سـيدة، صدرهـا كبـير بدرجـة مسـتفزة، سـألتُها: "هـل بصـدرك لـبن يـا أم بـزاز كبـيرة؟" ضحكـتُ طبعًـا لأنهـا لـن تجيـب، كشـفتُ عـن صدرهـا، ومـع محاولاتها لدفعـي بعيـدًا، ضربتُهـا هـي الأخـرى بحجـرٍ، سـكنتْ في لحظـةٍ، ثـم وضعـتُ قضيـب رجـلٍ مـن الرجلـين بفمهـا، ضحكـتُ لمـا تذكـرتُ أن ليـس لهـا أي ملامـحٍ، وضحكـتُ أكـثر لمـا وجـدتُ الرجـل يحـك قضيبـه وخصيتيـه بوجههـا، أي نعـم الرجـل يتحـرك بـلا روح، ولكـن لا يهـم، المُتعـة للجميـع مهـما كان الوضـع! وضعـتُ صدرهـا الأيمـن بفمـي، ضغطـتُ عليه كثـيرًا، لا يُخـرجُ شـيئًا، صفعتُها وتركتُهـا دون سـتر، سـحبتُ الرجلـين معـي، ربطتهـما بقطعـة قماش، يتحـركان في خـوفٍ عظيـم، يـا سـلام يـا نعمـة يـا سـلام، يخـاف منك النـاس، يـا صاحبـة الهيبـة العظيمـة يـا نعمـة.

مشـينا خلـف الرائحـة، وصلنـا إلى طريـقٍ طويـل، سـيارات عددهـا مهـول، ربمـا هـو طريـق رئيـس في القاهـرة، لافتـات إعلانات

كثيرة، يتوسطه رصيف ضخم، به مساحات خضراء وورود، ومبانٍ أنيقة على الجانبين وقصور، دخلتُ قصرًا يذكّرني شكله بالقصور القديمة التي عرفنا عنها أنها منذ الدول القديمة، التي أجهل اسمها أو متى بدأت.

بوابة ضخمة، حارس الأمن يجلس بمكانه، مسكين! تقريبًا هذا الحارس يظن أنه هو وعدد قليل فقط المُصابون والبقية بخير، فيقوم بعمله كي لا يفصله صاحب العمل، مسكين وضعيف وغبي! بالداخل مساحات خضراء شاسعة، الرائحة هنا مقبولة إلى حد ما، القصر نفسه ضخم، الباب الرئيس مفتوح، أرى شخصين على الأرض، من ملابسهما عرفتُ أنهما من الخدم، دخلتُ بكل سلاسة وسهولة، سقف عالٍ، طابقان طبعًا، سلمٌ ضخم من الناحيتين للطلوع والنزول، الأثاث كله مطلي بالذهب، هل هذا منزل أم متحف؟ ناسٌ على الأرض، عجوزٌ بجانبها صندوق مجوهرات، رجلٌ عاري قضيبه صغير، شابةٌ مرفوع فستانها جسدُها مثير، سجاد فاخر، ألوانٌ زاهية، يا سلام، حتى الأغنياء حين تصيبهم مصيبة لا بد أن تكون على نحو يليق بهم، غير معقول أن يجيء ضيفٌ، فيجد السجادَ قذرًا أو رائحتَه نتنة!

خلعتُ عن الشابة فستانَها، مقاسي بالضبط، مَسحتُ دم دورتي في وجه الرجل، لبستُ فوطةً صحية جديدة، جولتُ بالقصر، لوحات كبيرة مرسوم عليها العائلة التي قابلتُها منذ دخولي، نمتُ في سريرٍ من حرير، لبستُ ملابس الشابة ورأيتُ كم أنا جميلة في المرآة، هذا الزوج -الذي مسحتُ دم دورتي

بوجهـه- كان ليتزوجنـي إذا رآني قبلهـا، نزلـتُ إلى الأسـفل، بحثـتُ عـن المطبـخ وملأتُ زجاجـات مـاءٍ، وضعتُهـا في الثلاجـة، بحثـتُ عن أي شيءٍ يصلـح لـلأكل، حبـوب لوبيـا وبسـلة مجمـدة، الخضراوات هنـا معظمهـا بحالـة جيـدة، قـررتُ البقـاء هنـا وتكملـة رحلتـي حـين يرتـاح جسـدي تمامًـا، ملعونـة الرائحـة وصاحبهـا! سـأجلس هنـا للاسـتمتاع، قـد أجـد فاكهـةً أو مشروبـات غـير المـاء ولـبن الرجـال.

يـا سـلام يـا نعمـة، اخلعـي ملابسَـكِ الآن، وخـذي الرجلـين إلى أعـلى، واحتفـلي معهـما، وخـذي أيضًـا الشـابة المُثـيرة، أحببـتُ موضـوع الجنـس مـع النسـاء مـن بـاب التغيـير، الله يمسـيكِ بالخـير يـا سـت اعتـدال، يـا صاحبـة الفـرج الأكـثر احمـرارًا في تاريـخ كل واسـع.

تعـالي يـا حلـوة، اسـمحي لي أن أرى إذا كان فرجُـك أحمـر، أم أضـع لـكِ مـن الكريـم الـذي حصلـتُ عليـه مـن سـت الـكل والحَـمَار، السـت الملـبن اعتـدال.

محيي ابن طاهرة

صـار لي وقـت وأنـا هنـا، في السـيدة زينـب، عـثرتُ عـلى خـيراتٍ تُكفينـي فـترةً لا بـأس بهـا، أغذيـة محفوظـة، وحبوبًـا صالحـة عنـد عطـار، أسـتطيع الجـزم بأنـه مـن أشـهر عطـاري المنطقـة، نظـرًا إلى كـبر مسـاحة المحـل، وهندسـته المعماريـة القديمـة، المحـل معظمـه

مـن الخشـب، والأسـلوب الإسـلامي وخشـب الأرابيسـك، بالمشربيات والأشـكال المُتداخلـة، محـل فاخـر بصراحـة.

يعجبنـي تنـوع الصنـوف الموجـودة، غـير المُقتـصرة عـلى الحبوب فقـط، فقـد وجـدتُ لـوازمَ اسـتحمام بمختلـف أنواعهـا، ومـا يفيـد في العـلاج والطبـخ، وعطـورًا رائحتهـا زكيـة، ضحكـتُ لمـا نـثرتُ منهـا عـليّ، وسـألتُ نفسـي مـن سـيقابلني؟ أراهـم حـولي، في كل مـكان، لا يتحركـون، ملامحهـم ممسـوحة، فهـل مـن الـضروري التعطـر؟ ومـع ذلـك، النظافـة مـن أجـل النظافـة.

منـذ الفاجعـة، قـررتُ أن المكـوثَ في مـكانٍ واحـدٍ سـيصيبني بالجنـون، لذلـك كلـما نزلـتُ إلى منطقـةٍ أو شـارعٍ، إذا تمكـن منـي التعـب، أتوجـه إلى أقـرب منـزلٍ، وأنـام فيـه. الحقيقـة هـذا الفكـر منحنـي حريـة التحـرك، دون الكثـير مـن الحقائـب، فـما عـثرتُ عليـه في مـكانٍ، سـأنتهي منـه في المـكان ذاتـه، مـع الاحتفـاظ بمـا يسـاعدني عـلى البقـاء حيًـا، حتـى الوصـول إلى مقصـدٍ جديـد، وتكـرار الأمـر نفسـه، إلى أن تتغـير الحـال.

تعقُّـب رائحـة الدهـان كان لغـزًا، الوصـول إلى الوجهـة المطلوبة، جعلنـي أسـب وألعـن مئـات المـرات، حتـى لاحـت في الأفـق معجزةٌ، وقفـتُ أمامهـا صامتًـا، لا أتحـرك ولا يسـعفني الـكلام، كانـت المـرة الأولى منـذ لا أذكـر متـى، التـي أرى فيهـا شـخصًا، بكامـل ملامحـه، يتحـرك بثبـاتٍ، يبحـث عـن شيءٍ، شـخصًا عاديًـا، يـرى ويسـمع ويتكلـم!

في البداية لم يلمحني، اقتربتُ منه أكثر، لأعرف أن الشخصَ أنثى وليس ذكرًا، تنحنحتُ فانتفضتْ، لم أفهم المغزى من الرجل المُكبل بجانبها، رفعتْ حجرًا وسألتني بعدوانية: "من أنت؟ وكيف تتحرك هكذا؟ تكلم وإلا قتلتُك حالاً!"

الدهشة الخالصة في أثناء مواجهتها هي تفرد ملامحها وغرابتها في آنٍ واحد! أنثى، كاملة النضج، مُغرية جدًّا، تحرك بداخلك كل الغرائز التي تعمد نسيانها الواحد لما يمر به من وحدةٍ، فتجد أنثى قصيرة، جسدُها حلو تشتهيه، ومع ذلك، تجهل البقع الموجودة على جلدها! هل هو مرض أصابها أم عيب خلقي، أم حيلة ابتدعتها لتضمن عدم الاقتراب منها؟ رفعتُ يدي، رميتُ كل ما أحمله من كتبٍ وزجاجةِ ماءٍ، وحقيبة الحبوب والعطور والصابون، قلتُ لها: "أنا محيي ابن طاهرة، لم يصبني ما أصابهم، ولا أريد أي أذى لكِ، وأقسم لكِ على ذلك يا أستاذة، عفوًا أنا لا أعرف هل أنتِ آنسة أم متزوجة، لذلك قلتُ يا أستاذة".

رمتِ الحجر بعيدًا، وأمرتني بالمشي إليها، ولكن بالعكس فوليتُ لها ظهري ثم مشيتُ إلى الخلف، بخطواتٍ بطيئةٍ، خو من أي عائقٍ قد يُسقطني، حتى قالتْ: "توقف"، ففعلتُ ما طلبتْه، ثم سألتني عن سبب وجودي.. "أنا هنا يا أستاذة لعدة أسباب، أولها أنني أبحث عن أي مواردٍ تساعدني على البقاء حيًّا، ثانيها التعرف على أماكن جديدة، لعل الجن يتركني لحالي، وثالثها وهو تتبع رائحة، والآن عرفتُ مصدرها من الواضح أنكِ تعملين في هذا المجال"، قاطعتني بـ

واحـدٍ صـادم: "عـن أي رائحـةٍ تتحـدث؟ أنـا لا أعمـل هنـا وأتيـتُ مـن محافظـةٍ أخـرى للسـبب نفسـه! مـن أنـت؟ قـل الحقيقـة وإلا سـأقطع عضـوك وأشـويه!"

البنـتُ عـلى أتـم الاسـتعداد لقتـلي في أي لحظـةٍ بـلا أدنى تـردد. تحركـتُ دون قصـدٍ كي أواجههـا ونتكلـم، فرمتنـي بحجـرٍ صغـيرٍ، وسـبَّتني لأننـي تحركـتُ بـلا اسـتئذان أو أمـر منهـا. اعتـذرتُ عـن سـوء فعـلي، وشرحـتُ لهـا بحلـو الـكلام -الـذي وضـح لي كيـف أنهـا تتأثـر بـه- أننـي لم أقصـد نهائيًـا، وأننـي لـن أفعـل شـيئًا إلا بأمرهـا، ثـم طلبـتُ منهـا في ود حقيقـي أن تعطينـي الفرصـةَ لنتحـدث، وكـم هـو أمـر مبهـج العثـور عـلى شـخصٍ آخـر يشـاركني هـذه الحيـاة البائسـة، خصوصًـا -وهـذا قلتُـه لنفسـي- أنهـا لم تتعـرف عـلى ملامحـي، ولم يصـدر عنهـا مـزاح سـخيف مـن شـاكلة المسـيح والإسـلام وخفـة الـدم التـي تصيبـك بالعقـم.

سـألتني عـن الرائحـة، فشرحـتُ لهـا الأمـر كلـه. سـألتني مـن أنا. فجاوبـتُ في حـدود مـا أريـد أن تعرفـه. سـألتني عـن ديانتـي، فامتنعـتُ عـن الإجابـة، بحجـة أن الأمـرَ بينـي وبـين الله. سـألتني عن ممارسـتي للجنـس، فسـألتُها أيـن المتعـة في شـعورٍ مـن طـرفٍ واحـد؟ لا وجـود لآهـاتٍ، أو حـث عـلى المزيـد، أو حدوثـه مـرة سابقة. لأن الأولى كان الفعـل عظيـمًا بهـا، وليـس مـن اللائـق النـوم مع أنثـى لا تعـرف مـن أنـا، ولا تخـبرني عـن أدائي، هـل هـو رائـع أم مثـلي مثـل أي رجـلٍ. تعجبـتُ مـن صراحتـي مـع بنـتٍ أراهـا المرة الأولى، وعللـتُ ذلـك بسـبب جرأتهـا هـي، فكيـف تكـون هي هكـذا، وأتحـدث أنـا بـأدبٍ أو بتعقـل؟

الـكلام يتبعـه كلامٌ، وسـؤال يجـر سـؤالاً، وأقسـمتُ لهـا إنني لـن أسـألها عـن أي شيءٍ يخصُهـا، إلا إذا أرادتْ هـي الإفصـاح، ثـم سـألتُها -بعدمـا اسـتأذنتُ منهـا- عـن مصـدر الرائحـة، فأشـارت إلى شـارعٍ ضيـق، لم أرَه عـلى الرغـم مـن مـروري هنـا كثـيرًا، وقالـتْ إن المحـلَ مُغلـق، وحاولـتْ فتحـه لكنهـا فشـلتْ، فعرضـتُ عليهـا المُسـاعدة، لعلنـا نصـل إلى أمـرٍ يسـاعدنا، أو اكتشـافٍ جديـد، فربمـا نجـد شـخصًا بالداخـل! تحركنـا -أنـا وهـي والرجـل المُكبـل- تجـاه المحـل، بعدمـا مررنـا بمكتـب بريـد، ومحـل ملابـس، دخلنـا الشـارع الضيـق الـذي لم ألمحـه نهائيًـا، وصلنـا إلى وجهتنـا فعرفـت أيـن المُشـكلة، لم يكـن كبقيـة المحـلات قفلـه في الأرض فتفتحـه وترفـع البـاب، بـل كان قفلـه في البـاب نفسـه، مـا يَصعُـب عـلى أي سـارقٍ فتحـه أو لخلخـتـه حتـى.

ركلـتُ البـاب كثـيرًا، كنـوعٍ مـن أنـواع التعـرف عـلى مـدى صلادتـه، لم يتحـرك البـاب ولم يهتـز، سـألتُها هـل تحمـل مطرقـةً أو سـكينًا؟ فنفـتْ مـا طلبتُـه، ثـم عرضـتْ عـليّ أمـرًا بشـعًا، قالـتْ في منتهـى البسـاطة: "رأس هـذا الرجـل ممكـن نسـتخدمها كمطرقـة. فهـو لايفيـدني في شيءٍ"، ظننتُهـا تمـزح، لكنهـا لم تبتسـم، رفضـتُ الفكـرة في أدبٍ لا يضايقهـا، وقلـتُ لهـا إننـي سـأبحث عـن أي ورشـةٍ في محيـط المنطقـة، فالموضـوع غـير مقتـصر عـلى مطرقة فقـط.. هـذه كذبـةٌ طبعًـا، لأن كل مـا نحتـاج إليـه فعـلاً هـو مطرقة، لنكـسر القفـلَ الـذاتي، ولكـن ليـس رأس هـذا الرجـل! طلبـتُ منها مرافقتـي، فرفضـتْ لسـبب غريـب، وعدتنـي أن تفصـحَ عنـه إذا ما سـاعدتُها في دخـول ذلـك المحـل وفهـم الموجـود بداخلـه.

نظراتُها لم تغادر بابَ المحل، تراقبه في خوفٍ غريب، كأن حل لغزِ ما نمر به خلفه، أو خلاص روحها من أي عذاب. ذهبتُ إلى محل العطارة، أذكر أنني لمحتُ هناك ما قد يساعدنا، وجدتُ سلمًا خشبيًا وصندوقًا معدنيًا يشبه الحقيبة، كُتِبَ عليه بخط يدوي عشوائي "صندوق العدة"، ومطفأة حريقٍ، خطفتُ ما لقيتُه وركضتُ، لم أفكر في فتحه للتأكد من جدواه، قلتُ لنفسي حتى لو الصندوق لا يحمل شيئًا، سأستخدمه كمطرقة، رجعتُ إليها مهرولاً، كان من الواضح عليّ احتياجي إلى مساعدة نظرًا إلى تعدد وثقل الأشياء المحمولة، ومع ذلك لم تتحرك خطوةً تجاهي لما لمحتني في أثناء سرياني إلى المحل.. وقفتُ أمام بابه، وطلبتُ منها التراجع إلى الخلف قليلاً. فتحتُ الصندوق لأجد مثقابًا كهربائيًا، ومطرقة صغيرة وغيره، بالطبع كان الأمر سيكون أسهل إذا ما توافر مصدر للكهرباء، لذلك خلعتُ من المثقاب السن الثاقب، وربطتُ حجرًا بشريط لاصق كنتُ قد عثرتُ عليه في فَرشة مستلزمات، في الطريق بين رمسيس والتحرير، لأصنع مطرقةً يدوية.

صار الآن سن المثقاب رأس المطرقة، والجسد عبارة عن حجر قوي صلد، استخدمتُ المطرقةَ الأخرى بعدها للدق فوقه، في أماكنٍ محسوبة تصنع دائرة كبيرة فوق سطح الباب، تُسهِّل لنا الدخول. لم تفهم البنت ما أفعله، لكنها فرحتْ كثيرًا حين وضعتُ السن جانبًا، ثم رفعتُ مطفأة الحريق بكل عزمي ورميتُها تجاه الدائرة المصنوعة عدة مرات، فسقط الجزء المحدود من الباب، فدخلنا من خلاله.

المحـل محـل دهانـات، لا يوجـد أي شيء مُفيـد، زيـوت وآلات، لا أفهـم مـا سـبب وجودنـا هنـا!

لمحـتُ البنـتَ تركـع لجهـازٍ، سـألتُها مـا الـذي تفعلـه، فأجابتنـي: "يـا محيـي، منـذ جئـتُ إلى هنـا قبلـك، وكلـما حاولـتُ الرحيـل، شـعرتُ بالبقـع الموجـودة فـوق جسـدي تؤلمنـي، كأنهـا ترفـض الرحيـل بعيـدًا عـن هـذا المـكان، ثـم الآن عرفـتُ أنـه ليـس المـكان، بـل هـذه الآلـة، حـين دخلنـا شـدتني البقـع تجاههـا، حاولـتُ المشي رفـض جسـدي، يـا محيـي، أنـا أجهـل السـبب، لكننـا لـن نرحـل مـن هنـا دون هـذه الآلـة، ولا تسـألني كيـف، حتـى لـو سـأموت هنـا، لـن أرحـل دونهـا". يبـدو أن الألمَ حقيقـي، أو يبـدو أنهـا مجنونـة، هـل كانـت غلطتـي منـذ البدايـة أننـي أطعـتُ كل أوامرهـا؟

قلـتُ لهـا كي تطمـئن ولا تفـزع، أو يقتلهـا ألم الفُـراق عـن آلـ[illegible] "اتفقنـا، إلى أيـن سـنتجه الآن؟"

فيليب

كل يـومٍ يـا مينـا، منـذ مـا حـدث، وأنـا أنظـر إليـك، أحـكي [illegible] عـما أعانيـه، أعـرف أنـك لا تسـمعني، ولكـن هـذا الأمـر هـو [illegible] يدفعنـي للبقـاء، أننـي أراك أمامـي، وأشـكر يسـوع عـلى [illegible] البـصر، وأطلـب زوالـه في الآن نفسـه، فكيـف لأب ضعيـف [illegible] يسـتمد قوتـه مـن وجـود ابنـه في الدنيـا، مـن صوتـه ومـن [illegible] مـن غضبـه وحزنـه، مـن خطايـاه وسـذاجته، مـن أخطـاء [illegible]

أن يجلس ابنه هزيلاً خاضعًا هكذا؟ يا مينا، يا دم الفؤاد وسر الروح، خذ نظري وأنقذنا، ولا تُرجعه إليّ، يكفيني يا حبيبي أن تكون بخير، وليذهب فيليب إلى نهرٍ من مصائبٍ، لا يعرف أوله من آخره.

كل يومٍ يا مينا وأنا أعيد كلماتي، ويسوع المجيد لن أزهق، ولن تزهق روحي، وإن سألتني لماذا يا فيليب تُعيد حزنك ويأسك، سأقول لك لديَّ أمل يحدِّثني بأنك قد تكون سامعًا، أو شاعرًا بما أعانيه، وتهوِّن عليَّ بحركاتك تلك، يا حبيبي يا مينا، لا تستأهل ما يحدث لك، كنتَ نعم الابن الذي دعوتُ له يوميًا بمباركتك في الأرض والسماء، لأنك لم تُغضبني لحظةً.. يا يسوع، خفف عنه آلامه، وأنا مُستعد لأضعاف ما نمر به، المُهم أن يكون مينا بخير.

أتمنى يا مينا ألا تمانع أن أعيدَ حكايةَ أختك مريم، الجميلة البتول مريم، التي ذهبت إلى السماء، بفعل الإنسان الشرير الذي يكره الجمال، فيجبر أخاه الإنسان على فعل ما يبغضه، القتل يا مينا! قتلتُ مريم بيديَّ، وحتى تلك الثانية، وكل من يعرف الموضوع يعتقد أنه متحرش مجهول، قتلها وهرب، قتلتُها يا مينا، لأنها كانت فتنةً تمشي بين الناس!

مريم كانتْ جمالاً خالصًا، ورثته عن جدتك، أم أمك، الشعر المائل إلى الأحمر الغامق، الوجه المُستدير الأبيض، العينين الملونتين، تارة تشعر أنهما خضراوان، وتارة ترى لونهما أخضر يسبح في بحرٍ من الصفار، جسدُها كان سريعَ النضج،

فيرى الناس بوضوح مفاتنَ الجسم، ومهما حاولنا في إخفاء الظاهر، زادها جمالاً وإغراءً، إلى الدرجة التي جعلتْ كل بنات العائلة يكرهن اليومَ الذي شرفتْ فيه العذراء مريم، ويعلم يسوع كم سمعتُ من مر الكلام، حتى ذلك الوقت التي قالتْ فيه أمك: "يا فيليب، مريم صارتْ مشكلةً كبيرة! ابنة العاشرة يريدها كل من يلمحها! هل نزوجها من الآن، ونخلص من المُضايقات، ورائحة العفن التي تحوم حولنا، سواء من نظرات الناس وكلامهم الذي لا يرحم؟" تخيَّل يا مينا؟ بنت جميلة، تعيش وسط مجتمع من الفقر والجهل، من الكراهية والشهوة، مجتمع كان يقتلني مع كل نظرةٍ لها، فقد منعتُها من جلب الأكل بسبب نظرات العاملين في الأفران، وكلامهم المعسول الخادع للبنت ومشيتها وجمالها، مع أنها يا مينا كانت محترمة جدًّا، ولم تتعمد قط أي غنجٍ، في مشيتها أو طريقة كلامها.

حتى جاء اليوم المشؤوم، وعرفتُ بخبر زيارة الباشا للأفران، حين وصل إلينا خبر حزين تناقله الحاضر والغائب عن إمكانية بيع الأفران لرجل خليجي، جاء الباشا والخليجي وحاشيتهما، وبسبب البخت الأسود، ولأنني تأخرتُ يومها عن موعد رجوعي، أرسلتْ أمك مريم، ليطمئن قلبها، شاهد الخليجي جمال مريم، وقال للباشا إنه سيوافق على أي سعر، مقابل زواجه بمريم، ابنة العاشرة يا مينا، تخيَّل!

تحدث الباشا معي، وطلب مني ضرورةَ القبول، وسيشملني الباشا بمبالغ ورعاية لا تخطر على بال!

استسـمحتُه في مـدة تفكـيرٍ، ومخاطبـة البنـت وأمهـا، وقبـل أن يغضـبَ قُلـتُ لـه: "للعلـم بالأمـر فقـط يـا باشـا، الأمـر أمـرك طبعًـا!" مشـيتُ إلى بيتنـا حزينًـا، مـع ابنتـي التـي كانـتْ ترنـم، بجمال صـوتٍ وحكمـة شـهيدة سـماء، عرفـتْ مـن ملامحـي كل الحـزن الـذي يقتلنـي، فسـألتني: "يـا أبي يـا جميـل، هـل ضايقـك هـذا الرجـل العجـوز؟ هـو وزميلـه السـمين؟" كنـتُ عـلى وشـك البـوح لهـا يـا مينـا، كنـتُ سـأقول لهـا هـذا السـمين سـيصبح زوجـك يـا مريـم. طبعًـا تسـألني لمـاذا رفضـتُ الصفقـة؟ رفضتُهـا يا مينـا لأن الخليجـي اسـمه محمـد، هـل سـأبيع ابنتـي، العـذراء البتول، لمسـلم يـا مينـا؟ كيـف سـأنام وهـو يغتصبهـا كل يـومٍ؟ البنـت صغـيرة لا تعـرف شـيئًا عـن الحيـاة الزوجيـة، ولا حتـى جسـدها الـذي نضـج قبـل أوانـه يعـرف شـيئًا عـن الجنـس والنـوم مع رجـلٍ.

لا يـا مينـا، لا تسـألني هـذا السـؤال. لا تقـل لي كلامًـا كهـذا، نعم حتى إذا طلـبَ الباشـا الـزواج بهـا، كنـتُ سـأرفض، وكنـتُ سـأبحث عن أي حجـةٍ، لكـن طالـبَ القُـرب لم يكـن الباشـا، كان الخليجـي القذر، شـوال المـال، الـذي يريـد أن يقسـمَ ابنتـي نصفـين بقضيبـه الصناعـي، فمـن المؤكـد أن رجـلاً مثلـه، لا يملـك قضيبًـا حقيقيًـا، وإلا كيف يطلـب الـزواج بطفلـةٍ؟ فعلـةٌ كهـذه لا تخـرج إلا مـن مريـض نفسـيًا، مريـض يريـد النـوم مـع طفلـة! ولا تَلُـم عـليَّ، أنني لم أغضـب وأتعـارك معهـما، إذا صفعنـي الباشـا أو الخليجـي سأسـقط صريعًـا، جسـدي الواهـن لـن يتحمـل، والمنطـق في هـذا اللحظـة

هـو الصمـت، مـن سـيرعى حريـم بيتـي إذا صعـدتُ إلى الملكـوت مـع يسـوع؟

هـداني عقـلي إلى خطـةٍ تنقـذ الجميـع مـن فتنـة مريـم، مـاذا لـو ماتـتِ البنـت؟ نقـول مثـلاً ذهبـتْ لـشراء حلـوى، فلـم ترجـع، خاصـةً أن الباشـا كان كريمًـا، وتـرك لي أسـبوعًا كامـلاً لأخـبر أهـل بيتـي بمـا سـيجري، وكيـف سـتقيم الخـيرات في بيتنـا، لأن الخليجـي وعـدني بالمـال والهدايـا والملابـس كل شـهرٍ إكرامًـا لأهـل عروسـه، فقلـتُ لنفـسي إن أسـبوعًا مـدة عظيمـة تتيـح لي كل الفُـرص للتخلـص مـن مريـم، ولإقنـاع الجميـع بأنهـا حادثـة فعـلاً، ذلـك لأن كل الحلـول التـي حاولـتُ التوصـل إليهـا توصلـتْ هـي بي إلى قتلهـا، فنحـن جميعًـا منـذ نشـأتنا ونحـن في قريتنـا، لا قريـب بالقاهـرة، ولا صديـق بالإسـكندرية، ومريـم صغـيرة فـلا وجـود لبعثـة دراسـية، ولا يعرفنـي أحـدٌ لأقـول إنهـا سـافرتْ معـه وأهلـه، الباشـا يعرفنـي مثـل معرفتـي لنفـسي تمامًـا، بـل وأكـثر ويسـوع المجيـد.

قـررتُ قتلَهـا قبـل انتهـاء المـدة بيومـين، وذلـك حـين جـاءت البنـتُ، بعدمـا مـشى جميـع العـمال، لـتراني وتطمـئن عـليّ، انتهزتُ الفرصـة، وتأكـدتُ مـن خلـو المـكان تمامًـا، كلهـم غـادروا، وقفت البنـت خـارج الفُـرن، تنـادي اسـمي، تنـادي كثـيرًا بصـوتٍ ناعم رقيـق، تقـول في لهفـة: "يـا أبي العظيـم، هـل أنـت بالداخـل؟" [illegible] قُلـتُ لهـا بصـوتٍ مسـموع: "سـأخرج إليـكِ يـا مريـم، أترين الفُرن المُقابـل لهـذا الفُـرن؟ سـتجدين زيـرًا حديـثَ العهـد، اذهبـي تمامًا وأخبرينـي هـل مـاؤه حلـو، أم طعـم الفخـار واضـحٌ فيـه؟ صاحبه يقـول هنـاك عيـبٌ في الصناعـة، ونريـد التأكـد مـن ذلـك".

تحركتِ البنتُ بطيب خاطر يا مينا، خرجتُ بسرعةٍ عجيبة، لأن جسدي تحفز للأمر، وارتديتُ قفازًا من المطاط لضمان عدم ثبوت البصمات، وفي أثناء شرب البنت للماء، لتفعل كما فعلتُ لها، عاجلتُها بضربةٍ من مطرقةٍ، على رأسِها، سقطتْ مرةً واحدة، سقطتْ يا مينا وهي تنظر إليَّ، وقالتْ جملةً تأتيني في كوابيسي كل يومٍ، قالتْ بصعوبةٍ، بكلماتٍ متقطعة وروحٍ تنازع: "لم تقتلني.. الضربة.. يا.. أبي، قتلني أنها.. منك، يا أبي.. العظيم، لماذا يا أبي؟" هزتني الجملة، صفعتني في لحظةٍ ألف مرة، ثم نزعتُ عنها ملابسَها، أبكي وأقطع لباسها الداخلي، لأرى فرجها الصغير، أدخلتُ جسد المطرقة الخشبي به، ليتأكد من يراها من أنها حادثة اغتصاب، سال الدم على جسد المطرقة، قبّلتُ ابنتي، المُلقاة أمامي عاريةً، الجميلة حتى وهي مقتولة، قلتُ لها أنا آسف يا مريم آلاف المرات، أنا آسف يا مريم على ضعفي، على فقري، على وهن جسدي، على قتلي لكِ، على فراقكِ لنا، على وجود الباشا في دنيانا، على دفعكِ لثمن وضاعة أبيك، على جمالكِ الممنوح من يسوع، على خلق يسوع لكِ، على دخول نطفة مني إلى رحم أمك، على كوني أسفل الآباء، على أنني عامل فخار قذر، على أنني لم أفكر في أي حل آخر، على أنني اخترتُ مصيركِ، على أنني أرسلتُكِ إلى السماء مبكرًا، على أنني خطفتُ روحَكِ وعذريتكِ، على تركِكِ هكذا في العراء لمكتشف الجريمة مارٌّ أو كلبٌ، وربما يغتصبُكِ رجلٌ آخر ثم يهرب، أنا آسف يا مريم، لن أبيعكِ يا ابنتي إلى مال الباشا،

وإلى خليجي من ديانةٍ لا أعترف بها، أنا آسف يا مريم، هذا أفضل لكِ ولنا.

آه يا مريم.. يا ليتكِ كنتِ مثلهن، جمالكِ عادي، جسدُك ينضج على مهلٍ، ثقيلة الدم، روحكِ ثقيلة، ملامحكِ غير فاتنة، يا ليتكِ يا مريم كنتِ بنتًا قبيحة في صغرها، وتصير أجمل لما تبلغ وتكبر، يا ليت أمكِ لم تلدكِ يا مريم.. قرأتُ ما تذكرتُه وقتها لأبارك روحها، ذهبتُ إلى أبعد مكان، وواريتُ المطرقة تحت التراب، ذهبتُ إلى القهوة، جلستُ بين الناس بوجهٍ مبتسم، ملامحي المعروفة، السلامات والكلام الطيب، الشيشة فقط دون شاي، عمك نجيب شعر بشيءٍ عجيب، ولكنني أنكرتُ كل مخاوفه، لم أسمع النكاتِ السخيفة، الكلام عن الصفقة، أين سنذهب إذا حدث، تعمدتُ الاشتراك في كل الأحاديث، حتى لا يتهمني أحدهم بأنني لستُ على طبيعتي، ثم غادرتُ في هدوءٍ، ولما رجعتُ إلى بيتنا، سألتُ سهرة أمك: أين مريم؟ فقالتْ أمك: ذهبت إليك! كنتُ إله التمثيل في هذا الوقت، ملامح وجهي صادقة، أسب الجميع، أصفع أمك، وأقول لها: "أين ابنتكِ؟ لم تجئ إليّ، أنا تركتُ الفرن وذهبتُ إلى القهوة، أين مريم يا أم مريم؟ هل تركتِها تذهب في هذا الوقت المُتأخر؟ ماذا سيحدث لي إذا تأخرتُ؟ هل سيأكلني العفريت؟ أين مريم يا بنت الوسخة!"

عبد القوي

من الواضح أنني سأُدفَن هنا، في قاع النهر، ولو الدنيا بالأعلى رجعت إلى طبيعتها، لن يعثر أحدهم عليّ، وربما تطفو جثتي على السطح، منتفخة وزرقاء، ملامحي طبعًا ممسوحة، ولا يتعرف أي شخصٍ على هذه الجيفة، فيرميني من عثر عليّ، في سيارةٍ تخص مدافن الصدقة، ثم يرميني آخر في مدافن الصدقة، وأموت وأرتاح من كل هذا.

أو يحدث أمر آخر، فينشق النهر كانشقاق بحر موسى، وأغرق إلى مستوى أعمق، ومن الممكن أن أطير إلى الفضاء، أو النصف الآخر من الكرة الأرضية، وقد تكون مسألة موتي أبسط من كل ما سبق، تمر سمكة تثقب جسدي، فيدخل الماء ويزيد عن الحد، فأنفجر وتكنس ماء النهر الأشلاء.

هل أسبح إلى أعلى؟ أم أترك الوضع كما هو؟ هل سيغير قراري شيئًا؟ والله العظيم أنا لو مصنوع من حديد سيصيبني الصدأ، لكن أن أظل هكذا في الماء، بلا خدوشٍ أو ذوبان، كلما حاولتُ حك جلدي لا أشعر بشيءٍ، تحسستُ القاع هنا، لمستُ حجرًا كبيرًا، ضربتُ به رأسي، لا شيء، أمسكتُ برقبتي وضغطتُ عليها، الموت بالخنق، ولا شيء، كيف يعيش جسدي عامةً؟ لا أكل ولا شرب، لا تنفس ولا أي عملياتٍ حيوية، كيف أعيش كل هذا؟ يا رب سأموت من الجنون!

لماذا يا رب تفعل هذا بي؟ لا يهمني ما يمر به الآخرون، لماذا يا رب تعذبني هكذا؟ هل تتلذذ مثلاً؟ هل رأيتني دميةً

كسولاً فتعاقبني؟ كم شخصًا وقع مثلي في النهر؟ كم شخصًا يعاني مثلي؟ أين منة خطيئتي؟ هل هي حية أم صعدت إليك؟ لماذا تجعل روحنا تتمسك بالحياة؟ يا رب أنا لا أنام، لا أعرف الفرق بين الواقع والخيال، لا أتخيل، سحبتَ مني كل عناصر إنسانيتي، الحواس والتنفس والأكل والشرب والإخراج والأحلام والنوم، أنا هنا هكذا، في قاع نهرٍ، منذ وقتٍ نسيتُه من طول مدته، إذا كنتُ على صواب، فقد مرت سنوات وأنا في النهر، وسنوات وأنا في قاعه، إلى متى يا رب؟ حرام! أقسم بالله العظيم حرام!

لا الموت يريدني، ولا الجنون يريدني، أنا مجرد مساحة موجودة، لا تفعل أي شيءٍ، مساحة نكرة، بلا فائدة في حياتي، وأنا على وشك الموت، إذا كنتُ سأموت أساسًا! صليتُ لك كثيرًا يا رب في حياتي، طلبتُ منك علاجي من مرض الكسل، طلبتُ منك كثيرًا أي إشارةٍ أو تفسيرٍ، عن سبب تقاعسي، كلما هممتُ بالتحرك تجاه غرضٍ، عطلني شخصٌ أو شيءٌ، كأنك تتعمد أن أبقى بمكاني، لا أتحرك، حتى بعدما عثرتُ على قضية مهمة، كلما حاولتُ السعي، شدتني قيود واهية.

كل الناس حولي، حولتَ حياتهم إلى الأفضل، رواتب ممتازة، عائلة مُشرفة، سيارة فارهة، وظيفة مناسبة، إلا عبد القوي، يصعد الجميع إلى برجٍ، ويبقى هو بالأسفل، يراقب هل سيصعد آخر؟ أم يغلق الباب خلف الذين صعدوا، وينتظر الفرج القريب.

ألا يكفيك أنني لا أسمع كلامي، بيني وبين نفسي، وكل ما يصدر عني هو شعورٌ بأنني أقول هذا الكلام، لقد سحبتَ مني خاصية الفضفضة، أنا مجرد طين على هيئة إنسانٍ، ينتظر معجزةً، قد تحدث وقد لا تحدث، ربما يُنفَخ في روحٌ من جديد، ربما تصعد روحُه إلى السماء، وربما يظل هكذا إلى أن تقومَ القيامة، وحينها لا أعرف إلى من سأشكو حالي، هل ستسمعني يا رب وأنا أقول لك أنتَ من فعلتَ هكذا بي، فخذ حقي بنفسك من نفسك؟

خمسة أشهر من الدهشة الأولى

العامة

ثورة الأدباء

"نَسبُ الأدبِ إلى القيمِ تلفيقٌ فج، ونَسبُ الأخلاقِ إلى الكتابة الإبداعية قتلٌ صريح!

إن كتابًا مُحدد أركانه، وما يناقشه ويعرضه، هو كتابٌ صاحبه صادقَ الحائطَ، ومشى معه لا بجانبه! وفي تكليف الكاتب بقضايا مُعينة إعدام وقح لموهبة مُستَفِزة، لا تعترف بالقيود، تُحطم القواعدَ يوميًا، مذ عرفَها الإنسان، وميزته عن سائر الكائنات، فنرى نحن، معشر الكُتاب والمُبدعين وأهل النشر والترجمة، أن العقلَ أول ما أنعمَ الله به على البشر، ثم الكتابة! ومن يرى غير ذلك، فله الحق في عرض أمره بعيدًا

عـن مظاهرتنـا، خاصـةً إذا خـاض في حديـثٍ مطـول، كـما فعـل شـخصٌ قابلنـاه في أثنـاء سـيرنا إليكـم، عـن ثبـوت أن الأنثـى هـي النعمـة الثانيـة!"

كان هـذا نـص رسـالةٍ أعطاهـا موظـفٌ لسـفيرٍ مـن سـفراء الثقافـة والأدب، وقـال لـه في قلـقٍ واضـح بوجـود مجموعـة مـن الكُتـاب والناشريـن والمُترجمـين أسـفل مقـر الهيئـة العامـة للكتـاب، يرفـع أحدُهـم مـا لا يقـل عـن لافتتـين، تنديـدًا بقـرار سـفارة الثقافة حـرق الكتـب التـي تخالـف القيـم الأخلاقيـة، واختـلاط الحابـل بالنابـل، ورفضهـم أي محـاولاتٍ للتسـوية، أو عـرض مطالبهـم عـلى ورقٍ رسـمي، وأن قـرارًا كهـذا كان يوجـب وجودهـم أو وجـود ممثليهـم، ولا يصـح تمامًـا إبلاغهـم بمـا سـيحدث ورقيًـا، نظـرًا إلى كونـه مصيبـةً سـتقتل كل مـا بنـاه الآخـرون، وسـتجعل البشريـة -في عصرنـا الحـالي- مثـالاً للسـخرية، مـن الأجيـال القادمـة.

عـرف سـفراء الثقافـة بالتظاهـرة، وقـرروا في نفـسٍ واحـد خـروج أكبرهـم سـنًا، واسـتدعاء الكاتـب صاحـب الفكـرة، وانتظـار النتيجـة النهائيـة، ومهاتفـة سـفير الثقافـة -وزيـر الثقافـة في المُسـمى القديـم- لسـماع قـراره، في حالـة عـدم التوصـل إلى حـل يناسـب الأطـراف.

خـرج كبـير السـفراء، الأسـتاذ عبـد السـميع فاهـم، البالـغ مـن العُمـر قرنًـا مـن الزمـان، يتكـئ عـلى عـكازه، وبمسـاعدة الكاتـب صاحـب الفكـرة، وموظـفٍ مـن موظفـي سـفارة الثقافـة، نظـ

الحشدُ إليه، سُمِعَ صوتٌ من بينهم يقول: "خرج كبيرُهم ليحرجنا، والله لو خرج نبي لن نتراجع!"

قال الأستاذ عبد السميع، في هدوءٍ يُحسَد عليه، وبعدم اهتمامٍ للجملة التي قيلتْ من جبانٍ، كما وصفه بينه وبين نفسه: "واحدٌ فقط من سيعرض الأمر"، اقترب رئيس اتحاد الناشرين العرب، وتحدث بصوتٍ عالٍ ليسمعه القريب والبعيد: "خُصخِصَ النشر في بلدنا، وصارتِ الحكومة هي من تنشر، ومُنِعَ النشر الخاص، وجميع دور النشر تعمل لصالحكم، بعدما اختار كبيركم ثلاثين دار نشر فقط، وأُغلِقَت المنبوذة، لتقوم بنشر وطباعة ما تختاره لجنتكم، بعد موافقات مكتوبة على الكتب غير المُخالفة لشروطكم، وطبعًا لا داعي لذكر الشروط، فهي معروفة لمن لا يمت للكتب بصلةٍ، قبل الذي يعمل بالكتب من سنين!

ولما صارتْ مدينتنا فاضلة، بزغ أملٌ بداخلنا، يقول على استحياء ربما يطلب شخصٌ منكم أن نكتبَ عن معجزة الكتب، وهذه الكتب لن تكون قصصًا خيالية، لأن الأمرَ أمام الجميع، وبالتالي ستعرف الأجيال القادمة الكثير عما مررنا به، فيكتب كل من لديه موهبة، ويعبِّر عن أفكاره، ويجد القارئ مختلفَ صنوف الأدب، المُعارِض والمُحايد، التجاري والجاد، ولكن ساءتِ الأمور أكثر، ولقينا قرارًا لا يصح وصفه إلا بالجريمة البشعة في حق الأدب، ماذا فعل لكم الأدب لتقتلوه هكذا؟

أسـتاذ عبـد السـميع، نحـن أهـل حـق، ونعـرف كيـف نطالـب بحقنـا، وسـنعلن عـن مطالبنـا بـكل احـترامٍ، لكـن اسـمح لي، هـل أنـت مقتنـع تمـام الاقتنـاع بمـا أتى في هـذا القـرار؟ سـأعيد عليـك سـؤالي بـشرحٍ مفصـل، وأرجـو أن يتسـعَ صـدرك لسـماعه.

هـل حقًّـا وافقـتَ أنـت ومـن معـك، في سـفارة الثقافـة، عـلى إحـراق كل هـذه الكتـب؟ عـلى إعـدام هـذه الكتـب؟ أسـتاذ عبـد السـميع، مـن منـا لديـه الجـرأة أو الشـجاعة ليسـلمكم نسـخ الكتـب الممنوعـة؟ أو يسـاعدكم عـلى حرقهـا؟ حـرق الكوميديـا الإلهيـة؟ ومـا السـبب؟ سـخرية الشـاعر مـن بعـض الديانـات؟ أسـتاذ عبـد السـميع، مـن منـا سـيحرق ثلاثيـة نجيـب محفـوظ؟ أو مـدار السرطـان لهـنري ميللـر؟ أو الجـوع لكنـوت هامسـون؟ الخبـز الحـافي لمحمـد شـكري؟ والسـبب هـو المحتـوى الفاضـح؟ الشـتائم والألفـاظ غـير الراقيـة؟ مـن منـا سـيحرق الإليـاذة والأوديسـة والإنيـادة؟ والمكتـوب هنـا لأنهـا تدعـو إلى ألوهيـة بـشر غـير الله الواحـد القهـار؟ وحكايـات أبطـال أسـطورية؟ وأيـن أنبيـاء الأديـان مـن تلـك القصـص؟ مـن الـذي أدخـل الديـن في الإبـداع يـا أسـتاذ عبـد السـميع؟ أنـا واثـق بأنـك لم تـرَ أسـماء الكتـب، وهـذا ليـس عيبًـا منـك، ولكـن القـرارَ لم يكـن نزيهًـا، يـا أسـتاذ عبـد السـميع. مكتـوب في القائمـة هنـا، إحـراق كتـاب "بـشرٌ نسـيهم الله" لفجاجـة الاسـم! لم يُقـرأ المُحتـوى أساسًـا! وهنـاك أيضًـا الاسـم الـذي جعلنـا نضحـك جميعًـا، سـقف الغوايـة! تخيـل يـا أسـتاذ عبـد السـميع، مكتـوب في قـرار اللجنـة، أن السـببَ هـو والعيـاذ بـالله عـن أي غوايـةٍ نتحـدث؟ لـن أطيـل عليـك يـا أسـتاذ عبـد السـميع، سـأقول

لحظةً أخيرة، وسنسمع منكم في النهاية تفسيرًا يليق بقراركم، هل يعرف أي شخصٍ، بسفارة الثقافة، أن صاحبَ الفكرة هو ناشرٌ، كان كل عمله في الكتب الدينية الإسلامية؟ كتب التفسير وعذاب القبر والحجاب والمعاصي، ماذا يعرف هو عن الأدب وثقافة الأدب؟ ماذا يعرف صاحب الفكرة عن مجازات الكتابة ورسالتها؟ عن الإسقاطات والحروب؟ عن الجوع والفقر؟ عن الخيال والإبداع؟ عن الكاتب الذي يسهر ليكتب جملةً؟ عن الناشر المُغامر؟

أستاذ عبد السميع، إذا تم حرق كل هذه الكتب، فهذا يعني حرق تاريخ البشرية، لن يكتب شخصٌ آخر ما تمت كتابته من قبل، ستصير لدينا نسخ مشوهة من أعمالٍ كُتِبَتْ من ذي قبل، بحبرٍ صادقٍ وشغف كاتبها، بفكره وما جمعه من أفكارٍ، تخيل يا أستاذ عبد السميع أن يقول أحدهم في يوم لصديقه أو حبيبته أو مسافرٍ في قطارٍ: "لقد سمعتُ عن روايةٍ، كانت موجودة في زمنٍ، اسمها إله الأشياء الصغيرة، وقد تم حرقها لجهل الناس وقتها، ولتشددهم، عصرٌ جاهل، نشكر الله أننا لم نُخلق بينهم!" كل ما نريده هو عدول اللجنة من قرارها، ورفع الحظر عن النشر الخاص، ونعدكم إذا ما تم هذا، سنتوصل إلى حل وسط، لا يُقيِّد المُبدع، ولا يُغضب سيادتكم مما يُكتَب ويُنشَر".

صفق الحشد كما يليق بخطبةٍ قالُها رجلٌ يحب الكتابَ بصدقٍ، ومع ذلك لم تتغير ملامح الأستاذ عبد السميع، الرجل المُتجهم ضئيل الحجم شبيه غاندي، أشار إلى الموظف الذي

خرج بصحبته، فركض الموظف إلى داخل السفارة، وقال الأستاذ عبد السميع: "ما سأقوله الآن لن أكرره ثانيةً، لا تراجع في قرارنا، ولن نسمح بالنشر إلا من خلال منافذنا ومراقبتنا، والحقيقة في أثناء اجتماعاتنا وضعنا خطةً واحدةً في حال غضبكم، إلقاء القبض عليكم وسجنكم، بتهمة زعزعة استقرار البلد، والعمل على نشر الفوضى والرذيلة، نحن نريد الجنة ورضا الخالق، وأنتم تبحثون عن جهنم وبئس المصير، لذلك القرار لكم، إما نسيان الأمر أو نسيان ضوء الشمس تمامًا!"

ما حدث في تتمة الأمر كان يدعو للتساؤل، كساردةٍ عرفتُ عالَمَ البشر، من خلال حكايتي، تعجبتُ من سوء قرار سفارة الثقافة، وطلبتُ من السارد الأول نسخًا من الكتب التي تحدثوا عنها، والمفاجأة الأكبر كانتْ رفضه! رفض السارد الأول طلبي، وقال إن في معرفتي لما هو أكثر مما كلفني به خروجًا عن طاعة صاحب الأمر، وهذا ما يجعل أي عقلٍ يفكر، في أي عالمٍ عامةً، هل محاربة المعرفة كانت السمة الثابتة في كل العصورِ والأكوان؟ أنا ساردةٌ تبحث عن معرفة أكبر، فلماذا يرفض صانعي هذا؟ ولأنني عرفتُ كثيرًا منهم، فهل لخالقي خالقٌ؟ وهل هناك مسيخٌ حقيقي -ليس محيي ابن طاهرة في عالم السرد؟ وإبليسٌ يوسوس للساردين كما يحدث معي الآن؟ أنا أريد الخروجَ عن حدود سردي لحكايةٍ، أريد أن أسرد ما يحلو لي، فلماذا تُقابَل حرية الإبداع دومًا بالرفض؟

العامة

بكار والخشب

فـوق خشـبة مسرحـه الخـاص، داخـل عالمـه الـذي يقبلـه ولا يلفظـه، بـين عرائسـه الخشـب، ووحي الحكايـات الآتي مـن المجهول، وقـف بـكار يتحـدث بأصواتٍ مختلفـة، تـارةً بصـوت عجـوز، وتـارةً أخـرى لشـابٍ منفعـل، يحـرك العرائـس في تظاهـرةٍ، يقـول السـائر فيهـا: "لا لحـرق الكتـب، لا لقتـل التاريـخ"، يراقبـه العاملـون مـن داخـل الورشـة بخـوفٍ وقلـق، حـين سـمعوا أصواتًـا متعـددة تخـرج في الآن ذاتـه مـن بـكار فقـط، ولا يوجـد مـن يرافقـه في عرضـه، إلى الدرجـة التـي جعلـتْ واحـدًا منهـم يـترك مـا يفعلـه ويركـض تجـاه خشـبة المـسرح متلصصًـا، ليعـرف هـل هنـاك مثـلاً مذيـاع، أو أصـواتٌ مُسـجلة، ليعـود بعدهـا والفـزع يلهـث خلفـه، ويقـول لهـم: "والمسـيح الحـي، بـكار بمفـرده، وكل الأصـوات تخـرج منـه، سـواء مختلـف الطبقـات، أو صـوت حشـد التظاهـرة!"

ولأن المعجـزةَ لا تُدهـش إلا العاديـين، خـرج مـن بينهـم معجـزةٌ أخـرى، بعدمـا تـرك خشـبةً، كان عـلى وشـك دهنهـا، بلـون لحـم الهوانـم، خـرج مـن بينهـم وهـو ينظـر إلى الأمـر، بعـين التحقـق لا التعجـب، كلهـم تراجعـوا إلى الخلـف، لمـا وقـف -العـم آدم- يتابـع بكار، مـن وراء دخـان سـيجارته، سـألهم: "هـل حـدث هـذا مـن قبـل يـا أولاد الكلـب؟" نفـوا جميعًـا حـدوثَ الأمـر سـابقًا، ليواصـل العـم آدم عملـه، بهـدوء رجـلٍ لا تهمـه خـوارق الأمـور، اقـترب منـه عامـلٌ خائـفٌ، حالـه كحـال العامـة، الذيـن يؤمنـون بالسـحر

والدجل والشعوذة: "يا عم آدم، تبدو عليك معالم الحكمة، أنا أعرف أنه يومُك الأول هنا، لكن هل شاهدتَ شيئًا مشابهًا من قبل؟ هل الأستاذ بكار ممسوس؟" ضحك آدم حد السعال، وطلبَ من السائلَ كوبَ شايٍ، وسيخبره بكل ما يريد، وهو ما فعله العامل البسيط، بمساعدة كل السامعين، فأصبح كوب الشاي جاهزًا، في أقل من دقيقةٍ، لم ينتظر السخونةَ لتهدأ، ورشفَ منه رشفةً حكيمٍ يستعد لقول حكمة تضرب أساسيات الخلقِ في مقتلٍ.

قال العم آدم، بعد استطعامٍ لكوب شاي، معمول بلمسة خوفٍ وفضولٍ: "الموضوع ببساطة، يا أولاد الطبقة الدانية، أن صاحبَ المسرح ممسوسٌ من قبل أرواح العرائس، وقبل أن يتهمني أحدكم بالجنون، وإذا ما حدث هذا سأدفنه مكانه، سأحكي لكم حكايةً، عرفتُها عن جدي آدم، الذي كان من المُعمرين في الأرض، عن العرائس الخشب عامةً، لا يعرفها جُهال الناس أمثالكم، وهي أن اللهَ خلقَ جنسًا كاملاً من الخشب، عاش قبلنا بآلاف السنين، ويمكن القولَ إنه كان على سبيل التجربة، أو الترفيه إذا ما شاء أحدكم في معرفة لفظةٍ أكثر دقة، ومع ذلك، عرفَ الله مدى بؤس هذا الجنس، خاصةً أن النار قد تمحوه في لحظةٍ، وهبَهم كل ما يحتاجون إليه، ولم يتحرك واحدهم ليحقق شيئًا، فتجدهم طوال اليوم جالسين بجانب الأشجار، ثم بدأت جماعات في ترسيخ فكرة واحدة، عبادة الأشجار واجبة! لأننا خُلقنا منها!

الفكـرة يـا نـاس يـا جاهلـة، أن اللهَ لم يرسـل شـيطانًا بينهـم، وفكـرة الديـن نفسـه لم تكـن مطروحـة مـن الأسـاس، بـل والنـوع! نـوعٌ واحـد، لا ذكـر ولا أنثـى، مخلوقـاتٌ مـن خشـبٍ، كان الله يأمـر الخشـب بالقيـام، فتقـوم الخشـبة على هيئـةٍ تُشـبهنا، صغيرة وتكبر مـع الأيـام، تتحـرك في غبـاءٍ محكـم، تتحـرك في غبـاءٍ مسـتفز، لا تتكلـم وكل مـا تفعلـه هـو الجلـوس بجانـب الأشـجار، تنظـر إليهـا فقـط، ثـم بـدأت في عبادتهـا، وكانـتْ تنفـر مـن الطـين، عـلى نحـو جعـل الله يخلـق مخلوقَـه الأحـدث مـن الطـين، نكايـةً في هـذا الجنـس المقـزز، ولما نـزلَ آدم إلى الأرض، ورأى هـذا الجنس العجيب، تملكتِ الغيرة منـه، وهـذا أعجـب الـرب، فمـن الواضـح أن الجنـس البشري لديـه مشـاعر بداخلـه، عـلى عكـس الكائـن المخلـوق مـن خشـبٍ، فخـاض آدم حربًـا ضدهـم، بمسـاعدة الملائكـة، وطلبـتْ حـواء مـن آدم الاحتفـاظ بصغـيرٍ تعجبهـا ملامحـه، فوافـق آدم بشرطٍ واحـد، ألا وهـو ربطـه بأحبـالٍ، فيصـير تحـت أمرهـا، تحركـه كـما تشـاء، فـلا يقلـق عليهـا مـن حركـة غـدرٍ أو نيـة شر.

ظـل هـذا الصغـير، مـع حـواء، لعبتهـا المُفضلـة، تتحكـم فيـه، لا يرفـض ولا يتمـرد، يراقـب حيـاة البـشر وكل مـا فيهـا مـن مشـاعر وأفـكار وتمـرد، يـرى أبنـاء آدم وحـواء، يـرى الصراعـات والمـوتَ والكراهيـة، ينتظـر الأمـر مـن مالكتـه، فيتحـرك تجاههـا، تمسـكه وتوجهـه أينـما وكيفـما تشـاء، حتـى ماتـتْ حـواء، وكانـتْ قـد أوصـتْ آدم بإطـلاق سراحـه عنـد موتهـا، فقـال لـه آدم وقتهـا: "اذهـب إلى مالـكك الجديـد، لـن أقطـع تلـك الأحبـال، سـتبقى مُقيـدًا إلى أن تقـوم القيامـة، أو يحـدث غـير ذلـك"، لم يتأقلـم

المخلوق الخشبي مع مبدأ الحرية بعدها كثيرًا، فقرر بوحي من خالقه ألا يتحرك تمامًا، فيظن من يجده أنه قطعةُ خشبٍ بلا روح، وهو ما حدث، بعدما عثر عليه نجارٌ ماهر، يعرف كيف يُشكل الخشب، أعجبته الفكرة جدًا، فصنع منه أشكالاً تشبهه، وأشكالاً مختلفة، ودرس آلية الحركة والتحكم فيه، وبعدها توارثتِ الأجيال هذه العرائس، في مختلف البلدان والحضارات، مع فكرةٍ واحدةٍ فقط، لا يعرفها إلا من يعرف الحكايةَ كاملةً، ألا وهي أن هذا المخلوق حتى الآن موجود، لم يَمُت، وعده الله في يومٍ بالعودة، لأن اللهَ كره البشرَ وأفعالهم، وما ترونه الآن يا ضعفاء الحيلة والفكر، هو رجوع الجنس الخشبي إلى عالمنا. هذه هي الحكاية ببساطة، دون تعقيدٍ أو أي تفاصيل.. سيعجز عقلكم الضعيف، الذي يفكر في الجنس والأكل والأحلام وكل هراء الحياة البشرية، عن فهم الأمر".

بعد لحظةِ صمتٍ، انفجر الجميع ضاحكًا، ومنهم من دعا للعم آدم على مزاحه الرائع، وخياله الجامح، وأنهم تأكدوا بعد ما حكاه من أن لا صحة لما قيل عنه، من كسلٍ وعدم سعي تجاه أحلامه، فإذا كان كسله يساعده على خلق كل تلك القصص، فالمجد للكسل يا عم آدم.

تفرقوا عنه، وذهب كل واحدٍ ليباشر عمله، ونسوا أمرَ بكار والأصوات، مشى العم آدم إلى بكار، الجالس بين عرائسه، القا... في أمان الله، الباحث عن سببٍ ما يمر به، لم يحرك بكار عين... عن عرائسه، يجلس في خضوعٍ صوفي عجيب، بصرُه إلى الأر... يبكي في خشوعٍ، بصوتٍ مسموع، يعيد جملةً واحدة: "إلى م...

كل هـذا يـا رب؟ إلى متـى كل هـذا يـا رب؟" ثـم نـام فـوق خشـبة المسرح، ودثـر جسـدَه بعرائسـه التـي تُطمئنـه بوجودهـا حولـه، والتـي يخبرهـا كل ليلـةٍ أنـه عـلى أتـم الاسـتعداد ليحـكي للنـاس عنها، بـلا أي خـوفٍ أو تـردد.

رجـع العـم آدم إلى مكانـه، بـين العـمال، يدهـن الخشـب باللـون المطلـوب، يتذكـر لمـا زاره بـكار، وحـكى لـه عـن ورشـة الحـاج عبـد القـوي، وكـم مـرة رجـع خائبًـا لأن الورشـةَ مغلقـة، وكيـف دلـه أهـل الخـير وقتهـا إلى دكان العـم آدم العجـلاتي، الـذي كان يعمـل بالدهـان سـابقًا، لخبرتـه بالدوكـو عامـةً، وبلـون لحـم الهوانـم خاصـةً، رجـع العـم آدم إلى مكانـه، بـين العـمال وهـو يبتسـم، لما شـاهده منـذ قليـل، ولغبـاء الموجوديـن معـه، ولجهلهـم بحكايـات الخلـق والخالـق.

سـمع العـم آدم، في المذيـاع الـذي يقتـل الوقـتَ والملـل، الموجود وسـط العـمال، عـن إلقـاء القبـض عـلى عـددٍ مـن الأدبـاء، قامـوا بثـورةٍ ضـد سياسـة الدولـة، لمنـع كل مـا يـسيء إلى مدينتهـم الفاضلـة، ولا يمنعهـم مـن دخـول الجنـة، وقـد نـدد المواطنـون الشرفـاء بـضرورة التعامـل بقسـوة مـع كل شـخصٍ يريـد الأذى لغـيره، وأضـاف مواطـنٌ آخـر، كان حـاضرًا يشـاهد التظاهـرة، أن هـؤلاء الذيـن يدعـون أنفسـهم أدبـاءً، كانـوا -والعيـاذ بـالله- يطلبون مـن الدولـة عـدم حـرق الكتـب المُفسـدة، ومـن الواضـح أنهـم يشـتاقون إلى الجحيـم والعيـاذ بـالله، أمـا عـن مصيرهـم، فقـد أكـدتْ مصـادرٌ داخـل سـفارة الثقافـة رقـي التعامـل مـع المقبـوض عليهـم، فـلا مزيـد مـن العنـف أو التعذيـب.

ثـم سـمع الجملـة التـي تهـز كيـان أي شـخصٍ مهـما كانـتْ ثقتـه أو هيبتـه: "السـادة المواطنـون، إليكـم هـذا الخـبر العاجـل.."

العامة

القيامة

شـهرٌ كامـلٌ، والنـاس في كل مـكانٍ يسـجدون ويصلـون للإلـه، لا يفـارق الرجـل بيتّـه إلا ليُحـضر مـا يعـين عـلى الحيـاة، ثـم يرجـع إلى العبـادة والصـلاة، وإلى الكلمـة الطيبـة مـع أهـل بيتـه، وجـاره وزمـلاء العمـل وأختـه وأخيـه.. توقفـت الحيـاة عـلى نحـو تـام، بعدمـا عـرفَ النـاس خـبرًا، جعـل الشـاب كهـلاً، والطفـل شـابًا، والبنـتَ عجـوزًا، فقـد أُذيـعَ في كل وسـائل الإعـلام أن الثالـثَ مـن أبريـل هـو اليـوم الأخـير في كتـبِ الجميـع، وهـذا يعنـي -دون أي وجـود لاحتـمالاتٍ أخـرى- أنـه يـوم القيامـة، ولقـد مـنَّ اللهُ عليهـم بفـترةٍ، ليرجـع الجاحـد والناقـم إلى ظـل الإيمـان والديـن، ولتصـير المدينـة مكانًـا مُقدسًـا، الـكل يتعبـد، الـكل يقـول نفـسي نفـسي، الرجـل لا يعنيـه هـل يتعبـد ابنـه أم لا، الجـار لا يهمـه هـل دينـه هـو الصحيـح أم لا.

توقفـتِ الحيـاة بشـكلٍ غـير معقـول، فتجـد الطبيـبَ لا يخـرج مـن داره، ولا يحركـه صراخُ الطارقـين عـلى بابـه، يقـول لهـم: "ابعدوا عنـي! القيامـة يـا بـشر! مـاذا سـيفيدني علاجكـم!" يمـوت الطفل من الحصبـة، والرجـل مـن نزيـفٍ إثـر حادثـة، والمـرأة مـن آلام الـولادة،

والعجوز مـن فشـلها الكلـوي، والأطبـاء في بيوتهـم، كل واحـدٍ قاعـدٌ علـى المُصليـة، يقـوم مـن عليهـا في حالـة دخولـه الحـمام، أو ليلتقط لقيـماتٍ تسـاعده عـلى اسـتمرار الحيـاة، فيسـجد ويركـع ويسـبح ويسـتغفر، ويرنـم ويطلـب المُباركـة، ويقـرأ القـرآن والإنجيـل، ويطلـب مـن ربـه العـونَ، ولا يأبـه لطالبـي العـون منـه.

منـذ عـرف النـاس بالأمـر، وصـار الشـخص الـذي يطالـب بحـقٍّ مـن حقوقـه مجنونًـا كافـرًا يسـتحق المـوت، فكيـف لرجـلٍ عديـم الـذوق والفكـر أن يذهـبَ إلى مصلحـةٍ حكوميـة ليسـأل عـن راتبه؟ أو كيـف تذهـب عجـوزٌ سـاذجة، أصابهـا الخـرف وقلـة الحكمـة، إلى صيدليـةٍ طلبًـا للـدواء؟ الـردود جاهـزة في كل مـكانٍ باختـلاف مجالـه: "مـاذا سـيفيدك ذلـك؟ اذهـب إلى بيتـك، واطلـب مـن الله الصفـح والغُفـران ودخـول الجنـة!"

امتـلأت الجوامـع والكنائـس ودور العبـادة عامـةً، لا مجـال لتفويـت الفـرض، لا عـذر إذا فاتـك القـداس، تسـمع خناقـات أمـام صناديـق الـزكاة، سـأتبرع ولـن يمنعنـي أحـدٌ، أفعـال الخـير تضاعـف عـما سـبق بأكـثر مـن الكثـير، رفـضَ النـاس الأمـوال القليلـة، لـن يدخـل مليـمٌ واحـدٌ لجيوبهـم، وهبـوا كل شيءٍ لله، فـلا يتعجـب المـار إذا مـا رأى برجًـا مـن الأمـوال ولا يقربـه نفـرٌ.

نـسي النـاس تقسـيمةَ الأسـبوع، قالوهـا صراحـةً: لـن نـزور يتيـمًا ولا مُسـنًا، لـن نـزوِّج أحـدًا، لـن نسـتمع إلى الجـار المسـيحي أو المُسـلم، فلتذهـب كل الأعـمال الإنسـانية إلى طاعـونٍ يقتلهـا، المهـم

هـي العبـادة وضـمان دخـول الجنـة، ومـا غـير ذلـك فـلا يهمنـا ولا يعنينـا!

حاولـت مجموعـةٌ مـن النـاس الذهـاب إلى السـعودية لتعتمـر، ويزيـح الواحـدُ منهـم عـن نفسـه جبـل الذنـوب، أو إلى القـدس كمسـيحيين، وذهبـوا إلى شركات السـياحة، فوجـدوا كل الرحـلات ملغـاة بأمـر مـن الأراضي السـعودية، نظـرًا إلى أن الأمـرَ صـار مصيبةً عامـةً في كل الـدول وليـس في مـصر فقـط، وحـين حاولـوا تنظيـم مظاهـرةً، واللجـوء إلى العنـف، وقـف لهـم جنـود الأمـن والجيـش، وهـددوا بقتلهـم إذا لم يتراجعـوا وحـالاً، وذكَّروهـم باعتنـاق الفقـر، هـو الـذي سـيضمن لهـم الجنـة، مـا دام بـاب الكعبـة مُغلقًـا في وجوههـم حاليًـا.

صـار الفقـرُ دينَهـم، والرضـا بالـلاشيء مذهبَهـم، ضرب المدينـة مـرضٌ مُسـتحدثٌ اسـمه "رهـاب الذنـب"، قـد يقتـل شـخصٌ فاعـل الذنـب، ويقـول للنـاس علانيـةً: "سـندخل النـار إذا مـا سـكتنا عـلى معصيتـه!" والغريـب في أمرهـم أنـه قـد يُقتَـل شـخصٌ، ثـم يسـجن القاتـلُ بعدهـا ليُكمـل عبادتـه، ولـو حـاول واحـدٌ تذكيرَهـم بمقولـة نفـسي نفـسي، قالـوا في صيحـةٍ واحـدة: "نفـسي نفـسي مبـدأ عـام. والقضـاء عـلى مـن يريـدون الأذيـةَ لنـا مبـدأ خـاص!"

وهـو مـا فعلـه سـكان المدينـة حـين تناقلـتْ وسـائل الإعـلام والأخبـار خـبر إلقـاء القبـض عـلى الأدبـاء، لنشرهـم للرذيلـة، ولدفاعهـم عـن الذنـوب وقلـة الأدب والسـفالة، وبعـد معرفـة خـبر القيامـة، تذكـر شـخصٌ هـؤلاء الأدبـاء، فنـزل إلى الشـارع وصـام

"أنا ذاهبٌ للقضاء على معصية كبيرة! من لها؟ من معي؟" وقتها نزلَ كل شخصٍ سمع صوتَه، فصار الفرد جماعةً، مشوا في تظاهرة تُشبه الإعصار، كلما مرتْ من أمام مبنى، قالوا في صوتٍ واحد: "نحن ذاهبون للقضاء على معصية كبيرة! من لها؟ من معنا؟" فيسمعهم الجالسون في أماكنهم، وينضمون إليهم في الحال، حتى صار العدد لا يُحصى، ولا يلمح الناظر إليهم نهايةَ المسيرة.

وصلوا إلى قسم مدينة نصر، الموجود بداخل حجزه الأدباء، تعجبوا حين وجدوا حارسًا واحدًا فقط، يجلس أمام البناية أرضًا، بجانبه المُصلية وزجاجة ماء ورغيف خبز، دُهِشَ لمنظرهم، ووقف في الحال مُستفسرًا عن سبب زيارتهم، فقال له شابٌ: "ماذا تفعل هنا؟ لماذا تحرس المُذنبين الداعين إلى الرذيلة؟" ليجيبهم بأنه منذ حدث ما حدث، وهو لم يستطِع الرجوع إلى منزله ببلدته البعيدة، فلا وجود للمواصلات، ولا لأشخاصٍ قد يساعدونه، وهو لا يعرف كيف يقود سيارة، أو دراجة بخارية، ففضَّل البقاء، يأكل ما تيسر من خزين السجن، وينام في مكتبه، ويراقب المُذنبين بالداخل، فلا يخرج أحدُهم ويُكمل دعوته إلى الفساد! ولما بادلهم الحارس السؤال ذاته، قالوا له بصيحةٍ ترج الأرض عن سبب مجيئهم، فلم يمنعهم ولن يستطيع، ففتحَ لهم الزنزانة في رضا تام.

في موقفٍ، كالذي يتعرض له الأدباء الآن، الاستسلام التام هو الحل الأمثل، فالمقاومة لن تفلح نهائيًا، وفعل المُقاومةِ ذاته سيستفز القادمين، ذلك لأنهم -طبقًا لما يؤمنون به في هذه

اللحظـة- أصحـاب الصـواب، والداعـون إلى الخـير والفضيلـة، مبـدأ مسـيرتهم: "المـوت لمـن يقـاوم عمـومَ الخـير، والحيـاة لمـن يوافـق عـلى قضيتِهـم"، وهـو مـا لم يفعلـه معظـم الأدبـاء، لأن ببسـاطة بـدأتِ المواجهـة بسـؤالٍ مـن الشـخص الـذي جمـع النـاس: "نحـن هنـا للقضـاء عليكـم، إذا مـا لم يقـوِّم سـلوكَكم السـجن، ولأننـا لا نبحـث عـن إضاعـة الوقـت، فـكل ثانيـةٍ محسـوبة، نريـد إجابـةً واحـدةً صادقـةً، مـن منكـم مـا زال مؤمنًـا بعـدم حـرق الكتـب الكافـرة؟"

شـخصٌ واحـدٌ فقـط رفـع يديـه بفطـرةٍ صادقـة، وكـرد فعـلٍ لسـؤالٍ صـدرَ مـن نفـرٍ يـراه جاهـلاً، شـخصٌ واحـدٌ فقـط، قالهـا بعلـو صوتـه: "أنـا! أنـا لـن أحـرق كتابًـا واحـدًا! فلتذهـب قيمكـم إلى مزبلـة التاريـخ! لـن نجـد هـذا الجـمال مجـددًا يـا مجانـين! اسـمعوني بـالله عليكـم!" وكانـتْ كلمـة "أنـا" هـي الـشرارة التـي لمسـتْ وقـودَ حماسـتِهم، وليتأكـد السـائل مـن العـدد، نظـرَ إلى بقيـة الأدبـاء، وسـألهم عـن موقفهـم، فأجمعـوا عـلى رفضهـم لبقـاء الكتـب، فآخرتهـم والعمـل الصالـح هـما الباقيـان، وأقسـموا عـلى مـا يقولونـه، لدرجـة أن أحدَهـم أخـرج صليبًـا، وقـال: "والمسـيح الحـي، أنـا كرهـتُ الكتـبَ والنـشر، أريـد أن أذهـبَ إلى بيتـي، أُصـلي بـين عائلتـي، وأمـوتُ بينهـم، الله يلعـن دانتـي والكوميديـا الإلهيـة وأي كتـابٍ مخالـفٍ!"

وليتأكـد الحشـدُ مـن صـدق نوايـا الأدبـاء، طلبـوا منهـم ضرب النـاشر المنبـوذ، ورجمـه حـد المـوت، بالخـارج أمـام النـاس، ليكـون عـبرةً لهـم، وليتعـظ مـن في نفسـه ذرةٌ مـن كـبرٍ، وبمجـرد أن رفـض

الناشر المنبوذ، لم يفهم ما الذي يحدث، ركلاتٌ من كل ناحية، صفعاتٌ عشوائية تُصيب بالدوار والألم، دم ينفجر من فمه، مقلةُ عينه اليسرى أمامه على الأرض، يعجز عن الصراخ من الدائرة الملتفين حوله، سيصرخ لمن؟ سيستنجد بمن؟ الموجودون كلهم ضده، شعر بلكمةٍ بين خصيتيه، وقع أرضًا، لم يتوقف الضرب، ركلاتٌ في وجهه وصدره وذراعه، مزق شخصٌ ملابسه، شعر برجلٍ يسحبه إلى الخارج، يصرخ فيهم: "دعوه لي! سأسحبه إلى الخارج، ثم أربطه في عمودٍ ليموت من حرارة الشمس وانعدام الأكل والشرب!" ضربه شخصٌ آخر بعصا فوق رأسه، ويصرخ أنه سيقتله وسيأخذ الثواب، سرق الناشر المنبوذ نظرةً بين الوجوه، يبحث عن صديق عمره في مهنة النشر، ربما ينقذه، فيجده بينهم، يضرب معهم، وينصحهم بالخروج إلى مساحةٍ أكبر، فتصبح المسألة أسرع وأسهل!

حدث الناشر نفسَه: "هل كنتُ مخطئًا، حين قلتُ لا في وجه من قالوا نعم يا أمل يا دنقل؟ هل كنتُ شخصًا غبيًّا حين حاولتُ الدفاعَ عن شيءٍ أحبه، من جهلٍ عصبةٍ تتحكم فينا يا ألبير يا قصيري؟ هل أنا الآن مُغفلٌ مُغلفٌ بمشاعر غبية يا عم خيري يا شلبي؟ هل لأنني لا أملك سلاحًا، أستحق الموتَ بأفكاري يا غسان يا كنفاني؟ انظروا يا من سبقتمونا، انظروا إليّ، أنا تحت أقدام الناشرين والناس، الذين قال كل واحدٍ فيهم إنه يكتب للناس، وها أنا، يدوس الناشر على وجهي، يصفعني الناس ويبصق عليّ قارئ، أقول لنفسي لو كان بينهم قارئ على حق، لكان حاول خداعهم، ولكن ما فائدة

القـراءة في زمـنٍ يحكمـه الخـوف، مـا فائـدة القـراءة في زمـنٍ يقـول لـك شـاب يملـك سـيارةً ومنزلـين وأمـوالاً طائلـة، دعـك مـن القـراءة وقُـم صـلِّ للرحمـن ليهديـك إلى طريقـه المُسـتقيم، كأن الكتـبَ هي الطريـق المعـوج! مـا فائـدة القـراءة في زمـنٍ، قـد يدفـع شـخصٌ كل مـا يملكـه، في ملابـسٍ وسـياراتٍ وتفاهـاتٍ، ولا يدفـع جنيهًـا في كتـابٍ، ويضحـك ويسـخر ممـن يؤسـس مكتبـةً بمنزلـه". وقبـل أن يكمـلَ حديثَـه مـع ذاتـه، ضُرِبَ بعصـا مـن الحديـد، فيمـشي دمُـه، وسـؤالٌ مهـم أمامـه: "هـل يخـاف الديـنُ مـن الكتـاب؟"

العامة

رُسل الخير

منـذ انتشـار خـبر القيامـة، والنـاسُ في البـلادِ عبـادٌ صالحـون، لا يخـرج العيـبُ منهـم، ولـن تجـد فتنـةً تسـيرِ مختالـةً، الرجـال يتعبـدُ، المـرأة تطيـع الرجـل وتتعبـد، الأبنـاء تحـت أقـدام أبويهـم، يتعبـدون ويطلبـون منهـم الصفـحَ عـن أي حماقـةٍ أو طيـشِ شـباب، التاجـر يطـرقُ كل بـابٍ، ويرجـو صاحـبَ البيـت، سـواء ابتـاع منه أم لا، أن يسـامحَه عـن أي ظلـمٍ أو جـورٍ في الحسـاب أو المعروضات، صاحـبُ العمـل يـزور الموظفـين يوميًـا، يقبّـل أياديهـم طالبًـا المغفرة عـن كل يـومٍ كان ظالمًـا، بسـبب فتنـة المـال والتحكـم والسُّـلطة.

كل شــخصٍ في المدينــة، كان يملــك مقومـات النجـاح، بالسبل غـير المشروعـة، والحصـول عـلى مـا ليـس مـن حقـه، وقتـل أحلام

الآخرين، السخرية من أيام الناس الصعبة، الخوض في أعراض النساء، واستخدامهن لأغراض دنيئة، في مختلف الأعمار، بدايةً من المرحلة الطفولية الطاهرة، وصولاً إلى أكثر النساء إثارةً، في الشكل والجسد وفنون المُداعبة، والتميُّز الحقيقي في السرير، كل شخصٍ منهم، وكل أنثى لم ترفض، كلهم بكوا دماءً، وذابَ السجاد أسفلهم من فرط العويل والسجود، كل شخصٍ في المدينةِ جاءته الفرصة ليصير إنسانًا أفضل، إلا الفصيل المكروه بين الناس، وفي كل الأزمنة، وعلى مر العصور، الشرطة!

ولتفسير الغامض في الجملة السابقة، الخاصة بالكراهية تجاه الشُرطة، سنعرض اجتماعًا طارئًا، من داخل غُرفة العمليات بالقصر الرئاسي، فمنذ إعلام الشعب بالموقف، والتأكد من أنه يوم القيامة، وليس منة من الله على الناس لمعرفة الغيب فقط، شغل بال صاحب الأمر ورئيس البلاد أمران بالتمام والكمال، كيف يحقق العدلَ في الفترة المُتبقية؟ ومن الذي أجبر الجميع على الاعتراف بأنه يوم القيامة! طلب صاحبُ الأمر اجتماعًا فوريًا مع قيادات الدولة، ورجال الدين، والسفراء - الوزراء سابقًا- لمعرفة الخطوات التالية، وكانتِ الكلمة الأولى له، حين وصل الجميع واستقروا في أماكنهم: "القيامة!" ثم أمر كل رجلٍ أن يخبّر أهلَه بغيابه لمدةٍ، مع ضرورة تحضير ما يحتاج إليه، لإقامةٍ في القصر الرئاسي، قد تطول وقد تنتهي في غضون ساعات، المهم هو الوصول لما يُفيد في المرحلة المقبلة، فلا مغادرة لمُحيط القصر دون ترك صك خروجهم منه، مع

الاستفادة من كل الاقتراحات المُقدمة، عن طريق خطوط المواطنين.

البداية كانتْ لرجال الدين، بعدما قالها لهم صراحة: "مشكلاتكم لا علاقة لي بها، أي دينٍ أحق بالاتباع، من على صوابٍ، ومن يحبه الله، كل هذا آخر همي! ما أريده منكم حلٌّ واضحٌ قاطعٌ لا رجعة فيه!" ولأن أكثرَهم مُشتتون، عرضَ أقلهم قلقًا ما أجبر الجميع على التصفيق له، فقد قال المُتحدث باسم الأزهر: "كحاكمٍ للبلاد ما تريده حاليًا هو وجود أشخاص، يقف الواحد منهم في كل منطقةٍ، يُراقب الناس، ويتأكد من إيمانِهم الخالص، وعدم قيامهم بأي معصيةٍ، فكما تعلم يا سيدي، كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، ولأن الشعبَ طفلٌ والرئيسَ أبوه، فهؤلاء الرجال ستكون مهتمهم هي الأصعب، الحفاظ على الخيرِ في كل مكانٍ، وسأترك أمرَ تسميتهم لك يا سيدي طبعًا"، ليقوم قسٌّ من مكانِه في الحال: "رُسُل الخير يا صاحب الأمر! الرجل قال كلمةَ الخير، ولنتأكد من أن الناس لن يرفضوا أي مُسمى، مثل الشرطة أو النجدة أو الطوارئ، فالاسم الأمثل هو رُسُل الخير! واسمح لي يا صاحب الأمر أن أضيف شيئًا قد يفيد، لن يقدر رُسل الخير لوحدهم على القيام بهذه الوظيفة، لذلك على عساكر الأمن المركزي تحويل اسمهم إلى حُراس الخير، ويكونوا رهن إشارة الأكثر خبرة في تعميم الخير والقضاء على الشر والذنوب! ينتشر الرسل والحُراس في مختلف المحافظات طبعًا! إلا إذا كان لسيادتكم رأي مختلف، في وجود الرسل داخل القاهرة فقط!"

بمكالمةٍ واحدة من سفير الداخلية لرجاله في السفارة، بإيكال الأمر حالاً إلى أقدم الرجال خبرةً، وضرورة مجيئهم في الحال إلى القصر الرئاسي، ثم مكالمةٍ أخرى لكل وسائل الإعلام الموجودة تحت رهن إشارة الدولة، بأنه من اليوم سيرى الناس في الشوارع، وفي مختلف المُحافظات، رُسُلَ الخير، مع عرض كل مهامهم، وضرورة الانصياع لأوامرهم، فهم رجالٌ مُباركون، يقومون بعملٍ مُبارك، فيضمن الناس دخول الجنة أو الملكوت.

ثم توالتْ الاقتراحات كلها، مع التأكيد على حرق الكتب المُخالفة، توقف دور النشر الخاصة، تغيير لقب الوزير إلى سفير، تغيير لقب الرئيس إلى "صاحب الأمر"، فكلمة "صاحب" ستعجب الناس، وسيشعر كل شخصٍ منهم بأن الرئيسَ صديقه وصاحبه، وإضافة كلمة "الأمر" ستجعل العلاقة رسميةً إلى حد ما، فلا ينسى شخصٌ مقام الرئيس!

وقف سفير الثقافة، بعدما شعر بغيرةٍ من اقتراح الشيخ، ومدى رضا صاحب الأمر عنه: "اسمح لي يا صاحب الأمر بعرض اقتراحٍ قد يكون جريئًا، ولكنه إضافة هائلة إلى سجل سيادتكم في نشر العدل! مع حرق الكتب في مختلف المكتبات، لا مفر من حرق ما تحويه مكتبة الإسكندرية! كما تعلم يا صاحب الأمر، كل الرذائل والصور والموبقات، كل الأمور التي تُغضب الرب، موجودة بهذه المكتبة، وحتى لا يظن أحدكم بأنَّ الناشرين مثلاً أو المهتمين بالثقافة قد يثوروا، وصلتني أخبارٌ تفيد بقتل ناشر على يد الناشرين أنفسهم! العمل الصالح يا صاحب الأمر هو المطلوب حاليًا وليس الكتبَ أو الثقافة!"

لما وصل الرجال الأكثر خبرة، وبعد معرفتهم بأمر توليهم وظيفة الخير، وأن أقدمهم جميعًا صار لقبه "الرسول الأكبر"، وهو المسؤول أمام صاحب الأمر، والسفير العام، وقبل مغادرتهم، كلف سفير الثقافة، بأمرٍ من الرئيس، الرسول الأكبر بمهمة حرق كل ما تحويه مكتبة الإسكندرية من كتبٍ تحث على الرذيلة والفُجور، ويمكنه استخدام أي عددٍ من الحُراس، المهم أن تختفي تمامًا محتويات مكتبة الإسكندرية وحالاً!

ولم ينتظر الرسول المُكلف كثيرًا، خرج إلى سيارته، وفي أثناء قيادته من القاهرة إلى الإسكندرية، وبقليل من الاتصالات لشبكة علاقاته اللانهائية، كان قد جهز ما يلزمه ليقيم الحرب على بلدةٍ صغيرة وليس لحرق كتب! ولأن الناس في بيوتهم للعبادة، ولطلب المغفرة والصفح من الرب، لم يعترض طريقه إلى دخول المكتبة إلا حارسٌ عجوزٌ، جالسٌ بمكانه وأقسم على عدم المُغادرة، وأنه بحفاظه على العمل سيعرف الرب كيف كان مُخلصًا، فيُحاسبه حسابًا يسيرًا، ولكنه لما رأى أعداد الحُراس، وجركن الجاز مع كل رجلٍ منهم، وقف مُدافعًا عن الصرح العظيم، وقال لهم: "إلى أين؟" وكان آخر ما قاله، بعدما ضربوه وسحلوه معهم، بأمرٍ من الرسول الأكبر، إلى أن وصلوا إلى منتصف المكتبة، ما بين الأدوار العلوية والسفلية، فأمر الحُراس بإحضار كل الكتب هنا، مهما كانت لغتها، مهما كان ما تحويه، مهما كان شكلها، وإحراقها بصحبة هذا العجوز، الذي وقف حائلاً بينهم وبين تحقيق الخير.

جاء حارسٌ مسكين إلى الرسول الأكبر، وقال له مرتجفًا: "هذه كتب تتناول حياة الصحابة والرسل، والشخصيات الدينية عامةً، قد تحوي بداخلها مثلاً.." لم يُكمل الجملة بعدما صفعه الرسول الأكبر، وقالها بصوتٍ جلجل داخل صرح المكتبة العظيمة: "كل الكُتب تُحرَق! وقبلها ابن الوسخة هذا! لماذا يجب أن أعيد كلامي يا أولاد الشرموطة؟"

المنظر كان مهيبًا، النار في المنتصف، تأكل المجلدات والمخطوطات النادرة، والكتب المُترجمة، كتب الفن والموسيقى، روائع الأدب، رسائل أصلية بخط كاتبيها، الكُتب المطبوعة بطريقة برايل، كتب الطب والهندسة والعمارة والزخرفة، كتب اللغات، كل الكتب والتماثيل الصغيرة، واللوحات والأسطوانات، شعر الحُراس بوجود أرواح المؤلفين والفلاسفة داخل ألهبة النار، خُيِّل إليهم أن الإسكندر الأكبر يبكي بحرقةٍ على ما بناه، كل كاتبٍ كان يحاول اللحاق بكتبه، يحاول إطفاء النار ولكن بلا فائدة، كل مُلحنٍ يركض ليلحق أعماله، كل رسامٍ يتأمل ألوانه وهي تحترق، رأوا العلماءَ الذين تعبوا لسنين طوال، وكيف ضاع مجهودهم سدى بسبب اقتراحٍ ضعيف يدل على غباء الإنسان وضيق حدود فكره للوصول إلى مبتغاه، سمعوا هيباتيا وهي تعزف على قيثارةٍ باسم الحُب، وتطلب من النجوم أن تصنع لها جسرًا، فتعبره هي وأصدقاء المحنة إلى عالمٍ لا يعرف جهل الإنسان.

ومع آخر ورقة غادرتْ روحها حرقًا، ومع آخر دمعة لكاتبٍ نسيه التاريخ البشري بهذه الفعلة، تحدث الرسول الأكبر في

اللاسلكي، وأمر بفعل المثل مع المكتبات الصغيرة والكبيرة والعامة، ولما سأله الشخص على الجانب الآخر عن المكتبات الخاصة بالمجلس الاعلى للثقافة، خاصةً أنها تابعة للحكومة، قال الرسول الأكبر: "كل مكتبةٍ على وجه الأرض في بلدنا العظيم لا أريد رؤيتها! أريدها محرقةً عظيمة!"

أما ما يخص العثور على المُتسبب في معرفة الناس بالأمر، وكيف أن الإذاعة والإعلام أذاعا خبرًا كهذا دون الرجوع إلى صاحب الأمر، فبات الأمر مجهولاً إلى الآن، وإلى التحقيقات التي تولاها صاحب الأمر بنفسه بعدما قتلَ كل من مرر القرار دون اللجوء إلى الجهات المُختصة، ولم يراعِ حتى تبريرَ المُذيع حين قال: "إنها القيامة! أيحسب أحدكم أننا سننتظر أوامرَكم لنعلنها للناس! إنه شعورٌ أكبر وأقدس من الخوف منكم!"

ولأن الناس في وادٍ آخر، مشى حُراسٌ في مختلف محافظات البلد يأمرون الناس بفتح التلفاز، والتوقف عن العبادة قليلاً، لأن خبرًا مهمًّا ستتم إذاعته، وتجب عليهم معرفته، وبعدها يعودون إلى ما يفعلونه!

تم الإعلان في كل الوسائل عن رسل الخير، وعن حُراسهم، وعن وجوب طاعتهم، وعن إعطاء كل الصلاحيات لرسول الخير. فهو الوحيد الذي قد يعدم شخصًا في الحال إذا ما خالف الأوامر، أو رآه وهو يقدِم على ذنبٍ، وله مطلق الحرية في إعدامه أو سجنه إذا أراد، المُهم هو التبجيل العظيم لرسل

الخير، ومُساعدتهم في أداء دورهم على أكمل وجه، والبُعد عن الملذات والمعاصي، وحب الخير والعمل الصالح.

حامل الفخار

في غيبوبته، في عدم إدراكه لما يحدث بالخارج، في تفاصيل عالمٍ مُبهم، بدقات قلبٍ متردد، وبإيمانٍ قوي يحارب غوايةً أقوى، عاش فيليب مع يهوذا، كلاهما يعرض وجهةَ نظره، بما هو متاحٌ لهما، فالكلام عقيدة يهوذا، والرفض مع الصمت إيمان فيليب، خاصةً أن يهوذا بدأ في عرض شرور أفكاره، بحججٍ راسخة، قد تضع نبيًّا في حيرةٍ، فيصدقه وينكر نبوته، وهذا ما كرهه دومًا المسيح في يهوذا الإسخريوطي، الرجل الذي حارب ابن الإنسان في لحظةِ ضعفٍ، واستمر في حربِه ضده حتى وهو روحٌ هائمةٌ، لا تعرف مكانَها أو مصيرَها.

في غيبوبته، وفي عدم إدراكه لما يحدث بالخارج، عرضَ يهوذا على فيليب أن يُريه بنفسه كيف صار العالم في أثناء غيابه، وبعدها سيناقشه في ما يختاره، وافق فيليب، الذي يتحكم يهوذا في ما يراه، من اليوم الأول لتعارفهما.

مشى فيليب بصحبة يهوذا في ممرٍ طويلٍ من جثامين، على يمينه ويساره، كلها لأطفالٍ بمختلف أعمارِهم، فتحَ يهوذا بابًا من العدم، ليجد فيليب مساحةً يعرفها وتعرفه، الصحراء التي تكره الحياة، وفي المُنتصف رجلٌ وحيد يصرخ، يركض في كل

الاتجاهات، يتحول إلى أشكالٍ غريبة، ثم يعود إلى هيئته، ركض فيليب تجاهه لينقذه، ليتفاجأ بالمسيح، يمشي تارةً على يديه، وقدماه مكان رأسه تارةً أخرى.

لم يُصدق فيليب لمّا صار المسيح رأسًا فقط يخرج منه جناحان، ثم صار جسدًا دون أطرافٍ ورأسه من زجاج، فثعبان برأس المسيح، ثم جسد إنسانٍ ورأس دجاجة يُشبه المسيح. عجز فيليب عن تفسير الموقف، يبكي لمدى معاناة المسيح وآلامه، قال له يهوذا: "هذا ما حدث بالخارج يا فيليب، لقد صعد كل البشر إلى السماء كآلهةٍ، وصار المسيح هو البشري الوحيد، تخيّل يا فيليب؟ ثمانية مليارات إله! البشر كلهم صاروا آلهة! يتحكمون في المسيح، كل واحدٍ يُشكله كما يشاء، كل واحدٍ يُميته ويُحييه، أمرٌ عجيبٌ يا فيليب! المَسيح الآن في قبضة البشر؟ الخالق يتحكم فيه المخلوق؟ ما رأيك يا فيليب؟ مسيحك ضعيفٌ، صُلب من أجلهم، وها هو مجددًا يُقتل ويُصلَب، أي مجدٍ تراه فيه يا فيليب؟ إلهٌ ضعيف؟"

حاول فيليب ضربَ يهوذا، الصوتُ لا يسعفه ليسبه، فركض ناحيته ليركله وفشل، أو ليلكمه وفشل، لا يبذل يهوذا أي مجهودٍ، يتابع غضب فيليب بمرحٍ، يضحك عليه، ثم يلتفت إلى المسيح الذي يُعذبه البشر، فيضحك أكثر، ليشاهد فيليب المسكين، المؤمن المُخلِص، عاشق إلهه، كلما حاول مُساعدة المسيح، فيطير إلى الخلف، تحت قدمي يهوذا بالضبط، ليقوم فيليب بمحاولة ضربه من جديد، ويفشل بكل بساطة، ويُعاد الأمر في خفةٍ ولطافة، إلهٌ يُعذّب، مسيحي ضعيف، يطير إ

الهـواء، يـركل، يحـاول، يفشـل، يبـكي، يطـير في الهـواء، يركل، يفشـل، يبـكي، وهكـذا.

رمـى فيليـب حجـرًا صغـيرًا، أصـاب يهـوذا بضحكـةٍ رنانـة، فقـال لـه في وداعـةٍ بالغـة اللطـف: "تعـال يـا فيليـب، سـأفسر لـك أكاذيـبَ المسـيح، فقـد كنـتُ مثلـك تمامًـا، أحبـه وأراه مُعلمـي وأسـتاذي، أنـا أعـرف شـعورَك هـذا، ولكـن مـا قولـك يـا فيليـب في هـدم بعـض معتقداتِـك؟ كمثـالٍ بسـيط، مـا قولـك في أن الثالـوث المُقـدس، الأب والابـن والـروح القُـدس، تعرفهـم بالطبـع؟ أم تريـدني أن أحدثـك بآيـات الإنجيـل؟ فليكـن، فـإن الذيـن يشـهدون في السـماء هـم ثلاثـة: الأب والابـن والـروح القُـدس، وهـؤلاء الثلاثـة هـم واحـد، هـذا المبـدأ، أسـاس الإيمـان المسـيحي العظيـم يـا فيليـب، عـن طريـق معرفتـي التـي بنيتُهـا منـذ مـوتي، عرفـتُ أنهـا كانـتْ موجـودةً في ديانـاتٍ أخـرى، مثـلاً الديانـة الهندوسـية، تضمن الثالـوث فيهـا: براهـما "الخالـق"، فيشـنو "الحافـظ"، شـيفا "المُدمر"، وتقـول المعتقـدات الهندوسـية إن العـالمَ متـوازن بتناسـق تصرفاتهم في الآن ذاتـه! تخيّـل يـا فيليـب؟ سـأقول لـك الأقـدم مـن ذلـك، الثالـوث مثـلاً كان في الديانـة الفرعونيـة القديمـة؟ الموضـوع متكـرر بشـكلٍ وقـح يـا فيليـب! وديانـاتٌ أخـرى تحمـل المبـدأ ذاتـه، إذًا لمـاذا التكـرار؟ وتعـدد الديانـات؟ إذا كانـتِ المعجـزات والمعتقـدات والقصـص متشـابهة؟

مـن تعبـيرات وجهِـك أشـعرُ أنـك لا تصدقنـي، سـأثبتُ لـكَ مـا أقولـه، طبعًـا أنـت تعـرف قصـة ميلاد المَسـيح مـن العـذراء المباركة، هـل فكـرتَ مـرةً في مـدى تشـابهها وقصـة مـيلاد النبـي زرادشـت؟

النبي الذي وُلد لأم عذراء تُدعى دوغودوفا، بعدما رأتْ شعاعًا من الضوء يقترب منها ثم ضربها، وهو الشعاع الذي أرسله الإله أهورا مازدا! يا فيليب تكرار القصص والمعجزات، ألا يصيبُك هذا بنوعٍ من الحيرة؟ حيرة تجعلك تبحث عن الأصل؟ وإذا كان المسيح هو الشخص نفسه باختلاف اسمه في كل ديانةٍ، لماذا يكرر نفسه هكذا؟ أين التجديد؟ أين المعجزات غير المحصورة؟ المعجزات اللانهائية؟

آخر ما سأقوله لك في هذا الأمر، يا فيليب يا صديقي المسكين، هذا المسيح، كتب مُتبعوه أشياء تصمه بالسرقة لا بالألوهية والحكمة! إني بما أقوله أقصد قصةَ الشهيد الإغريقي أسيلبيوس الشافي، كانتْ ملهمةً على نحو لا يُصدق، ليسوع يا فيليب، ما عُرِفَ عن أسيلبيوس أنه كان قادرًا على شفاء أي مرضٍ، بل وكان يقيم الموتى، تخيل! ولكثرة معجزاته وما فعله من خيرٍ وشفاءٍ للبشر الضعفاء، ارتقى إلى مرتبة الألوهية، ولكن زيوس قتله حتى لا يتمكن البشر من الحصول على الخلود! فكر في القصة معي، معتقداتٌ قديمة، قصصٌ مكتوبة خيالية، من وعي مفكرين وحالمين وعاشقين لحضارتهم، فنجد أن المسيحَ يغبطه تلك القدرة، ثم يقوم بها! أي طريقةِ تفكير تلك؟

فيليب المسكين، عامل الفخار المُخلص الأمين، حاول تشغيل دماغك يا صديقي، هذا الرجل الذي تحبه، يثبت في كل خطوةٍ يخطوها أنه وصل إلى ما وصل إليه، إما بالصدفة، إما بشراء كاتبي التاريخ ليجعلوه هكذا! وقبل أن تتهمني بالعمى،

وبمدى كراهيتي ليسوع، أنا كنتُ من ضمن حوارييه في يوم يا فيليب، وتعلمتُ على يديه، ولم أسرق مجددًا من صندوق المال، منذ ضمني إليه.

بالمناسبة يا فيليب، لقد نسيتُ أن أقولَ لك إنك متى فكرتَ في شيءٍ، يزغ في عقلي أنا أيضًا، وذلك لأنه عالمُك للأسف، إذًا لأجيبك على ما تفكر فيه، "هل حقًّا هكذا تفكر في الأمر؟" تريدني أن أوجه كراهيتي تجاه كاتبي الأناجيل؟ هم من فعلوا هذا كله؟ والمسيح ليست له علاقةٌ؟ هم من محوني من قصص الإنجيل؟ هم من أوصوا بقتل إنجيلي الخاص؟ هم من كتبوا قصصًا زورًا كاذبةً تُشبه القصص والأساطير المعروفة؟ كل ما حكيتُه لك عن ظُلم المسيح لي، تخبرني الآن بتصحيح مسار كراهيتي؟ يا فيليب، أنت لا تستحق شرفَ الحديث معي!

أنت لا تستحق شرفَ الاستماع إلى معلومات تعرفها للمرة الأولى! أنت لا تستحق شرفَ التعلم من أستاذٍ مثلي، أنا يهوذا الإسخريوطي، الرجل الذي ظلمه التاريخ ولكنه سينصف نفسَه بنفسِه! يومًا ما يا فيليب الكلب، يا براز ضفدعة مُطلقة، سأخرج إلى العالم، سأحكي عن تعمد رجال تشويهَ سمعتي، ومحو تاريخي كاملاً، لأنهم لم يجتهدوا مثل يهوذا الإسخريوطي، لأنهم كانوا مجرد تابعين، لأنهم ضعفاءٌ من جنس البشر، الجنس الذي يعشق السوطَ والضربَ، ويخاف من النار والجحيم، ويصبر نفسَه الضعيفة بمكانةٍ مميزة في الملكوت! مع المسيح ذلك أفضل جدًّا، أليس كذلك؟ من اليوم يا فيليب، وحين تعود إلى عالمك، ستقول لكل شخص

تُقابله، مع يهوذا الإسخريوطي ذلك أفضل جدًّا! أنا حقيقي يا فيليب، أنا واحدٌ منكم، بينما هو لا نعرف من أين جاء، ولا نعرف كيف جعل الناس كلهم يحبونه هكذا! يا فيليب فكر معي، هذا الرجل مُخادعٌ! ومعجزاته كلها بفعل السحر! ألا تؤمن بالسحر يا فيليب! هذا الرجل ساحرٌ ومخادعٌ! لا يمكن بعد كل ما حكيتُه أن تظل معتقدًا بأنه رجلٌ طيبٌ مؤمنٌ، يحب الخيرَ للجميع!"

ابن طاهرة

تتغير ذائقة الناس تجاه شيء بعينه وفقًا لما يمرون به من معطيات، فنجد مثلاً أنه إذا كانتِ السمة العامة للبلاد هي الثورات والسياسة، سيتهافتِ القُراء على كل كتابٍ يُشبعُ جوعَهم للمعرفة، فلا تتعجب من الرجل العادي، الذي يسير في الشوارع، ويفكر كيف سيقضي هذا الشهر، دون اللجوء إلى الاقتراض، حين صار مفكرًا ومُحللاً عظيمًا، يتهم الجميع حوله بالغباء، لعجزهم عن تفسير المشهد السياسي كما يراه هو، وذلك بفضل صفحات كتابٍ قضى معه فترةً، سربت بداخله فكرةَ الأولوية لكل ما ينطق به، لأنه القارئ المُثقف، لأنه مصدر الوعي الآن، وسط مجموعة لا تقرأ، تلك هي خدعة الكُتب الكُبرى، خدعة الارتقاء فوق الفكر العام، خدعة الشعور بالتمايز والتميُّز، بين جهلاء محيط القارئ، وذلك لأنه قرأ من كتاب، ومن حوله قرأ عشرين مثلاً.

في كل مرةٍ صحح وحرر محيي كتابًا، رأى بين كلمات صاحبه العزة والشموخ، التفاخر بالثقافة، النظرة الدونية إلى القارئ، رأى كيف يقتعد الكاتب رأسَ القُراء، يوجههم بفجاجةٍ لفكرٍ بعصه، ويضع كل النظريات المُعارضة، كدربٍ يسلكه الأغبياء! وكم حاول محيي تبسيط الأفكارَ، وإثراء محتوى الكاتب بما يفيده، ولكن دائمًا ما قوبلتْ مُبادرته بالرفض، وفي بعض الأحيان بمقولةٍ سخيفةٍ، يلوكها كل كاتبٍ متغطرس ضعيف: "وما شأنك يا محيي؟ أنت مُهمتُك مراجعة الأخطاء فقطَ!" وكان كلما أضاف كلمة "مُحرر" أيضًا في الحوار، رفض السامع مبدأ وظيفته، وطلب منه إكمال الأمر كمصححٍ فقط.

تقافزتْ حياةُ محيي بين الكتب منذ ظهوره المفاجئ لطاهرة، وحصوله على الوظيفة التي تمناها، بعد كل مُضايقةٍ تعرض لها، وبعد حياته المجهولة، التي لم تكن من ضمن أولويات الرب، لعرضه عليه في كتابٍ كما فعلَ مع الآخرين، ولكنه قاوم بفضل قدرته العجيبة على استنباط مواضع الخطأ في كتابٍ أو قصيدةٍ، على الرغم من إلمامه بكثيرٍ من قواعد اللغة، فإنه كان يشعر بالخطأ حتى لو نسي قاعدته اللغوية.. معجزةٌ ربانية طبعًا، ولكنه لم يُفسر الأمر كثيرًا للكتاب المتغطرسين الضعفاء، كانتِ النتيجة هي المطلوبة، فلا يهتم كاتبٌ لمعجزات مصححه، المهم أن يخرجَ الكتابُ من تحت يد محيي بلا أخطاء أو ذنوب.

لم تشغل الأحداث بالخارج بالَ محيي، لم يشغله اهتمامُ الناس بالعبادة فقط، ونسي وطلب من بولس، الرجل الذي بدأ محيي في معاملته كصديقه الوحيد، تحديد ميعاد جلسةٍ

مـع الأنبـا، ليعـرض عليـه فكـرةً ستفيد المسـيحية، بصـورةٍ ستجعل كل مسـيحيٍ، إذا نفذوهـا، يمـدح مجهـودَ محيـي في مـا فعلـه. وصمـم محيـي ألا يخـبر بولـس عـن ماهيـة الـدور الـذي سـيخدم بـه دينهـم، مـا عجَّـل بموافقـة الأنبـا عـلى المُقابلـة، خاصـةً أن الطالـبَ بإفـادة الديانـة المَسـيحية رجـلٌ مُسـلم، كـما قـال محيـي عـن نفسـه.

حُـددَ المـكان والزمـان، وجـاء الأنبـا ورجـالٌ يهمهـم الديـن وكلمـة الـرب، وبكلمتـين بـدأ محيـي عرضَـه: "سـأترجم الإنجيـل!" كلمتـان فقـط، جعلتـا الأنبـا ينظـر إلى محيـي بعـين الغضـب، ولما لمـحَ محيـي تلـك النظـرة، قـال كل كلامِـه مـرةً واحـدة: "الترجمـة العربيـة مُربكـة، غـير مُريحـة، يجـد القـارئ صعوبـةً في فهـم بعض الآيـات، عرفـتُ مـن أشـخاصٍ مسـيحيين أنهـم في هـذا الموقـف يقـرؤون الإنجيـل باللغـة القبطيـة، أو الإنجليزيـة، وذلـك لسـهولة الألفـاظ ووضـوح المعنـى، الإنجيـل أصـلاً يـا سـادة كُتِـبَ بالعبري، ومـن ترجمـه إلى العربيـة لم يكـن ضليعًـا بتبسـيط الفكـرة، اللغة صحيحـة طبعًـا بالتأكيـد، ولكـن المعنـى؟ مـا الـذي سـتفيده اللغة إذا كان المعنـى غائبًـا؟ ولنتحـرى الدقـة، أعنـي إذا كان المعنى صعبًـا، لأن غائبًـا تعنـي عـدم الفهـم تمامًـا، وأنـا حـين أتحـدث عن الترجمـة هنـا، سـأترجم الأناجيـل الرسـمية المُوافَـق عليهـا مـن قبل الكنيسـة، كل إنجيـلٍ بترتيـب الآيـات ذاتـه، بالمفهـوم نفسـه لا أغـير شـيئًا، وأعتقـد أن أمـرًا كهـذا سـيحرك عـددًا لا بـأس بـه من المتدينـين وراغبـي التعـرف عـلى الديانـة عـلى نحـو أكـبر، إلى قراءة الإنجيـل باللغـة الأم. الموضـوع صعـب، أعـرف جيـدًا مـدى التعقـ

والقـرارات المطلوبـة لإبـداء الموافقـة عـلى التنفيـذ، لكـن تخيـل معـي كيـف سـيذكرنا التاريـخ! الأنبـا بطـرس ومحيـي ابـن طاهـرة، الرجـلان اللـذان محيـا الغبـار عـن آيـات الإنجيـل!"

خـرجَ بولـس بمجـرد أن أنهـى محيـي كلامـه، لم يفهـم محيـي لمـاذا تـصرف بولـس هكـذا، ولكنـه انتظـر رد فعـل الأنبـا، ابتسـم الأنبـا بُطـرس في وقـارٍ، وقـال لـه: "لـن أعـدك بـشيءٍ، بمشـيئة الـرب لفكـر، وبمشـيئة الـرب يتـم الأمـر، سـأعرض طلبَـك عـلى مجلـس كَنـسيٍّ مهـم، وهـو بـدوره سـينصحنا بمـا نفعـل، ونتقابـل بعـد شـهرين يـا محيـي، وأشـكرك نيابـةً عـن كل مسـيحي".

بعدمـا رجـع محيـي إلى بيتـه، وفي أثنـاء وجـوده بـين كتبـه، مسـح الغبـار عـن مجموعـة الكتـب الجديـدة التـي اسـتطاع الحصـول عليهـا، والفضـل يرجـع إلى قائمـة الكتـب الممنوعـة التـي أعطـاه إياهـا السـفيران، بعـد المُقابلـة إياهـا بالقـرب مـن النيـل، فطلـب مـن بولـس صديقـه أن يُسـاعده في تجميـع نسـخ، مـن معظـم الكتـب، ولـن يخـبر شـخصًا.

بعدمـا خلـع ملابسـه، وجلـس عـلى سريـره، سـأل ذاتَـه عـن مـدى صعوبـة الأمـر؟ وهـل مـن الممكـن أن يتهمَـه أحدهـم بالخيانـة؟ أو بالتآمـر ضـد الديانـة المسـيحية؟ أو بتأكيـد إشـاعات تحريـف الإنجيـل؟ حـين فكـر في الأمـر، كان بسـبب صعوبـة بعـض الآيـات، في المحتـوى الـذي يدققـه لبعـض الكتـب، مـا يضطـره إلى الرجـوع إلى النـص الأصـلي مـن كتـاب العهـد الجديـد، وعـانى كثـيراً مـن صدمـة عـدم الفهـم! ذات يـوم رأى محيـي المسـيح في منامـه،

يقف أمامه، وكلاهما على جبلٍ عظيم، العالم كله أسفل محيي، فشعر أنه على عرش الرب، تحدث المسيح إليه، بصوتٍ هادئ يهدهد الروح من متاعبها وارتباكها: "يا شبيهي الطيب، يا بن الإنسان الحالي، لقد وافقتَ على خوض التجربة، وأنا هو ابن الإنسان، أقولها لك، الحق في ما تعرض ظاهرٌ، والظُلم في ما تريد آتٍ، قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله، فمتى يتوب واحدكم ويؤمن بالإنجيل؟ يا بن الإنسان الحالي، اقرأ عليهم الإنجيل بلسان عصرِهم، وقُل لهم كيف تعذب ابن الإنسان من أجل خطاياهم!"

ومن وقتها ومحيي يفكر في تفسيرٍ لرؤياه، وهل هي رسالة من السماء أم وعيه الباطن يلاعبه، نظرًا إلى اقتصار وقته على التدقيق والتصحيح بين الكتب والتعاليم المسيحية، وهو ما ساعد عقله على خلق هذه المُقابلة مع المسيح، وكلماتِه التي لن تتركه لفترةٍ.

ابنة الشوارع

بعد مسيرة ساعة، في شوارعٍ خالية، كخلو حياتِها من معظم الأشياء، توقفتْ نعمة، ابنة الشوارع والغضب، أمام المسجد الجديد، مسجد العسال بأبي حماد، في توقيت صلاة المغرب، تنتظر خروجَ رجل تظهر عليه علامات الحكمة والتدين، فيفيدُها في أمرِها، ولا يبخل عليها بنصيحةٍ، ربما تُحسن من

علاقتهـا بربهـا والبـشر، ولم تتجـه نعمـة لفعلتهـا هـذه، إلا لمـا شـافتْ في كتابِهـا أنهـا سـتفعل ذلـك.

الجامـع لم يشـهد منـذ الصـلاة الأولى لـه كل هـذا الكـم مـن المصلـين، والتقـوى والبُـكاء، والدعـوات المسـموعة مـن فـرط الخـوف ورهبـة الإيمـان، رجـال في كل ركعـةٍ تنتحـب قلوبهـم، وريثـُما انتهـى الإمـام، وبـدأ المُصلـون في الخـروج، حاولـتْ نعمـة التعـرفَ عـلى وجـه الرجـل المرسـوم في كتابهـا، الـذي لا تظهـر عليـه أمـارات الإمامـة، الحشـد يتناقـص، وربمـا يكـون الرجـل قـد غـادر في البدايـة ولم تلحظـه.

سـمعت اسـمَها، ينـادي بـه شـابٌ بسـيط، يقـف بجانـب دراجتـه، يتأمـل ملامحَهـا مـن بعيـد، متوسـط الطـول والوسـامة، بشرتـه قمحيـة، شـعره أسـود قصـير، لا شـارب ولا لحيـة، تحسـبه مـن الرفـع مريضًـا، طبقًـا للوصـف الـدارج في المجتمـع، هيـكل عظمـي متحـرك، لم تتعـرف عليـه نهائيًـا، لم تلمحـه في أي مـكانٍ ذهبـت إليـه مـن قبـل، أشـار إلى آخـر الشـارع، وتحـرك دون أن يركـبَ الدراجـة، فتحـتِ الكيـس البلاسـتيكي الأزرق، ومـدتْ يمينهـا بحثًـا عـن السـكين، تحسـبًا لأي أمـرٍ قـد يحـدث، مشـتْ خلفـه، إلى أن رأتْـه يسـند الدراجـة إلى جـدار بنايـة، ويدخـل في ثقـةٍ وهـدوء، تبعتـه إلى حيـث اختفـى، لتجـده ينتظرهـا أمـام بـابٍ صغـيرٍ لمسـاحةٍ أصغـر، تُعـرف بغرفـة البـواب، قالـتْ في حـدةٍ واضحـة: "هـل مزاجُـك يسـمح لهـذا الآن؟ عامـةً كل شيءٍ بثمنـه!" ضحـك الشـاب وطلـب منهـا الدخـول، وسـيقول لهـا مـا يريـده،

ولـن يختلفـا في الثمـن أساسًـا، وأن الحديـثَ سـيكون أكـثر هـدوءًا ولطفًـا، إذا تكرمـتْ وتركـت السـكين.

"أعتـذر عـن سـوء حالـة الغرفـة، وعـن وجـود الزبالـة في كل مـكان، مـا سـأقوله قـد يكـون غريبًـا، ولكـن هـذا المكتـوب عنـدي، أنـا أقابلُـكِ، وأخـبركِ بقصتـي، ثـم مـا يخصـك، ونفـترق بعدهـا! عامـةً، اسـمي سـفرائيل، رسـولٌ مـن رسـل المـوت، وكنـتُ خادمًـا لملـك المـوت، أقبـضُ معـه الأرواح بأمـر الله، كنـتُ مـن المُقربـين إلى الملائكـة العظـماء، ولكننـي اقترفـت ذنبـين، فطُـرِدتُ بـلا رجعـة، الأول أننـي سـألتُ لمـاذا لا يضحـك ميكائيـل منـذ خُلقـتَ النـار، والثـاني أننـي تعاطفـتُ مـع إبليـس حـين طُـردَ مـن الجنـة. وقفـتُ أمـام ملـك المـوت محـاولاً تفسـير شـعوري، وبالطبـع فشـلتْ. فالملائكـة لا تشـعر ولا تـأكل ولا تـشرب، لا تسـأل ولا تتعجـب، تتعبـد فقـط وتسـبح بحمـد خالقهـا، إضافـة إلى قبـض الأرواح في حالتـي.. حـاول ملـك المـوت مـع الله، وكل محاولاتـه بـاءت بالفشـل. سـمعتُها تزلـزل السـماواتِ والأرض، سـمعتُ صـوتَ الله وهـو يأمر بطـردي، وبوضـع غضـب الكـون كلـه في قلبـي، إلى يوم الديـن، رماني بنفسـه ملـك المـوت إلى الأرض، بعدمـا قطـع جناحـيَّ، وجعلنـي على هيئـة بـشري ضعيـف، لا يتناسـب مـع كـم الغضـب الموضـوع في قلبـه، ثـم وضعنـي في هـذا المـكان، ومهـما توالـتِ الأزمنـة، فأنا هنـا لـن أبـرح تلـك الغرفـة، ومهـما حـدث لـن يـراني مخلـوقٌ.

حُبِسـتُ في تلـك الغرفـة عـلى مـر العصـور، رأيـتُ بداخلهـا أنواع المشـاعر شـتى، وأقـذر الأيـام، عاصرتُهـا حـين كانـت مقلـب قمامة، وغرفـة فحـم، وغرفـة إعـدام، حتـى صـارتْ غرفـةً صغـيرةً في قا

بناية، يرفض أي حارس عقار المكوث فيها، كما ترين يا نعمة، الزبالة في كل مكان، ولا يُخرجها أحدٌ إلا والرائحة تفوق حد الاحتمال، لآلاف السنين يا نعمة وأنا أصلي من أجل العفو، ولكن لا تسمعني السماء، إلى أن وقعت الكتب، فعرفتُ أن القيامةَ تقترب، وطبعًا لا توجد في كتابي أي معلوماتٍ، سوى اسمك وهذا اليوم الذي سنتقابل فيه، ولا وجود لأي شيءٍ بعدها.

تسألين نفسَكِ عن سبب لقاء ملاك مطرود بنسل حواء؟ ولماذا أنتِ بالتحديد التي ترينني؟ كُتِبَ في صفحة اليوم هنا أن ملاكَ الموتِ أُمِرَ بعدم قبض روحي إلا بعد أن تقتلني امرأةٌ مُباركة، تكره البشرَ، والغضب يحتل قلبها بسبب ما فعله بها الرب، فلا تجد أي رحمةٍ أو تراجعٍ عن قرارها، ومن الواضح أنكِ تكرهين البشرَ وحكمةَ الرب في أمركِ، لذلك أنتِ هنا اليوم لقتلي يا نعمة، وحتى لا تضربُكِ الحيرةُ، بنصل سكينك البارد، مرريه فوق عنقي، بقوة كراهيتك لهذا العالم".

من خلال نظرات نعمة، فهمَ سفرائيل أنها لا تفهم ما يقوله، أو أنها تراه مجنونًا، وفي الحقيقة هي تملك كل الحق، فكيف تُقنع فتاةً، جاءت إلى الدنيا بمرضٍ، وتعذبت بسببه، أن الواقفَ أمامها حاليًا هو ملاكٌ من السماء، يطالبها بإنهاء مأساة حياته؟ وقف سفرائيل فجأةً، خلع عنه قميصه، ثم سحب منها نصل السكين، وجرحَ صدره، فلم يخرج دمٌ منه، بل ظهر نورٌ لمدة قصيرة، ثم اختفى!

تراجعت إلى الوراء، وقامتْ كي تخرج من الغرفة، وما إن بدأتْ في الصراخ شل حركتها تمامًا، واضعًا يمينه على فمها، ويساره خلف ظهرها، بنصل السكين التي تخصها، مهددًا إياها بالقتل إن تحركتْ أو صرختْ: "اسمعيني يا بنت الطين، مشاعر البشر الضعيفة لا نحتاج إليها الآن، حاولتُ كثيرًا قتلَ نفسي ولم أفلح، لذلك إن لم تفعليها أنتِ، سأقتلكِ وسأنتظر مجددًا، الانتظار لم يعد مملاً، أتعرفين يا نعمة ما هو الممل حقًّا؟ الطاعة العمياء، كلهم بالأعلى يعيشون في مللٍ أنا واثق، كلهم يسبحون بنعمه ومعجزاته، وبداخلهم شعورٌ بالملل، يقاومونه في كل ثانيةٍ كي لا يظهر عليهم، وهو يعي ذلك جيدًا، ولكنه فخور بمدى ضعفهم، ومدى خوفهم من الطرد أو اللعنة والعقاب، إن خالفَ أحدُهم مشيئته! إلى يومِنا هذا، وأنا أعرف أن إبليسَ لا يستحق ما حدث له، شعورٌ طبيعي، الغيرة شعورٌ طبيعي، السؤال شعورٌ طبيعي، الإنكار شعورٌ طبيعي، الرفض في حالة الظلم شعورٌ طبيعي، لم يكن إبليس مخطئًا يا نعمة، ولا أنا! ما ذنبي؟ هل لأنني سألتُ! فقط! السؤال جريمة! هل لأنني استفسرتُ عن شيءٍ غير واضح، ينتهي بي وأنا مرمي بين القمامة والروث وفضلات الكائن المنحط المخلوق من الطين!

تخيلي يا نعمة، الكائن البشري كل يوم يُلحد به، يكفُر ويُذنِب، يكذب ويقتل، يسرق وينهب، يظلم ويُعذب، ومع ذلك يتركهم بحجة أن العبرةَ بالنهاية، والنار والجنة والثواب والعقاب، ولكن! معنا نحن، الذين ظلوا منذ مجيئهم يطلبون منه العفو والغُفران، يسبحون له ليلاً ونهارًا، يفعلون ما يشاء،

وقتما شاء وأينما شاء، حتى لما حذرناه من خلق المخلوق الطيني الوسخ، كان سعيدًا للغاية، هذا الرب يا نعمة، يحب المُقاتلين، يحب المُعاندين وكارهي الطاعة العمياء، يحب كل ما يثبت له أن البشرَ جنسٌ متمرد، فيشعر بنشوةٍ وإثارة، بعيدًا عن الجو العام الممل، الذي يحاوطه منذ الخليقة.

خُلاصة الكلام يا نعمة، بهذه السكين افصلي رأسي عن جسدي، وأخرجي قلبي، العضو الوحيد الموجود بهذا الجسد، وتغذي عليه، سيزيدُكِ غضبًا وكراهيةً ضد البشر وخالقَهم.

يا نعمة.. أنا أعرف عنكِ كثيرًا، كلنا في السماء يعرفُكِ، حكايتُكِ معروفة للجميع بالأعلى، أنبياءٌ كُثر سألوا عنكِ، وحتى وقتنا هذا لا نعلم الحكمة في أمركِ، ولكن سأقول لك جملةً، سمعتُها عنكِ، حين تحدث آدم إلى ربه في يوم، قبل أن ينفيني ملك الموت، وسأله عن اسم نعمة، المكتوب على عرشه، فقال له الرب: "مباركٌ اسمُها في الدنيا والآخرة".

دون أدنى إحساس بالذنب، ذبحته ثم مثلت بجسده، وخصوصًا منطقة الصدر، إلى أن خرج القلب، الذي كان عبارة عن لحمٍ لونه أبيض، يصف ما تحته من نورٍ، أكلته ومضت إلى حال سبيلها، لم تنظر إلى الخلف، فتحتِ الكيس الأزرق، وضعتِ السكين بداخله، وراحتْ تجلس أمام مسجد العسال، تتحدث إلى ربها وتقول: "هل المجنون هذا كلامه صح؟ هل أنا فعلاً مُباركة؟"

عامل الدوكو

الرهـان عـلى تفسـير رد فعـل الإنسـان، في وقـت الشـدائد، خاسرٌ بـلا أدنى شـك، والخُسـارة العظمـى -أو الفادحـة- طبقًـا لامـرأة، هي أن يهجرَهـا رجـلٌ، وحجتُـه في ذلـك -وفقًـا لـه- قويـة، والموقـف الأمثـل لتوضيـح السـابق، هـو مـا حـدث بـين منـة وعبـد القـوي، عامـل الدوكـو وخطيبتـه بائعـة الملابـس، لمـا قابلهـا في بيتِهـا، ليشرح لهـا أسـبابَ ابتعـاده عنهـا مؤخـرًا، وبعـد شرب القهـوة وسـيجارة، والجلسـة التـي يكـون ظاهرهـا الـود، ذبـح عبـد القـوي الصمـتَ، وبسـكين بـاردة أعلنهـا صراحـةً، وبأسـبابه كان متمسـكًا.

نقـص المـال والحـال العـام، عـدم الإيمـان بصـدق العلاقـة. النـاس في وادٍ وهـما في وادٍ، كل شـخصٍ يبحـث عـن حسـن الخاتمـة. لا وقـت للفـرح، مـاذا سـيحدث إذا قامـتِ القيامـة وهـو أعـزب. والبنـت إذا ماتـتْ دون زواج لهـا منزلـةٌ في الجنـة أعـلى منهـن. وكلامٌ كثـير مكـرر، يخـرج بصـورةٍ مُنظمـة، مـن شـخصٍ يجهـل دوره في الحيـاة، ولا يرهـق بالـه بالتفكـير، ولكنـه يعـرف الكثـير مـن حيـث لا يـدري، ويريـد الانفصـال عـن بنـتٍ تحبـه، وفي مقولـة أخـرى: "أنـتِ تسـتحقين مـن هـو أفضـل منـي".

وآليـة الدفـاع عنـد الأنثـى، في تلـك المواقـف، أعـلى مـن سـور الصـين العظيـم، وأكـثر اسـتعدادًا مـن خطـط نابليـون، وتفـوق فصاحـة تشرشـل في خطبِـه، ودهـاء روميـل ثعلـب الصحـراء، وإذا كان الباحـث عـن الرحيـل عاقـلاً، فالمتمسـك بالبقـاء أنثـى! وهي -بالتأكيـد- بعيـدة كل البُعـد عـن العقـل.

اجتهد عبد القوي في فرض رأيه، استنادًا إلى ما يحدث بالخارج. فالناس كلهُم إما ساجدون وإما باكون، الواحد منهم يبحث عن عملٍ صالحٍ يقدمه إلى ربه ليغفر له، وإذا كان الزواج سببًا، فهو في هذا التوقيت ليس الأنسب، الحالة النفسية غير مستقرة، الحالة المادية منعدمة، غياب الاستمتاع بما تبقى من الحياة لقُرب يوم القيامة، وهو أمرٌ جلل، فكيف لإنسانٍ أن ينظرَ إلى مباهج الدنيا، وهو يعلم وكله يقين، وليس فرضياتٍ كما في حالة المرض، أنه سيموت في يومٍ بعينه، مع ضرورة الوضع في الاعتبار أن صُنعَ الذكريات أمرٌ رئيس في كل علاقة، فأي ذكرياتٍ قد يصنعها خلال أشهرٍ؟ ولمن سيصنعها إذا كان الموتُ قريبًا إلى هذا الحد!

كل كلمةٍ خرجتْ من عبد القوي، كانت مكتوبةً في كتابِه، وهو ما جعله يبتهج، بسبب ما وفره الكتاب عليه من مجهودٍ جبار هو في غنى عنه، فإذا جلسَ عبد القوي مع ذاته، لسنين لا حصر لها، يرتب أفكاره، ليقول ما قاله، لطلعتِ الشمس من المغرب وهو لا يزال في مرحلة التقديم! عبد القوي يعرف كل شيءٍ بتدبير رباني، ولكنه يكره إرهاق عقله بمقدمات الكلام وطرائق تقديمه!

وكتاب عبد القوي يعتمد على المنطق، فيمنطق ردودَه في حالة الاعتراض، ويحيط أسبابَه بدوائر تعدد التفسير، فإذا فهمتْ منة كلامَه على نحو خاطئ، أعاد شرح النقطة، بطريقةٍ أخرى، تغزوها الأدلة من كل مكانٍ، فيصعب على منة رفض

مـا طرحـه، أو التشـكيك فيـه، ولـو عـلى سـبيل الاعـتراض، مـن أجـل لا شيء.

أمـا كتـاب منـة، فالعاطفـة منهاجـه، وحلـو الـكلام مصحـوب بـدلال أنثـوي، فيذيـب حديـدَ المنطـق، وتلـين قسـوته، فتجـد الإنسـانيات حـاضرةً، ولـكل سـؤالٍ إجابـةٌ واضحـة تُبـكي الحجـرَ، وتُريـك مسـارَ اليقـين، واليقـين هنـا هـو اليقـين الفـردي وليـس العـام، وكلـما تمسـك عبـد القـوي بحججـه، وفـسر أسـاسَ الفعـل، وقفـتْ منـة وفي يدِهـا كتـابُ ديـنٍ إنسـاني، تجادلـه بالتـي هـي أرقـى، يهـرب مـن نظـرات عينيهـا، فيصطـدم بصوتِهـا الناعـم المبحـوح مـن الحـزن، وإذا راوغَ الحـزنَ ببراعـة، أسـقطتْ عنهـا قطـرةً مـن الدلـع، بلمسـات يـدٍ أو غنـج النـداء، فتقـول لـه: "يـا عبـده، لماذا تعاملنـي هكـذا يـا عبـده؟" وفي كلمـة عبـده هـذه مـن الـدلال والغنـج والإغـراء مـا يحفـز عبـده عـلى صعـود الجبـال، ليلاً نهـارًا، بـلا هـدفٍ واضـح، ولكـن المهـم أن تـرضى منـة!

وفي حالـة فشـل كل مـا سـبق، تلجـأ إلى سـلاحِها المُحـرم دوليًـا، فهـي تعـرف كـم يعشـق عبـد القـوي فخذيهـا، فتتعمـد أن تلبـس مـا يجسـدهما، فـلا يحيـد عبـد القـوي عنهـما بنظراتـه، فتـضرب عليهـما برفـق وهـي تتحـدث، أو تحركهـما في عصبيـة، فيرتـج الواحـد منهـما بمـا يحمـل مـن خـيرات لحـمٍ، فيفقـد عبـده التركيـز في حربـه، وتبـدأ مراحـل الانحسـار، فيكتشـف عبـده أن مجهـود سـاعاتٍ ذهـب هبـاءً في أقـل مـن نصـف سـاعة، وهـو مـا تـبرع فيـه الأنثـى، وأنـا أعنـي هـذه الكلمـة جيـدًا، أي أنثـى -مهـما كانـت درجـة جمالهـا- قـادرة عـلى تفكيـك قـلاع منطقـك، ورسـم شـفاه

حمـراء كبـيرة عـلى جـدران ذكوريتـك، وهـو المعـروف مـن قديـم الأزل، نقطـة ضعـف الرجـل، وفتنتـه الأولى هـي الأنثـى، واسـألني أنـا، السـاردة الوحيـدة بـين جيـل السـاردين.

الجلسـة تطـول، وعائلـة منـة لا تتدخـل، الحـوار لم يتطـرق إلى العنـف نهائيًـا، لم يتحـدث أحدهـما بصـوتٍ عـالٍ، كلاهـما ينصـاع إلى كتابـه، وصـولاً إلى السـطر الأخـير، المكتـوب في كتابيهـما لهـذا الموقـف: "القـدر حتمـي، الثبـات مبـدأ، الدهـاء ملجـأ، الخـلاص لمـن أراده، والبقـاء لمـن تمنـاه"، بعدهـا تكلمـت منـة: "إذا كان الفـراق مـا تبحـث عنـه يـا عبـد القـوي، فهـو لـك، ولكـن اسـمعني جيـدًا، أهـلي يحبونـك، يحبونـك للدرجـة التـي سـيغفرونها لـك إذا واجهتهـم بحقيقـة شـعورك الآن، ومـن الممكـن أن يطلـبَ منـك أبي الرحيـلَ، وسـيتحدث إليـك لاحقًـا لمعالجـة الأمـر، وأمـي قالتْهـا لي مـن قبـل يـا عبـد القـوي، أنـك لـن تتركنـي مهـما حصـل، لأنـك تحبنـي ولأنـك رجـلٌ يحـترم كلمتـه، والحـل الوحيـد لفسـخ خطوبتنا يـا عبـد القـوي هـي فضيحـة، ولكـن فضيحـة في نطـاق هـذا المنـزل، لأننـا إذا تجاوزنـا إلى الخـارج، قُتلنـا في الحـال! عائلتـي ترفـض هـذه الأمـور، وتراهـا غـير مناسـبة للمخطوبـين، وسـمعتُ والـدي يقولهـا يومًـا إنـه إذا اكتشـف أننـا نفعلهـا، سيفسـخ علاقتنـا فـورًا! هـذا غـير حـوار رسـل الخـير، وإمكانيـة القتـل المُبـاشر حـالاً!"

اقـترب منهـا وقبلَهـا طويـلاً، قبلـة وداع، انتشـتْ، طلبـتْ منـه إخـراج الـذي هـو أطـول، تتعـالى تأوهـات شـبقٍ كلـما لمسـته، دخلـتْ أمهـا عليهـما، ومنـة تداعـب فرجَـه وتقربـه مـن فمهـا، صرخـتِ السـت وجـاء أبـو منـة، وهنـا كانـت التفصيلـة الصغـيرة

التـي لعبـتْ عليهـا منـة، وكان عبـد القـوي غبيًـا، وقـع في شرك منـة ببراعـة، مـن البديهيـات في الخطبـة والـزواج عامـةً، في بعـض البيـوت وليـس كلهـا، إذا أحبـك أهـل البيـت، لـن يضايقكـما منهـم أحـدٌ، سـتجلس بمفـردك معهـا، مـع العلـم أن أباهـا وأمهـا وأخاهـا وأختهـا والجـيران يعلمـون بمـا يـدور داخـل الغرفـة، مـن مداعبـاتٍ وقبـلاتٍ مخطوفـة وشـهواتٍ متبادلـة، وفي حـال انكشـاف الأمـر، لـن يـرضى أبـدًا أي رب عائلـة أن يُخـرج السـافلَ الـذي فعـل ذلـك مـع حريمـه، بحجـة الـشرف والدفـاع عنـه، بـل سـيهدده أنـه إذا مـا لم يُصحـح فعلتـه حـالاً، سـيقوم بقتلـه أو فضحـه أيهـما أقـرب!

وفي موقـف عبـد القـوي ومنـة، الموقـف الـذي تركـه كلاهـما لحتميـة القـدر وفقًـا للكتـاب، فقـد طلـبَ أبـو منـة مـن عبـد القـوي غلـق سـحاب بنطالـه حـالاً، والتوجـه إلى منزلـه، وعـدم التحـدث إلى منـة نهائيًـا، وفي خـلال أسـبوعٍ مـن الآن، إذا لم يكتـب كتابـه عـلى ابنتـه، سـيفضحه لـدى رسـل الخـير، وفي مكالمتـه لهـم هـلاكٌ فـوريٌ. أسرع عبـد القـوي إلى الخـارج، وهـو يكـرر كلـمات الكتـاب الأخـيرة، بصـوتٍ مهـزوز خائـف: "القـدر حتمـي، الثبـات مبـدأ، الدهـاء ملجـأ، الخـلاص لمـن أراده، والبقـاء لمـن تمنـاه".

أيام الدهشة الثانية

فيليب

النعمة الحقيقية يا مينا، في وسط كل ما نمر به، أن حاسةَ الشم اختفتْ! مجرد التفكير يا ولدي في مدى القذارة التي تحاوطنا، تُجبرُني على خطيئة الحقد، والمسيح الحي يا مينا، أبوك يحقد على الخنازير، لأنها بالطبع في وضعٍ أفضل مما نحن عليه!

سامحني يا مينا على ارتباكي، حكيتُ لكَ كثيرًا عن أشياء في حياتي السابقة، وعن أشياء حدثتْ لي في أثناء غيبوبتي، عن يهوذا الذي أراد قتلَ إيماني، وعن مريم البتول التي قتلتُها، ولم أحكِ لك حتى وقتنا هذا عن السر الأكبر المدفون بداخلي، كم تمنيتُ يا مينا أن تسمعَ، كل كلمةٍ قُلتُها، خلال سنين وجودنا

داخـل الفُـرن، أحـدُث نفـسي وأتخيـل أنـك تسـمعني، هـذا هـو الجنـون الخالـص يـا مينـا، وأعتقـدُ أننـي إذا فعلـتُ شيئًا آخر، غير الحـكي، لكنـتُ ميتًـا، مـن الوحـدة والوضـع غير المفهـوم.

هـل حسـبتَ فعـلاً أن قتـلي لأختـك هـو سري الأكبر؟ لا يـا مينـا، أنـا فعلـتُ مـا هـو أقـذر مـن ذلـك، انظـر حولـك، هـذا الفُـرن الـذي سـيدفننا الضعـف بـين فخـاره، كـم حرقـتُ بداخلـه رجـالاً وسـيدات وأطفـالاً، لصالـح الباشـا الكبـير، هـل تتخيـل أنـه يحبنـي هكـذا دون سـبب؟ لقـد قتلـتُ لـه كل شـخصٍ كان يـراه قلقًـا ولا مفـر مـن اغتيالـه، أبـوك يـا مينـا كان قاتـلاً مُحترفًـا، يشـهد النـاس لـه بالإيمـان، وبأنـه رجـلٌ مسـيحي مُخلـص، وهـو بينـه وبـين نفسَـه قاتـلٌ مـن الدرجـة الأولى.

تسـألني كيـف كنـتُ أقتـل؟ سـأجيبك، الحيلـةُ ذاتهـا في كل مـرة، الباشـا يُحـضر المطلـوبَ قتلـه في عـز الليـل، مـع الحجـة الأشـهر لـه، حـين يسـأله الضيـف عـن سـبب وجودهـما في هـذا التوقيـت، فـيرد عليـه الباشـا: "أنـت تعـرف أننـي ملـكٌ في هذه البلـدة، سـيأتي الناس مـن كل مـكانٍ، يطلبـون شـيئًا أو خدمـةً، لذلـك هـذا التوقيـت هـو الأفضـل، الوجـود في مـكانٍ كشـبحٍ يمـر". الباشـا صاحـب الأفـران، كان يطلـب مـن العـمال ضرورة المغـادرة يوميًـا قبـل السـابعة مسـاءً، لا يهمـه انتهـى العمـل أم لا، المُهـم أن يصـير المـكان في تمـام السـابعة معبـدًا للصمـت، فيسـتطيع الباشـا المجـيء، ولا يـراه أحدُهـم، أو يُسـمَع صراخُ الضحيـة.

كل الذيـن قتلتُهـم يـا مينـا، جـاؤوا في مناماتي، يسـألونني عـن السـبب، وكنـتُ أقـول لهـم الأمـر لـه، إلا مريـم أختـك، وصديقـي نجيـب، نعـم يـا مينـا، قتلـتُ ابنتـي وصديـق عُمـري، لأنـه غبـي، طلبـتُ منـه يومَهـا الرحيـل، ولكنـه صمـم عـلى البقـاء، ورفـض المُغـادرة دوني، كي نذهـب إلى المقهـى ونلعـب دور الطاولـة، مـع أننـي وعدتُـه بمـا يريـد، ولكـن بعـدَ رحيلـه، وبالطبـع لم يقتنـع بـشيءٍ، وظـن أننـي أُلاعبـه وأننـي لـن أذهـب، حتـى جـاء الباشـا برفقـة بنـت، لم تتـم العشريـن مـن عمرِهـا، تمـشي خائفـة مرتبكـة، تنظـر إلى الباشـا كل ثانيـةٍ ليخبرُهـا عـن سـبب القـدوم هنـا، ولما لمحَ نجيـب الباشـا، ركـض ناحيتـه ليسـتقبله، فيقابلـه الباشـا بصفعـةٍ، ما زال صوتُهـا حـاضرًا في أذني، يسـبه ويسـأله عـن سـبب وجـوده في المـكان بعـد انتهـاء سـاعات العمـل، لم يعطِـه فرصـةً للجـواب، نهـرَه وأمـره بالرحيـل فـورًا، ثـم طلـبَ منـي قتـل البنـت وبعدهـا نجيب!

أمـا مـا يخـص قتـلَ البنـت، أو التخلـص مـن ضحايـاه عامـةً، فالأمـر كان بسـيطًا كبسـاطة كلمـة صبـاح الخـير، نقنـع الشـخصَ بأننـا في جولـةٍ، نُريـه الأفـران وطريقـة صُنـع الفخـار، ثـم نصعـد السـلم الخشـبي، لـيرى الضيـف بنفسـه الفُـرن مـن الداخـل، ومـن هـذا اللحظـة نُفسـح للارتجـال مجـالاً، فتـارةً نـضرب الضحيـةَ عـلى رأسـها، بعدهـا نمسـكها ونلقيهـا داخـل الفُـرن، أو نُخدرهـا مثـلاً ونرميهـا بالفـرن، وفي أكـثر الأوقـات قسـوةً كان الباشـا يحمل سـلاحًا، ويطلـب مـن الضحيـة بنفسـها أن تنـزل إلى الفُـرن، في صمـتٍ تـام، في خضـوعٍ تـام، دون أي تـصرفٍ تنـدم عليـه، لأن موتَهـا حتمـي، فإذا حاولـتِ الهـرب مثـلاً لـن تفلـح.

هـذه البنـت يـا مينـا، طلـب منهـا الباشـا أن تقفـزَ بنفسـها، وقـال لي وهـي تبـكي وتترجـاه: "تخيـل يـا فيليـب! الوسـخة تقـول لي إنهـا حُبـلى منـي! بنـت القحبـة تظـن أنني سـأتزوجها مثـلاً، أو سـأقول لهـا ولا يهمـك يـا حبيبتـي، دعيـه يـأتي إلى الدنيـا، كل طفـلٍ يشرفنـا برزقـه، بنـت الوسـخة التـي لم تعـرف التربيـة!" والبنـتُ يـا مينـا كانـت تُقسـم لـه إنهـا ستتخلص منـه، ولـن يعـرف أي شـخصٍ، ولا أقـرب النـاس إليهـا، ومـع ذلـك، ودون أي رحمـةٍ قالهـا لهـا: "إمـا القفـز بإرادتـك، وإمـا القفـز عنـوةً، ولكـن بعدمـا يكـون فيليـب اغتصبـك. مـا قولـكِ يـا شرموطـة؟" كثـيرٌ مـن الفخـار الـذي صنعتُـه يـا مينـا خـرج إلى النـاس بطمـي حقيقـي، وبرفـات جثامـين، كل بيـتٍ في قريتنـا أو خارجهـا، عرفـتُ أن بضاعتـي معروضـةٌ بداخلـه، يحمـل قطعـةً مـن الفخـار، ومـن عـذاب إنسـانٍ وصراخـه، كل قطعـةٍ تحتـوي عـلى بـكاء أنثـى بسـبب ظلـم، أو قهـر رجـل لأنـه ظهـر في الوقـت الخطـأ، وكـم رأيـتُ في أحلامـي الفخـار يركـض خلفـي، ويتحـول إلى ضحيـةٍ مـن ضحايـاي، يحـاول قتـلي أو شي جسـدي بالنـار.

لا تسـألني يـا مينـا كيـف قتلـتُ صديقـي، يـا مينـا أرجـوك لا تسـألني، يعجبنـي فيـك أنـك لا تمـل، سـأخبرك يـا ولـدي، بعدمـا تخلصنـا مـن البنـت، أمـرني الباشـا بالتخلـص مـن نجيـب، لسـاعةٍ كاملـة أقنـع الباشـا بـأن نجيـب حـمارٌ، شـخصٌ سـاذجٌ كل مـا يهمـه هـو الجنـس، والحديـث عـن المُقويـات، وعـن بطولاتـه في كل سريـرٍ مـع أنثـى مـن البلـدة أو خارجهـا، لم يخجـل نجيـب بحكـم صداقتنا، مـن الاعـتراف لي بكثـيرٍ مـن وسـاخاته، وكان يقـول لي دائمًـا: "أنـت

أكثر من صديقي يا فيليب، كل أسراراي معك لأنني أثق بك، أنت الوحيد الذي أعترف له، فلا أحمل خطاياي بمفردي!"
والباشا بعد أي نقاشٍ، ينهيه بالجملة نفسها: "لا يهمني كل هذا يا فيليب، إذا لم تقتله هنا في الفُرن، ابحث عن طريقةٍ وافعلها!"

ولأن نجيب تحدث كثيراً عن امرأةٍ في قريتنا تجعل قضيب الميت ينتصب من اكتناز جسدها ومفاتنها، وكيف أنه الوحيد الذي عرفَ كيف يضاجعها، وذلك راجع لحركته الوسخة التي يتعمد فعلها أمام الحريم، فكما تعلم يا مينا، نجيب كان يبيع الفخار على عربةٍ يجرها حمارُه الأذكى منه، وكان لا يرتدي شيئًا تحت جلبابه، فكان كلما رفع جلبابه أو جلس فوق العربة، ظهر للجميع فرجه، وهو -للأسف يا مينا- قد أنعم الرب عليه بنعمة القضيب الذي تعشقه النساء، وتحته خصيتان، كل خصيةٍ في حجم التفاحة البلدي، فتنتشي الست منهن، وتتخيل مدى حجم المدفع إذا انتصب، ومدى انتشار ناره إذا ضربَ!

عرفتُ منه بعد واقعة البنت أن الستَ طلبتْه، لأن الدم كان عليها واليوم هي نظيفة، والست يا مينا بعد انتهاء الدورة الشهرية تكون شهوتها أعلى من السماء السابعة، فقال لي أن أعطيه أي بضاعةٍ، بحجة أنها تريد الشراء منه، فلا يشك أي مار في وجوده أمام بيتها، وهو ما حدث، وبعدما دخل العاشق الولهان إلى بيت ست الحُسن والجمال ليلاً والناس معظمهم نيام، ركضتُ إلى بيتها، وصرختُ بعلو صوتي: "يا ناس! حرامي دخل إلى بيت الست نادية، يا ناس! حرامي!"

الأزمـة الحقيقيـة يـا مينـا لم تكـن في منظـر صديقـي، وهـو مسـحوبٌ عـلى الأرض عاريًـا، ودمـاؤه عـلى وجهـه، الأزمـة الحقيقية كانـت في حُكـم النـاس عليـه، بعدمـا فضحـوه وفضحوهـا، كل الواقفـين وقتهـا قالـوا: "اقتلـوا الزانيـة التـي تغـوي النـاس، واقطعـوا قضيـب الـزاني!" الرجـال قتلوهـا لأنهـا كانـتْ صعبـة المنـال عليهـم، وقطعـوا عضـو نجيـب حتـى يكف عـن التفاخـر، ولأن صديقـي كان يـرى الرجولـة والفحولـة فقـط في عضـوه الـذي بُـتِرَ بعـد الفضيحـة، شـنق نفسـه داخـل بيتـه، ولم يبخـل علينـا بحركـة مـن حركاتـه، التـي جعلـتِ القريـةَ كلهـا في قلـقٍ لأسـابيع، فقـد كتـب الفاجـر قبـل موتـه، كل أنثـى ضاجعهـا في قريتنـا، واصفًـا كل واحـدةٍ، بعلامـة مميـزة، وكيـف تتـأوه، وكيـف تطلـب المزيـد، وكيـف تشـخر أو تسـب، وهـل تقـول مـع كل وطئـةٍ: "آه أم أحـوه"، ومَـن مِـن الإنـاث كانـتْ لا تكتفـي بمـرةٍ واحـدة، ومـن منهـن تعشـق العُنـف والـضرب، وكـم واحـدة أنجبـتْ منـه وقالـتْ للمُغفـل زوجهـا إنـه ابنـه أو ابنتـه. لقـد انتقـم نجيـب مـن قريـةٍ بكاملهـا، بعضـوه!

تخيـل يـا مينـا، قضيـبٌ يدخـل كل بيـتٍ، يـدك أهلـه ويخـرج ضاحـكًا، هـذا مـا فعلـه نجيـب، ولكـن حـين وصل الـكلام إلى الباشـا، وعـرف أنـه مـات، توقـع الباشـا أنـه أنـا مـن كتـب هـذه الجوابـات، نظـرًا إلى أنـه حـكى لي عـن كل شيءٍ، والحقيقـة يـا مينـا أنـا لم أفعلهـا، ولـكي أكسـب ود الباشـا أكـثر قُلـتُ لـه إننـي الفاعـل، لأنـه لا يتحـدث إلى أحـدٍ في القريـة سـواي. ضحـك الباشـا مـن مـدى شر الفكـرة، ومنحنـي مكافـأةً، وقـررَ أن أربـاحَ الفُـرن الخاص بي سـتكون لي وحـدي! قتلـتُ صديقـي وكذبـتُ بشـأن فعلتـه العظيمـة مُقابـل

أربـاح القُـرن، وكسـب رضـا رب العمـل، وفي مـا فعلتُـه لسـتُ نادمًـا يـا مينـا، أنـا مسـيحي مُخلـص، والإخـلاص عنـدي يعنـي وجـوب فعـل كل شيء.

نعمة

يـا سـلام يـا نعمـة، لـو تقدريـن عـلى جلـب هـذا الرجـل، كل يـومٍ إلى سريـرٍ مختلـف، وتتذكريـن معـه طعـم المُتعـة المُتبادلـة، ثـم تقتلينـه في الحـال، فأنـتِ تكرهـين الرجـال عامـةً، لكـن تُحبـين القضيـب خاصـةً، لا لأنـه نـوعٌ مـن أنـواع الإغـراء، بـل لأنـه سـببٌ مـن أسـباب إشـباع الرغبـة.

حـكى لي محيـي عـن مأسـاة حياتـه، بصراحـة، النـوم مـع رجـلٍ يُشـبه المسـيح، بعدمـا عرفـتُ مـن هـو المَسـيح، وكل هـذا الأمـور، شيء ممُتـع! وسـألتُ نفـسي منـذ قابلتُـه، هـل بسـبب ذلـك أنـا مباركـة؟ كـما قـال لي هـذا المـلاك المجنـون الـذي قتلتُـه؟ لأننـي بعد فـترة طويـل، مـن الـذُل والظلـم، مـن القهـر والخـراء، سـيضاجعني رجـلٌ محـترم، ويعاملنـي بـكل احـترام كـما يفعـل طاهـر معـي؟ شـعرتُ معـه منـذ اليـوم الأول أننـي حقًـا سـت بيـت، يخـرج إلى الأماكـن ليجلـب أي طعـامٍ، يطلـب منـي رعايـة والدتـه طاهـرة، عـرض عـليَّ الـزواج، وقـال لي إنـه سـيبحث عـن طريقـةٍ ليكـون زواجنـا حـلالاً، لم يعـترض حتـى الآن على أي شيءٍ بشـكلي، لم يتحدث معـي عـن البقـع، لم يطلـب معرفـة تفاصيـل حيـاتي، يطيعنـي في كل مـا أريـد، عـرفَ هـذا الرجـل كيـف يصالحنـي عـلى الحيـاة بنـت

الوسـخة، عـلى نحـو مؤقـت، وعليـه هـو فقـط، وليـس عـلى كل الرجـال أو البـشر عامـةً!

إغـواؤه لم يكـن سـهلاً، كـدتُ أفقـأ عينـيَّ مـن شـدة أدبـه، ولكن أي رجـلٍ عـلى كوكـب الأرض يسـتطيع أن يقـاوم امـرأةً، ارتـدت جلبابًـا ضيقًـا، يجسـد تفاصيلَهـا! لـو أن المسـيحَ نفسـه كان هنـا، لفعـل مـا فعلـه محيـي بالضبـط! بعدمـا لبسـتُ الجلبـاب، جلسـتُ عـلى سريـره، وتعمـدتُ أن تكـون مؤخـرتي، عـلى طـرف السريـر، الحيلـة التـي علمهـا لي رجـلٌ مهنـدس، قـال لي مـرة وهـو فوقـي، داخـل موقـع كان رئيسًـا عليـه، أن كلـما جلسـتِ السـت، ذات الإمكانيـات الرائعـة، فـوق شيءٍ صلـد أو لـه طـرفٌ، سـتبرز مفاتنهـا السـفلى، وذلـك بسـبب رد فعـل الـشيء المسـنود إليـه، تجـاه الـشيء الطـري الـذي سـندَ فوقـه!

رجـلٌ هـو مـن لفـتَ انتباهـي إلي نـوعٍ مـن الإغـراء، وهـو مـا قُمـتُ بـه ليستسـلم محيـي، الـذي جـاء مـن الخـارج يومًـا، ليجـدني بهـذا الشـكل، أُمسـك كتابًـا وأتظاهـر بأننـي أقـرأ، تابعـتُ نظراتـه إلى نصفـي الأسـفل، المفـرود بسـبب ضغطـي عـلى طـرف السريـر، فيكسـب الفخذيـن حجـمًا إضافيًـا فـوق حجمهـما.

نظـرات عينيـه تجاهـي جعلتنـي في أقـل مـن ثانيـة أرمـي الكتـاب أرضًـا، ومحيـي بجانبـه، وأعتليـه في رضـا تـام، لم يعـترض ولم يقـاوم، مثلـما فعـل في كل مـرةٍ حاولـتُ التحـرش بـه، وكان يبتعـد متحجِّجـا بالمهـام، أو مُتغافـلاً عـما فعلتُـه كأنـه لم يفهـم الأمـر، ومـع إغـراء الجسـد، بالملابـس الضيقـة، والجلسـة التـي لا تُخيِّـب ظـن

امرأةٍ، استسلم محيي لملبن نعمة، ومن هذا الذي يرفض نعمةً مثلي؟

بعد ممارسة رائعة، وكلامٍ يضبط الدماغ عن جمالي وجمال إمكانياتي، وعدني محيي أن نتجه إلى مصدرِ الرائحة الثانية، بعد جمعه لكل المؤن التي ستساعدنا في رحلتي، وهذا لما حكيتُ أنني جئتُ من محافظةٍ بعيدة للبحث عن رائحةٍ، ووجدتُه في النهاية، ما يعني أن الرائحتين سبيلان لأشخاص آخرين، وربما قد نجد طريقًا مثلاً لقرية عامرة بالناس. لم يرفض محيي فكرةً سحب هذا الجهاز معنا، ولم يجدها جنونًا، قال لي ما دام الألم حاضرًا بسبب عدم وجود الجهاز الذي حصلنا عليه من ورشة الدوكو، فيجب سحبه معنا ولو لآخر الدنيا!

حكيتُ كثيرًا لمحيي عن حلمي المُتكرر، عن البقع التي تركض خلفي، وعن الرجلين، حكيتُ له عن أثر كل رائحةٍ فيّ، وعن مدى سعادتي لوصولي إلى رائحته أولاً، ولما قُلتُ له عما كان يحدث لي، تغيَّرت ملامحه، ولم يُعلق، واكتفى بمقولةٍ، تُعجبني منه الصراحة: "مُباركةٌ أنتِ يا نعمة النعم".

أشعر بأن قريبًا سينتهي كل هذا، وأنني سأصبح حبلى، وسأتزوج بمحيي، وستصير حياتي أفضل، وسأعوض كل ما فاتني، وربما -وأقول ربما- قد تتحسن علاقتي بالجالس فوق العرش، هذا إذا لم يحدث أمرٌ آخر!

عبد القوي

طوال هذه المدة سألتُ نفسي هذا السؤال لأكثر من مليون مرة: لماذا تركتُ منة؟ لماذا ابتعدتُ عنها؟ الكتاب شرح كثيرًا كل شيءٍ يخص علاقتنا، مع وجود بعض الهوامش التي تُفيد وجود خطط أخرى، أو بمعنى أصح، حياة أخرى، إذا ما رفضتُ المكتوب، وفكرتُ في ما أريدُه أنا، فمثلاً المكتوب كان زواجنا، ولكن نظرًا إلى ما نمر به وقتها، كان الهروب هو الدافع الأكبر.

شخصٌ مثلي، لا يوجع دماغه بالتفكير، ولكنه يعرف الكثير، من الطبيعي مع اقتراب خطوة مهمة، كخطوة الزواج طبعًا، سيرى كل شيءٍ ابن كلب، ولن يترك أمرًا إلا وفصص أباه، وهذا هو الأمر الوحيد تقريبًا الذي طرقتُ فيه بابَ التفكير، مبتعدًا عن معرفتي الربانية بالأمور كافة، وقعدتُ مع دماغي نشرب خمسينة شاي، ونتحدث عن المُصيبة المُقتربة على نحو مُفزِع، والحمد لله لم أرهق رأسي طويلاً، الحوار كان قصيرًا مختصرًا، لا يخرج إلا من محمد عبد القوي، قُلتُ: "لن نتزوج منة، ويحدث ما يحدث!" فأجابتِ النفس اللوامة: "ومنذ متى وأنت يا صاحب العادة السرية، يا من تفعلها في اليوم بالمرات، حتى كاد سائلك المنوي يتحول إلى لبن بودرة من كثرة استمنائك، (كلمة ناقصة) على من تستحق، وعلى من لا تستحق، والمُصيبة، يا عبد القوي، أنك مُقتنع تمام الاقتناع أن أي مخلوقةٍ تملك ثديين وفتحتين بالأسفل، تستحق ولا نقاش في ذلك!"

في الفـترة الأخـيرة، بعـد خـواء رأسي مـن التفكـير، في أسـئلة معينـة، كمـن أنـا وأيـن ذكريـات طفولتـي، بـدأ يحادثنـي شـعورٌ غريـب، يطلـب منـي مثلاً بـدء عمليـة الترقيـم مجـددًا، أو الحديث عـن شـخصيةٍ أثـرت في تكوينـي الفلسـفي، شـعورٌ يتكلـم معـي، كأني خبـيرٌ اسـتراتيجي، أو كاتـبٌ مـن العيـار الثقيـل، يكرهـه زمـلاؤه مثـلاً، لأنـه موهـوب وأعـلى منهـم بمراحـلٍ، في كل مـا يقدمـه إلى جماهـير القُـراء، وهـذا مـا يُدهشـني، لأننـي لم أقـرأ كتابًـا واحـدًا منـذ تخرجـتْ في كليتـي التـي أخـبرني أبي أنهـا كليـة التجـارة، ومـع أننـي لا أتذكـر هـذا أيضًـا، ولكـن مـن الواضـح أننـي مـن وقتِهـا وأنـا والقـراءة أعـداء، وفي كل مـرة نتقابـل، تظـل العـداوة بيننـا، حتـى لـو في صداقتنـا منفعـة لي، ألعـن المنفعـة التـي تحتـاج إلى القـراءة، المُهـم أن يظـل دماغـي صافيًـا، لا يحـرك موضـوعٌ تروسَـه، ولا تزيـح الصـدأ عنـه فكـرةٌ، خاصـةً أننـي أعـرف كل شيء!

طـوال وجـودي في النهـر، وبعدهـا في قـاع النهـر، أشـعر أننـي يتـم تجهيـزي لـشيءٍ مـا، عـن طريـق التأمـل مـع الـذات، وإطـلاق مُسـميات أجهلهـا وتجلهنـي، كأن النهـر صـار جامعـةً خاصـة، تُعلمنـي مـا فاتنـي، لأكـون مُسـتعدًا لمـا أنـا مُقبـلٌ عليـه، وهـو مـا جعلنـي أردد كثـيرًا مـا يـدور في رأسي مـن أفـكارٍ غـير مرئيـة، مجـرد كلـمات ومصطلحـات، نتيجـة اختفـاء الخيـال، والقـدرة عـلى النـوم والأحـلام، وفقـداني للأمـل في خيـالي، كي يسـاعدني عـلى اسـتحضار صـورة، أو ذكـرى، أو أشـخاص كانـوا في حيـاتي السـابقة.

لم يخطـر عـلى بـالي نهائيًـا أن تُسـلَب منـي القـدرة عـلى الخيـال، عـلى بنـاء ممـرات وهميـة، عـلى النظـر إلى امـرأة أمامـي، وبعدهـا

بشوانٍ، أراهـا في سريـري، نتجاسـد ونَسـكَر، وذلـك بفضـل خيـالي المريض، أو الموهـوب، أو العاشـق للسـفالة عـلى نحـو عـام، ولجلـب السـيدات إلى سريـري عـلى نحـو خـاص.

لا أذكـر متـى كانـت آخـر مـرة اسـتحضرتُ فيهـا صـورةَ شيءٍ، وأنـا بكامـل ملامحـي وقـدراتي، وأعتقـد أنهـا منـة، التـي نسـيتُ ملامحَها تمامًـا، التـي كنـتُ أضاجعهـا في خيـالي آلاف المـرات يوميًـا، وفي كل الأوضـاع، وهـا أنـا، وحيـدٌ في قـاع النهـر، دون ملامـح، دون قـدرة عـلى التخيُّـل، دون نـوم لسـنواتٍ، دون حديـثٍ واحـد مـع أي مخلـوقٍ، كنـتُ شـيئًا نكـرةً، تحركـه ميـاه النهـر فـوق سـطحها، وتقريبًـا عـرضَ عليهـا الملـل طـردي مـن السـطح، ورميـي كحجـرٍ صغـيرٍ إلى قاعهـا، فـلا يُجهدُهـا حمـلي، ولا أعكـر صفـوَ سـطحِها الرائـق.

وقـد تزايـد هـذا الشـعور في الفـترة الأخـيرة، الشـعور بنـزول شيءٍ كالوحـي مثـلاً، يُعيـد ترتيـبَ أولويـاتٍ، لم أعهدهـا مـن قبـل، وحـيٌ يُطالبُنـي بصفـاء ذهنـي، بالاسـتعداد لمرحلـةٍ مُرهقـة، بـضرورة الإيمـان بأهميـة دوري، بمسـح فكـرتي الشـخصية عـن نفـسي، والتأهـب لاكتسـاب دور يليـق بمـا سأعايشـه طبقًـا للوحـي، فـلا أحقـر مـن ذاتي، يطالبنـي الوحـي بالكثـير مـن الأشـياء العجيبـة، وبالامتنـاع عـن البـكاء، لأن رجـلاً مثـلي، البُـكاء ليـس ندمـه إطلاقًا! حـذرني مـرارًا مـن دوافـع الشـك، مـع أن الحقيقـةَ المُطلقة الواضحـة، للمُتأمـل في موقفـي، هـي الشـك في هـذا الصـو السـماوي! والاعتقـاد بالخليـل الأكـبر، الجنـون!

شخصٌ قضى عمره هباءً، لا يفعل شيئًا سوى الاستمناء، ومهنته الحقيرة، لا يعجبه التفكير، ولا يؤمن بالتميُّز، ويرى سباق الحياة كذبةً كبيرة، والموت هو الحقيقة الثانية الثابتة، بعد وجود الرب، وكل ما سيفعله في حياته عامةً، سينتهي مع انتهاء وقته، وسينزل معه -وربما لا- إلى قبره، ثم مع الوقت تُنسى، كأنك لم تكُن، قد تظهر سيرتك فجأة في أثناء دور لعبة طاولة، أو خناقة بين زبونين على خطةٍ في شطرنج، فيقول واحدٌ منهما: "الله يرحم أيام محمد عبد القوي، كان يضحك على غباء تفكيرك، ويتعجب أنك لاعب شطرنج أساسًا!"

الخط الفاصل بين ارتباك شعوري تجاه التصديق أو التكذيب، هو أن ذلك الوحي يُعلمني الحياةَ من جديد، من خلال دروس ومواقف، وأسماء لفلاسفة وأنبياء، وكيف تتعامل مع الأمور الشائكة، والحكم والمواعظ، والطبيعة التأملية لساعاتٍ بل ولشهورٍ، وكيفية إدراك الخطأ، ومتى اللجوء إلى أحكام من سبقونا، وهو ما يجبرني على التساؤل، في حياتي كلها، لم يمر عليَّ اسمٌ من الأسماء تلك، ولم أسمعها في المِذياع، فمن أين لعقلي -الذي تتهمه نوازعي بالجنون- بكل هذا العلم؟ تكوين شخصيتي الجديدة يُعجبني الحقيقة، ينسف موروثات الحياة الفائتة، ويُعدني لحياةٍ أكثر متعة وحكمة، ويزرع بداخلي فكرةً رائعةً، فكرة قتل الانبهار!

أن تكون مُستعدًا في أي وقتٍ لظهور معجزة، لنزول الإله إلى الأرض، لصعودك أنت إلى السماء، لتنصيبك من ضمن الملائكة، وقد تكون أنت نائب الإله، لأن الإله الأصلي أصابه الملل من

تكـرار دوائـر البـشر، مـع بعـض التجديـدات في حـدودٍ ضيقـة، فتُـشرف أنـت عـلى الحيـاة، إلى أن يشـتاق الإلـه إلى عالمِـه، فيرجـع مـرةً اخـرى، وتعـود أنـت إلى صفـوف المخلوقـات الضعيفـة، مـع ميـزة في كتـاب حياتِـك، مكتوبـة بأحـرف مـن ذهـب، هـذا الرجـل كان إلهًـا مـن قبـل.

كل مـا قالـه الوحـي عامـةً يُطمئننـي، ويزيـد مـن ثقتـي بـأن شيئًا مـا سـيحدث، وسـأخرج مـن قـاع النهـر إلى الأرض مجـددًا، أو إلى السـماء كأننـي بـوذا، وأقـف في السـماء مثلـه، بوضـع جلوسـه نفسـه، وابتسـامته، ويـده المرفوعـة، التـي تُعلـن للنـاس في بسـاطةٍ: أنـا موجـود، سـلني وسـأعطيك كل مـا تطلبـه!

وربمـا تُفتَـح حفـرةٌ تحتـي، فأسـقط إلى قـاع القـاع، وأكتشـف حيـاةً جديـدةً كليًـا، وأنـواع أسـماك لم نرهـا مـن قبـل، ومخلوقـاتٍ نهريـة، قـد تكـون لهـا لغـة مثـل الإنسـان، أو تتحـدث مثلنـا عـلى نحـو واضـح، فأسـأل السـمكة عـن التوقيـت، لتُجيبُنـي بحسـها المـصري الفُكاهـي: "أي توقيـتٍ تريـده؟" أو "السـاعة واحـدة ورافعـة عيـل" أو لتُضحكنـي أكـثر: "السـاعة الآن!" وقـد تشـخر لي السـمكة ذاتهـا، معللـةً فعلتهـا: "نـازل إلى قـاع القـاع، لتسـألني عـن السـاعة؟ لم يعـد للسـاعة وجـود في عالمـك؟ صحيـح، الإنسـان ابـن قحبـة في العمـوم!"

في النهايـة، ومهـما كانـتِ النهايـة عامـةً، سـواء أكانـتْ سـعيدة أم مأسـاوية، وبلغـةِ أهـل الثقافـة: نهايـة تراجيديـة، لـن يقتلني

شيءٌ في المُطلق، ومهما حاولتُ قتلَ نفسي، لن أفلح، لذلك نترك الأمر لصاحب الأمر، ولتكن نهايتي كما هو مُقرر لي.

هل كل ما قُلتُه الآن، ولسنواتٍ فاتت، منذ المُصيبة التي حلت بنا، أمر حقيقي؟ أم هو الجنون فعلاً؟ وهل فعلاً هناك فيلسوفٌ يُدعى جيل تولوز؟ أم أن عقلي يضربني بأي أسماءٍ، فأتقبل فكرةَ الوحي؟

من أنا. وأين ذكريات طفولتي. ومن الطفل الذي أقتله في أحلامي؟ ولماذا أقتله؟

يا رب.. كفاني عذابًا يا رب.

محيي ابن طاهرة

كل ما يخص نعمة غريب، ملامحُها غريبة، جسدُها مثير وغريب، أحلامُها غريبة، الارتباط العجيب بينها وبين ماكينة الدهان، طريقة تحليلها للأمور، نظراتُها لي حين تريدني، تأوهاتُها وتلذذُها بالممارسة، الروائح التي تجذبها إليها وتسعى خلفها بلا أي خوفٍ، شجاعتُها المُطلقة، نعمة قد تنام بين شواهد القبور، في حين أن الخوف ذاته يقشعر بدنه إذا ما فعلها.

قررتُ التحرك معها خلف تلك الرائحة التي تُزعجها، ولم أسألها عن كنهها، ولا عن سر البقع، باختصار، علاقتي بنعمة هي مُضيّ الأيام، بلا أي تعقيداتٍ، بلا أي دوافعٍ لمعرفة ما فات، وهو ما حوّلها إلى كائنٍ هادئ، بالطبع لن أستطيع إخماد

ثورتهـا، ولكـن الابتسـامة التـي تخـرج منهـا، بشـديدٍ مـن القلـق، وكثـيرٍ مـن الحـذر، كأنهـا إذا ابتسـمت ستسـقط السـماء، ومـع ذلـك، ابتسـامتُها غـير المُتقنـة، الملفوفـة في ورقٍ مـن حـزن، جميلـةٌ إلى حـد مـا، وصادقـة بالنسـبة إلى ابتسـامات كانـت مصطنعـةً في عـالم الزيـف ذاك.

قبـل التحـرك حاولنـا مـراتٍ التخـلي عـن فكـرة سـحب الجهـاز، ولكـن الألمَ الناجـم عـن ابتعـاده عنهـا جعلهـا في كل مـرةٍ تسـقط أرضًـا وتبـكي بشـدة.. عجـزتُ عـن تفسـير الظاهـرة، وطلبـتْ منـي عـدم تكـرار المحاولـة، وكانـتِ المـرة الأولى -منـذ قابلتُهـا- التـي تتوسـل إليَّ، وتُقسـم إنهـا مسـتعدة لسـحب الجهـاز بنفسـها، ولو إلى آخـر الدنيـا، المهـم أن يتوقـف الألم، وهـو مـا رفضتُه، وعرضـتُ عليها سـحبَ الجهـاز طـوال الرحلـة، مقابـل اهتمامهـا هـي بالمُتعلقـات، وهـو مـا أحبتـه جـدًا، ووعدتنـي بمضاجعـةٍ لـن أنسـاها حـين نصـل إلى المـكان المنشـود.

مسـيرتُنا كانـتْ مُعقـدة، نعمـة تُقسـم إن مصـدرَ الرائحـة يقودهـا إلى رحلـةٍ قـد تضطرنـا إلى عبـور نهـر النيـل، للوصـول إلى أرضٍ خصبـة تحمـل فوقهـا مصـدر الرائحـة الممـزوج برائحـة الطمـي والقـاذورات، وهـو مـا جعلنـي أمـام اختياريـن، أن أفصـحَ لهـا عـن خـوفي مـن أي ميـاهٍ تسـير في مسـاحةٍ أعجـز عـن حصرهـا، سـواء كان المقصـود بحـرًا أم نهـرًا أم بحـيرةً حتـى، أو أن أُكمـل مسـيرتي معهـا، وليحـدث مـا يحـدث، والحقيقـة لـن أهـز صـورةَ البطـل المرسـومة في عينيهـا، الرجـل الـذي يفعـل كل شيء، وأي شيء.

سـألتُها عـن بُعـد المسـافة، فقالـتْ: "بعيـدةٌ يـا محيـي"، نصحتُها بتعزيـز غريـزة البقـاء، وضرورة الاكتفـاء بمـا نحملـه، وتنـاول مـا يبقينـا عـلى قيـد الحيـاة، مـع الوضـع في الاعتبـار إمكانيـة العثـور عـلى مـؤنٍ في أثنـاء سـيرنا، فكانـتِ المفاجـأة الأكـبر، لمـا صفعتنـي بهـا، وقالتْهـا صريحـةً واضحـة: "دعنـا نبحـث عـن مـكانٍ نجـد فيـه قاربًـا أو مركبًـا نسـير بـه وسـط النيـل، حتـى نصـل إلى وجهتنـا، الأمـر سـيكون مُسـتحيلاً إذا مـا قرنـا السـعي سـيرًا عـلى الأقـدام"، التفكـير في مـا أنـا مُقبـلٌ عليـه يتجـاوز فكـرة الخـوف أو الرهبـة مــن الموقــف، الفكـرة تتمحــور حــول الفُــراق، الواضــح لنعمــة أننــي أحبهــا، الواضـح لنفـسي أننـي أبحـث عـن رفقـة، أجهدتنـي الوحـدة، ولـن أعـود إليهـا بمحـض إرادتي لمجـرد أننـي أخـاف مـن المـاء السـائر.

أقـرب الأماكــن للنهــر مــن شــقتي برمســيس هــو الكورنيــش الموجـود ناحيـة التحريـر، وهـذه المنطقـة بـكل مـا فيهـا، مـن طـرقٍ وكوبــري أكتوبــر، ومبنــى الإذاعــة والتليفزيــون، وكــثرة المراكــب الواقفــة هنــاك، الشــاهدة عــلى كل شيءٍ منــذ البدايــة، المنتظـرة لشـخصٍ يُحركهـا، فترجـع لفتنتهـا التـي خُلقـتْ مـن أجلهـا، أن تمخُـرَ في دلالٍ وفي ثقــةٍ.

مشــينًا كثــيرًا، ســبَّتني نعمــة لأننــي جاهــل بأصــول القيــادة، وقالـتْ: "يـا ليتـك تعـرف ركـوب السـيارة! لكنـك تعـرف ركـوب نعمــة ومؤخـرة نعمــة فقــط!" عنــد وصولنــا إلى مــرسى المراكــب، قالـتْ نعمـة: "محيـي، في أحلامـي الكثـيرة، رأيـتُ تلـك اللحظـة، أخبرتنـي في الحلـم أنـك تخـاف المـاء، وحذرتُـكَ أنـا مـن وجـودِك

على اليابسة، لأنني أرى الأرض تتشقق، وتختفي الطرق، ستصير المدينة بلا طرق يا محيي، البنايات والبيوت ستصبح أشكالاً متجاورة، لن يقدر الشخص على المشي إلا فوق البنايات عامةً، لأن لا وجودَ لأي طريقٍ على الأرض، وستبتلع الأرض كل الجالسين أو الواقفين عليها، محيي، بمجرد أن تسير بنا المركب، لن نصعد إلى اليابسة مجددًا!"

حلمٌ غريبٌ من أحلامِها، كدتُ أضحك لولا ذكرها لمسألة خوفي، خصوصًا أنني لم أخبرها، عصرتُ ذاكرتي لأسترجع متى أخبرتُها بالأمر، ولكنني أيقنتُ بعدم بوحي لها! وفي أثناء صمتي بعد حديثها الغريب هزت رأسَها، أمسكت بيديَّ، وعدتني ألا تتركني، مهما حدث في النهر ستكون هي القشة التي تنقذني، يد الله الممدودة في كل وقتٍ. نظرتُ إلى النهر، إلى الخوفِ الذي يناديني، إلى الموتِ الذي يغني فوق رأسي، إلى كل مرةٍ رفضتُ فيها الاقتراب، إلى كل متعةٍ فاتتني، لمحتُني في الماء، أغرق ونعمة تضحك على منظري، تتلاعب بي، تضحك على غبائي وأنني صدقتُها، تقول لي: "وهل من الممكن أن أنقذ رجلاً؟ يا جدع! قل كلامًا غير هذا!"

في حالتي، ولأن خوفي مجهولٌ، مثلما أنا مجهولٌ، وأجهل كيف زارني هذا الرهاب، قُلتُ لها بكل ثقةٍ: "أنا آسف يا نعمة، مسيرتنا واحدة، وطريقُنا اثنان"، لم تزد عن كلمةٍ واحدة "جبان!" نزلت إلى المرسى، واختارتْ أصغر المراكب حجمًا، فك الحبل، وجدت مجدافًا واحدًا فقط، بدأتْ رحلتها، أراقبها من فوق، من السور المعدني، من موضع الأمان بالنسبة إليَّ،

أشاهدها وهـي تبتعـد، لم تنظـر إلى الخلـف مـرةً واحـدةً، ابتعـدتُ أنـا الآخـر، وليـت ظهـري للنهـر وللخـوف، للمـوت وللقلـق، مشـيتُ تجـاه الـلاشيء، أحـاول اسـترجاع أيامـي معهـا.

ولأن نعمـة كانـتْ تقـول دومًـا: "مباركـةٌ أنـا يـا محيـي، كـما أخـبرني المـلاك"، ولأننـي صراحـةً لم أصـدق تلـك القصـة، أعـرف أن البنـتَ فيهـا شيءٌ لله، وهـذا واضـح مـن طريقـةِ عثورهـا عـليَّ، ومـن سـعيها الآن خلـف مخلـوقٍ آخـر، ومـن الممكـن أن يكـون رجـلاً، يبـدو أن أنفَهـا يجتـذب روائـحَ الرجـال، أو أنثـى مثـلاً، وفي كلتـا الحالتـين لا مانـع لديهـا، فقـد أخبرتنـي عـن ممارسـة الجنـس مـع جـارةٍ لهـا في المنطقـة، لذلـك نعمـة هـي المُسـتفيدة في كل الأحـوال!

رغـم كل مـا قُلتُـه، وكل مبـادئ حيـاتي، فإنـه مـن الواضـح صـدق نعمـة في نبـوءة انشـقاق الأرض، ولا أعتقـد أنهـا كانـتْ تُبالـغ لتجـبرني عـلى الركـوب مثـلاً، لذلـك قـررتُ البقـاءَ في منـزلي، إلى أن يحـدثَ الأمـر، أو لا يحـدث نهائيًـا، وقتَهـا سـتعثر نعمـة عـليَّ مـن جديـد، وسـأقول لهـا بصـوت الواثـق، وبنـبرة المؤمـن الـذي لا يخـاف: "كذبتُـكِ غرقـتْ في النهـر معـكِ يـا نعمـة، مُباركـةٌ أنـتِ إلا في مـا يخـص النـاس، كل مـا يتعلـق بـكِ ترينـه، وكل مـا لا يتعلـق بـكِ لا عهـدَ لـكِ بـه".

سـمعتُ صوتَهـا مـن بعيـد، تـصرخ، تبـكي، تنـادي عـليَّ، تجـدف بسرعـة، تشـير إلى الجهـاز الواقـف بجانبـي، تسـتعطفني أكـثر كلـما اقتربـتْ، تكررهـا في الصمـتِ المحـاوط لنـا: "الجهـاز يـا محيـي، الألم يقتلنـي، حاولـتُ تجاهـلَ الأمـر، لا أسـتطيع، ابـن القحبـة هـذا

سيقتلني، يا محبي، خيّرتُك في البداية ولم تختريني، والآن لا وجود للاختيارات، ستسير خلفي بمركب أكبر وبحوزتك الجهاز، وإلا صعدتُ وقتلتُكَ حالاً!" ابتسمتُ لها، تمامًا كما أفعل في كل مرةٍ تراني، وقُلتُ لنفسي إن الحياةَ عامةٌ لم تعطِني فضيلةَ الاختيار على نحو عام، إنسانٌ مُسيَّر، تخبره امرأةٌ بحنقٍ بالغ بوجوب سيره معها، دون أي رفضٍ، دون أي تفكيرٍ، دون أي تعليقٍ، رجلٌ مثلي لم ينعم بحياةٍ يريدُها، هل سيعترض على تهديدٍ خرجَ من أنثى يقتلُها الألم؟

تسعة أشهر من الدهشة الأولى

العامة

إعادة تدوير الحياة

اجتماع اليوم، الذي طالبَ به عددٌ من السُفراء، أولهم السفير العام، ووافق صاحب الأمر على مضضٍ، كان لسببٍ لا يحتمل التأخير، وآمن كل العارضين بما فيه من خير، ليقفوا خلف السفير العام داعمين، الذي بدوره تشجع وعرض الأمر في أقل عدد من الجمل، فلا يُزعج صاحب الأمر: "سيدي الرئيس، منذ معرفة الناس بخبر القيامة والكل في منازلهم يتعبدون، يرفض الموظف الذهاب إلى عمله، والفلاح إلى أرضه، الطبيب يترك المرضى يموتون، الحياةُ بالخارج توقفتْ تمامًا، وهناك

انخفـاض مُرعـب في المـوارد، النـاس مـن الصدمـة نسـوا أهميـة الأكل والـشرب، اللقمـة تكفيهـم، وشربـةُ مـاءٍ ترويهـم.

إذا مـا انقطعـت الكهربـاء ليـس هنـاك مـن يُصلـح الأمـر، وإذا اختفـى كل شيء قـد نحتـاج إلى فـتراتٍ طويلـة مـن العمـل لإعـادة تدويـر الحيـاة، لا زراعـة ولا فلاحـة، لا تجـارة ولا صناعـة، يجـب تنبيـه النـاس لمـا نحـن مقبلـون عليـه، ويمكننـا أن نقسـم العمـلَ عليهـم، فنحـن لا نحتـاج إلى قوتنـا العماليـة كافـة، بـل نحتـاج إلى ما يسـاعد عـلى الحيـاة، بمنتهـى البسـاطة، نحـن نريـد الأكل والـشرب والعـلاج، وبعـض المحـال لمسـتلزمات البيـوت مـن بضائـع عامـة، ومسـتحضرات تجميـل وأدوات للنظافـة الشـخصية والشـخصية جـدًا كـما تعلـم، سـنتعبد ونسـتعد ليـوم القيامـة، ولكـن هـذا لا يعنـي أن نمـوتَ جوعًـا، أو يبـكي طفـلي مثـًلا لأنـه يريـد حلـوى، وأنـا أعجـز عـن تلبيـة طلبـه، هـذا ليـس عـدلاً يـا سـيدي الرئيـس، وقـد جئنـا اليـوم لمعرفـة رأيـك، وإذا وافقـتَ سـنعرض عليـك خطـة توزيـع العمـل، وعـرض الأمـر عـلى النـاس!"

ولأن صاحـبَ الأمـرِ رأى في كلامِـه نسـبةً مـن الصـدق، ولأنـه -بينـه وبـين نفسـه- تذكـر المُعانـاة التـي شـهدها بنفسـه، حـين طلـبَ مـن خـدم القـصر كـوبَ شـاي، فعرّفـوه أنـه لا وجـود للشـاي في القـصر أو في مـكانٍ قريـب. طلـبَ صاحـب الأمـر مـن السـفير العـام توضيـحَ خطتـه، مـع التصويـت في نهايـة الاجتـماع عـلى مـدى فعاليـة المطـروح، وهـل سـيرضى الشـعب أم لا، ومـا الخطـط البديلة لمكافحـة شـغب الرفـض.

ابتسم السفير العام، وعرف من متطلبات الرئيس أن موافقةً حتميةً واضحةٌ في كلامه، ما جعله يُسرع في عرض الخطة: "سنعيد الحياةَ على نحو معقول، قنوات محددة في التلفاز تعرض الأخبار والتواشيح الدينية، وكل ما يخص ديانات الدولة المُختلفة، وستعمل المسارح من جديد لتقديم العروض الدينية والحكم والمواعظ، كما اتفقنا من قبل على عودة المسارح، ولكننا توقفنا بسبب القيامة وتأكُّد الناس من اقترابها، وستعمل المسارح على تقديم المُفيد فقط، القصص والحكايات والموعظة، كنوعٍ من أنواع الراحة للناس، سواء نفسية وذلك لأن المعروضَ غير مخالف، أو جسدية، لتوقفهم عن العبادة قليلاً، فيشحنون طاقتهم!

وفي مجال العمل، سنرسل في كل شارعٍ حارسًا مجددًا، كما فعلنا في أمر الإعلان عن وجود رسل الخير، يطلب من الناس فتح التلفاز لأمرٍ ضروري، فكما تعلم الجميع الآن في خانة التعبد فقط، ولنُحركهم نحتاج إلى وسيلةٍ تجمعهم كلهم، لسهولة توصيل الرسالة، فلا نجد صعوبةً في عرض الأمر.

سنوجه الكلام بشيءٍ من الحُزن العام، بلمسةٍ درامية تصيب القلب، فلا يرفض السامع ولو كان عاجزًا عن السمع!

سنناشد الفلاحين والتجار وأصحاب المحال والخبازين، وسنخصص أماكن بعينها يستطيع الناس التوجه إليها لشراء ما يحتاجون إليه من عرباتٍ بها ما تم إنتاجه، وسنعلن للناس طبعًا عن أماكن العربات الواقفة، وعن تشغيل سلسلة محلات

كُـبرى في كل محافظـةٍ للـشيء نفسـه، الأكل والـشرب والبضائـع الحيويـة، البضائـع التـي يحتـاج إليهـا النـاس، ومـن يريـد الذهـاب والـشراء، فأهـلاً بـه، ومـن يريـد المكـوثَ في البيـت متعبـدًا، هـو حُـر! في النهايـة، لا يصـح سـيدي الرئيـس أن أدخـل حمامـي فأجـده بـلا صابـون، وأزيـل عنـي العـرق بالمـاء فقـط!

وطبعًـا سـيدي الرئيـس، نحتـاج إلى رجـال الديـن، صوتُهـم دومًـا مسـموع، سـيكون الإعـلان عـن طريقهِـم، سـنختار شـيخًا وقسًّـا، كلاهـما عـلى قنـاةٍ مُختلفـة، كلاهـما يعـرض الأمـر مـن ناحيـة دينيـة، كـما فعلنـا مـن قبـل، وجعلنـا النـاس يؤمنـون بفضيلـة الفقـر ويرمـون الأمـوال في الشـوارع، ويرفضـون رواتبهـم مقابـل دخـول الجنـة، وحجـة الفقـراء يدخلـون الجنـة كانـت ناجحـةً، وشـالتْ مـن فـوق رؤوسـنا حمـلاً نحـن في غنـى عنـه! مـا رأيـك يـا صاحـب الأمـر؟"

تدخـل الرسـول الأكـبر لمـا لاحـظ صمـتَ صاحـب الأمـر، وقـال لـه: "بعـد إذن سـيادتكم سـيدي الرئيـس، الخطـة هائلـة، لكـن إذا وضعنـا في الخطبتـين جـزءًا خاصًـا بحـرق الكتـب الموجـودة في البيـوت، سـيصدق النـاس أننـا فعـلاً نبحـث عـن فعـل الخـير ونريـد لهـم دخـول الجنـة!"

وقَّـع صاحـبُ الأمـر الموافقـةَ عـلى القـرارات، وقبـل رحيلـه سـأل سـؤالين، أولهـما: "مـاذا لـو رفضـوا؟" وكانـتِ الإجابـة واضحـةً تمامًـا كوضـوح سـؤاله: "سـيتدخل رُسُـل الخـير في الأمر، كلمتُهم مسـموعة"، وثانيهـما: "ومـن المُتسـبب في افتضـاح الأمـر؟" فلـم يجـب أحـدٌ.

ابن طاهرة

في إضعاف معتقدات الناس مسبة لهم ولمن سبقوهم، وفي محاربة فلسفة رجال الدين جريمة، تقتلُ صاحبَها ولو كان على حق! وقد يختلف الأمر إذا ما وقف رجلٌ، يظنه الناظرُ إليه المسيح، وما نعنيه باختلاف الأمر هنا هو التريث في الاستماع إلى كلمات يكرهها المتلقي، ومع ذلك يقبل بدقائق إضافية، بسبب حكمة الناطق بها.

بعد توقف الحياة، واقتصار دور البشر على العبادة والصلاة لرب البشر من أجل دخول الجنة والملكوت، ولطرد الشيطان بعيدًا عنهم، الشرير الذي لا يفهم ما حل بهم، ولا يُدرك ما حدث للمدينة وللعالم الذي يعرفه جيدًا، نزل محيي ابن طاهرة إلى مقر عمله في الكاتدرائية، ليتحدث إلى أي شخصٍ، ويستفسر عن سبب تزايد الكتب المُرسلة، وعن سبب إرسال الكتب الدينية وكتب الوعظ فقط، ولكنه فوجئ بخلو المقر من الناس! لم يجد إلا رجلاً يحرس المكان نظريًا، لأنه عمليًا يتعبد ويطلب من الله الغفران والصفح، ولما اقترب منه محيي، لم يتحدث إليه، وقبل أن يتحولَ إلى بركانٍ ثائر ليحرق جسدَ القاعد بنار سبابٍ لا تُخمَد، لمح بولس الرسول يركض تجاهه، يسأله بصوتٍ مبحوح إذا ما انتهى من الكتب المُرسلة، لأنه سيرسل أكثر من ذلك يوميًا، ويعتذر له عن هذا الضغط المُفاجئ، فالناس الآن أقرب إلى الرب، ولا يريد أحدٌ قراءة أي

سخافاتٍ، إلا الكتب الدينية والوعظ والعبر، ومعرفة مصائر السابقين.

مشى بولس برفقة محيي، يرافقه إلى بيته، يخبره عن تغيُّر الأحوال تمامًا، وعن المدينة التي صارت المدينة الفاضلة الساكنة، وكيف نسي الناس الوظائف والأكل والشرب، كلهم دخلوا في حالةٍ من التقشف، دخلوا في خلوةٍ روحانيةٍ مع الرب، كأنهم المسيح حين ذهب إلى البرية، وصام أربعين يومًا، قبل عودته إلى مدينة الجليل لنشر دعوته!

"اسمعني يا محيي، أنت تجهل الحربَ التي نواجهها، حرب الكينونة، كلما تحدثنا إلى كاتبٍ أو واعظٍ رفض طلبنا، والحجة واحدة يا محيي: القيامة تقترب، دعوني أعمل شيئًا لليوم الأخير! رجال الكنيسة كلهم اجتمعوا، وقالوا إنها فرصةٌ ذهبية لإعلاء شأن الدين المسيحي، والحقيقة يا محيي، أنا أحمد الله على مجيئك اليوم، ذلك لأنني كنتُ سأزورك عاجلاً أم آجلاً، ولكن قبل أي شيءٍ، لديَّ سؤالٌ وأرجوك جاوبه بكل صراحة، هل أنا صديقٌ مقرب إليك؟ هل أتعشم فيك خيرًا، وأحدثك عن الأمر؟ أم أننا مجرد زملاء؟"

لم يفكر محيي كثيرًا في إجابته، فبولس وطاهرة هما أقرب شخصين إليه، طاهرة التي يعاملها كأمه، وبولس السعيد دومًا بقربه وبوجوده، كما أنه لم ينسَ اليومَ الذي وقف بجانبه حين طلب من سفراء الحكومة الجلوس في مكانٍ بعيدًا عن النهر الذي يخشاه محيي، وكيف ساعده في اقتناء الكتب الممنوعة،

بجسارةٍ وشجاعةٍ، كل ما همه هو مساعدة المسيح، ولم يهتم لتهديدات الحكومة!

ربت على كتف صديقه، ليخبره بولس بمصيبةِ حياته: "اسمعني يا محيي، مجلس كنسي كان على وشك الجلوس معك، طلب رجلٌ عزيزٌ يحبك وتحبه أن أتكفلَ أنا بالأمر، الحقيقة هو طلبَ مني تمهيد لأمر لك، وأنه سيتحدث بنفسه إليك، ولكني طلبتُ منه القيام بكل شيءٍ، لأن أحدنا يعرف الآخر منذ مدة، وهذا شرفٌ لي والمسيح الحي، ولأنني رجلٌ يحبك ويحترمك كثيرًا، سأخبركَ بطلب المجلس الكنسي، دون مقدماتٍ، أنت تعرف جيدًا، أن هذه الفترة حرجة، صعبةٌ على الجميع، الناس يعبدون في هذه اللحظة ما قد يدخلهم الجنة وليس الله، لذلك وجد المجلس الكنسي أنها أعظم فرصة لنا، أن نثبتَ مدى صحة وقوامة ديننا، ونحارب ضلالة الآخرين، عن طريق ظهورك كمعجزة، معجزة ظهور المسيح الحي!

وقبل أن تُقاطعني أو تسبني أو حتى تقتلني، أنت لن تفعل شيئًا سوى الظهور فوق سطح بيتٍ، ثم سنقوم نحن بالبقية، سنجعل رجالنا بالأسفل يصرخون باسمك فينظر الناس جميعًا إلى أعلى مُهللين، ثم تختفي داخل شقة، لن يقدر على فتحها أي مخلوقٍ، بالطبع لأن الحشدَ سيصعد فوق السطح، ليروك حيًا أمامهم، بعدها سينتشر الخبر، سيسمع كل شخصٍ، سيصدق الناس الأمر، لأن القائلَ بحدوثه ليس شخصًا واحدًا، أو شخصين قريبين، الأمر ظهر للكثير، وفي اجتماع الكل على رأي قوةٌ وصدق، فلا يشك أحدٌ في ما قيل! ثم إننا سمعنا خبرًا عن

احتمالية رجوع الإذاعة والتلفاز إلى العمل، وهذا معناه مساعدةً أسهل وأسرع لانتشار الذي نرجوه! لن أطلب منك الرد على ما عرضته عليك، ولكن أتمنى أن ينتهي الأمر معي، لأن المجلسَ إذا تدخل -وأتمنى ألا يحدث ذلك- ستغضبُك طريقتهم جدًّا يا محيي".

وصلا إلى بيت محيي برمسيس، انسحب بولس قبل أن يخبر محيي بوجود ضيفٍ غير مرغوب فيه بمنزله، صعد محيي إلى الشقة مهرولاً، فتحتْ له طاهرة، أخبرته بوجود شخصٍ ينتظره بغرفته، وهو ما تعجب منه محيي، محيي الذي لا يعرفه شخصٌ ولا يزوره، دخل محيي ليجد الأنبا بطرس، يقرأ كتابًا من مكتبة محيي، ولما رآه ترك الكتاب مبتسمًا، وقال له إن طاهرة هي التي طلبتْ منه الجلوس بغرفته، وذلك لأنها كانت تنظف بالخارج. لم يكن تركيز محيي متابعًا لما يقوله الأنبا، بل للكتاب الذي تركه، ثم ارتكاز الأنبا على صف الكتب المرصوصة أرضًا.

لم ينطق محيي بكلمةٍ طوال وجود الأنبا بغرفته، لم يسأله الأنبا عن حديث بولس إليه، أو عن رأيه في المعروض، تطرق الأنبا إلى الأمر من زاويةٍ مختلفة تمامًا، فقالها له صريحةً: "قبل مجيئي إلى هنا، ترددتُ كثيرًا، كنتُ في حيرةٍ من أمري، كيف سأقنعُك إذا ما رفضتَ، لكنني تذكرتُ حين جئتَ أنت أولاً، وعرضتَ علينا ما سيفيد الديانة المسيحية، ولصدق نواياك يا محيي، ودون أي زعلٍ، رُفِضَ طلبُك لمدى حساسية الأمر، ولكن

دائمًا ما يباركُنا الرب بعطاياه، فقد فكر المجلس في الاستفادة منك، وأعتقد أن بولس صديقك قد عرض عليك الأمر.

صدقني يا محيي، منذ معرفتي بطلب المجلس الكنسي، وأنا من يومها أفكر في منطقٍ يساعدني على إقناعك، ولكن يبدو أن الرب يساعدني في مهمتي، وها أنا، أقف أمام نسخةٍ من ابن الإنسان، أقول له بنبرةٍ ودود، يتخللُها شيءٌ من الجدية بضرورة تقبل المهمة، وإلا ستكون العواقب وخيمةً".

رفع الأنبا كتابًا إلى وجه محيي، فتحه أمامه وبدأ في قراءة العنوان: "وليمةٌ لأعشاب البحر، الرواية التى على رأس قائمة الإعدام، تخيل معي يا محيي، الموقف كالتالي، رسالة صغيرة إلى الحكومة، أقصد إلى السفارة العامة، أو إلى رسولٍ من رسل الخير، مع دليلٍ قاطع، عن وجود خائن، جلس مع سفراء الثقافة، وعرف الكتب المطلوب حرقها، ومع ذلك يحتفظ بالقائمة كلها في بيته، الحقيقة يا محيي هذا الموقف سيجعلني أطلب منهم ضرورةَ تفتيش بيوت العاملين بالنشر، قد نجد عاشقًا للكتب المُحرمة مثلك، وفي وقتنا هذا، العقوبة صارتِ الإعدام حرقًا، نحرقُ المُذنبَ بنار خطيته، وأنتَ هنا تملك كل الخطايا، كأنك يا محيي، يا شبيه ابن الإنسان، تريد أن تحملَ عنهم الخطايا مجددًا، لكن هذه المرة، لن تُصلَب، بل ستُحرَق.. ولأنني رجلٌ لا يعترف بقيمة الوقت، أعني قيمة الوقتِ للتفكير في أمورٍ هامة، أطلب منك إخباري والآن بقرارك تجاه ما عرضناه عليك، هل ستصير معجزتنا؟ أم مسيحًا محروقًا في عالمِنا؟"

مـن القصـص غـير المعروفـة عـن المسـيح، ويمكـن مُناقشـة الأمـر بأنها قصصٌ معروفـة، ولكـن لا ينشرهـا الجميـع، هـو أنـه في بعـض الأحيـان كان يتـصرف كالبـشر، ابـن الإنسـان المُقـدس في السـماء والأرض، كان مثـلاً يُظهـرُ التأفـفَ ونفـادَ الصـبر تجـاه تلاميـذه، الذيـن يجـدون صعوبـةً في فهـم تعاليمـه مبـاشرةً، وقـد يسـألون مـرارًا وتكـرارًا عـن كنـه الحكمـة مـما قالـه، وهـذا مـا يجعلنـا هنـا نعـرض موقفًـا مشـابهًا لمشـادة حدثـتْ بـين المسـيح وتلميـذه الحـواري بطـرس، حينـما كان يتحـدث المسـيح عـن عذابـه وعـن وجـوب رفضـه مـن قِبـل الشـيوخ والكتبـة ورؤسـاء الكهنـة، وعـن قتلـه بعدهـا، ولكـن لم يكـن بطـرس راضيًـا عـن حتميـة حـدوث هـذا، وطلـب مـن المسـيح الابتعـاد عـن تلـك الفكـرة تمامًـا، فـما كان مـن المسـيح إلا أن صرخ بـه: "اذهـب عنـي يـا شـيطان، أنـت معـثرة لي! لأنـك لا تهتـم بمـا لله ولكـن بمـا للنـاس!"

مـا فعلـه محيـي بعدهـا أنـه سـحبَه مـن ياقـة قميصـه، وطـرده خـارج البيـت، وصرخ هـو الآخـر مـن خلـف البـاب: "اذهـب عنـي يـا شـيطان! إنـك تهتـم بصـورة الديـن وليـس بخالقـه!"

المشـادة التـي وقعـت بـين المسـيح وبطـرس، صُلـبَ المسـيح بعدهـا بثلاثـة أشـهر، ومـع تشـابه الموقـف والأسـماء، ومـع تشـابه محيـي والمسـيح، وخطايـا العـالم ثابتـة، تختلـف أشـكالها، سـأل محيـي نفسَـه بصـوتٍ عـال: "إذا حُـرق المسـيح حيًـا ولم يُصلَـب، هـل كان سـيظل موقفـه ثابتًـا؟ إلهـي.. إلهـي لا تتركنـي كـما تركتـه!"

العامة

أذان الخُبز

بعد سماع الناس لنداءات الحُراس في مختلف المحافظات، وأمام كل تلفاز جلسوا سكوتًا، يريدون معرفةَ الأمر الهام، وبين كل ثانيةٍ وأخرى تظهر ابتسامةٌ خفيفة على وجه أم أو طفل، كعلامة شكر على تجمعِ العائلة، بعيدًا عن العبادة طوال الوقت، وبعيدًا عن قلق الموت، وعن جمع أكبر قدر من الحسنات، وفي الوقت ذاته، رب الأسرة يتابع في صمتٍ، يطالب أفرادَ المنزل بالهدوء، والبُعدَ عن الملذات والترفيه ولو مؤقتًا، فالوقت لم يعد في صالحهم، وكل ما تبقى من أشهرٍ، هي المُهلة الحقيقية لكل محاولة غرضها الفوز بالجنة أو غفران، وفي أسوأ الأحوال، بأقل قسط من العذاب.

التنبيه كان واضحًا، القناة الأولى للمُسلمين، والثانية للمسيحيين، والثالثة لما هم غير ذلك، وغير ذلك تعني اليهودي والمُلحد والربوبي، وأي ديانةٍ أخرى، حتى لو كنتَ عابدًا للخبز، وهو الأمر الذي كان يرفضه صاحب الأمر في البداية، ثم أقنعه المُتحدث باسم الأزهر أن حريةَ الديانات أمرٌ سيزيد من رصيد محبتِه في قلوب السامعين.

ولإقناع الشعب برجوعهم إلى العمل، وتقسيم اليوم ما بين خدمة الناس وخدمة الرب، كان لا مفر من خطبةٍ تجبر الملائكة على النزول من السماء للعمل مع البشر على الأرض من فرط الحماسة وصدق ما قيل فيها، ولأن الدينَ سلاحٌ، لا

تحيد رصاصاتُه عن الهدف، كانتْ كل خطبةٍ، خرجت إلى طائفةٍ مُحددة، كفيلةً -وهذا وفقًا لرأي صاحب الأمر والسفراء- بإرجاع الناس إلى حقل العمل من جديد.

فنجد الأنبا بُطرس، الذي خرج على القناة الموجهة للمسيحيين، بدأ كلامه بشكر الرب على كل النعم، ثم جذب الناس بسؤاله: "ومن العامل الأول يا أحباب الرب؟ نعم، الرب! اسمحوا لي يا أحباب يسوع بالكلام عنه بأبسط العبارات، وهو ليس تقليلاً، بل أريد أن يفهمَ الناس كلامي، الرب هو أول من عمل، وقال عن عمله بنفسه حسنٌ جدًا، بعدما خلق الأرض في ستة أيام، الرب كان عاملاً، يُفكر ليلاً نهارًا في كل شيءٍ لينتج لنا الجوهرةَ المكنونة التي تُعرف بالدنيا، وكيف أنه زرع لنا قبل مجيئنا، فجئنا لنجد الفاكهة والخضراوات، الصناعة والهندسة، فهل يا أحبابي ويا أحبابه نجحد كل ما فعله لنا، ولا نشكره على نعمه، ولا على نعمة سماحه لنا بمعرفة الغيب، ولا على نعمة إعطاء الفرصة لنُكفر عن خطايانا، ونبقى في بيوتنا؟ نترك الأرض التي عمرها الرب من قبلنا؟ نترك الإنسان الذي فضَّله على سائر المخلوقات يموت جوعًا؟ نترك الطبيعة القديمة (الجسد) بلا قوتٍ؟ ونترك الطبيعة الجديدة (الروح) بلا فرح؟ من نحن من الأب، وعظمة الأب، كي نتوقف عن العمل؟ أيُعقل أن يعملَ الأب، من أجلكم، وفي النهاية تنكرون كل هذا؟ وتتعبدون فقط ليرضى عنكم؟ وأين العمل؟ وماذا لو مات أحدكم جوعًا؟ وماذا لو عاز شخصٌ الدواءَ؟ وماذا

لـو سـقطتْ عجـوزٌ مغشـيةً عليهـا، لأن الـكلى تحتـاج إلى غسـيلٍ؟ الأسـئلة كثـيرة يـا أحبـابي، ولكـن العمـل الـذي ينتظرنـا أكـثر".

فيغـيِّر المسـيحي المُخلـص القنـاة كي يـرى مـا يقوله الشـيخ لأخيه المُسـلم، وكيـف تـم ربـط كل شيءٍ بالديـن، فيجـد الـكلام نفسـه، بآيـاتٍ وذكـرٍ مـن الديـن الإسـلامي، والـكلام عـن الجـوع والجسـد والـروح، وخلـق الله للدنيـا، فيسـد أذنـه، حتـى يصـل إلى المطلـوب في النهايـة: "ننتظركُـم يـا أحبـاب الله ورسـوله، بـدءًا مـن الغـد، بالنسـبة إلى محافظـة القاهـرة، في ميـدان التحريـر، وبالنسـبة إلى محافظـة الإسـكندرية في ميـدان محطـة الرمـل، وبقيـة المحافظـات حتـى لا أطيـل عليكـم، بعـد الخطبـة سـتظهر عـلى الشاشـة أحبـائي الكـرام، ننتظركـم في الميادـيـن العامــة، للحصــول عــلى اســتمارة التعيـين، وكـما قلـتُ في بدايـة حديثـي، لا نحتـاج إلى خـبراتٍ، الخـبرة نحتـاج إليهـا في المجـال فقـط، وأصحـاب الخـبرات لهـم رقـم هاتـف، سـيتواصلون معنـا مـن خلالـه، نريدكـم أن تسـاعدونا عـلى تشـغيل الحيـاة مـن جديـد، وحتـى لا يغضـب أحدكـم، أو يقـول نمنعـه عـن ذكـر الله، سـتعملون يومًـا وترتاحـون يومًـا، وهـذا يعنـي نصـف الشـهر للعبـادة الخالصـة، ونصفـه الآخـر للعمـل، ولإنقـاذ البـشر مـن كارثـةٍ محققـة، وهـذا في ميـزان حسـناتكم، ولا تنسـونا مـن فضـل دعائكـم يـا أهـل الخـير، وقبـل أن نُنهـي حديثَنـا الرائـع معكـم، نُذكركـم بـأن رُسـلَ وحُـراس الخـير سـيدخلون بيوتكـم -بعد إذنكـم طبعًـا- للتخلـص مـن كل الكتـب التـي تدعـو إلى الرذيلـة، نحـن نريـد ضـمان الجنـة لكـم! والسـلام عليكـم جميعًـا يـا أهـل

الجنـة بـإذن الله ورضـاه! ولا تنـسَ أخـي المواطـن انتظـارَ الشاشـة الخاصـة بأماكـن التعيـين".

وفي طبـاع البـشر مكـرٌ، يعـرف الإنسـان متـى يسـتخدمه، وخاصـةً لحـث أخيـه الإنسـان عـلى الطاعـة، فمتـى سـمعتَ أن اللهَ يعمـل، سـيصيبك الحـرج، وسـتفكر في طـرق تُسـاعدك عـلى الرجوع إلى العمـل لأن اللهَ يعمـل، وفي الوقـت ذاتـه، سـتبحث عـن طـرق، تقيـك النـار وعـذاب النـار لأن اللهَ يـرى، وطـوال الوقـت، سـتدرك أن قـدرَ الإنسـان الشـقاءُ، وقـدرَ الفقـيرِ الشـقاءُ والفقـر، لأن اللهَ يُحـب الـكل عمومًـا، والفقـراء خصوصًـا.

بعـد إذاعـة البيانـات، وبعدمـا تأكـدَ الرئيـس مـن مـدى فصاحـة وبيـان الخُطـب، راجـع الأوراق التـي تركهـا لـه السـفير العـام، تقسـيم المناطـق والمُحافظـات، أعـداد المطلوبـين للعمـل، عـدد عربـات البضائـع، وكل الأوراق الروتينيـة، المُشـجعة بأيـامٍ قليـلات رائعـة قبـل مواجهـة الـرب، وهـي الكلمـة التـي هـزت الرئيـس، وأجبرتـه عـلى بلـع ريقـه بصعوبـة، الرئيـس الـذي لطالمـا سـأل نفسـه، كيـف سـيكون يـوم الحـشر، ومتـى سـنقوم مـن مدافننـا، لم يخطـر ببالـه نهائيًـا أن تقـوم القيامـة في عهـده، وأن يكـون آخـر الرؤسـاء لهـذا البلـد، سـؤال غلـب الأرقَ بنفسـه مـن كـثرة تـردده على حيـاة الرئيـس، وكان كلـما فاتـح زوجتـه في هـذه المسـألة، تقـول لـه: "يـوم القيامـة سـتُنادى بآخـر رؤسـاء هـذا البلـد، وهو شرفٌ عظيـم بـين النـاس"، لم تشـغل المواجهـة ذاتهـا بالـه، هو يعـرف كيـف سيُحاسَـب، وأنـه لـه حسـابٌ خـاص، لأنـه لم يكن

رئيسًـا لمصنـعٍ أو شركـة، بـل كان رئيسًـا لبلـدٍ، شـعبُه بالملايـين، فالخطـأ واردٌ، حتـى لـو آلاف الأخطـاء.

وقبـل أن يضـع الأوراق جانبًـا، خطفـتْ انتباهـه ورقـةٌ، معنونـة بكلـماتٍ، كتبهـا شـخصٌ واثـق بوجهـة نظـره، قرأهـا كثـيرًا: "قائمـة مُتخيَّلَـة للفئـات النازلـة غـدًا"، في البدايـة رفـض النظريـات المعروضـة، ثـم فكـر لثـوانٍ، وأقسـم عـلى إعطـاء نصـف ثروتـه، التـي لم يتخـلَّ عنهـا مثلـما فعـل الآخـرون، إذا مـا صـدق المكتـوب هنـا، وهـو أن طبقـةَ الأثريـاء، بمختلـفِ شـخوصها، سـتكون الفئـة الحـاضرة غـدًا، مـن الصبـاح الباكـر، تليهـا الطبقـة المتوسـطة، وقـد يحـضر قليـلٌ مـن الفُقـراء، الذيـن يطمعـون في مزيـدٍ مـن الحسـنات، ليضمنـوا دخـول الجنـة في مرتبـةٍ أعـلى، إذا كان للفقـراء مرتبـة أعـلى -عنـد الله- مـن مرتبـةِ "الفُقـراء يدخلـون الجنـة".

المُضحـك في المكتـوب هـو الجُملـة الأخـيرة، التـي افـترض فيهـا عـارض الأمـر عـدم حـدوث مـا سـبق، ونفـي مجـيء أي طبقـةٍ، الجـزء المُضحـك ليـس في عرضـه، بـل في التعليـق الجاهـز كـرد فعـلٍ لهـذا الرفـض: "حمـلات إعـدام عشـوائية لمختلـف الطبقـات كنـوعٍ مـن أنـواع التحذيـر للخارجـين عـن الطاعـة والقانـون، وسـتتم إذاعة للطـات موتهـم، وذلـك وفقًـا للأحـكام المعروفـة في الخـروج عـن طاعـة الحاكـم، خاصـةً أن الطاعـةَ حاليًـا واجبـةٌ جـدًا، بسـبب قـرب القيامـة، وأنـه لا مزيـد مـن الوقـت للتكفـير فيـما بعـد".

ضحـك الرئيـس حـد السـعال، وأخـرج كتابـه ليقـرأ المكتـوب، ليجـد الجملـة نفسـها التـي يجدهـا في كل موقـفٍ: "الحاكـم رب

مواقفــه"، كل أمــور حياتــه العاديــة مكتوبــة، كل ذنوبــه مدونــة، كل خطايــاه موثقــة، إلا القــرارات وسياســات البلــد، كلــما رجــع إلى كتابــه، وجــد الجملــةَ الباعثــة عــلى الحُــزن والكآبــة، فينظــر إلى الســماء ويقــول الجملــة ذاتهــا كل مــرة: "هــذا ظلــم يــا رب الظلــم والعــدل!" ويرميــه تفكــيره إلى بــئرٍ عميقــة، ماؤهــا أســئلةٌ بــلا أجوبةٍ، فيغــرق في قلقــه، ويقتلــه قلقُــه ألــف مــرة في الدقيقــة، ثــم يتفاجــأ ببحــرٍ مــن جُمــلٍ، كلهــا متشــابهة: "الحاكــم رب مواقفــه"، فيتمســك بقشــةٍ تنقــذه دائمًــا، قشــة أنــا، بــشرٌ غــير معصــوم مــن الخطــأ.

رفــع الرئيــس ســماعة الهاتــف، وأمــرَ الســفيرَ العــام بالعثــور عــلى المُتســبب في إعطــاء الأمــر للإذاعــة، وكشــف الخــبر عــلى أنهــا القيامــة، وليــس يومًــا عاديًــا أو منــة مــن الله لمعرفــة الغيــب ولــو لفــترةٍ قصــيرة، فعــامٌ كامــلٌ مــن كشــف الغيــب هــو شيءٌ عظيــم، لطالمــا تمنــاه الإنســان، بطــرقٍ مشروعــة، بعيــدًا عــن الدجــل والشــعوذة، ولكــن الوصــولَ إلى اســتنتاج أنهــا القيامــة؟ أمــرٌ عظيــمٌ لا يُســتهان بــه.

كانــتِ اللحظــة التــي أغلــق فيهــا ســماعة الهاتــف هــي اللحظــة نفســها، التــي تُفتــح فيهــا أبــواب البيــوت في كل الشــوارع والمُحافظــات لحُــراس ورســل الخــير، فيدخلــون البيــوت في جديــة وصرامــةٍ، ويطالبــون أهــلَ البيــت بمســاعدتهم وإخــراج كل الكتــب الموجــودة ورميهــا أمــام العــمارة، ثــم توقــف رســل الخــير عــن إرهــاق أنفســهم، وتركــوا العمــل لحُــراس الخــير، الذيــن بدورهــم صرخــوا بالنــاس كي يُسرعــوا ويخرجــوا الكتــب!

لم يعـترض شـخصٌ واحـدٌ عـلى أي محرقـةٍ سـتحدث للكتـب، لم تصِـب شـخصًا الحـسرةُ عـلى كل مـا دفعـه في مجلـداتٍ أو كتـبٍ نـادرة، أو لم يشـعر بـأي حـزنٍ عـلى الكنـز الـذي لطالمـا قـال إنـه سـيتركه لابنـه ولأحفـاده، وفي كل الشـوارع والمُحافظـات تصاعـدتِ الأدخنـة، كأنهـا محرقـة جماعيـة مُتفـق عليهـا.

النـاس ينظـرون إلى الكتـب، منهـم مـن يودعهـا بفتـور واضـح، ومنهـم مـن يبصـق عليهـا، لقـد جحـدوا دورَ الكتـب في تثقيفهـم وفي بنـاء معرفتهـم، في تسـليتهم وضحكهـم وحُزنهـم، في كل الرحلات التـي سـافروها وهـم بأماكنهـم، لقـد جحـدوا بـدور الكُتّـاب ومـا فعلـوه عـلى مـدار السـنين، لقـد بصقـوا عـلى ورقـاتٍ كانـتْ في يـومٍ مـن الأيـام تقـول لهـم: "أنـا أشـعر بـك"، أو "هـذه نهايـة الظـالم"، أو "هـذه قصـة سـتجد نفسـك فيهـا"، أو "هـذه أبيـات شـعر لشـاعرٍ وحيـد حزيـن مثلـك".

تخلـص النـاس مـن الكتـب، ورمـوا عليهـا ذنوبهـم، وقالـوا إنهـا سـببٌ مـن أسـباب عذابنـا، بمـا تحويـه مـن ذنـوبٍ وموبقـاتٍ نحـن في غنـى عنهـا.

وضـع النـاس أخطاءهـم عـلى مشـجب الكتـب، كأن الكتـبَ هـي فتنتهـم، التـي رقصـتْ لهـم، فركضـوا خلفهـا دون تفكـير.

بهـذه الحركـة، وبعـد حـرق الكتـب في المكتبـات والبيـوت والمكتبـات الكبـيرة والصغـيرة، وكتـب دور النـشر، والكتـب الموجودة في المقاهـي والسـينمات، محـا البـشر بجـدارةٍ فضيلـة الثقافـة مـن

وجـه الدولـة، وابتسـمتْ دواخلهـم مؤقتًـا لمـًا تخلصـوا مـن ذنـوبٍ عظيمـة، كـما كانـوا يرونهـا.

العامة

صلاة المخبوزات الفرنسية

في كل القصـصِ التـي عرفناهـا، وكل الأسـاطير والحكايـات التـي سردَهـا روائيٌ، سـواء كان كاتبًـا أو فنانًـا، منشـدَ ربابـةٍ أو ممثـلَ مـسرحِ عرائـس، جميعهـم بخـلَ الخيـالُ عليهـم بفكـرةٍ غرائبيـة، تتمحـور حـول رغبـة الأغنيـاء في التنافـس مـع الفقـراء معدومـي الدخـل للحصـول عـلى وظيفـةٍ عاديـة، كالوقـوف مثـلاً في سلسـلة مطاعـم، كعامـل تقطيـع لحـمٍ، أو لركـوب عربـة لبيـع المشروبـات، وقـد تتفاجـأ مثـلاً حـين تجـد نجـمًا مشـهورًا، أو كان مشـهورًا، يصفـع فلاحًـا، لأنـه يريـد أن يصـير هـو الفـلاح الـذي يـزرع هـذه الأرض! وقـد تهاجمـك نوبـةُ ضحـكٍ حـين تشـاهد ممثلـةً لامعـةً، برعـتْ في كل أدوارِهـا، تقـف الآن لتقديـم المثُلجـات، وقتهـا لـن يُدهشـك مشـهدُ اللاعـب العبقـري، الـذي صـار يمسـح الحمامـاتِ، في مركـز تسـوق ضخـم، وتخيـل أن يُعطيـك محرمـةً بعـد خروجـك مـن الحـمام!

فكـرةٌ عجيبـة بجـدارةٍ، لم تخطـر عـلى بـال أبـرع الـرواة، ومـن ذا الـذي قـد يُفكـر في حـكي ملحمـة عـن عـوز الأغنيـاء! متـى كان

العـوز مُصاحبًا للأغنيـاء؟ مـا عرفنـاه منـذ بدايـة الخلـق، أن العـوزَ ديانـةُ الفقـير، يقيـم شـعائرها يوميًـا ليضمـن دخـول الجنـة.

بعـد الإعـلان في القناتـين عـن الحاجـة إلى إعـادة تدويـر الحيـاة، نـزل معظـم الأغنيـاء بمختلـف طبقاتهـم، وقفـوا في الطوابـير، لم يسـأل شـخصٌ واحـدًا عـن مهنتـه أو مـكان الخدمـة، نزلـوا إلى ميـدان التحريـر، وقفـوا للمـرة الأولى في حياتهـم لسـاعاتٍ، يتحـدث الفنـان الملياردير سـابقًا إلى المُـدرب المليونـير الفاشـل عـن نعمـة الفقـر في الوقـت الحـالي، وعـن فضيلـة العمـل، تُحـادث الفنانـة المُعتزلـة زميلتَهـا المُمثلـة الناجحـة عـن شرف المـوت فقـيرةً، وأن مهـما كان العمـل قاسـيًا، لـن تتراجـع أبـدًا.

تعـاوُن الموجوديـن مـع الموقـف سـهَّل عـلى المُنظمـين سرعـةَ التعيـين، لم يرفـض شـخصٌ واحـدٌ وظيفتَـه الجديـدة، بـل وسـمعَ النـاس بوضـوح مـا قالـه البعـض في رضـا تـام: "وظيفـة أدنى الله يكرمـك!" ولم يُصـدق رجـل التعيينـات، حـين لمـحَ ابنـةَ مليارديـر هـارب تطلـب مـن زميلتـه تسـجيل اسـمها مـع عامـلات الحـمام، وأنهـا إن تقاعسـتْ عـن أداء دورهـا، فليعدموهـا وفـورًا!

وقـف رجـال الديـن، في حمايـة رُسـلِ وحُـراس الخـير، يشـكرون النـاس عـلى سرعـة اسـتجابتهم، القـس يدعـو لأحبـاب المسـيح، الشـيخُ يعدهـم بدخـول الجنـة مـع الحبيـب المُصطفـى، الطوابـير تختفـي، كل شـخصٍ عـرَفَ مـكان خدمتـه، قـررتِ الدولـة في اللحظة الأخـيرة أن تكـون الميادين العامـة هـي أماكـن العمـل والبيـع، بـدلاً مـن العربـات التـي تطـوف المحافظـات، وسـيتم تأسـيس كل

ما تحتاج إليه المهمة، من ثلاجات وأرفف لعرض المنتجات، وسحب الكهرباء من عواميد الإنارة، وسيدفع الجمهور مبلغًا رمزيًا عند الشراء، كنوع من تحفيز الموظفين، ووجود بعض من المال، لسد الحاجة من صيانة، وإعادة تزويد لمنتجات انتهت، أو قاربتْ على الانتهاء.

حددت السفارة العامة عدد المطلوبين لإعادة تدوير الحياة، وفي بيانٍ صريح واضح عرفَ الناس أن المطلوبَ هو مئة ألف فقط، وفي حالة طلب المزيد سيتم الإعلان عن ذلك.

تابع الرئيس حركةً التعيينات، وكافأ السفيرَ العام على صدق حدسه، وبراعة قراءته للموقف، وطالبه بمتابعة أمر المُتسبب في الزوبعة، ثم أمرَ السفيرَ الاقتصادي بتحديد المُهلة المتوقعة لاستقرار الأمور من جديد في أسرع وقت، قبل أن يوقع له على ورقٍ يُفيد بموافقة الرئيس على قتل وسحل كل متكاسلٍ، وإعدام أي شخصٍ قد يطلب إجازةً، أو عدم التعاون، إذا ما تم استدعاؤه، لم يفكر الرئيس في فجاجة المطلوب، المُهم هو سُرعة الاستمتاع بما تبقى من أيامٍ، وقتل التخلي عن الأشياء أو نسيانها، لمجرد أن الناس تركوا العمل، وتفرغوا للعبادة.

وفي خلال شهر بالتمام والكمال ساهم المتطوعون مع الدولة في مختلف المُحافظات في التجهيزات، وفي بناء وإعداد كل المطلوب، ثلاجات ضخمة، أرفف تدور مع دوران الميدان، بل وتُكمل إلى بدايات الشوارع المجاورة، الميادين باتت بقالات كبيرة الحجم.

والفكـرة -إحقاقًـا للحـق- جـاءتْ مـن رسـمةٍ لابنـة سـفير الداخليـة، لمـا شـاهدها ترسـم ميدانًـا، وتضـع بـه كل مـا سـبق، وعنـد سـؤالها عـن السـبب، قالـتْ بـبراءة الأطفـال: "شـكل الميـدان مبهـج هكـذا! أسـتطيع شراءَ كل الحلـوى مـن الميـدان!" اليـوم التـالي، عـرض سـفيرُ الداخليـة الأمـرَ عـلى السـفير العـام، مـع وضـع بعـض التعديـلات، وأهمهـا هـو تقليـل النفقـات، وأكثرهـا أهميـةً هـو سـهولة الوصـول إلى أي ميـدانٍ، بـدلاً مـن عربـاتٍ في أماكـن محـددة، لتعجـب الفكـرة السـفير العـام، ويعرضهـا بـدوره عـلى الرئيـس، الـذي وافـق عليهـا، وشـكرَ السـفيرَ العـام عـلى ذكاء بصيرتـه، وعـلى جـمال أفـكاره غـير التقليديـة.

وبـدأت حركـة البيـع بأسـعار رمزيـة، المنتجـات المعروضـة كلهـا مؤقتًـا هـي عبـارة عـن معظـم مـا خزنـه النـاس سـابقًا فتبرعـوا بـه إلى أن يحـين وقـت الحصـاد، وكان كل المعـروض عبـارة عـن مُعلبـات، وبعـض المشروبـات الغازيـة، أنـواع مـن الشـوكولاتة التـي لم تفسـد بعـد، رقائـق وذرة حلـوة، ألبـان طويلـة الأجـل، علـب حلويـات سريعـة التحضـير، كأم عـلي والمهلبيـة، عـدد لا بـأس بـه مـن أكيـاس الأرز والمعكرونـة، زجاجـات شربـات وعصائـر، بصراحـة، لم يبخـل الأغنيـاء بـشيءٍ كي تـزدان الأرفـف بـكل مـا يبهـج المعـدة والقلـب.

السلاسـة تظهـر رائعـة، الـكل متعـاون، حركـة البيـع ممتـازة، النـاس يعملـون يومًـا ويتعبـدون يومًـا، يفرحـون لأنهـم يأكلـون أم عـلي، ثـم يحزنـون لأنهـم سـيموتون هـم وعـلي وأمـه! المدينـة

أصبحت صورةً تمناها الإنسان كثيرًا، وتعالت نغمة (الحمد لله نعيش في أفضل وأعدل عصور حياتنا).

والفُقراء في بيوتهم ساجدون، يطلب الواحد منهم العفو، ويقول في سجدته: "يا رب! كنتُ وما زلتُ فقيرًا، فهل الجنة جزائي؟ فهل حُسن الخاتمة يناديني؟ يا رب، أنا الفقير ابن الفقير، الذي ورثَ الفقر عن جدوده، ويحمدك الآن أنه لن يورثه ابنه، يتوسل إليك، ألا تضعنا مجددًا أمام فوهة الظلم والأغنياء والشقاء، لن نغادر السجادة إلا على قبورنا، أو على نفخة القيامة، يا رب، نحن جاهزون لحسابك، لا نخاف من أي ذنبٍ، نحن الفقراء ذنبنا الوحيد هو أننا صدقنا رجالاً وَعدونا دومًا بالرخاء، ولم نجد إلا الخراء".

عامل الدوكو

في مسرحٍ كبيرٍ لعرائسٍ خشبية، وحكايات تُروى بمعجزةٍ إلهية، راقبَ عبد القوي حركاتِ العم آدم وهو يدهنها بلون لحم الهوانم. دُهشَ لما رأى العددَ الموجود، الذي يقف في تحدٍّ واضحٍ كالأسود.. لم يفهم عبد القوي فن التأويل، ولم يُرهق دماغَه لفهم القليل، لكنه وقف يساعد مع العاملين، يدهن بما برع فيه طوال السنين، ويناول السجائرَ والأرجيلة للمحتاجين. لم يُسْأل عن حكايته أو ماضيه، واحدهم مشغول بما فيه، حتى ناداهم بكار لخطبة اليوم، التي يتحدث فيها بلا خبثٍ أو لوم.

ولما هربَ عبد القوي من منزل منة، بعد حادثة الزنا المُدبرة، فتح كتابه ليجد حلولاً كثيرة، تُخرجه من الأزمة ببالٍ مرتاح، منها مثلاً مسرح العرائس الخاص ببكار، أو العمل على مركبٍ في مرسى يبعد عن منطقة بولاق حيث منزل منة، أو السيدة زينب، حيث منزل عبد القوي، فيطمئن لصعوبة القبض عليه، وعدة حلولٍ أخرى، كان أسهلها على عبد القوي، وأكثرها توفيرًا للطاقة وللمُغامرة، هو الذهاب إلى مسرح بكار، الذي لم يمانع وجودَه نهائيًّا.

حدثهم بكار عن الشغف، وعن النعمة المُحاطين بها، وما يقصده هنا هو المسرح والعرائس، وعن جهل الدولة بمكانهم، ثم صحح لهم المعلومة، وقال إن الدولةَ هي رسلُ الخير حاليًّا، ثم ذكَّرهم بنعمة الاختباء من رسل الخير، فلا تجد زائرًا منهم يحثك على ترك السيجارة، أو عدم الضحك على نُكتةٍ سافلة، وربما يسألك لماذا لا تعمل في أسواقنا؟ لماذا لا تُعيد الحياة معنا؟ حدثهم عن سعادته، واليوم بالتحديد، واكتفى فقط بذكر أنه سعيد، ولم يقل لهم سببًا.

حدثهم بكار عن ثبات المبدأ، وعن حتمية الحفاظ على الكينونة، فالإنسان هو الإنسان، مهما عرفَ من غيبٍ، ومهما استنبط من المُعطيات قربَ يوم القيامة، سيظل هو الإنسان، المخلوق الذي يفعل الخير والشر، ويبرر لنفسه كل ذنوبه، وسيتقبله الله بعيبه هكذا، ولن يُحاسبه على فضيلة تذبذب الثبات، فالثبات الدائم للبهائم، أما التقلب بين الحسنة والسيئة، التيه بين الصح والخطأ، التردد في تذوق الفتنة، في شرب

الخمـر، في رفـض غوايـة امـرأة، ولـو كانـت ثلاثينيـة لوُضِـع في اختبارِ صعـب، عـن مقاومـة النظـر إلى جسـد بنـتٍ قـد يُجبر الجبـال عـلى السـجود لـه، كل هـذا التخبـط هـو الإنسـان! والأمثلـة لا حـصر لهـا، ومـا غـير ذلـك هُـم القديسـون والأنبيـاء، الذيـن يرفضـون الطبيعـة البشريـة، وهـو مـا يضخـه بـكار في قلوبهـم، البـشر هـم الأخطـاء وأفعـال الخـير والتوبـة والرجـوع إلى الذنـوب، والله خلـقَ الإنسـانَ، ويعـرف عنـه كل هـذا.

صفـق العـم آدم بحـرارةٍ، صفـق بمفـرده، ليضحـك بـكار عـلى المشـهد العبثـي، ويلـوم نفسـه عـلى فعـلٍ غبـي كذلـك، كيـف يحـادث فقـراء -مـن وجهـة نظـره- كل همهـم رغيـفُ العيـش، عن فتنـة التقبيـل أو ترويـض أنثـى، كيـف يحدثهـم عـن الإلـه، وهـم يعبدونـه فقـط ليُدخلهـم الجنـة، ليـس لأي اعتبـارات أخـرى، ككونه مثـلاً الخالـق، أو مُدبـر الأمـور، ويمكـن لأنـه واهـب كل شيء، والعـارف ببواطـن الأمـور وظاهرهـا، لم تشـغل بالهـم فكـرة الله، بـل اسـتحوذت عليهـم تمامًـا فكـرةُ إرضـاء الجالـس عـلى العـرش، فيدخلهـم إلى جنـات نعيـمٍ، بـلا سـابقة عـذاب، أو بعـذاب أقـل، عكـس الكُفـار والمُلحديـن وأصحـاب الديانـات الأخـرى.

اقـترب عبـد القـوي مـن بـكار، وشـكرَه عـلى اسـتضافته بمسرحـه السـاحر، الـذي يُشـعره بأنـه في الدنيـا العاديـة، بعيـدًا عـن المدينـة الفاضلـة، وعـن التحكـمات الغريبـة، وعـن منـة وأهلهـا، الذيـن يجهلـون تمامًـا مكانـه منـذ تركهـا هاربًـا بفعـل الفضيحـة المُفتعلـة، والـذي حكـم أبوهـا عليـه الـزواج سريعًـا، وإلا سيسـلمه لرُسـل الخـير، فـما كان مـن عبـد القـوي إلا اللجـوء إليـه.

تفاجـأ عبـد القـوي بـأن العرائـسَ الخشـبية تحتفـظ بأشـكالها المُختلفـة، فـلا تجـد شـكلاً مُتشـابهًا مـع الآخـر، فـإذا كان عـدد الموجـود تخطـى المليـون، فهـذا يعنـي أن مليـونَ شـكلٍ صُمـم.. تعمـد عبـد القـوي تجاهـل السـؤال عـن السـبب أو الكـم، لكنـه لاحـظ الأرقَ، وقلـة النـوم أو انعدامـه، في عينـي بـكار. لم يكـن عبـد القـوي متمكنًـا في خلـق الأحاديـث، بالـكاد يتابـع الحيـاةَ مـن حولـه في المـسرح، ويُعـبر عـما يحتـاج إليـه في العمـل، ويصافـح ويلقـي السـلام عـلى العاملـين، وقـد يقـول نكتـةً أو اثنتـين، ولا غـير ذلـك.

أمـا بـكار، فقـد لاحـظ اهتـمام عبـد القـوي بـآدم، وكيـف أنـه قـد يقـف سـاعةً كاملـةً يراقبـه في أثنـاء عملـه فقـط، ويحاكيـه في مـا يفعـل، حتـى لـو عبـد القـوي يعـرف أمـورًا تسـاعده عـلى إنجـاز المطلـوب منـه عـلى نحـو أسرع، سـيتخلى عنهـا، مُقابل أن يـراه العم ادم، ويُثنـي عليـه لأنـه يتعلـم منـه، مثلـما كان يعلمـه أشـياء منـذ الصغـر، حـين كان عامـلاً لـدى والـده، فيبتهـج عبـد القـوي، ويطلب المزيـد مـن زملائـه، حتـى جـاء إلى بـكار، وطلـب منـه أن يُعلمـه كيـف يُحـرك العرائـس، فهـو يعلـم كثـيراً عـن طريقـة صناعتهـا، لكنـه يجـد صعوبـةً في تحريكهـا.

ابتسـم بـكار لعبـد القـوي، وأشـار إليـه ليتبعـه إلى مكتبـه، وبعد جلـوس عبـد القـوي أمـام بـكار، فتـح الأخـير كتابَـه، وقـرأ المكتـوبَ بصـوتٍ مسـموع: "وطالـبُ الأمـرِ شـخصٌ ذو مكانـة عظيمـة، يظـن نفسَـه نكـرةً بـلا قيمـة، لم يُرهـق بالَـه بالتفكـير، وهـو عليـمٌ بأشـياء لُجابـه المسـافة بـين السـماء والأرض، ولم يهتـم بمتاهـات الحيـاة، أو السـعي الـكاذب خلـف الـسراب، طالـبُ الأمـرِ تخـلى عـن فضيلـة

التفكير، وعاش منتظرًا ليوم وفاته، فقريبًا يموت، وقريبًا يُبعث من جديد، بعقليةِ مُفكرٍ، وبروحِ إنسانٍ مُلهم لكل من حوله".

ولما انتهى بكار من قراءة هذا الجزء، شرحَ لعبد القوي، القاعد بتعابير وجهٍ تخبر الكثير عن عدم الفهم: "منذ مجيء الناس هنا يا عبده، لم يطلب أحدُهم مني هذا الطلب، كلهم هنا يساعدون فقط، إما في دهان العرائس، أو في سنفرة الخشب من أجلي، أنت الوحيد الذي فعل ذلك، وسأخبرك شيئًا غريبًا، كتابي هذا، من اليوم الأول لسقوطه، وهو يأمرني بصنع المزيد من العرائس، لم يحدد عددًا، ولكن كلمةَ المزيد كافية، حتى لمحتُ صباحًا وجود جملة جديدة في الصفحة، بعدما يئس عقلي من وجود أي شيٍ غير الأمر بصنع المزيد من العرائس، والحقيقة يا عبد القوي، سعادتي بسبب هذا الموضوع تكمُن في شيئين، تغيُّر محتوى الصفحة أخيرًا، ووجود شخص مهم في مسرحي، حتى لو لم تكن مُقتنعًا يا عبده، فهذا المكتوب، وهو قادمٌ من الخالق الذي لن يكذب، ولن يكتب عبثًا، أما بخصوص تحريك العرائس، فالأمر في غاية السهولة، عندما أنتهي من صناعة العدد المطلوب، أعدكَ أنني سأعلمك، حتى لو قبل اليوم الأخير!"

لم يزر النومُ سريرَ عبد القوي، ظل طوال الليل يفكر، وكانتِ المرة الأولى التي يشغل باله التفكير، لمدةٍ طويلة، يتقلب بين المكتوب في كتاب بكار، والمكتوب لديه، حين ركض بعد اجتماعه مع بكار إلى سريره وفتح كتابَه، ليجد جملةً واحدة في التوقيت نفسه الذي يطالعه: "صدق الإيمان بعظمة القدر

ينبـع مــن قــوة الإيمــان بجــلال الــروح، وأهــم صفــات العظــماء، نكـران الـذات حـد التحقـير".

وفي حـيرةِ عبـد القـوي أمـرٌ جلـل، هـذا الرجـل الـذي فـتنَ المنطـقَ حـين مـر أمامـه في عـدم اهتـمام، الرجـل الـذي لم يهتـم بـكل النظريـات والأفـكار، بـكل الحـوارات والمتاهـات، الرجـل الـذي مـشى فـوق جـسرٍ مـن تفاهـات، ووصـل إلى مدينـةٍ مـن ورقٍ، يمزقهـا كيفـما شـاء، الرجـل الـذي يظـن مـن يعرفـه أنـه جـاء مـن السـماء بأمـرٍ إلهـيٍّ، وألا يفكـر وأن يسـعى في الأرض مرحًـا، الرجـل الـذي لا يُفكـر، ومـع ذلـك يعـرف الكثـير، ولا يكـترث لحيـاةٍ تُعـاش أو لمـوتٍ آتٍ أو لفكـرةٍ جاءتـه، وحتـى لمـا حاولـتْ فكـرةٌ غوايتـه ليذنـب ويفكـر فيهـا، حـين فكـر في حسـاب عمـره مـن يـوم ثبـوت وجـوده داخـل رحـم أمـه، لم يعطِهـا الكثـير مـن وقتـه، ولم يسـعَ خلفهـا لتحقيقهـا!

عبـد القـوي هـو نبـي الفُـرص الضائعـة، نبـي الحيـاة الفائتـة بـلا هـدف، نبـي مـرور العمـر مـرورَ الكرام.

ابنة الشوارع

"شـبقٌ مــن نــار" الجملــة الأقــرب إلى قلبهــا، كلــما ضاجعــتْ أحدهـم قالهـا، في متعـةٍ ولـذة، لم يقـدر عليهـا ذكـرٌ أكـثر مـن ثـلاث دقائـق، بعدهـا ينفجـر نهـره، هـذه المـرة مختلفـة تمامًـا، لأن الـذي يجاسـدها رسـولٌ مـن رسـل الخـير، شـكله مقبـول، عضـوه فاخـر

وفاجر، وهذه حقيقةٌ تُحب دومًا أن تخفيها عن الزبون، فلا يرى نفسه قيصرًا، ولا يُعاملها كجارية.

تُعجبها المعادلة الغريبة، رجل دين -أو فلنقل من حماة الدين- خلع عن نفسه ثوبَ القديس، وها هو بالأسفل، يلعق فرجَها، ويسيل لعابه ككلبٍ، وفي الوقت ذاته، بعدما يطردها من منزله، سينزل إلى الناس، ويأمر كل شخصٍ بفعل الخير، ويعدم المُذنِبَ. قال لها: "هل يُعجبك إصبع بطني؟" لم تفهمها في البداية، ثم ضحكتْ كثيرًا وامتنعتْ عن الإجابة لما عرفتْ أن ذكرَه هو المقصود، اسم غريبٌ، سيعيش معها طويلاً، وبالتأكيد ستنسى صاحبَ الاسم.

كلما نظرَ إليها، وجدها تجلس صامتةً، فيزيد من محاولة إثارتها، ولا يحصل على نتيجةٍ، وهو في عُرفِ الرجال فضيحة! كيف تكون بين يديك أنثى، ولا تصرخ بمدى جبروتك، ولا تشكر الخالقَ على نعمة عضوك، أو تطالبك بإيلاجه في عنفٍ بالغ! كيف تكون أمامك أنثى، وأنت تعرف جيدًا، من خبراتك معهن ومن حكايات النساء، أن الجنسَ بالنسبة إليهن مخدراتٌ. والآن تراك امرأة، التي تجتهد لتغريها، مجرد سيجارة عادية، تبغها مضروب، تأثيرها خفيف، سعرها رخيص، غير مرغوبة في السوق.

تمسك بأمله المُتبقي، وأمرها بمداعبة عضوه، لتقول له في برودٍ تام: "أداعب الضخم الذي يستحق فقط، وفي حالتِك يمكنك أنت أن تداعبه، لأنني لا أراه جيدًا من صغر حجمه!"

رصاصةُ شرفٍ تقتل في الحال، خرجتْ من فمها، لتخترق فحولته فورًا، ليقوم من مكانه، فيصفعها ثم يركلها بعنفٍ، وحاولتْ نعمة الوصولَ إلى الكيس الأزرق، الذي تضع بداخله السكين، لكن رسولَ الخير كان أسرع منها، وسحب مسدسه من بنطاله المُلقى على الأرض، ومعه رسالة الغُفران، صوب سلاحَه تجاهها، وبدأ بتلاوة نص الرسالة: "إلهي الذي خلقَ السماواتِ والأرض، وجزى الطيبَ من طيب فعله، وعاقبَ الشريرَ بخبث طبعه، هذه المرأة التي ضلتْ طريقَها، سنرد أمانةَ روحِها إليك، لتطهرها أنت، من كل ذنوبها، بيدك المُباركة الماسحة لكل الخطايا، فتقبل يا رب نُبلَ تَصرفِنا، وتقبل توبتَها"، لم يسألها عن أمنيةٍ أخيرة، لم يعطِها الفُرصة لتقول شيئًا، أطلق الرصاصةَ في منتصف صدرها، ثم أتبعها بأخرى في بطنها، وهدأ لما شاهد الثالثة تخترق كتفها اليُسرى، قبل أن يركضَ تجاهها ويفرغ بقية الطلقات، في تنوعٍ محسوب، تارةً في فخذها اليسرى، وتارةً أخرى بيدها اليمنى، ثم بعشوائيةٍ خلاقة، جرها خارج منزله، ورماها في الشارع العام، أمام الجميع، وظل يصرخ كي يتجمع الناس حولها، ويُخبرهم عما فعلته تلك الفاجرة.

تجمهر حشدٌ كبير، الكل يعرفها، نعمة البنت المجنونة، التي تكرههم، والتي تجلس دومًا بكيسها الأزرق البلاستيكي أمام مسجد العسال بأبي حماد الشرقية، والتي تكره كل ما يتعلق بهم. سألت طفلةٌ بصوتٍ مهزوز عن السبب، فقال الرسول: "يا صغيرتي، واسمعوني أنتم أيضًا، هذه الفاجرة، كانت تسرق من بيتي، ولحسن حظي، كنتُ عائدًا لأحضر عدة كتب

دينيـة، لأوزعهـا بـين النـاس، تخيّـلي يـا صغـيرتي؟ سـارقة في وضـوح النهـار، وتـسرق مـن؟ الرجـل الـذي يسـهر ليتأكـد مـن خلوكـم مـن الذنـوب؟" لم يسـأل أحدهـم مـاذا سرقـتْ، كادتِ البنـتُ الصغـيرة تفعلهـا، لـولا أن أباهـا أمرهـا بالسـكوت، ليسـمع مـا الـذي سـيقوله الرسـول، قبـل رحيلـه: "كـما تعلمـون يـا أهـل الخـير، المُذنـب يُـترك في الهـواء الطلـق، إذا مـات فهـو ذاهـبٌ إلى المـولى، فيطهـره مـن ذنوبـه، أمـا إذا ظـل عـلى قيـد الحيـاة، لأسـبوعين متتاليـين، نعـرف وقتهـا أن اللهَ يعطيـه فرصـةً ثانيـةً، فنعالجـه وندعمـه، حتـى يقـف عـلى رجليـه مـن جديـد، وفي ألمـه تطهـيرٌ مـن الذنـوب، وربمـا يلحـق ويُكفـر عـن ذنبـه أيضًـا بأفعالـه، لذلـك يـا أهـل الخـير، إذا عرفـتُ أن أحدَكـم سـاعدها قبـل انقضـاء المـدة، سـينام بجانبهـا أرضًـا، وأقولهـا مُجـددًا، أي أحـدٍ، مهـما كان، رجـلاً أو سـيدة أو طفـلاً، سـينام بجانبهـا أرضًـا إذا سـاعدها! المُذنـب لـه رب يسـاعده، ونحـن عـلى أعتـاب يـوم القيامـة، ونريـد كل فعـلٍ يضمـن لكـم الجنـة!"

تفـرق المُجتمعـون عنهـا، كانـتْ وحيـدةً تحـت الشـمس، الألم ينهـش في جسـدها وروحهـا، لم تفهـم كلمـةً مـما قالـه الرسـول، تتـأوه بصـوتٍ خفيـض، تشـعر بـكل رصاصـةٍ تضحـك عليهـا، نعمـة التـي كانـتْ قويـةً، بكرههـا للبـشر ولخالقهـم، والتـي أقسـمت ألا تقبـل أي اعتـذارٍ، حتـى لـو أرسـلها كنبيـةٍ بديـنٍ جديـد، أو وضـع اسـمَها في نـص مُقـدس، لـن تسـامحه عـلى حياتهـا الفائتـة، بـكل كوابيسـها، لـن تسـامحه عـلى أي يـومٍ رماهـا واحـدٌ بمسـبة أو بحجـرٍ، لـن تسـامحه عـلى تـرك أهلهـا لهـا، عـلى مـوت الخـال سـند، الرجـل الوحيـد الـذي سـاعدها بصـدقٍ، لـن تسـامحه عـلى البُقـع

وخوف الناس منها، على الفترات التي قضتْها في الشارع، على اللحظات التي شاهدتِ البنات في أحضان الرجال، سواء كان الرجل حبيبًا أو أبًا، عاشقًا أو زوجًا، لن تسامحه على وضع كل العثرات في طريقها، على ملء رحلتها بشوكٍ يقتل لا يجرح، لن تُسامحه على عبثية الطريقة المكتوب بها قدرها، على أي لحظةٍ لمحها كلبٌ أو قطةٌ أو فأرٌ وسخ، وهربوا خوفًا من شكلِها، لن تسامحه على خلقه لها، واختيار اسم "نعمة" لها، لن تسامحه على الحكمة من تعذيبه لها بهذا الشكل المُهين.

شعرتْ بأصابع صغيرة تمسح الدماء الوقحة الموجودة على وجهها بماءٍ فاترٍ، وملمس قماشٍ يخبرها بأنه فستانٌ، وبصعوبةٍ بشوبها قلقٌ وارتعاشةٍ، عرفتْ أن الفاعلَ طفلةٌ، لم تأبه لكلام الرسول، ولا لتحذيرات أهلها، كانتْ تبكي من منظر نعمة، أمسكتِ البنتُ الصغيرة يد نعمة اليُسرى، وقالتْ: "لا تخافي، سأساعدكِ كل يومٍ، والمسيح الحي لن أتركِكِ، أبونا يسوع لن يتركِكِ هو أيضًا، سأصلي من أجلكِ أنا وفرحة ودميانة وفُلة"، ركضتِ البنتُ قبل أن يلمحَها الرسل.

لم تفقد نعمة الوعي، حاولتْ كثيرًا أن تضغط على جروحها، فتنزف بشدة وتغيب عن هذا البؤس، وهو أفضل من الألم الذي تشعر به، في كل تفصيلةٍ بجسدها، ومع ذلك فشلتْ، كأن الألمَ سعيدٌ لانتشاره بصورةٍ محسوسة. تأملتْ نعمة السماء الواقفة فوقها، في يأسٍ وحزنٍ مكلوم، دققتِ النظر، فرأتْ رجلاً تعرف ملامحه جيدًا، إنه سفرائيل، الملاك الذي قتلتْه نعمة، يقف في السماء، يُشير إلى الأعلى، فتفهم مقصدَ كلامه وهو

الإلـه، ثـم يشـير إليهـا، فتعـرف أنهـا المقصـودة، ويشـبك يديـه بعدهـا ويهزهـما، اجتهـدتْ في تفسـير الأمـر كثـيرًا، يعيـد الفعـلَ نفسـه، أكـثر مـن مـرة، وبحركـةٍ بسـيطةٍ جـدًّا، ولكنهـا لم تفهـم.

رأتْ ملاكـين آخريـن، سـحبا سـفرائيل في جـزءٍ مـن الثانيـة، ليختفـي تمامًـا، تـاركًا لهـا الحـزن في وحدتهـا، وسريـان الـدم أسـفل ملابسـها، تحـس باللزوجـة الناتجـة عـن لمـس الجسـد لسـائلٍ، والناتجـة أيضًـا عـن لمـس الجسـد للأسـفلت، بالـكاد تتنفـس، قالـتْ بصـوتٍ لا يسـمعه غـير خالقهـا وخالـق الصـوت: "أنـا كافـرةٌ بـكل كلمـةٍ قالهـا سـفرائيل عـلى أننـي مُباركـةٌ، وإذا كنـتُ مباركـةً -مـع أننـي أشـك- فأرجـوك خـذ حيـاتي، ولا تأخـذني إليـك، أنـا رافضـة الوجـود في مـكانٍ واحـد معـك، حتـى لـو أنـت الإلـه، وأنـا المخلوقـة الضعيفـة التـي لا حـول ولا قـوة لهـا، لا أريـد الصعـود إلى عرشـك، ولا إلى جنتـك أو نـارك، أريـد البقـاءَ عـلى الأرض، تائهـةً كـما هـي الحـال دائمًـا، اتركنـي هنـا، لـن تشـعر بـأي فـارقٍ إذا غبـتُ عـن أعـداد الموجوديـن، سـواء حولـك في الجنـة، أو في القبـور".

عامل الفخار

الخطايـا في قلـب المؤمـنِ جمـرةٌ، وفي قلـبِ يهـوذا حجـرٌ كبـيرٌ، وفي قلـب فيليـب كانـتِ الحـيرة كلهـا!

يهـوذا يحـارب الزمـن وإيمـانَ فيليـب الغريـب وخطايـاه الأغـرب، يقتـل مسـاءً، يطلـب مـن المسـيح المغفـرة، يقـول للجميـع

الله محبـة، ويقـول للضحيـة يـا بنـت القحبـة، يتوسـل إلى يسـوع أن يغفـر لـه، وإلى الباشـا أن يـرضى عنـه، وكلـما أمعـن يهـوذا في البحث والتنقيـب داخـل بـئر ذكريـات فيليـب، لم يجـد ثغـرةً تُطلعـه عـلى سـبب غرابـة شـخصيته.. قاتـلٌ مؤمـنٌ، عـرف كثـيراً عـن هـؤلاء، عـرف عـلى نحـو عـام عـن الجماعـات القاتلـة، عـن الإرهـاب، عـن عقيـدة الحشاشـين، ولكـن كانـتْ هـذه المـرة الأولى التـي يـرى فيهـا قاتـلاً، بمفـرده، دون أي انتـماءٍ، يقتـل مـن أجـل القتـل، ويقتـل مـن أجـل رغبـة مالكـه.

مثلـما وقـف فيليـب متفرجًـا عـلى كل مـا يعرضـه يهـوذا مـن أمثلـةٍ ولقطـاتٍ لحيـاة المسـيح وعذابـه، لمقتطفـاتٍ مـن ديانـاتٍ أخـرى، وقـف يهـوذا هـو الآخـر مندهشًـا، كل ليلـةٍ يراقـب حيـاةَ فيليـب الغامضـة في أحلامـه، يـرى ضحايـاه وهـم يركضـون خلفـه، يشـاهدهم وهـم يحترقـون ضاحكـين، يلمـح بنتًـا مقبـورةً داخـل طبـقٍ مـن الفخـار، يسـمع رجـلاً يتعـذب بـين ثنايـا زيـر، تعـددت المشـاهد، ويهـوذا يعـبر عـن دهشـته بكلمتـين فقـط: "عبقـري شـغوف!"

كلاهـما سـمع كلامَ الطبيـب مـن العـالم الخارجـي عـن إمكانيـة عـودة فيليـب إلى الحيـاة مـن جديـد، وعـن بشـائر تحسـن حالتـه، حتـى لـو الظاهـر لهـم أنـه طفيـفٌ، المهـم هـو وجـود مـا يُطمـئن قلـوبَ الزائريـن، مينـا وأمـه، وفي بعـض الأحيـان، يجـيء الباشـا، يسـأل عـن حالتـه، يتأكـد كل مـرةٍ إذا قـال فيليـب شـيئًا، وعنـد سـؤاله عـما يقصـده، يجيـب في عصبيـةٍ: "أي شيءٍ! هـل قـال أي شيءٍ؟ عـن نفسـه أو عـن حياتـه مثـلاً؟" وكان يبتسـم لمـا يسـمع

الإجابــة المعتــادة بالنفــي، ويغــادر المشــفى دون أي وعــدٍ عــن قدومــه قريبًــا.

في غيابــه عــن العــالم عــرف يهــوذا عــن فيليــب مــا لم يعرفــه بــشرٌ، واكتشــف فيليــب الجانــبَ المُــضيء في حيــاة يهــوذا، وكل المؤمــرات المُحاكــة ضــده، للتخلــص منــه، ومحــو أثــره عــن تاريــخ الديانــة المســيحية.

تحــدث فيليــب أخــيرًا، وقــال مــا لم يتوقعــه يهــوذا نهائيًــا: "يهــوذا الإســخريوطي، أيهــا المصلــوب بيــد التضحيــة، المظلــوم مــن ابــن الإنســان، والــروح الهائمــة المُعذبــة، الــذي لــن يــترك مكانًــا إلا وبــث ســمومَ أفــكاره بداخلــه، يهــوذا فتنــةُ الضعفــاء، الجاهــل بوجــود مــن يحترمــه، ومــن حــاول كثــيرًا الدفــاع عــن ســيرته، ومحاولــة تحســين صورتــه، كــما حــدث مــع مــن ســبقه، ومــع ذلــك، تعمــد الأب والابــن والــروح القــدس إخفــاء كل مــا يُعينــك عــلى حربــك ضــد الحواريــين، وضــد كارهيــك، وضــد عاشــقي يســوع بصفــة عامــة، وعاشــقي التضحيــة الإلهيــة بصفــة خاصــة.

ســمعتُك طــوال وجــودي هنــا، في عــالمٍ عجيــب، منقســم بينــي وبينــك، ولم أســتفسر حتــى منــذ البدايــة، لمــاذا أرى ذلــك أو مــا الســبب وراء وجــودك داخــل غيبوبتــي، كنــتَ ضيفًــا تســتحق كــرمَ الضيافــة بحــق، وكنــتَ مُتحدثًــا بارعًــا، يعــرف كيــف يعــرض حججَــه، عــلى الرغــم مــن عــدم وجــود أي أدلــةٍ لمــا سردتــه، ومــع ذلــك، ســيصدقُك عــددٌ كبــيرٌ إذا مــا خرجــتَ إليهــم.

المُهـم.. يـا فيليـب يـا صديقـي العزيـز، نعـم أنـتَ صديقـي في هـذه الرحلـة الغريبـة، إذا لم تخـبرني عـن السـبب الرئيـس لزيارتـك لي، بعيـدًا عـن الظلـم ويسـوع قتلنـي وكل مـا سـبق، لـن تتحـدث معـي مجـددًا، وكلـما حاولـتَ تفعلهـا، سـأغرقُكَ معـي في حلـمٍ مـن أحلامـي، وكـما تـرى، في أي وقـتٍ أنـت تتحـدث، إذا مـا قـررتُ النظـرَ إلى ذكـرى أو موقـفٍ، تصمـت أنـت وتُرمـى في زاويـةٍ مُظلمةٍ، حتـى أهـدأ أنـا وأعطيـكَ الإذن في الظهـور والـكلام.

الجميـل في علاقتنـا يـا صديقـي أنـك ظننـتَ طـوال هـذه الفـترة أنـك المُتحكـم، تجـبرني عـلى مشـاهدة أي شيءٍ، كيفـما ووقتما تشـاء، ولكنـك نسـيت شـيئًا في غايـة الأهميـة، أنـت داخـل رأسي يـا يهـوذا، وهــذا يعنــي أن العــالمَ هنـا ملـكي، في البدايـة كنـتُ عاجـزًا عـن التـصرف، وهـذا أمـر مقبـولٌ، شـخصٌ جديـدٌ في عـالم الغيبوبـة، يـرى أحلامًـا، يسـمع شـخصًا مخبـولاً، يحـاول إقناعـه بأنـه هـو مـن يسـتحق التخليـد والحـب، بأنـه هـو مـن صُلِـبَ بـدلاً مـن يسـوع، يحـاول الـصراخ فيفشـل.

ولكـن بنفسـك أنـت يـا يهـوذا علمتنـي كيـف أسـتطيع فعـلَ مـا أريـد، لمـا جعلتنـي أرى المسـيحَ، ومـا يفعلـه بـه البـشر، حـين صـاروا كلهـم آلهـةً، لمـا ركضـتُ ورميـتُ الحجـر، عرفـتُ في هـذه اللحظـة أننـي يمكننـي التواصـل مـع حـواسي، وفـرض رغبتـي في التفـرد بعـرض مـا لم تـرَه مـن قبـل يـا يهـوذا، وهـو مـا حـدث خـلال كل تلـك الفـترة، عرفـتَ عنـي، مـا جعلتُـه سرًا بينـي وبـين الـرب، وهـو أمـرٌ يجـب أن تشـكرني عليـه، لقـد وضعتُـك في منزلـةٍ قريبـةٍ مـن منزلـةِ الـرب بالنسـبة إليّ.

وهـذه فرصتُـك الأخـيرة، لأننـي عـلى وشـك القيـام إلى العـالم الخارجـي، ولـن يسـمعك شـخصٌ مثـلي، تعـرف جيـدًا كـم سـيفيدُك في غرضـك، الـذي لـن أُجهـد رأسي في التفكـير بخصوصـه، يمكنـك أن تخـبرني، وكفـاك بـكاءً عـلى سـيرتك الطيبـة المظلومـة، صدقنـي يـا يهـوذا، لـو قـرر الـرب إخفـاء الثالـوث المُقـدس، وجعلـه أي عـددٍ مهـما كان، لـن تتغـير حقيقتـك، سـتظل مكروهًـا ملعونًـا، تقـام المُحـاضرات عـلى شرف حياتـك، كلهـم يسـبون ويكرهـون سـيرتك، والمسـيح الحـي يـا يهـوذا، إن نـزل يسـوع إلى عالمنـا، وقـال للنـاس حبـوا يهـوذا وسـامحوه فابـن الإنسـان قـد سـامحه، سـيرفضون جميعًـا بحجـة أنـك الخائـن الـذي قتلـه، والصراحـة هـو لـن يُمانـع، ولـن يُجبرهـم عـلى حبهـم لـك، ولـن يختـار عقابًـا لمـن رفـض".

يهـوذا الإسـخريوطي، المُحـارب في زمـنٍ يكرهـه، والمُقاتـل لنـصرة سـيرته، وقـف أمـام فيليـب مبتسـمًا، لم يغضـب أو ينفجـر بسـبب كلامـه، بـل أخـرج ورقـةً وبـدأ في القـراءة: "أمـا ذلـك اليـوم وتلـك السـاعة فـلا يعلـم بهـا أحـدٌ ولا الملائكـة الذيـن في السـماء، ولا الابـن إلا الأب"، ثـم سـأله بالهـدوء نفسـه الـذي قـرأ فيـه الورقـة: "هـل تعلـم يـا فيليـب مـاذا تعنـي هـذا الآيـة؟ أن الابـن لا يعلـم شـيئًا عـن يـوم القيامـة، وأن مـا يحـدث بالخـارج، الـذي نسـمعه يوميًـا أنـا وأنـت، مـن خـلال كلام ابنـك أو زوجتـك معـك، أو كلام الممرضـات والتلفـاز، أنـه إذا لم يكـن يـوم القيامـة هـو المقبـل، فالمسـيح يخطـط لـشيءٍ، ليناقـض ذاتـه المُنقسـمة، ذات الأب التي تعـرف كل شيءٍ، يـا فيليـب، إذا لم تكـن نهايـة الأيـام هـي المقبل، فابـن الإنسـان يلعـب بكـم! وآخـر كلامـي معـك، قبـل أن أتـركك ...

مسكين، في يومٍ من الأيام، في أثناء جلوسنا معه، وهو يُعلمنا دروسَه العظيمة، قالها في منتصف كلامه، دون أن يشعر، قالها بمنتهى الصراحة، قال: "لو يمكنني محو الأجيال القادمة، لن أفكر في الأمر مرتين، فلقد رأيتُ في مناماتي ما يُغضب إلهي، وأنا لستُ على درايةٍ كاملةٍ بوقت اليوم الأخير، ولا أعرف لماذا يمنعني إلهي من معرفة أمر كذلك، ابن الإنسان لا بد أن تجيء إليه المَعرفة، كيف يمكنه فعل.. سامحوني يا أحباب ابن الإنسان، كنتُ أتكلم عن الأجيال القادمة".

كلنا تحدث وقتها عن مدى بشاعة الأجيال القادمة، كنتُ الوحيدَ الذي فكر في كلامه غير التام، حين ظهرَ عليه الغضب اللحظي المؤقت، في رفضه لحكمة الرب، لحكمة الأب كما يقول، وحين تحدثتُ إلى بولس، عن تلك اللحظة، أنكرها تمامًا، وقال لي إنه لم يسمع إلا كلامه فقط، وإنه لم يشهد أي علامات غضبٍ على وجهه!

فيليب.. أنت الوحيد في هذا الزمان الذي يشبهني، خنتَ صديقَك من أجل غايتك، سرقتَ أعمارَ ضحاياك، الشر والدين في قلبك، منافقٌ بوجهِ مؤمن، لقد سمعتُك يومًا وأنتَ تتحدث عني، حين كنت برفقة زميلك في القهوة، ودافعت عني كثيرًا يا فيليب، هذا كان السبب الوحيد في وجودي، أنني شعرتُ يومها بمدى صدق كلامك عني، وأنك فعلاً تُفكر مثلي، بحثتُ كثيرًا عنك، في كل مكانٍ تتجمع به الأرواح، ولما وجدتُك روحًا وحيدة، في المحراب المُقدس، المكان الذي يتعبدون فيه إلى الرب القدوس بعد مغادرتهم لجسم البشر في أثناء نومهم، وجدتُك

روحًا قاسيةً، لا يُهمك هذا الرفض، لا يُهمك هل أنت معهم أم مطرود، روحًا شريرة تخاف الروح المؤمنة الاقتراب منها، أقسمتُ ألا أتركك، إلا وأنت عليمٌ بحكايتي كلها، والآن يا فيليب، أنت الوحيد الذي يعرف هذا السر، المسيح قد يمحوكم، انتقامًا من تناقضات نفسه، من صراعه الذي يرفضه في بعض الأحيان بين الأب والابن، ولأنني كنتُ إنسانًا في المقام الأول، وقلبي يحمل الخير والشر معًا، شرعتُ في مساعدتكم، كأي شخصٍ عادي، عرفَ أن فعلَه سينقذ الملايين، فذهب بجسارةٍ وبلغ عن أمرٍ خطير! ولا أعرف كيف ستخبرهم بالأمر، وهل من الممكن أن يصدقك أحدُهم أم لا!"

أيام الدهشة الثانية

فيليب

هل ستظل تحبني يا مينا إذا عرفتَ كل ما قلتُه؟ هل ستراني أباك العظيم؟ أم ستقتلني؟ هل ستقتنع أنني عبقري شغوفٌ فعلاً، كما وصفني يهوذا الإسخريوطي؟ لعلك يا بني الحبيب تقول وقتها إنك لا تعرف شخصًا اسمه فيليب، وإنه كان يدعي الأبوة لك، وقد تذهب إلى الشرطة وتُبلغهم بوجود قاتل، يصدق الناس مدى قوة إيمانه، ويراه الغالب شخصًا عاديًا، وهو في الحقيقة أذكاهم، واللؤم نديمُه المُخلص، والتفرد في إقناع من حوله بطيبة قلبه وسذاجة فكره سمةٌ أساسية في شخصيته. فاحذروا منه إذا ما لقيتموه في مقهى، أو منطقةٍ ما،

يـشرب شـايًا، فربمـا فُتـات أحدِهـم مخلوطـة بمـا يشربـه، كـما بـرع في صنـع الفخـار مـن رمـاد ضحايـاه.

مـا واجهنـاه يـا مينـا لم يكـن حادثًـا بسـبب تسـاقط الكتـب، أنـا واثـقٌ يـا أرضي التـي أمـشي عليهـا بمـا أقولـه، كيـف سـينفجر قطـار بفعـل كتـب؟ هـل سـيترك السـائق دفـة القيـادة مـن أجـل حصولـه عـلى كتـاب؟ مـا حـدث يـا دم قلبـي هـو تصفيـة حسـابات بـين الآلهـة المُتحكمـين في البلـد، وهـي عـادةٌ متوارثـة ومعروفـة بينهـم جميعًـا، كل النكبـات العظيمـة التـي ضربـت بلادنـا بـلا رحمـة أو شـفقة، كانـتْ مُدبـرةً، وسـأشرح لـك كيـف.

مثـلاً حادثـة القطـار تلـك، فعلَهـا وزيـرٌ أو رجـلُ أعـمالٍ، حـاول الحصـول عـلى صفقـةٍ، ووقـف لـه وزيـر النقـل والمواصـلات معترضًا. والاعـتراض هنـا ليـس بمعنـاه المعـروف، ليـس اعتراضًـا عـلى عـدم قانونيـة الأمـر، وهـل هـو حـلالٌ أم حـرام! المعنـى المقصـود لمـا بينهـم هـو رفـض قيمـة عمولتـه، أو رفـض قيمـة الصفقـة مـن الأسـاس، فيحـاول الموجـودون وقتهـا الوصـول إلى حـل مناسـب، وإذا فشـلوا قالـوا للمُعـترِض في نـبرةٍ وقحـةٍ: "الدمـاغ الناشـف لـن يفلـح، المُهـم، التركيـز مطلـوب في مـا هـو آتٍ، وبالتأكيـد مـا هـو آتٍ يخصـك!" فتتفاجـأ في اليـوم التـالي بانفجـار عربـة أو سـيارة مفخخـة، سـقوط كوبـري، خـروج قطـار عـن مسـاره، غـرق عبـارة، وطبعًـا لتكـون الكارثـة كـبرى، عنـصر العـدد لا مفـر مـن توافـره، جملـة "سـقوط عـدد مـن الضحايـا" تجعـل أقـارب المقتولـين يبكـون، وتدغـدغ صاحـبَ الصفقـة ورفاقـه، فـلا يفـوت اليـوم ذاتـه إلا والمُعـترض إلى صفـوف الشـعب، والصفقـة تزغـرد في فـرح إتمامهـا.

أذكـر يـا مينـا لما كنـتُ شـابًا، سـافرتُ إلى القاهـرة، والصدفـة وحدهـا، والمسـيح الحـي يـا مينـا لا أعـرف، هـل هـي الصدفـة فعلاً، أم تدابـير الـرب واختباراتـه، وقتهـا كنـتُ مُسـافرًا بأحـلام الشـباب وعنفوانـه، وفي محطـة القطـار تعرفـتُ إلى الباشـا، كان يـودع أقاربـه الغلابـة، القادمـين مـن محافظـةٍ مـا للحصـول عـلى مسـاعداته، في هـذا الوقـت كان الباشـا رحيـمًا إلى حـد مـا، قـد يصاحـب النـاس في مشـاوريهم، وفي أثنـاء انتظارهـم للقطـار، وأنـا مارٌّ بجانبهم سـمعني وأنـا أتحـدث إلى غريـبٍ مـن غربـاء الرحـلات الذيـن لا نقابلهـم إلا مـرة واحـدة في العُمـر، عـن الفخـار ومـدى براعـة قريتنـا في كل مـا يخـص الصناعـة، وأننـي ورثـتُ المهنـةَ عـن جـدودي، وبقيـة الحكايـة أنـت تعرفهـا، لمحتُـه وهـو يمـشي قريبًـا منـي، وكـدتُ أضربـه عندمـا لم يُعجبنـي مشـيه خلفنـا، إلا أنـه بـأدبٍ بالـغٍ طلـبَ الاسـتماع إلى قصـةَ الفخـار، ومـن يومهـا وأنـا خـادمٌ وعبـدٌ للباشـا، وأقـدم الموظفـين لديـه، في القريـة التـي اشـترى معظـم أفرانهـا، ثـم بناهـا بطريقتـه.

نعـم يـا مينـا، كلامُـك دائمًـا صحيـح، كان مـن الممكـن أن نسـتخدمَ الأفـران العاديـة، أو نكـف عـن حـرق الخشـب والمطـاط وإطـارات السـيارات، ونرتـاح بفضـل الغـاز الطبيعـي، وفي أقـل الحـالات ضررًا، كان يمكننـا الحصـول عـلى فـرنٍ ليـس عاليًـا كـما في أفـران الباشـا، الـذي أشرفَ عـلى بنـاء كل فـرنٍ بنفسـه، وتأكـد مـن علـو فوهتـه، وأن الواقـعَ في الفُـرن لـن يقـدر عـلى الطلـوع، ولكـن كيـف سـيخفي الباشـا قتـلاه؟ الباشـا أراد طريقـةً للتخلـص مـن ضحايـاه تجعـل العثـور عـلى بقاياهـم مُسـتحيلةً، كـما لـو أنـك

تسـأل عـن إمكانيـة رؤيـة الـرب، وللأسـف يـا مينـا، أنـا مـن عرضتُ عليـه هـذه الفكـرة، الحقيقـة عروضـه الماليـه كانـتْ مغريـةً جـدًا، مبالـغ تجعلنـي باشـا وسـط فقـراء القريـة، ولمـا أتى إلينـا ليُعلـن عـن شراء الأفـران، أخـبر العاملـين أننـي الـكُل في الـكل، وكبيرُهـم في المهنـة، وتجـب استشـارتي في أي أمـرٍ لـه علاقـة بالمهنـة، مُختـصر الـكلام، الباشـا نصبنـي نبيًـا بينهـم، كلهـم فقـراء أغبيـاء، يخطئـون ولا يعرفـون شـيئًا عـن الثـواب والعقـاب، وأنـا المؤمـن الـذي لا يخْطـئ.

كل جمعـةٍ مـن كل أسـبوعٍ كنـتُ أسـافر إلى القاهـرة لأقابـل المُعلمـين، التعليـم رقـم واحـد بالنسـبة إلى الباشـا، علمني مـا يحتاج إليـه عـالمٌ وليـس عامـل فخـار، وكانـتِ القاعـدة الأهـم المـشي بـين النـاس كرجـلٍ طيـبٍ غبـي، حظـه مـن العلـم قليـلٌ، ينتظـر اليـوم الـذي سـيموت فيـه، ويـترك الفـرن لابنـه، كعـادة الرجـال في القُـرى، هـذا مـا كان يـراه في أي شـخصٍ، لم يكـن مـن قاطنـي العاصمـة، شـخص سـاذج، يبحـث عـن لقمـة العيـش فقـط، وفي آخـر اليـوم يضاجـع زوجتـه بأوسـخ الأوضـاع غـير الآدميـة، لأنـه طبعًـا مـن القُـرى، والقـروي -مـن وجهـة نظـره- غشـيمٌ، قـد يقسـم زوجتـه نصفـين بسـبب هياجـه، أو بسـبب بيـاض جسـدها ومفاتنـه، وهـو مـا أمـرني أن أكونـه، الإنسـان القـروي السـاذج، المؤمـن الخائـف مـن ربـه، غـير المُتعلـم بدرجـةٍ كافيـة، فيصـدق النـاس بـل والإلـه بالأعـلى، أننـي فعـلاً مُتخلـف.

والمسـيح الحـي يـا مينـا، أبـوك قـرأ الأعـمال الكاملـة لحنـا مينـا، ومـن كـثرة تعلقـي وحبـي لـه، سـميتُك عـلى اسـمه، وقلـتُ للباشـا

إن اسم مينا ابني نسبةً إليه هو، وهذا بعدما استأذنته في ذلك، ليفرح أكثر من عبده المُخلص، عبده الضعيف الذي كان يقويه بالإيمان وحب المسيح، وحفظ الآيات وفهم الإنجيل، والبُعد عن أي تشكيكٍ خبيثٍ في معجزاته وإدارته لحياتنا، ولأنني عبدٌ مُخلص لم أسأل ولو صدفةً عن التناقض الرهيب بين إيمان الباشا وظلمه الكافر الواضح، ما دمت أتعلم وأجني المال، ما دمت أنا المُفضل لديه، وطلباتي البسيطة كلها مُجابة، ما الذي يجبرني على تعكير صفوه تجاهي؟ بل إنني تعلمت منه هذا التناقض، في كل الأوقات أنا مؤمن، لديه معرفةٌ قويةٌ بالإنجيل، وفي أوقات حضور الباشا، أنا قاتلٌ يضع الإنجيل جانبًا، ويتلو على ضحاياه كلماتٍ من كتاب الموتى.

الراحة عامةٌ عرفتْ طريقَها إليّ، بطريقةٍ ما، بعدما تحدثتُ أمامك، عن تاريخي غير المُشرف نهائيًا، أعرف جيدًا أنك لا تسمعني، وأنني أستحق الموتَ وكل ما نمر به، وقد أكون أنا السببَ في ما يحدث للجميع حاليًا، القاتل المؤمن غير الرحيم، الذي أخفى رماد ضحاياه بين ثنايا ما يصنع، ولكنني معذورٌ يا مينا، شخصٌ مثلي لم يكمل تعليمه كأصدقائه، الفقر حاضرٌ دومًا، وهو السد المانع بينه وبين أي متعةٍ يتمناها، كلهم عاشوا طفولتهم، وأنا حرقني الحرمان أكثر من نار الفُرن، حرقني الحرمان من الحياة، ومن أمي بعد مقتلها، أقصد موتها، أقصد موت.. أقصد موتها يا بني يا حبيبي.

كلمةُ (لا) كانتْ حاضرةً بقوة، لا ذهاب إلى فلان، لا نملك مالاً، لا ملابس جديدة، لا ترقيع للثقوب، لا حياة كريمة، لا

يعلـم مصيرنـا إلا المسـيح، صناعـة الفخـار لا تـدر مـالاً، وبعدهـا اكتشـفتُ أن الأمـوالَ موجـودة، ولكـن أبي كان يحـب النسـاءَ، أكـثر مـن زوجتـه وابنـه الوحيـد، يدفـع للعاهـرات والراقصـات أكـثر مـن نصـف ربحـه، والمتبقـي يقسـمه إلى ربعـين، ربـعٌ للبيـت ومصاريفـه الكاملـة، وربـعٌ لجيبـه الخـاص، فتخيـل يـا مينـا أن تعيـشَ أنـت ووالدتـك ومتطلبـات البيـت عـلى قليـل القليـل، وعندمـا أجـد الفرصـةَ لأعيـش حيـاتي، وأضمـن لـك حيـاةً كريمـةً، ولزوجتـي ولنفسـي، وللبتـول مريـم، التـي أتمنـى أن تسـامحني عـلى جريمتـي في حقهـا، أنـا واثـقٌ بأنهـا تربُـتُ عـلى كتفـي وأنـا أتحـدث إليـك، وتقـول لي سـامحتك يـا أبي.

والمسـيح الحـي يـا مينـا، وقعـتِ الملامـح عـن الـكُل، وبقيـتُ أنـا هكـذا، بعينـيٌ فقـط، في الفُـرن الجامـع لـكل خطايـا عُمـري، كي أرى سـندي في الدنيـا ضعيفًـا، وكي أتعـذب كآبـاء وأمهـات الفتيـات الـلاتي قتلتهـن مـن أجـل متعـة الباشـا، وغلاوتـك يـا مينـا، حاولـتُ كثـيرًا قتـلَ نفـسي، بخبـط رأسي في الجـدار، أو كـسر المنتجـات الموجـودة هنـا عـلى دماغـي، أو فـقء عينـي، وكأن مـلاكًا حارسًـا يحـرس جسـدي وعينـيَّ مـن أي أذى، ليتأكـد مـن تعـرضي لأقـصى درجـات العـذاب.

المُهـم.. هـل تعتقـد يـا مينـا أن أختَـك مريـم قـد سـامحتني فعـلاً؟

عبد القوي

حدثتني نفسي، بشيءٍ من الغرابة، عن أمرٍ عجيب، توسوس لي بكلامٍ غير مفهوم: "ما زلتَ حيًّا، لم تمُت، ستعيش سيرتك، وهو مقبل لك!" تفسير ما قيل لا يعنيني، والسبب هو عدم إدراكي للتوقيت، لماذا انقطع فجأة الوحي الذي يعلمني أشياء، لتوسوس لي نفسي، بكلماتٍ عن شخصٍ، لا أعرفه ولا يعرفني؟ من الذي ما زال حيًّا؟ وكيف ستعيش سيرته؟ أو الكلام عني تقريبًا؟ إذًا فما الجديد؟ فأنا حي! ولكن كيف ستعيش سيرتي؟ وأنا أجهل من أنا، ولا أعرف شيئًا عن طفولتي أو شبابي حتى!

المُدهش في نزول الوحي، ومعرفتي للأمور، هو إحساسٌ بدأ التلاعب بي، أنني لا أشعر بحداثة الأفكار المعروضة، أعرف جيدًا أنني لدي الكثير من المعرفة، ولكن أدهشني هذا الكم! كل القصص والحكايات المعروضة، أشعر كأنني عشتُها من قبل، أو أعرفُها حق معرفةٍ، ولم تصبني دهشةٌ أو استغرابٌ من فكرةٍ أو قصةٍ ما، حتى لما رأيتُ كل المعجزاتِ السماوية، عجبتني جدًّا، ولكن دون دهشة، أقول لنفسي في كل مرةٍ: "نعم.. شاهدتُها من قبل، وسمعتُ عن تلك، وهذا الأمر الساحر أعرفه جيدًا!" وهذه هي الغرابة في حد ذاتها، شخصٌ مثلي كيف عرف تلك الأمور، وأنا الذي لم أقرأ كتابًا طوال حياتي سوى الكتب المدرسية العقيم، وهذا على حد قول أبي، الذي كان يلوم عليَّ لأنني كنتُ أنسى ما بها بمجرد خروجي من الامتحان، بعدما

أخرجتُها من عقلي على ورقةٍ بيضاء عديمة الفائدة، وأنا لا أذكر متى، أو أين الورقة أو الامتحان!

أعجب من الوحي ونزوله، ومن المعلومات وغرابتها، ومن المعجزات وعظمتها، رؤيا تتكرر كثيرًا في الفترة الأخيرة، أرى نفسي في سفينة، مع شخصٍ تظهر عليه علامات التقوى، ثم فجأة دون أي مقدماتٍ، أثقب السفينة فينفجر الماء داخلها، يهلع الرجل ناحيتي ويسألني عن غباء فعلتي وكيف سننجو، فلا أجيبه على الرغم من ابتسامتي، الصراحة أراني وأنا أقول شيئًا، لكنني أعجز عن تفسيره، لم أكن بارعًا في قراءة الشفاه، وأعتقد أنني في يومٍ، سأسمع ما قُلتُه، خاصةً أن الرجل لم يهدأ، وظل يصرخ بوجهي، مشيرًا إلى رقبته وتلك الحركة المعروفة، التي تعبر بها عن الذبح، والموضوع يتكرر كثيرًا، ونظراتي إليه كلها ثقة، كأنني على وشك التفسير، وأتركه فقط ليتعلم حكمةً ما، أو يتدرب على ضبط النفس، أتركه وأمشي فوق الماء، بسلاسة كالمسيح! باختصار، في كل الرؤى، أنا المُعلم وهذا الرجل تلميذي، الذي يتعلم من تجاربي، حتى إن بدتْ له غريبةً غير مجدية.

أما الشق الآخر من الوسوسة، فهو يخص ذلك المجهول، والمفترض أنه آتٍ من أجلي، فأعتقد أنه يوم الهنا والفرح، إذا جاء حقًّا أحدُهم لينقذني، والله لو أتى إبليس لن أمانع، المُهم أن أخرجَ من قاع النهر، وأشعر بوجود كائن حي غيري، السمك تقريبًا نسي النهر ولم يعد يسبح، كل مخلوقاتِ النهر اختفت، وبقيتُ أنا بمفردي، كل تلك المدة التي أجهلها، هل مرتْ أعوام

على تلك المُعجزة؟ معجزة البقاء بمفردي، دون أكل وشرب، بلا حواس أو ملامح، يهجرني الخيال والحلم، النهر يستضيفني في قاعه، ويمر ماؤه حولي غير منزعج من كيانٍ يهز ثبات سريانه، لأنه سيعود إلى طبيعته حين يتخطاني، وسيجد ذراته تتحدث في ما بينها مثلاً: "هل ابتعدنا قليلاً عن بعضنا؟" لتجيبها أخرى: "اختلال خفيف وذهب إلى حاله، لا تقلقي". بكل بساطة هذا أنا، كتلةٌ تستطيع التحرك، ومع ذلك لن تتحرك، والسبب هو جهلها بالطرق، وبشكل الحياة حاليًا، وبالسبب وراء التحرك من الأساس، إذا كانتِ النتيجة في النهاية واحدة، الثبات لأنني بلا فائدة.

لا أنكر أنني طوال تلك السنين حاولتُ كثيرًا السباحة والهرب، ولكن الاستسلام كان دومًا حاضرًا، لما فشلتُ في كل المرات، ولم أصل إلى أي جهةٍ، فتعبتُ من التجربة عامةً، وتركتُ نفسي للنهر، ولما يريد فعله بي.

لم يعد يشغلني السؤال التافه، المُتعلق بالمُدة التي سأقضيها هنا، أو الأسئلة المُتكررة، حول من أنا وطفولتي، ومن الطفل الذي أقتله في الحلم، في الحقيقة ظهر سؤالٌ جاد، جيدٌ وجاد في الآن ذاته، هل هذه نهايتي؟ هل أنا ميتٌ حاليًا، وذلك عذابي؟ الله قادرٌ على فعل كل شيءٍ، ومن المُعطيات التي تحاوطني، أرى أنني سأموت بعدما ينتهي الوحي من تعليمي كل ما فاتني، كأن اللهَ يخبرني بمدى جهلي، ويذلني بالتعليم، ثم يقبض روحي، فأعرف كيف أجيب عن أسئلة القبر، ولأنني سأموت هنا، فهذا هو قبري، والله العظيم ميتةٌ عجيبة، مدفون في قاع النهر،

جثتي ستتحلل أسرع بفعل الماء، ثم يسير رماد جسدي في مياه النهر، ويبدأ البشر في استخدامه، دون علمهم بوجودي في ذرات الماء، فأجدني في معدة أحدهم، وفي ماء من يغسل سيارته، وفي الكمية التي استخدمها الشيخ للوضوء، وآخر للطهارة من النجاسة، وجزء ذهب ليغسل فرجَ امرأةٍ بعد ممارسة جنس ممتازة، وفي أكلةٍ تحضرها أم، أو مرميًا أمام محل يبحث صاحبه عن الطراوة، فسكب سطلاً وهو يُبسمل، آملاً في نهارٍ، رزقه كثير وخناقه قليل.

على أي حالٍ، من الواضح أن معلوماتِ الوحي كثيرةٌ، وهذا يعني البقاء لفترة أطول في اللاشيء ذاته، العذاب غير المُتجدد، الوسوسة المُتزايدة من البداية، الجنون الذي يرفضني، العقل المُحافظ على وجوده، تحبني ذاتي جدًّا، فتحرسني من الخَبَلِ، تصلي من أجلي لأتحمل الوحدة، لأبقى أنا ولا أفقد عقلي، وإلى أن يتغير الواقع، أنا منتظر قدوم الشخص الذي سينقذني، سأقبّل قدمه حين تنبت لي شفاه، وسأطلب منه كوبَ شاي بالنعناع، وإذا أراد قتلي بعدها، فوالله الذي نفسي بيده، لن أرفض.

نعمة

الغبـي الـذي أُحبـه رمـاني بالنهـر، مـن شـدة ثورتـه وغضبـه، الغبـي الـذي أُحبـه كان خلفـي، قاربُـه يمـشي ببـطءٍ بسـبب ثقـل الجهـاز العجيـب، والمُـتردد الـذي أُحبـه كان خائفًـا، قاربُـه يمـشي بريبـةٍ، بسـبب خـوف راكبـه العجيـب، والمُتقاعـس الـذي أُحبـه كان متوتـرًا، قاربُـه يمـشي بعـدم جديـة، بسـبب عُقـدة صاحبـه الغريبـة، ولمـا وصلنـا وسـألني لمـاذا توقفنـا في منتصـف النهـر، ولمـا عـرفَ أن هـذا هـو المـكان المنشـود، ظـل يسـب ويلعـن، ويتهمنـي بالجنـون، الوحيـد الـذي أحببتُـه، يـراني مجنونـةً وغـير مكتملـة النضـج، وكلامًـا لم أفهمـه، لكـن مـن الواضـح أن المعنـى كبـير، والشـتائم قاسـية، يكفينـي منظـر محيـي، وهـو يرفـض النظـر إليّ، يـصرخ ويتحـدث إلى الفـراغ أمامـه، ثـم فجـأةً حـرك قاربَـه تجاهـي، في البدايـة اصطدمنـا بلطـفٍ، ثـم قفـز إلى قـاربي، وصفعنـي!

لم أفهـم تصرفَـه، لمـاذا يصفعنـي رجـلٌ أُحبـه، لمجـرد أنـه رافقنـي في رحلـة، تحـت تهديـد قتلـه؟ أنـا لـن أقتلـه، تهديـدٌ غـير حقيقـي، أنـا فعـلاً كنـتُ خائفـة، والجهـاز ثقيـلٌ لجـره، يكفينـي مـا عانيتُـه مـن إصابـاتٍ بسـبب رسـول الخـير ابـن القحبـة، التـي يركـب أمـه كل مـار، جعلـتْ أعصـاب يـدي مرتخيـة، بالـكاد تسـتطيع حمـل الأشـياء، وللمـرة الأولى كنـتُ مطمئنـةً لوجـوده بجانبـي، هـذا المجنـون الـذي رمـاني، ويخـاف حاليًـا مـن مـد يـد المُسـاعدة، طبعًـا لـن ينحنـي ليرفعنـي، لـن يسـتوعب توتـر القـارب فـوق المـاء، لـن

يُسلم جسدَه ليسند إلى القارب مثلاً، ويساعدني في الطلوع مجددًا.

عامةً أنا موهوبة في السباحة، تعلمتُها في النيل الماشي في الشرقية، وفي كل ترعةٍ وبحيرةٍ وبحرٍ ونهرٍ، من أجل الاستحمام، الفعل الذي رفض الكثيرون أن أقوم به في بيوتهم، خوفًا من عدوى قد تُصيبهم، لسقوط ماء في أحواضهم، ربما يحمل بقعةً مني، ذاكرتي ترفض طردَ هذا المشهد، حين رفضَ رجلٌ، بعدما نام معي، وأخذ كفايته وشهوته، وقذف لبنَه ثلاث مراتٍ، ولما لمحني أقوم إلى الحمام، تحجج بانقطاع الماء، وأنني لن أجد الراحةَ في حمامه الصغير، وقتها لبستُ وشاهدتُ قطتَه، التي حكى لي ونحن نخلع ملابسنا، أنه كان يُحممها.

وتخيلتُ نفسي قطةً، يربت الجميع عليها، يزيل شخصٌ فضلاتِها، يضع لها ما لذ وطاب، ويتوسل إليها أن تبقى في مكانها، لتستمتع بالماء الفاتر، النازل عليها لينظفها، وليضع عطرًا مخصصًا! حياةٌ كاملةٌ جميلة لقطةٍ، وأنا يرفضونني لبقعي، ويا سلام لو كان الحيوان من ذوي الاحتياجات الخاصة، تجدهم يتنافسون على حبه، والدموع المُنهمرة على حالته، الناس في بلدي، أولاد الكلب، يعشقون الحيواناتِ المُصابة، ويكرهون البشر أمثالهم، لأنهم ليسوا لطفاءً، يقولون لك: "قطةٌ لطيفةٌ بقدمٍ مبتورة، شكلُها لطيف ووديع!" والناس ذاتهم، يقولون لك في مناسبةٍ أخرى: "كيف يدعون شخصًا كهذا يمشي بين الناس؟ قدمه مبتورة وشكله مقرف جدًا!"

الوقت يمر، تظاهرتُ أكثر من مرة بأنني أغرق، وهو يقف لا يتحرك، يلوم عليَّ، يعض أظفاره في خوفٍ واضح، تعطلتْ أفكاره، لم يهده عقلُه إلى حبلٍ، أو البحث عن عوامة بالقارب، الخوف شل تفكيرَه تمامًا، ثم ضربني بأكثر المقولات وجعًا، كأنه أطلق عليَّ رصاصةً: "أنا ذاهبٌ إلى اليابسة يا نعمة، أنتِ عرَّضتِ حياتَنا للخطر، لا وجود لحبل أو عوامة أو أي وسائل إنقاذٍ في هذا القارب، الحقيقة إذا طلعتُ إلى اليابسة، لا أعرف هل ستقودني الشجاعة من جديد إلى الرجوع إليكِ أم لا، أنا لا أعلم كيف قفزتُ من قاربي إلى قاربكِ، حركةٌ مجنونة كادتْ تفتك بي، لولا القدر وتدابيره، الجهاز موجود معكِ فوق القارب في حالة عدم رجوعي، كانتْ أيامُنا جميلةً لا شك، ولكن خوفَ الإنسان عظيم يا نعمة، من ملاقاة الموت، وفي حالتي، أنا خائفٌ من الماء والغرق والموت، سامحيني يا نعمة، أنا ضعيفٌ، وضعفي يتحكم في كل أفعالي، حياتي كانتْ هادئة قبل ظهوركِ، سأعود إلى روتين حياتي وجمال هدوئها".

ببساطة رحل رجلٌ، لأنه لا يريد المُخاطرة، ببساطة ترك حبيبتَه، التي قال لها أُحبكِ، كل مرةٍ كانتْ فوقه أو تحته، وذلك بسبب خطورة الموقف، يا سلام يا محيي، كم كنتَ واضحًا وصريحًا، لم تتغير تلك الصفة بداخلك، محيي السافل بصراحةٍ، والمُختل بوضوح، محيي الذي أقسم بجمالي، ولم يسألني يومًا عن بقتي، ولم يشمئز مني، ولم يُشعرني بطمعه فيَّ، من أجل المُتعة فقط، محيي المُطيع الرقيق المُحترم، رحل بكل بساطة، لأنه يخاف من الماء، خوفُه غلبَ حبه، وتركني كما

تركني الكُل، أهلي وحبيبي وعم سند والله، وخصوصًا الله، الذي خلقني هكذا، لأتعذب فقط، يا سلام يا محيي، سنتعاتب فيما بعد، أعدُك بذلك، وحياة لبنك العائم داخل رحمي، لنتعاتب عتابَ عاشقين.

المُهم الرائحة تشتد، رائحة الخبز، والآن هي رائحة خبزٌ مُبتل نتنة، ومصدرها من الواضح أنه بالنهر، هل غرقَ من أتيتُ لأجله؟ سأسبح إلى الأسفل، وأتمنى أن أجدَ ما يستحق، لأنني إذا لم أجد شيئًا، سأقتل حبيبي محيي، لأنه سيسخر مني أنا واثقةٌ، حبيبي محيي الذي ذهب وتركني، يظن أنني بسهولة سأوافق على انفصالنا، سألقنه درسًا حين أعود لن ينساه، سأتتبع رائحته حتى أجده، بعدها سأربطه ربطةً يصعب الفكاك منها، سأغتصبه بدوافع غضبي، وسأجعله يتوسل إليّ أن أتوقف عن مضاجعته، سيصرخ كالنساء، سيخبرني أن قلبه سيتوقف من كثرة قذف المني، ولن أرحمه، حتى يعتذر راكعًا، عن هزاره السخيف، مع حبيبته نعمة، التي يحبُها ولا يقدر على العيش دونها.

القارب الموجود واقفٌ، الجهاز الغريب موجود، وها هو الألم، يصحبني في أثناء نزولي إلى القاع، لابتعادي عنه، سأتحمل كل هذا الخراء، سأصل إلى هدفي ولو ميتة، مهما تزايدتَ لن أرجع إلى السطح، يا محيي يا بن الكلب، لماذا أسبه؟ الألم حاضرٌ في كل الأحوال، كنتُ سأغوص بمفردي، وسيظل هو بالأعلى، كخالقه الذي بالأعلى، يتفرج علينا ولا يفعل شيئًا، أوقاتً أسأل نفسي، لماذا الله؟ لماذا لم يتحدد جنسه مثلاً، الله طبعًا

مُذكر، الجنس الغالب كالعادة، لماذا لم يكن أي اسمٍ آخر، يدل على أنوثة المُسمى؟ ولأنها أنثى، ستعتني بنا أكثر، وستهتم لما نقوله، وسترفض أن نُعاني هكذا! الألم يقتلني ويجعلني أقول كلامًا عجيبًا، كيف كانتْ ستفرق أصلاً؟ الإله في كل حالاته سيتصرف كما هي الحال الآن، القوة والسيطرة وكرمي العرش، وكما سمعتُ في كثيرٍ من الخطب، تلك الميزة التي في معناها أنه يقول للشيء تحول فيتحول تقريبًا، أو شيئًا من قبيل قُم فيقوم، لا أتذكر، الألم يحاوطني كالماء، الظلام بدأ وقد لا أرى شيئًا بعد ذلك، الرائحة من هذه الناحية تحديدًا، تقريبًا أنا أرى شيئًا، نعم! هناك شخصٌ بالأسفل!

رجلٌ يجلس مقرفصًا، يا سلام يا ست نعمة يا خراء البرك، رجلٌ آخر! كل رائحةٍ تقودكِ إلى رجلٍ! الألم فوق العظيم، كيف يمكنني أن أصرخَ، سأسحب هذا الرجل من القاع، وسأصعد إلى السطح، قبل أن يقتلني فراقي عن الجهاز!

اقتربتُ منه، طبعًا دون ملامح، في البداية قاومني في فزعٍ، يضرب في جميع الاتجاهات، المخبول يدافع عن نفسه، هل أحب حياةَ النهر، فيرفض الخروج معي؟ وما الفائدة من رجلٍ ممسوح الملامح؟ محيي كان كاملاً، ولم تصبه النكبة، هل هذه الرائحة، أم ما زالت تحته؟ كُف عن ضربي وصفعي يا بن الكلاب الوسخة، وعزة وجلالة وجودي بينكم، يا أقذر صنف عرفه التاريخ، لأجعلنك تندم! للأسف الرائحة تُغطيك بالكامل، هو المقصود، ستون نيلة تأخذك أنت وأهلك، تعال معي إلى

السـطح، إذا لم أعـثر عـلى محيـي، سـأضاجعك أنـت، تعـال معـي وإذا صفعتنـي مـرةً أخـرى، سـأخلع خصيتيـك!

محيي بن طاهرة

لـن تفهـم نعمـة خـوفي، سـتتهمني بالخيانـة، ربمـا تُخطـط لقتـلي، سـتبحث عنـي في كل مـكانٍ، سـتنتقم مـن أي رجـلٍ يقابلهـا، لتُفـرغ شـحنةً غضـبٍ عارمـة، سـتتفنن في تعذيبهـم، كصنـع شـمعة مـن قضيـب رجـلٍ، أو تخلـع حلماتهـم وتحولهـا لأزرار قميـصٍ، كلـما فكـرتُ في مـا سـتفعله نعمـة، إذا مـا تقابلنـا ثانيـةً، لنقـل الوصـف الأدق، عندمـا تعـثر عـليّ، لـن تـترك مسـامةً في جلـدي دون إصابـاتٍ بالغـة، سـتعالجني نعمـة مـن الخـوف بالمـوت، أو سـتعالجني مـن المـوت، بالمـوت الأكـثر قسـوةً، سـتجبر المـوتَ عـلى الرحيـل، وجلـب مـن هـو أقـسى منـه، وهـي فكـرةٌ بشـعة، أن تكـون غليظًـا فظًـا لا يهمـك تمامًـا، الـشيء الوحيـد الـذي يخشـاه الجميـع!

هكـذا هـي نعمـة، إنسـانةٌ حياتُهـا تضييـعُ وقـت، تنتظـر يـومَ القيامـة بفـارغ الصـبر، لأنهـا حكـتْ لي مـرةً عـن خطبـةٍ سـمعتْها، والشـيخ يقـول للمُصلـين عـن يـوم القيامـة والحسـاب، وكيـف سـيقف العبـد أمـام ربـه ليُحاسـب، وقتهـا أقسـمتْ لي نعمـة إنهـا لـن تـترك موقعَهـا إلا والـرب معتـذر لهـا عـما بـدر منـه في حياتِهـا كلهـا. تخيـل جـبروتَ الإنسـان!

لم تعـترض نعمـة عـلى رحيـلي، لمحتُهـا وهـي تغـوص، في البدايـة ظننتُهـا تفعـل ذلـك لتقـترب مـن قـاربي وتُغرقنـي مثـلاً، ولمـا طـال وقـت الغـوص، تأكـدتُ أنهـا تركتنـي، وسـعت خلـف الرائحـة، المجنونـة سـتقتل نفسـها بسـبب وهـم في دماغهـا، قـد يكـون الأمـر صدفـةً، حـين وجدتنـي بالطريقـة ذاتهـا، وقـد يكـون الله هـو مـن أراد ذلـك، لسـببٍ مـا لا يعلمـه سـواه، ولم تُصدقنـي عندمـا قلتُ لها عـن ضرورة التفكـير في أمـر وجودنـا معًا، وفي بقاء أجسـادنا سـليمة، لم يمسسـنا المحـو نهائيًـا، وهـذا يـدل عـلى شيء خـاص وضعـه الله بنـا، وأراد منـا التـصرف، طبقًـا لحكمتـه بالطبـع، في وقـتٍ مُعـين.. حدثتُهـا أيامًـا عـن تميُّزِنـا، لم تُصـدق كلمـة "مُختـارون"، ضحكـتْ وبصقـتْ في آنٍ واحـدا

شـخصيةٌ غريبـة كنعمـة، تُعجـب الكثـيرَ مـن الرجـال، الرجـل يهتـم بالمـرأة القويـة، عاشـقة الجنـس والسـيطرة، مَـن تنافسـه في السريـر، مـن تُشـعره بمـدى قوتـه في أثنـاء العلاقـة الجنسـية، ثـم تكشـف عـن قوتهـا، فيشـعر بضعـفٍ لذيـذٍ أمـام منحنيـات وتمـرس أنثـوي لا يكرهــه الرجـل عامـةً، لأن النتيجـةَ في النهايـة ممتـازة، نشـوةٌ صادقـة، لا يدنسـها كـذبٌ أو نفـاق.

عنـد وصـولي إلى اليابسـة، التـي لم تكُـن بعيـدةً بالمناسـبة، عرفت مـن اللافتـات الموجـودة أننـي في جزيـرةٍ بمنطقـة المعـادي، سـمعتُ عنهـا كثـيرًا، ولم يشـغلني الذهـاب إليهـا قـط، جزيـرة كانـتْ تابعـةً للجيـش، للتنـزه والأفـراح، عرفتُهـا مـن كلام بولـس عنهـا، كثـيرًا مـا قـال لي إنـه يقابـل حبيبتـه هنـا، وتخيلـتُ أن واحـدًا مـن الواقعـين الآن حـولي، في جزيـرة المعـادي، قـد يكـون هـو بولـس، وبجانبـه

حبيبتـه، وبمناسـبة الـكلام عـن الحـب، أنـا جائـعٌ جـدًّا، وقـد أسـقط مغشـيًّا عـليّ، بسـبب قلـة المـوارد!

لم تسـتقبلني الجزيـرة طويـلاً، حـدثَ مـا كنـتُ أخشـاه، رؤى نعمـة صحيحـة، هـزةٌ خفيفـةٌ بـدأتْ، تبعهـا اهتـزازٌ عنيـف، ثـم تشـققتِ الأرض، لأتفاجـأ بحركـةٍ صعـب تصديقهـا تمامًـا، الأرض مـن حـولي تختفـي، أو بمعنـى أصـح، تهـوي إلى أسـفل!

لا أعـرف هـل في ركـضي أي فائـدةٍ، أم أننـي أركـض كمحاولـةٍ فاشـلة للبقـاء حيًّـا؟ مـا أراه صعـب تفسـيرَه، الطـرق تختفـي تمامًـا، المبـاني يقـترب بعضهـا مـن بعـض، هـل سـيصيب المحـو أيضًـا معـالمَ المدينـة؟ دخلـتُ المبنـى المُقابـل للجزيـرة، بعدمـا عـبرتُ الطريـق الـذي كان موجـودًا مـن ثـوانٍ، صعـدتُ الطوابـق في مـدةٍ قليلـة، وصلـتُ إلى سـطح البيـت، أريـد مُراقبـة الأمـر مـن مسـافة أعـلى، لقـد كانـتْ نعمـة عـلى حـق، الطـرق تختفـي!

عـلى مرمـى البـصر، لا أرى أي طريـقٍ، اختفـت الطرق والمسـافات الخاصـة خلفهـا، المبـاني متلاصقـة، المبنـي يتحـرك تجـاه المبنـى المجـاور، لوهلـةٍ فكـرتُ كيـف سـيمكنني التحـرك إذا مـا أردتُ مغـادرة المبنـى، ومـع المنظـر العـام، أيقنـتُ أن أسـطحَ البيـوت هـي الطـرق الجديـدة، لا وجـود لطـرقٍ، لا لوجـود لأرصفـةٍ وأشـجارٍ، لا لوجـود للافتـات، إعلانـات، سـيارات، حتـى كل النـاس الواقعـين عـلى الطـرق، اختفـوا معهـا.. تخيّـل معـي مدينـةً، الموجـود فيهـا فقـط هـو المبـاني! ومـن يريـد أن يمـشي إلى مـكانٍ، فعليـه أن يمـشي عـلى الأسـطح، وسـيكون حظـه سـيئًا إن وصـل إلى سـطح بيـتٍ، ووجـد

أن المبنى الملاصق له أعلى منه بكثير، فلا يقدر على تسلقه ومواصلة مشيه!

أين ذهب الناس؟ هل ماتوا هكذا؟ هل ابتلعتهم الأرض؟ والطرق؟ كيف تختفي الطرق؟ مدينةٌ بلا طُرقٍ؟ أين قرأتُ شيئًا كهذا؟ من كان يتخيل ما يحدث للعالم! وما سبب اختفاء الأرض؟ أو هذا الجزء من الأرض تحديدًا؟ ما حكمتك يا رب في بقاء البنايات، ووقوفها على أرضٍ تحتها، وزوال الطرق؟ ما حكمتك يا رب في كل ذلك؟ لقد محوتَ ملامحَ الناس، وعرفتَهم الغيبَ، والآن تُخفي الطرقَ والبشر؟ أيعني الأمر زوال البشر كلهم؟ أم اكتفيتَ بمن كانوا في الشوارع؟

لا تتوقف الهزات، الصوتُ مرعب، كأن شخصًا أمسك بمدفع قذائف، ويضرب بلا هدفٍ محدد، أتمنى يا رب أن يتوقفَ الأمر عند هذا الحد، وعدم اضطراري إلى اللجوء إلى الماء، لن أرجع هناك ثانيةً، نعمة ستقتلني، والخوف مما يحدث حولي سيقتلني، والخوف من الوحدة سيقتلني، أنا تعبتُ يا رب من هذه الحياة، إلى متى سينتهي اختبارك لنا؟ إذا كانتْ هذه القيامة، فلنبدأ الحسابَ، وإذا كانتْ غير ذلك، فأرجوك كن بجانبي، لقد تعرضتُ لكل شيءٍ يجبرني على الانتحار، ومع ذلك لم أفرط في حياتي، لعظمة إيماني في حكمتك، ولشدة يقيني بأنني مختلف، وإن لم أكن مُختارًا، لماذا تُبقيني حيًا كل تلك الفترة!

أحسستُ بحركةٍ غريبة، المبنى الذي وقفتُ على سطحه يدفعه مبنى آخر، أكثر منه طولاً وضخامةً، أتحرك ببطءٍ ومجبورًا، إلى اللاشيء، ولا وجود لمخرجٍ، ركضتُ تجاه المبنى المُقابل، الذي كان أقل طولاً، ومنه إلى آخر وآخر، ثم ضربتني فكرةٌ فجأة، إلى أين سأذهب؟ إذا كانتْ كل البنايات ملتصقةً، كأنها كيانٌ واحد، فلا وجود لمخرجٍ أو باب سوى البنايات التي كنتُ أنا فوق واحدة منها، وهذا يعني أن المدينةَ حاليًا صارتْ كتلةً واحدة! بلد كامل، بمختلف بناياته، صار كتلةً واحدة! أي جنونٍ هذا؟ هذا يعني أنني سأمشي في هذا الاتجاه إلى نهايةٍ قد أصل إليها بعد عام، ولن أجد شيئًا، وهذا راجع إلى اختفاء أبواب البنايات، واختفاء الطرق بالأسفل! كتلة خرسانية واحدة، هذا يعني أن الحوافَ فقط هي التي ستمكنني من رؤية الأماكن المُحيطة، وطبقًا لما يحدث، وأتمنى أن أكون مُخطئًا، المدينة صارت جزيرةً، يحيطها الماء من كل مكانٍ، كتلة خرسانية واحدة، حوافُها على البحر، لا وجود للطُرق، إذا أردتُ الدخول إلى قلب البنايات، فهذا سهل، ولكن إلى أين؟ النهاية محفوظة! سأدخل أي بنايةٍ من سطحها، سأدخل الشقق، التي صارت الآن كقبورٍ، موجودة في مساحاتٍ مختلفة، لا يدخلها الهواء، ولا تلمحها الشمس!

هل العالم على وشك الغرق؟ أستهبط كل تلك الكتل الخرسانية مثلاً؟ وتصبح هي الطرق الجديدة؟ ويستطيع الإنسان -إذا ما حدث شيءٌ آخر- البناءَ فوقها مجددًا؟ هل يمحو الله العالم، ليُشكل عالمًا جديدًا؟

توقـف المبنـى المجـاور عـن الدفـع، المبنـى الموجـود بداخلـه صـار ثابتًـا كعادتـه، حـين نظـرتُ مـن السـطح إلى الأسـفل، وجـدتُ المبنـى يطـل مبـاشرةً عـلى النهـر، دون طريـقٍ أو حواجـز، شـخصٌ غـيري مثـلاً يحـب السـباحة، كان سيسـتمتع جـدًا، إذ إنـه سـيقفز مـن السـطح إلى النهـر مبـاشرةً، دون الخـوف مـن الاحتـكاك بـشيءٍ، أو الارتطـام بصخـرةٍ، مُتعـة خالصـة لمـن يحـب السـباحة وميـاه النهـر، أمـا مـن يكرههـا مثـلي، فمصـيره هـو البقـاء داخـل البنايـات إلى أن تتغـير الأمـور.

لمـاذا يـا رب حرمتنـي مـن الحُريـة البسـيطة التـي كنـتُ أنعـم بهـا؟ أمكتـوب عـليَّ أن أظـل حبيسًـا، ولا أرى الشـوارعَ أبـدًا؟ لا أصـدق كيـف محـوتَ الطـرقَ حقًـا! لقـد مـات أولاد الكلـب الذيـن يغضبونـك، والذيـن أكرههـم، وأنـت عاقبتَهـم والحيـاة صـارتْ أجمـل، لمـاذا تُعاقبنـي أنـا أيضًـا؟ أتمنـى يـا رب أن يكـون هنـاك سـبب معقـول لـكل هـذا الجنـون الـذي يحـدث، وأتمنـى أيضًـا ألا يكـون هـذا بسـبب نعمـة، ومـا فعلتُـه بهـا، نعمـة بنـتٌ نكـرة، أنـت خلقتهـا وأنـت غـير راضٍ عنهـا أساسًـا، فـلا تعاقبنـي أنـا، هـي لا تسـتحق أي تعاطـفٍ منـك، يـا رب أنـا مُشـتت وأجهـل مـا أقولـه، لقـد أنقذتنـي كثـيرًا، فهـل يـا رب تنقـذني مـن الغـرق؟ هـل يـا رب تنقـذني مـن المحـو؟

عامٌ من الدهشة الأولى

العامة

صلاة الخُبز

الاستنتاج العام، لخُلاصة الرحلة البشرية، بكامل تفاصيلها، المعروفة مُسبقًا، وغير المعروفة حاليًا، والجارية كتابتها مُستقبلاً، في تشبيهٍ بسيط وموجز، الفُقراء هُم عماد الأمم، والأغنياء راسمو ملامح الأمم، الفُقراء الألوان، والأغنياء الفنانون، الفُقراء دومًا البداية، والأغنياء هُم الرحلة، والنهاية المحتومة -المكتوبة منذ أبد الآبدين- للفقراء، منذ متى وذهب غني إلى نهايته جبرًا؟ يظن الكثيرون، من مختلف الطبقات، أن الفقيرَ محرومٌ من اختيار سيرته، والغني مُخيَّر في كتابتها، والنهاية واحدة في نظر الغالبية، كلاهما سيخطفه الموتُ، وهنا الفارق العظيم،

الفقـير تحـت الـترابِ مدفـون، وأهلُـه فـوق الـتراب يشـاطرونه الحُـزن والدفـن!

أمـا الغنـي، تحـت الـتراب مقبـور، وأهلـه فـوق الـتراب في نعيـمٍ، يدعـون بـدوام الرحمـة، ويبكـون في سـياراتهم الفارهـة، ويضربهـم الحُـزنُ في أثنـاء شراء قطعـة فريـدة، ليـس عـلى المرحـوم لا سـمح الله، بـل لعـدم حصولهـم عليهـا، بسـبب المـزاد السـخيف، والرجـل الغنـي جـدًا الأسـخف، الـذي اسـتطاع اقتناصهـا في آخـر لحظـة.

وفي مسـار الفـترة المعروضـة، وبعـد نـزول الأغنياء لإعادة تشـغيل الحيـاة، لم يـرض أحدُهـم، خاصـةً الموجوديـن في ميـدان التحريـر، بوظيفتـه التـي أقبـل عليهـا سـعيًا، تـسرب الملـل في البدايـة، ثـم الكبريـاء، والتباهـي بالتاريـخ النـادر، وكيـف أن المُتكلـمَ كان فريـدًا في مجالـه، فيقـف المُخـرج، يُذكـر النـاس بأفلامـه العظيمـة، ويـرد عليـه اللاعـب بأهدافـه، التـي وضعـتْ بلـدَه في مصـاف الكبـار، لتتدخـل الرسـامة المُصنفـة دوليًـا، والسـبب الرئيـس لتسـليط الضـوء عـلى دول العـالم الثالـث، ليُخرسـهم جميعًـا الكاتـب المشـهور، الـذي حصـل عـلى جوائـز عـدة، لتميُّزه في كتابـة الروايـات، ويذكـر عـددًا مهـولاً مـن التكريمـات الدوليـة، ورفـع علـم واسـم بلـده، في بلـدان مُختلفـة، يجلـس الأدبـاء أمامـه، في حسرةٍ وغـل، لأنهـم خـسروا جائـزةً ماليـةً مُعتـبرة، كانـتْ سـتنقل معيشـتهم إلى مسـتوى خـرافي، يُريحهـم مـن هـم الوظيفـة ذات الراتـب والامتيـازات، ليتفـرغ الواحـد لـلأدب وحكاياتـه، ثـم يبصـق الكاتـب عليهـم، في خيالـه، لتقديمهـم تسـلية رخيصـة.

كلهم نسوا الجنة وعملَ الخير، وتمنوا ترك الوظائف للعبادة والراحة، خاصةً أن القيامةَ قريبةٌ جدًا، ليجتمعوا في وقت راحتهم، وطلبوا من الكاتب المشهور، الذي يجيد التحدث بدبلوماسية، ويعرف كيف يتلاعب بالألفاظ، فيقنع المُستمع بصواب قضيته، بضرورة التحدث إلى السفير العام، وجلب موظفين آخرين بدلاً منهم، يجيدون التعامل مع العملاء، ولا يقف شخصٌ منهم متفاخرًا بتاريخه، فتتصاعد الأزمة، ويُخرج كل واحدٍ من جعبته إنجازاته، ليركل بعدها رفوفَ الطعام، وهو يسب ويلعن اليوم الذي تسبب في إذلاله هكذا، وإذا حاول رسولٌ من رسل الخير تهدئته أو تهديده، يبدأ الضحيةُ في سرد تاريخ الرسول الأسود، ويهدده بالمثل، بفضح شر أعماله، إذا تحدث إليه بهذا النبرة مجددًا، فيفقد الرسل السيطرةَ على الأغنياء!

لذلك نصح الأغنياءُ الكاتبَ المشهور بالتودد إلى صاحب الأمر، ووجوب تعيين الناس العاديين، أصحاب اللاتاريخ واللاإنجازات، الناس الذين يعرفون معنى لُقمة العيش، والصبر على العصبية، وإجادة التحكم في الأعصاب، الناس الذين يردون على قصةٍ عظيمةٍ لرجل عظيمٍ بجملتهم المشهورة: "العقبى لنا يا رب". هؤلاء الذين يحبون دورَ المساكين، والمسكين سيخاف من رسل الخير، وقتها لن تجد رجلاً منهم يرد على تهديد الرسل بتهديدٍ آخر!

ولأن الكاتبَ المشهور خبيثٌ لئيم، تعمد عدم الفهم، لتقف فنانةٌ معتزلة، وتصرخ بعلو صوتها: "نتحدث عن الفقراء طبعًا يا بن الغبية! هل هذا من سيتحدث باسمنا فعلاً؟

والله العظيم السائق الفلاح الذي كان يعمل لدي أذكى منه بمراحل!" فيضحك كارهُ الكاتبِ في صمتٍ، ويغضب الباحثُ عن المصلحة، ويطالب الفنانة بالسكوت، ليعاود الكاتب لعبته الدنيئة، بسؤاله الأكثر خبثًا: "هل تريدون مني حقًّا، التحدث إلى صاحب الأمر، ليجلب الناس العاديين أو الفقراء كما قالتِ الفنانة، وتعود المياه إلى مجاريها، ويعرف الجميع أن المقاماتِ محفوظة؟" لم يفكر شخصٌ واحد في تعديل كلام الكاتب، الكل وافق على الفور، سواء بهمهماتٍ أو هزات رأسٍ، الحقيقةُ من فم كاتبٍ مُقنعة، يعرف متى يقولها مباشرةً، ومتى يتفنن في عرضها بألاعيب القلم، الذي عرفنا أن من أسمائه، اللئيم الأعظم.

ولم يجد الكاتب أي مشقةٍ في عرض طلب الصفوة على رسولٍ من رسل الخير، يعرفه جيدًا، كان يذهب إلى بيت الكاتب، وهو لواءٌ بالشرطة، يسهر معه سهراتٍ غير عادية، ويقرأ مع الصغيرات الحالمات بالشُهرة ما كتبه الكاتب المشهور، وفي نهاية كل سهرةٍ، يدخل مع إحداهن إلى غرفة نومٍ، يعدها بالحماية من أي متطفلٍ، وقرب نشر روايتها أو أعمالها، المُهم أن ترضيه، وتجعل لبنَه يفور.

رسول الخير أكد له أن الأمر سيصل حالاً إلى المسؤول، ولن يبقى أحدٌ منهم في وظيفته، مع ابتسامةٍ غامضة، لم يفهمها المحُيطون به، ولكنهم توسموا الخيرَ في رسولهم، الذي ذهب فورًا إلى الرسول الأكبر، ليعرض عليه طلبَهم، فأخبره الرسول

الأكبر بأنه سيهاتف صاحب الأمر، والمعروف عنه كرمه الواسع وحبه للخير، ولن يرده خائبًا أبدًا.

تمت المكالمة كما وعد، وجاء الرد واضحًا صريحًا: "من يرفض العمل، يُعدم في ميدانٍ عام، اعرض عليهم الأمر، وإذا رفضوا ولو مرةً واحدة، يُعدم كل معترضٍ! القيامة على الأبواب، العام مر سريعًا، وليس هناك وقت للاعتراض أو تصحيح الأمور، لن أقوم بأي ذنبٍ في تلك الفترة، وهم يخرجون على الحاكم في طلبِهم هذا! اسمعني! لا تقل لهم شيئًا! اعدمهم فورًا! وإذا لم تقم بالأمر، سأعدمك بنفسي! والأمر نفسه للرسل الآخرين، اجعل كل رسولٍ ينزل إلى ميدانٍ من الميادين العامة المُخصصة للعمل، يسألهم سؤالاً واحدًا، من يريد ترك العمل واستبداله بشخص عادي؟ كل من وافق، يُعدم فورًا، في وسط الميدان، وترك جثته عبرةً للآخرين! لا لا.. انتظر.. أنا تعبتُ من كثرة المسؤوليات ومن كثرة القرارات! اسمعني يا كلب أنت، أمامي ورق لحالات إعدام أخرى، اجمعهم كلهم، سيُعدم رافض العمل مع المذنب مع المخطئ، سيكون يوم الإعدام العظيم! في ميدان التحرير، سنقيم المشانق والمحارق! لا سلام عليك ولا عليهم يا بهائم!"

وهنا كانتِ الكارثة الكبرى، كيف سيرجع الرسول الأكبر إلى موظفه، يأمره بأن يقولَ للصفوة بضرورة القيام بالعمل، وليس العمل من أجل لقمة العيش، لكن العمل على حفر قبورهم!

رجـع الرسـول المُكلـف بالمُهمـة إلى الميـدان المُعترض عـلى العمل، تحديـدًا ميـدان التحريـر، الـذي تكالـب عليـه الكثـير مـن الصفـوة، ووقـف وسـطهم ممسـكًا بمكـبر الصـوت، وسـألهم: "مـن الـذي يـود التوقـف عـن العمـل؟ ويريـد اسـتبدال شـخصٍ عـادي بـه، ليقـوم بمهمتـه؟" خرجـتِ الغالبيـة العظمـي، وتجمعـت حولـه، وأولهـم الكاتـب المشـهور والفنانـة المعتزلـة، وخلفهـما المُخـرج واللاعـب والرسـامة، كلهـم يربتـون عـلى كتـف الكاتـب المشـهور، ويشـكرونه عـلى همتِـه في مسـاعدتهم، وعـلى شـبكة علاقاتـه القويـة الرائعـة، ليقـول لهـم الكاتـب المشـهور، في ثقـةٍ نابعـة مـن رجـلٍ يعـرف مـاذا يقولـه ومتـى: "الموضـوع بسـيط، سـنحتفل غـدًا بالعـودة إلى بيوتنـا يـا رفـاق النعيـم الدائـم".

عامل الفخار

أيقـن فيليـب صـدقَ يهـوذا، لمـا غـاب ولم يظهـر، فعـرف أن قيامتَـه قريبـةٌ، ورجوعـه إلى العـالم الخارجـي أقـرب، ولأنـه لم يعتَـد الوحـدة، بغيبوبتـه التـي سـتتم عامهـا الأول، بـدأ يتنـزه فيليـب داخـل أروقـة عقلـه، يخـرج مـن ذكـرى قتـلٍ، إلى يـوم ولادة، يمـشي فـوق جـسرٍ مـن الـدم، يـرى زوجتـه في حضـن رجـلٍ آخـر، يُشـاهد مينـا لابسًـا طـوق كلـبٍ، ويزحـف عاريًـا كـما تأمـره أنثـى، يلمـح ابنتَـه مريـم بـين أحضـان الخليجـي والباشـا، كلاهـما يعتليهـا في نشـوةٍ وقحـة، ثـم يقـف أمـام بـابٍ، يُشـاهده للمـرة الأولى، منـذ قدومـه إلى عـالم الضبـاب.

يطرق طرقتين ثم يدخل إلى ساحةٍ، تشعر أنها ساحة جامعٍ كبير، لا وجود للأسقف، المكان منه للسماء مباشرةً، الأعمدة والأرض الرخام، الفن الهندسي الإسلامي، نسمات الهواء والطراوة الجميلة، الهدوء المُطمئن للنفس، اختفاء الشمس رائع، النور موجود من خلف السحاب، صوتٌ رخيم يتحدث، بحث فيليب عنه، ليجد رجلاً كبيرًا، ملامحه ليست عربية تمامًا، يرتدي عمةً خضراء، والجلباب الصوف الزاهد فوق جسده، يتكئ بظهره على سبيلٍ للماء، يخطُب في مجموعةٍ من الشباب، اقترب فيليب من مصدر الكلام، وجلس في حلقة العلم تلك، ليتعرف على المضمون.

لم يفهم كلمةً واحدةً مما قيل، الشيء الوحيد الذي سمعه، في كل مرةٍ سأل شابٌ من الجالسين، هو بداية الجملة: "يا قديس الأيام الأخيرة"، بعدها يختفي الكلام ويصير عبثًا، فكر كثيرًا فيليب من هو قديس الأيام الأخيرة، يعتقد أنه قرأ شيئًا من قبل، أو سمعَ هذا الاسم في حديثٍ، وتعذر عليه الإمساك بخيط يفيده، فأكمل جلسته معهم، لما وجده من راحةٍ في حضرةِ هذا الرجل الغريب.

انتهى الدرس وانصرف الطلاب، ولم يقُم المُعلم، ظل ناظرًا إلى السماء كأنه يُخاطبها، ثم وضع يدَه على صدره، ودون أي مُقدماتٍ وجُه كلامَه إلى فيليب: "حاولتُ كثيرًا التعلم من المُسلمين أصولَ الصوفية، جالستُ أبا الحسن الشاذلي في رؤى الوحي ورحلاتي الروحانية، وهو مؤسس الطريقة الشاذلية، والوحيد الذي وافق على مقابلتي، فكما تعرف عالم الأرواح

تقريبًا يُشبه العالم الخارجي، يموت المرء ومعه كل صراعاته مع الطوائف الأخرى! عرفني الشاذلي على أشهر تلاميذه، أبو العباس المُرسي، أو كما يقولون في الإسكندرية اليوم، المُرسي أبو العباس، كانتْ أجمل الأيام يا فيليب، حين تعلمتُ منهما بعضَ ما يُريح صدري، ويجعلني قديسًا مرتاح البال، يعرف يُكمل دعوته، بهمةٍ مشحوذة.

ذهبنا إلى تونس والمغرب، ولم تبخل تركيا علينا بشيء، وقابلتُ هذا الرجل الذي يُحبه الجميع، جلال الدين الرومي، ونثرَ أشعاره وحكمه وأوراد تصوفه، وحدثني عن شمس الدين التبريزي، وسمعَ مني أصول تبشيري للناس، وما أدعو إليه، ودعا لي بالتوفيق وصلاح الحال، و.. اعذرني يا فيليب، لم أُقدم نفسي، وهذا واضحٌ في معالم وجهك، الناظر إليّ في قلقٍ وريبةٍ.

أنا يا سيدي الفاضل جدك الأكبر يوسف، قديس الأيام الأخيرة، ونبي المورمونية، لا تتعجب من لفظة جدك، أنا بداية شجرة العائلة، أعرف جيدًا أنني غير عربي، ملامحي أمريكية بجدارة، ولكنني نزلتُ إلى الأقصر، في إحدى جولاتي للتبشير، وللبحث عن لوحٍ ذهبيٍ مفقود، مكتوب عليه تعاليم ديانة طائفتنا، وهو فعلٌ يرجع إلى النبي الأول لديانتنا، النبي مورمون، كتبَ أصولَ الديانة على ألواحٍ من ذهبٍ، بلغةٍ غير مفهومة، ولكن الرب اختارني، وتحدث إليّ في ليلةٍ صافية، وأمرني بتأسيس الطائفة المورمونية، وترجم لي كتابَ المورمون المكتوب على الألواح، وبدأتُ في التبشير بها.

ولعناية الرب بي، في كل مكانٍ أذهب إليه، هداني إلى سيدةٍ مُشردة، كانت تمشي في طرقات الأقصر، عارية وفاتنة الجمال، أقسم الجميع لي وقتها على أنهم لم يلمحوها من قبل، تزوجتُ بها وكانت زوجتي الثالثة، فنحن عقيدة مسيحية تؤمن بالتعدد، ورفضت الرجوع معي إلى وطني، المجنونة الحُبلى، قالتْ لي وقتها إن ابنها لن يخرج من بلده، سألتُها كثيرًا كيف تعرف أنه ولدٌ وليس بنتًا، فقالت الملائكة تزورها يوميًا، لتطمئن على الولد، وتُلاعبه داخل رحمِها، وتُهيئه للحياة عند الخروج.

العائلة تكبر يا فيليب، وتنتشر في المُحافظات، الأقصر والفيوم وأسوان والإسكندرية والقاهرة، وكان للقاهرة نصيب الأسد، سواء من العائلة، أو من مُريدي المورمونية، وهي السعادة الخالصة، أن أرى أحفادي، وأنا في السماء، وأنا في الكنائس، وهم يُصلون، وفي بيوتهم، أدعو لهم جميعًا، بالخير والمغفرة والرحمة والمحبة، إلا أنت يا فيليب، كنتَ من نسل أبيك مجيد، ومجيد للأسف من نسلي المُظلم الذي أكرهه، النسل الذي لا يؤمن بي ولا بالمسيح إيمانًا صحيحًا، فتزوج أبوك كثيرًا سرًا، مع أن التعددَ موجودٌ في عقيدتنا، ولكنه لم يتزوج بالمعنى الصحيح، ولم يبحث عن البتول بنت الأصول، والمسيحية المؤمنة التي تفتح بيتًا، بيتًا يحميه يسوع ودعوات يوسف قديس الأيام الأخيرة، يصرف أمواله على الراقصات والغانيات، وأنت يا مسكين منذ صغرك، تُخبرك أمك أنهن مجرد نسوة في حياته، وهن زوجاته، صدقني يا فيليب، حاولتُ معه، جعلتُه يرى كوابيسَ الشر في أحلامه، أحلام قد تهدي الشيطان إلى طريق الرب، ومع ذلك كان

يتغلـب عليهـا حـين يفيـق مـن نومـه، بالخمـر والقهـوة والسـجائر، وهـو يعـرف أنهـا مـن الممنوعـات في عقيدتنـا، كأنـه يُحاربنـي يـا فيليـب، وللأسـف كان مـن طائفـة الأرثوذكـس، ذلـك لأنـه يعـرف أنهـم فقـط مـن سـيدخلون الجنـة! الـصراع الطائفـي الحقـير، بـين الأرثوذكـس والبروتسـتانت والكاثوليـك، وكيـف يـرى الأرثوذكـس أنهـم فقـط مـن سـيكونون مـع يسـوع في الملكـوت!

ولمـا وجدتُـك تقيًّـا، ومسـيحيًّا مُخلصًـا، كنـتُ في غايـة الفـرح، أخـيرًا نسـل مؤمـن مـن صُلـبٍ مجيـد، الـذي أمـرَ كل نسـوته بالرحيـل إلى القاهـرة، وتـركك أنـت وأمـك في الفيـوم، وأنـا يـا فيليب يـا بنـي، لـن أقـول كلمـةً واحـدةً تجرحـك، تجـاه ماضيـك ومـا فعلتَـه، أنـت ضحيـةٌ لأبٍ معـدوم الإنسـانية، لم يسـتطِع التحكـم في نزواتـه وشـهواته، وتـركك فريسـةً للفقـر، ولمـا رجـع في يـومٍ، إلى بيتكـم ليـلاً، قتـل أمـك أمامـك، بعـد شـجارٍ نشـب بينهـما، وحتـى لا يفتضـح أمـره، ركـض بجثتهـا، وحرقهـا داخـل الفُـرن، أنـت ضحيـة أبيـك يـا فيليـب، أبـوك مـن فعـل هـذا بـك، أنـت تحرقهـم لتنتقـم لأمـك، لتنتقـم مـن أبيـك، كل الفتيـات والبنـات والرجـال، الذيـن رأيتهـم جميعًـا في أحلامـك، كان غـرض سـؤالهم المعرفـة، وليـس الإنـكار! هـم يعرفـون كـم عانيـتَ يـا فيليـب، لذلـك يسـامحونك!

وأنـا أعـرف كيـف عانيـتَ في حياتـك، وكيـف حـررك القتـلُ مـن خطايـا أبيـك، وكيـف شـعرتَ في كل مـرةٍ قتلـتَ شـخصًا، براحـةٍ غريبـة، كأنـك تُصـلي مـن أجـل المسـيح صـلاة الـدم، تطلـب منـه محبتـه ومغفرتـه، بحـرق الجثامـين في الأفـران.

أنـت تسـتحق حيـاةً أفضـل يـا فيليـب، لـن أتـركك أبـدًا، سـأظل مـلاكك الحـارس، طـوال حياتـك وبعـد مماتـك ويـوم ذهابـك إلى الملكـوت، ولـكي تعـرف أننـي لسـتُ كاذبًـا، أنـا مـن أنقـذك مـن المـوت، لمـا انفجـر القطـار بفعـل فاعـلٍ، ركضـتُ تجـاه جسـدك النائـم، ومنعـتُ عنـه إصابـةً قاتلـة كانـتْ عـلى وشـك كـسر رقبتـك، ولمـا دعـوتُ يسـوع، بـشرني ببقـاء عمـرك، وأن المـوتَ بعيـدٌ.

أيـامٌ قليلـة وسـتقوم إلى الحيـاة مـن جديـد، يـا فيليـب، نصيحتـي الأخـيرة لـك، حـين يحـدث الأمـر، وتـرى الطريـق واضحًـا أمامـك، اركـض في خـطٍّ مُسـتقيم، لا يسـار يريـدُك، ولا يمـين يحميك، الاسـتقامة هـي الملجـأ العظيـم.

يـا فيليـب، عُـد إليهـم وأنـت بالـسر عليـم، حياتُـك مميـزة، لأنـك مـن نسـل نبـي، مـن نسـلي أنـا يـا فيليـب، يوسـف سـميث، النبـي الـذي بُعـث إليهـم، قبـل الألفيـة الثانيـة بألـف ومئتـي عـام، أنـت مورمـوني بالفطـرة، لذلـك لم تـشرب الخمـر ولا السـجائر ولا القهـوة، أتذكـر كيـف كان نجيـب يتعجـب منـك؟ نعـم يـا فيليـب نعـم! أنـت مورمـوني بالفطـرة! نحـن لا نـشرب الخمـر ولا القهـوة ولا السـجائر! وأنـا سـامحتُك يـا شـقي عـلى شربـك للأرجيلـة!

أنـت لسـتَ كيهـوذا، أنـت ضحيـةٌ تائهـةٌ، يسـوع كان عـلى يمينـك يسـندك، وأنـا عـلى يسـارك أعتـذر لـه، كلـما قتلـتَ أو أذنبـتَ، يـا فيليـب، أنـت قديـس الأيـام الأخـيرة، لا تُحـارب المسـيح، ولا تفعـل مـا طلبـه منـك يهـوذا، ولا تصدقـه أساسًـا، الـرب عليـمٌ بـكل شيءٍ، ليـس هنـاك تناقـض ولا حـرب، هـذه نهايـة الأيـام،

وأنـت في الملكـوت رغـم كل خطايـاك، لأنني صليـتُ مـن أجلـك كثـيرًا، يـا تائهًـا في بـئر الذنـوب.

حـين تقـوم، اسـأل المسـيح عـلى اللـوح المفقـود، يرفـض أن يخـبرني، وقـال لي في نهايـة الأيـام سـأقول لحفيـدك، وأنـا أحتـاج إليـه، لمعرفـة مـا خفـي علـيَّ مـن تعاليـم ديانتنـا، لمـا تـرى المسـيح اسـأله يـا فيليـب، أنـت الوحيـد القـادر عـلى ذلـك، أنـت الوحيـد الـذي سـتكون قـادرًا وقتهـا، لمـا يحـين اليـوم الكبـير، سـيُصيبك مـا هـو أقـل منهـم، لمعرفـة اللـوح الذهبـي المفقـود، أشـعر برائحـة الذهـب في أنفـي تُداعبـه، فيليـب، لا تخذلنـي أرجـوك!"

عامل الدوكو

لم يُصدق عبد القـوي الرقـمَ الـذي سـمعَه.. نظـر إلى العرائـس المرصوصـة في المخـزن الكبـير للمـسرح، وتعجـب مـن شـكر بـكار لـكل عامـلٍ موجـود عـلى مسـاعدته في تحقيـق المطلـوب، رغـم ضخامـة العـدد، فإنهـم جميعًـا كانـوا رجـالاً بحـق، وتحملـوا المسـؤولية، ثـم خيَّرهـم بـين الرحيـل أو البقـاء، في كل الأحـوال هـو ليـس مهتـمًا بمـا يحـدث خـارج حيـز مسرحـه، ولا يأبـه لأي عقوبـةٍ مهـما كانـتْ، الحُريـة حـق مكفـول للمواطنـين، الحريـة حق متأصـل في عقيـدة الإنسـان، وقبـل أن يختتـمَ كلامَـه، أخـرج مـن -كيـسٍ أسـود زجاجتـين، في البدايـة لم يفهـم أحـدٌ نوعهـما، بعدهـا عـرف كل شـخصٍ واقـف، عـلى قـربٍ أو بعـدٍ، مـن بـكار وخشـبة

مسرحـه، أنـه يعـرض عليهـم زجاجتـي خمـر، الزجاجـة الواحـدة عُتقـتْ لسـنين طويلـة، تجعـل الجبـل يترنـح إذا مـا شربَ كأسًـا.

لم ينضـم عبـد القـوي إليهـم، فضَّـل الوقـوفَ بـين العرائـس في المخـزن، يُدهشـه الاختـلاف المخلـوق، لا وجـود لشـبهٍ بـين اثنتـين، بـدأ يُحادثهـا، ويُعرفهـا بنفسـه، ثـم يضحـك بصـوتٍ مكتـوم، وكاد يمـوت مـن الخـوف لمـا أحـس بيـدٍ تلمـس كتفـه اليمنـى، ظـن في البدايـة أنهـا عـروسٌ تتحـرك، لكنـه بسـمل وحوقـل حـين رأى بـكار يقـف خلفـه، في يمينـه كأس خمـرٍ، وفي يسـاره زجاجـة ميـاه غازيـة ناولـه إياهـا، ثـم طلـب منـه ضرورة التركيـز في مـا هـو آتٍ: "اسـمعني جيـدًا يـا عبـد القـوي، أعـرف أننـي وعدتُـك بتعليمـك كيـف تحـرك العرائـس، ولكننـي أريـد منـك خدمـةً طارئـةً، هـل تعـرف شـخصًا، أو بمعنـى أصـح نحاتًـا أو فنانًـا، يعـرف كيـف يصنـع التماثيـل مـن مـادة السـيليكون وليـس الشـمع؟ السـيليكون يـا عبـد القـوي، لا أريـد تماثيلَ شـمع، هـل تعـرف أحـدًا يحـب الفـن مـن أجـل الفـن؟ لم يتأثـر بموجـة الإيمـان المزيفـة بالخـارج؟ شـخصٌ إذا تحدثنـا إليـه لـن يجيـب بالقيامـة والديـن وأعـمال الخـير؟ أنـا للأسـف لا أعـرف كيـف!"

ميـزةُ الفهـمِ لـدى عبـد القـوي ليسـت في ترجمـة المقولـة، بـل في الإجابـة عـن سـؤاله النابـع مـن سـؤالك الأسـاسي، وهـو مـا فعلـه عبـد القـوي، بـشيء مـن الحـذر، لما سـأل بـكار، عـن السـبب الرئيس خلـف طلبـه، مُعلـلاً بأنـه لم يسـتفسر عـن شيءٍ منـذ يومـه الأول في المـكان، فأجابـه بـكار بأنـه المطلـوب في كتابـه، هـو وكل الزمـلاء الذيـن فعلـوا مثلـما طُلِـب منهـم، وقبـل أن يُكمـل جملتـه، سـأله

عبـد القـوي: "زمـلاء؟ هـل يعنـي كلامـك وجـود أشـخاص آخريـن يصنعـون منـذ عـام عرائـسَ خشـب، مثلـما تفعـل أنـت كل يـوم؟" وعندمـا أجـاب بـكار بالإيجـاب، وأنهـم عـشرون بالتـمام والكـمال، باغتـه عبـد القـوي بسـؤالٍ آخـر، قبـل أن يُكمـلَ حديثـه: "يـا بـكار، إذا كان العـدد مئـة ألـف لـكل واحـدٍ، هـذا يعنـي مليونـين! مـاذا سـنفعل بمليـونَي قطعـة خشـب عـلى شـكل عرائـس خشـبية!"

في حديـثٍ مُطـولٍ، شرحَ بـكار لعبـد القـوي حقيقـةَ مرضـه، والغـرض مـن حياتـه البائسـة، وكيـف أنـه فـرحَ لمـا تسـاقطت الكتـب، ثـم ضربـه الحُـزن لاسـتمرار بـطء حياتـه، وخلـو الكتـاب مـن أي مُغامـرةٍ، لكـن بعـد اكتشـافه لتشـابه المهمـة المطلوبـة مـع أشـخاص آخريـن، يعرفهـم ويعرفونـه، قـرر المُشـاركةَ فـورًا، دون أي استفسـارٍ عـن العلـة، عمـلَ بيقـينٍ تـام، وأيقـن بإيمـان خالـصٍ أن المكتـوبَ محتـومٌ، وكيـف راعـى ربـه ظـروف صحتـه، فأمـره في كتابـه أن يُحـضرَ أشـخاصًا للعمـل، ومـع الاسـتمرارية سـيحقق المطلـوب، وهـو مـا حـدث بكفـاءة، كان لا يؤمـن بهـا صراحـةً، لخبرتـه بالتعامـل مـع العـمال المصريـين، وكيـف أنهـم يعبـدون الكسـلَ، ولكنـه تفاجـأ بنشـاطِهم وحبهـم لمـا يفعلونـه، وهـو مـا انعكـس عـلى طريقـة الشـغل، وتسـليم العـدد المطلـوب يوميًـا، كـما هـو موضـح في الكتـاب، مـن قطـعٍ خشـبيةٍ فائقـة الجـمال، ومكتملـة الصُنـع، دون أي عيـوب خلقيـة.

المعجـزة حدثـت، والجميـع أصبـح جاهـزًا، بعـدد العرائـس الخشـبية، المُقـررة عليـه في كتابـه، قبـل أن يظهـر العجـز الواضـح، في

عـدم معرفتهـم، ويقصـد هـو وزمـلاءه، بأصـول النحت بالسـيليكون، أو بشـخصٍ قـد يُسـاعد.

سـأله بغتـةً: "هـل تقصـد السـيليكون المطاطـي؟" تفاجـأ بـكار مـن سـؤاله، وأجـاب فـورًا بـأن هـذا هـو المطلـوب فعـلاً، واسـتفسر منـه كيـف عـرف هـذا، فلـم يخـبره بأنـه الرجـل الـذي يعـرف الكثـير، ولا يشـغل بالـه بالتفكـير. حـاول الهـروبَ مـن سـؤاله، فقـال لـه بـكار: "مـن الواضـح أن الكتـابَ محـق بشـأنك، أنـت شـخصٌ موهـوب وعظيـم! هـل ستسـاعدني في هـذا؟"

قـال عبـد القـوي، بنـبرةٍ مهـزوزة: "كـما أخبرتنـي بـسرك وسر مرضـك، سـأخبرك بـسر عنـي، أنـا أصـلاً يـا بـكار عبـارة عـن موسـوعة متحركـة، أعـرف الكثـير مـن المعلومـات، وقـد أجيبـك عـن أي سـؤالٍ، كإجابـةٍ ظاهريـةٍ فقـط، ولكننـي لا أشـغل بـالي بالتفكـير، كلـما فكـرتُ شـعرتُ بدماغـي يؤلمنـي، كأنـه يأمـرني بالتوقـف! لذلـك قُلـتُ لـك المعلومـة الظاهريـة، ألا وهـي النحـت بالسـيليكون المطاطـي، ولكـن أي تفاصيـلٍ أخـرى، إن لم تخـرج مـع المعلومـة مـن البدايـة، لـن تخـرج أبـدًا، ولـو بالطبـل البلـدي!" ضحـك بـكار عـلى كلامـه، وهـز رأسـه، شرب الـكأسَ، وعرفـه أنـه لـولا كلام الكتـاب عنـه، لم يكـن ليصدقـه تمامًـا، فعـرض عليـه عبـد القـوي أن يسـأل العـمُّ آدم.

أخـف مـن ريشـةٍ، ركـض عبـد القـوي، مـن المخـزن الكبـير، إلى خشـبة المـسرح، وبعـد سـيجارة التحيـة، وكلام معسـول لكبـير العاملـين، كانـتْ إجابتـه هـو الآخـر فاصلـة: "فنـان نحـت

بالسـيليكون؟ أنـا أعـرف أن السـيليكون هـذا تسـتخدمه النسـوة لتكبـير المناطـق التـي نُحبهـا فيهـن، لكـن للنحـت؟ يـا سـبحان الله، العلـم يـا أخـي الفاضـل لم يـترك شـيئًا إلا وحـاول تجميلـه، تجميلـه؟ هاهاهاهـا كلامـي كلـه عـن عمليـات التجميـل، دعنـي لحـالي يـا عبـد القـوي، قُـل لبـكار أن يبحـث بعيـدًا عـن هنـا"، لم يتزحـزح عبـد القـوي مـن مكانِـه، حـاول إقنـاع العـم آدم بتشـغيل دماغـه، لعلـه يتذكـر شـخصًا أو مكانًـا، مـع تذكـيره بأيـام الشـباب، لمـا كان رجـلاً مُحبًـا للخـير والمُسـاعدة، وكيـف أنـه زرع بداخلـه الشـهامة، أكـثر مـن أبيـه، وأنـه مثلـه الأعـلى في أمـورٍ شـتى، منـذ الصغـر.

تفاجـأ عبـد القـوي بـرد فعـلٍ عنيـفٍ مـن العـم آدم، الـذي لم يأبـه تمامًـا لـكلام عبـد القـوي: "أي شـهامةٍ؟ وأي مُسـاعدةٍ؟ وأبـوك؟ أبـوك مـن؟ أنـت لا تعـرف الحـاج عبـد القـوي أصـلاً يـا.. أنا نسـيتُ اسـمَك أساسًـا، المُهـم لا تنطـق اسـمَ الرجـل الطيـب عبـد القـوي عـلى لسـانك، ولا تذكـره بالسـوء، ويـا بـن الكلـب أنـت لا تقـل إننـي مثلـك الأعـلى، وعلمتـك الشـهامة وكل هـذا الـكلام الفـارغ، ثـم مـا كلمـة منـذ الصغـر هـذه؟ أنـا لم أقابلـك إلا وأنـت بغـلٌ كبـيرٌ أطـول منـي هكـذا، مـن أيـن أتيـتَ بهـذه التفاهـات يـا كُـس الكلبـة أنـت؟" في البدايـة ضحـك عبـد القـوي لـكلام العـم آدم، وطلـب منـه التوقـف عـن الهـزار حاليًـا، وبعدمـا يُسـاعدهما في الأمـر، قـد يقـول كل النـكاتِ المُضحكـة التـي يحبهـا.

ولكــن العــمُّ آدم لم يغـير تعابـيرَ وجهــه، وقـد تملــك منــه الغضــب، لمــا ضحــك عبــد القــوي، ليســتمر العــم آدم في فــرض احتلالـه عـلى أرض كرامـة عبـد القـوي: "يـا بنـي هـل تـراني شـابًا

مثلك؟ أو عيِّلاً صغيراً يكذب عليك؟ أنا رأيتُك منذ سنين لا أذكر عددها، والحاج عبد القوي الله يرحمه هو الذي وجدك صباحًا عند دكانه، وعيِّنك كصبي ليه، لما عرف منك أنك لا تتذكر شيئًا، وفاقد للذاكرة، وبعد عدة شهور، وفي يومٍ من الأيام، رجع الحاج إلى الدكان، لأنه نسي شيئًا، وأنت كنتَ تنام في الدكان، قبل حصولك على الشقة التي تسكنها في السيدة، ولما فتح المحل، سمعك وأنت تتحدث، عن أشياء عجيبة، عن صبيٍ صغير قتلته، وعن مركبٍ خربته!

ثم بدأتَ في الأيام التالية تقول له يا والدي، ثم تعتذر وتقول له يا أسطى، في محاولةٍ خائبةٍ. فعلها كثيرون من قبلك، وفلحتْ للأسف، ولأن الحاجَ عبد القوي لم يكرمه الله بالذرية، ولم نعرف له قريبًا أو أخًا أو حتى صاحبًا، لم يعترض على كلمتك، وبدأ يُعاملك كابنه الوحيد، ابنه الذي جاء إليه بعدما فات العُمر، وتعبَ من كل المحاولات مع الأطباء.

هذا كل ما أعرفه عنك، ذكرياتُك التي بنيتَها في خيالك، وبدأت تُصدق حُسنَ فعلِ الرجل الطيب، كل هذا يعود إليك، لكن لا تتهمني مرةً أخرى بالمساعدة والشهامة، واللعب معك حين كنتَ صغيراً، المنطقة أصلاً لا تعرفك، ولم تتجاوب معك إلا بعدما طلب عبد القوي ذلك من الناس، بدافع أنك رجلٌ مريض، وهو يُساعدك! أنا لا أكره في حياتي كلها سوى الإنسان الجاهل اللئيم!"

غـاب عبـد القـوي عـن العـالم المُحيـط، وغـرق في بحـرٍ مـن التخبـط، كلـما سـبح إلى شـاطئ، أمسـكه ورمـاه إلى البحـر ثانيـةً!

كانـتْ كلـمات العـم آدم، بمثابـة صفعـة قويـة، مـن يـد الـرب، تخيّـل أن تظهـر يـد الـرب فجـأة، وتصفعـك في أقـل مـن ثانيـةٍ، وإن حاولـتَ -هـذا إن عرفـتَ- الوقـوف، تصفعـك مجـددًا! وبجـدارةٍ هـذا مـا عانـاه عبـد القـوي، الـذي لم يـرد عـلى كلمـةٍ واحـدة مـما قالـه العـم آدم، وركـض إلى سريـره، ليخـرج كتابـه ويرجـع إلى الذكريـات، المُدونـة حرفًـا حرفًـا، وصرخ بكامـل قوتـه: "إذا كان كلام العـم آدم صحيحًـا، فـما هـذا يـا رب؟ هـل أنـا فعـلاً كـما قـال؟ أم أنـه سـكران لا يعـرف مـا يقـول؟ ولكـن كيـف لسـكران عقلـه مُغيَّـب أن يصنـعَ كل تلـك الحكايـات ببراعـة؟ مـن أنـا يـا رب؟"

العامة

العمّ آدم

في احتفـال بـكار بمعجزتـه، حـزنٌ عظيـمٌ عشـشَ عـلى الجميـع، حـين ظـن بـكار أن الخمـرَ لـن تغلـب رجالَـه، ولكـن مـا وجـده بعدهـا، جعلـه يُقسـم إن الخمـرَ قـد تغلـب الملائكـةَ نفسـها، ومهـما تفاخـر الرجـل بصعوبـة مـس السُّـكر لـه، سـتثبت الخمـرُ أنـه طفـلٌ بعـد رابـع كأس، وربمـا يخـرج إلى النـاس بحثًـا عـن امـرأةٍ تُرضعـه، أو ثـدي كبـير يكفيـه.

لم يحسبها بكار جيدًا، افتخاره بالمنجز العام وسوسَ لدماغه، على الإلحاد عن الطريق المرسوم، عن الجدية والالتزام، نسي بكار الحذرَ، وفتنة السهو الغاوية رقصتْ لبكار وتمايلتْ، فلم يلمح العم آدم وهو يصرخ بالحقيقة في وجه عبد القوي، وبعدها مغادرته خارج المسرح، لم يرَ العمَّ آدم غاضبًا، لم يرَه وهو يناطح السماء، بكلماتٍ غير مفهومة، ولم يرَه وهو يسب الناس، ويطالبهم بتشغيل عقولهم، وتبول على رسولٍ من رسل الخير، الذي كان مارًّا بالقُرب من المسرح، الذي عانى بكار منذ تأسيسه، ومع بعض العلاقات الخاصة، التي كوَّنها مع رواد المسرح، والفنانين والممثلين والشعراء، عرف يمنع رجال المُراقبة المُنتشرين في شوارع وسط البلد، وفي كل العصور والحالات، عن زياراتهم اللزجة المُباغتة، ولكن الحظَّ لم يكن دومًا الحليفَ الأمثل.

مما قاله العمُ آدم: "يا أولاد الوسخة، شغلوا عقولكم، عن أي يوم قيامة تتحدثون؟ أين علامات يوم القيامة الموجودة في أديانكم؟ أين يأجوج ومأجوج يا مسلمين؟ أين الدابة؟ أين الضيقة العظيمة يا مسيحيين؟ أين قدوم المسيح؟ ما دمتم لا تعرفون، هل يرد عليَّ يهودي مثلاً، ويخبرني أين البقرة الحمراء؟ أنا أسألكم جميعًا، عن أبسط العلامات، أين سمع أي شخصٍ منكم، عن سقوط الكتب من السماء فقط، كعلامة من علامات يوم القيامة؟ أين بقية العلامات؟ سقوط الكتب من السماء هذه من العلامات الكبرى والأخيرة، التي تسبق الحساب، هل يجاوبني شخصٌ صادقٌ من نفسه، ويقول لي

معـك حـق يـا عـم آدم؟ نحـن نسـير كالبعـير وراء التفسـيرات الخاطئـة يـا عـم آدم، نحـن نخـاف مـن رسـل الخـير لأنهـم أولاد قحبـة يقتلوننـا يـا عـم آدم، هـل يملـك رجـلٌ ذكـرًا طويـلاً وسـمينًا، يُخرجـه ليُدخلـه في فتحـة شرج هـذا الرسـول؟

اسـمعوني، هـذا ليـس يـوم القيامـة، هـذا اختبـارٌ مـن الجالـس فـوق العـرش، المُسـتمتع بتحريككـم كخصيتـي رجـلٍ، تحركهـما عاهـرة لزبونهـا فيهيـج أكـثر، أنتـم مثـيرون للشـفقة، الواحـد منكـم يسـتحق المُعاملـة الوسـخة، الـضرب بالعصـا، حـشر العصـا في مؤخراتكـم، يـا ليتكـم عاملتـم كتـبَ الفلسـفة معاملتكـم نفسـها للجنـس ولأفلامـه، معاملتكـم نفسـها للتجسـس عـلى أخبـار الآخريـن، معاملتكـم نفسـها لأخيكـم الإنسـان غـير المتوافـق مـع طباعكـم القـذرة، لـو فكـر أحدُكـم فقـط، بـدلاً مـن العمـل عـلى قـوة الانتصـاب، والسـعي وراء المقويـات، لـو فكـر أحدكـم أن يقـرأ ويعـرف، أن يبحـث بنفسـه عـن المعرفـة، لكنـا الآن واقفـين أمـام الحكومـة، عفـوًا السـفارة العامـة، نحـارب ظلمَهـا، ونـضرب رسـلَ الخـير عـلى عجيزتهـم، ولكـن إلى مـن أتكلـم؟ إلى الموافقـين عـلى العبوديـة؟ خيبـةٌ ثقيلـةٌ تدوسـك يـا آدم، كلامـي لـك يـا آدم الأول، يـا مـن فتنتـك ثمـرة التفـاح، انظـر مـن مكانـك إلى أبنائـك، تمعـن في النظـر أكـثر، مـا رأيـك في القطيـع المُسـاق؟ شـكلهم رائـع أليـس كذلـك؟ مثلـك تمامًـا، يـا مـن ركضـتَ خلـف نشـوةٍ، يـا مـن ركضـتَ خلـف ذنـبٍ، نُحاسَـب نحـن جميعًـا عليـه، إلى يومنـا هـذا!

قُـل لي يـا رسـول الخـير، يـا مـن تنظـر إليّ والـشر كلـه في عينيـك، جاوبنـي، آدم هـو المُذنـب، أكلَ الثمـرة، فنزلنـا كلنـا إلى الأرض،

لمـاذا لم يعُاقبـه الـرب بمفـرده؟ لمـاذا مثـلاً لم يأمـر قابيـل وهابيـل بالصعــود إلى الجنــة؟ وكل مــن يخطــئ يخــرج منهــا إلى الأرض؟ لمـاذا؟ مـا الحكمـة مـن الحيـاة؟ أن نعيـشَ ونتعبـد ثـم نمـوت؟ لنُحاسَـب وننتظـر، هـل سـأكون في الجنـة بالأعـلى، أم في الجحيـم بالأسـفل؟ المـكان النهـائي واحـد، لـذا لمـاذا تعـب الأعصـاب هـذا؟ كان يمكنــه أن يخلقنــا كلنــا في الجنــة، ثــم يُعاقــب المُتمــرد عــلى تعاليمـه، أو المُخالـف، لمـاذا.. لمـاذا.. لمـاذا تسـتغفر يـا رسـول الخـير؟ أنـا لم أقـل شـيئًا مُخالفًـا للديـن، نحـن خلفـاء الله في الأرض، وميَّزنـا بالعقـل، واسـتخدامه واجـبٌ علينـا، هـو يعـرف أن روحنـا متمـردة، لأننـا خلفـاء الـرب، المُتمـرد الأكـبر، نعـم هـو المُتمـرد الأكـبر، تمـرد عـلى قوتــه وعظمتــه بنفســه، لمـاذا خلـق الدنيـا في سـتة أيـام؟ يمكنـه خلـق مـا لا يمكـن حـصره مـن الأكـوان، في أقـل مـن ثانيـةٍ، إذًا مـن تمـرد مـن البدايـة؟

مـن الـذي تمـرد عـلى البـشر؟ وأرسـل إليهـم معجـزاتٍ ومسـيخًا دجـال، وشـخص الفتنـةَ أمامهـم، ثـم يُطالبهـم بتشـغيل العقـل كي لا تُصيبهـم فتنـةٌ؟ هـو المُتمـرد الأعظـم، يعـرف جيـدًا نيـة إبليـس، فخلقنـا ليكيـد أعظـمَ مـن عبـده، المُتعبـد المُخلـص الأجمـل، الـذي كان يتمنـى رضـا الـرب، مـن هنـا المُتمـرد عـلى التقديـس؟"

حـاول واحـدٌ مـن العـمال الركـض تجـاه العـم آدم ليُدخلـه إلى المـسرح، ولكـن الوقـتَ كان قـد مـر وفـات، فقـد أخـرج الرسـول مسدسَـه مـن جيبـه، وورقـةَ الغُفـران، فوقـف العامـل أمـام العـم آدم، يطالبــه بالركـض، لأنــه سـيموت حــالاً، لكـن الرسـول بـدأ في تـلاوة الرسـالة الأخـيرة: "إلهــي الــذي خلــقَ الســماواتِ والأرض،

وجـزى الطيـبَ مـن طيـب فعلـه، وعاقـبَ الشريـرَ بخبـث طبعـه، هـذا الرجـل الـذي ضـل طريقَـه، سـنرد أمانـةَ روحِـه إليـك، لتطهرها أنـت، مـن كل ذنوبهـا، بيـدك المُباركة الماسـحة لـكل الخطايـا، فتقبل يـا رب نُبـلَ تَصرفِنـا، وتقبـل توبتَـه"، ثـم سـأل العامـل عـن أمنيتـه الأخـيرة، فالتفـت العامـل مُتعجبًـا: "لمـاذا تقتلنـي أنـا! أنـا.. أنـا فقط أعيـده إلى صوابـه!" ليجيـب الرسـول وهـو يطلـق رصاصـه عـلى العامـل المسـكين: "لقـد دافعـتَ عـن مُذنـبٍ مُتفاخـرٍ بذنبـه، كيـف تريـدني أن أسـامحَك؟ هـذا المجـرم سـأقبض عليـه، قـرار القتـل راجـعٌ لنـا، وأمثـال هـؤلاء، الذيـن يفكـرون، ويتكلمـون بالمنطـق، لهـم نهايـةٌ نحبهـا كثـيرًا، أمـا أنتـم، فـلا يهـم العـالم وجودكـم مـن عدمـه!"

مـوت العامـل مأسـاة مؤقتـة، لـن يتوقـف العـالم بعدهـا، وإلقـاء القبـض عـلى العـم آدم أمـرٌ حتمـي، وإعدامـه أمـرٌ واجـبٌ، والتحقيـق مـع بـكار، لتسـتره عـلى رجـلٍ يعشـق الذنـوب، أمـرٌ مؤكـدٌ وواجـبٌ وحتمـي، خاصـةً أن الرسـول المُبـال عليـه مـن قِبـل عضـو العـم آدم الذكـري، أقسـم إنـه لـن يتركهـما -العـم آدم وبكار- بـين الأحيـاء، وإنهـما في عـداد المـوتى منـذ هـذه اللحظـة.

العامة
رب العرائس الخشبية

لم يسمع الرسول، أو لم يفهم تقريبًا، رماه في الحجز الداخلي، التابع لقسم قصر النيل، والقريب من مسرحه بوسط البلد، بعد التحقيق معه، بصحبة مجرم واحد عجوز يجهل جرائمه، حاول بكار شرحَ مرضه، وضرورة ابتعاده عن مصادر الحرارة، وما قد تفعل به السخونة، كل الأوراق والتحاليل والتحذيرات، التوصيات بمدى خطورة وضعه، ورق رسمي من بعض الجهات، يعتبرونه "مُعاقًا"، ومع ذلك لم يقنعه شيءٌ، وقال لبكار بنبرةٍ جادة: "الشوف يا عزيزي خير دليل"، حتى في التحقيق، لساعة كاملة، يدافع عن نفسه واقفًا، أمام رسولين، الذي ألقى القبض عليه، وزميل كان موجودًا بالصُدفة، لم يُطالِب بكار بأقل حقوقه، كرسي خشبي يسنده، ليدرك كيف يجيب أسئلتهم.

ابتعد بكار عن إرهاق عقله، في خلق إجاباتٍ من العدم، كان رده على كل اتهامٍ حاضرًا، وفكره بين مسألتين مُشتتًا، الأولى لماذا طعنه السهو فجأةً، والثانية كيف يمكنه الحصول على كرسي خشبي، نسي مرضه تمامًا، أو يمكن القول إنه مزج بين شيئين، المرض والكُرسي الخشبي، فعند جلوسه سيعرف الراحة، ومن ثم لن تقلقه حرارةُ جسده.

التهمة صارتْ تهمتين، التستر على محب للذنوب، وإخفاء الناس بحجة المُساعدة في العمل، وهذا العدد من العمال، كان واجبًا عليهم، أن ينضموا إلى الآخرين، من أجل إعادة تشغيل

الحيـاة، ثـم أضـاف الرسـول الموجـود بالصدفـة تهمـةً ثالثـة، بـذل مجهـودات في صنـع مـا لا يُفيـد! وعندمـا وضـح بـكار حقيقـة المكتـوب، وأنـه لم يفعـل ذلـك إلا بأمـرٍ إلهـي، كذبـه مُتهِمُـه، حتـى مـع القسـم عـلى مصحـفٍ موجـودٍ في غرفـة التحقيقـات، قـال الرسـول في لقطـةٍ دراميـة: "وكيـف نتأكـد مـن صـدق كلامـك؟ تعـال يـا بـكار نتكلـم بالمنطـق، لمـاذا صنعـتَ هـذا العـدد الكبـير مـن العرائـس، وأنـت تعلـم أننـا عـلى مشـارف القيامـة وانتهـاء الحيـاة! في أي ظـروفٍ غـير تلـك، كنـتُ سـأقول هـذا الرجـل يسـتعد مـن أجـل إنتـاجٍ مسرحـي ضخـم، أو تاجـرٌ مثـلاً طلـبَ منـه هـذه الكميـة، لكـن كتابًـا صادقًـا، يُخـبرك بأمـورٍ سـخيفة غـير منطقيـة؟ شـغل دماغـك قليـلاً!"

ثـم سـأله عـن السـر وراء الكتـاب الآخـر الـذي يحملـه، فأجـاب بـكار بأنـه يعتـبر هـذا الكتـاب كدفـترٍ، يُذكـره بمـا ينسـاه، لأنـه مريـض كـما شرح مـن قبـل، وذاكرتـه قصـيرة، وينـسى الكثـير، لذلـك يمـشي بالكتابـين معًـا!

طلـب منهـما كرسـيًا مجـددًا، وبعدهـا سـيشرح كل شيء، قوبـل طلبُـه بالرفـض، التحقيـق لـن يسـتمر أكـثر مـن ذلـك، التهـم واضحة ومُقنعـة، أمـرَ الرسـول الموجـود بالصدفـة بوضعـه في الحجـز، لحين الوصـول إلى القـرار النهـائي، مـع الرسـول الأكـبر.

لمـا نـزل إلى الحجـز، ظـل بـكّار واقفًـا عنـد بـاب الزنزانـة. مصـدر الهـواء الوحيـد، في مـكانٍ تحـت الأرض، قذارتـه فاقـت الـصرف الصحـي.

انتبـه عجـوزٌ قاعـدٌ إليـه، تحوقـل وواسـاه بالصـبر، ثـم مسـح عـلى مـكانٍ بجانبـه، فـوق المصطبـة الخشـبية الوحيـدة، الموضوعـة تحـت الشـباك، داخـل الزنزانـة القـذرة الصغـيرة، نـاداه بصـوتٍ مرتعـش، أن يقـترب ويجلـس بصحبتـه، هـز بـكار رأسـه بالنفـي، ثـم سـمعَ صوتًـا مبـشرًا بالخـير، العجـوز لديـه مروحـةٌ صغـيرةٌ بلاسـتيكية، تعمـل بالكهربـاء، تشـبه تلـك التـي يلعـب بهـا الصغـار، ليمـشي إليـه بـكار، يقرفـص بجانبـه، يحـك ظهـره بالجـدار، ويسـأل السـماء، بينـه وبـين نفسـه، في صـدقٍ بالـغ، متـى تخاصره الحريـة، ويرقـص بعيـدًا، عـن كل هـذا الخـراء.

لم تُسـعفه المروحـة الصغـيرة، في مسـألة مرضـه، حرارتـه ترتفـع يشـعر بذلـك، في أقـل مـن دقيقـةٍ، سـيدخل في حالـة تشـنج وقحـة، ربمـا يسـقط عـلى الأرض، وهـذا العجـوز لمـا يصـل إلى بـاب الحجـز، ويسـمعه -إذا سـمعه أحـدٌ- مـن بالخـارج، سـيكون محلقًـا في السـقف، روحًـا لا جسـدًا، وستتأسـف روحُـه عـلى حالـه، وربمـا تخبر أهـلَ السـماء عنـه، عـن مريـضٍ خـرج مـن رحمـة الله، معـاق في أوراق البـشر، لم يتـزوج، يجهـل جـمالَ المضاجعـة، لم يرتبـط بفتـاةٍ، بعدهـا سـينزل أهـلُ السـماء جميعًـا، يلقـون نظـرةً وداعٍ أخـيرة، تخيـل أهـلَ السـماء كلهـم، في هـذه المسـاحة الضيقـة الوسـخة، لـن ينظـر واحـدٌ منهـم إلى خالقهـم ليسـأله المغفـرةَ، أو اللطـف بهـذا الجسـد الواقـع أمامهـم، سـيخشى طـرده مـن فـوق، رب السـماء رحيـم، بمـن يـرى أنهـم يسـتحقون الرحمـة، هـذه قناعـة بـكار، الـرب يختـار مـن يرحمـه، ويختـار مـن يُعذبـه.

فُتِحَ الباب، دخل حارسٌ من حراس الرسل، حكى له العجوز ما جرى، جثا على ركبتيه بجانب بكار، الواقع أرضًا ويهتز بعنف، سمع بكار وشيش نارٍ، وتساءل في ضعف، هل سيحرقه هذا الحارس الغبي؟ تحدث الحارس إلى العجوز: "لا تقلق يا عم حمزة، أنا حافظ الحركات الوسخة التي يفعلونها ليخرجوا من الحبس، عامةً الباشا أمرني بالتحقق من أمر مرضه، وشكله ليس مريضًا، انظر يا عم حمزة، جئتُ بالوابور، سأصنع لك كوبَ قهوة، لم تذقه في حياتك، قهوة الوابور ليست كأي قهوةٍ، بعدما نشرب، سأخبر الباشا بأن أخانا هذا، وقع على الأرض، وبدأ التمثيل في مسلسل أنا مريض أريد الخروج".

يمكننا تلخيص دائرة المشهد، في جملٍ سريعة متداخلة، توضح المعاناة على نحو بسيط كالتالي، بطء العجوز، غباء الحارس، جسد بكار المسكين، وابور جاز، مصطبة خشبية وحيدة، مساحة ضيقة رمادية، باب مغلق، حرارة مُرتفعة، تشنجات تزيد، قهقهات وحكايات، قلقُ العجوز، ضحكة الحارس، جسد بكار المُلقى، وابور جاز، دور قهوة ثانٍ، مصطبة خشبية وحيدة، مساحة ضيقة رمادية، باب مغلق، حرارة مُرتفعة جدًا، تشنجات تكاد تقتل بكار؛ حكايات الحارس السافلة عن الزواج، صمتُ العجوز، قضيب الحارس الذي يلاعبه علنًا، مُعاناة بكار وجسده، وابور جاز، دور شاي هذه المرة، مصطبة خشبية وحيدة، مساحة ضيقة رمادية، باب مغلق، حرارة مرتفعة بفجاجة مستفزة، تشنجات تستعد لقراءة الفاتحة على روح بكار، حكايات أكثر سفالة من الحارس عن البنات، صمت

العجوز، آهات الحارس، جسد بكار المهتز بعنف، وابور جاز، نشيش ماء، مصطبة خشبية وحيدة، مساحة ضيقة رمادية، بابٌ يُفتح، شتائم قذرة موجهة لبكار، ثم إلى الحارس الهائج.

ظل الرسول الموجود بالصدفة يسأل بكار النائم أرضًا عن سبب اهتزازه بعنف هكذا، وأقسم له إنه إن لم يتوقف سيطلق رصاصتين على قلبه، ويقتله حالاً، ومع صدق ما يُعانيه بكار، ظن الرسول بعدم اهتمام بكار لتهديده، فأخرج مسدسه وبدأ العد التنازلي، العجوز قال للرسول: "قد يكون مريضًا فعلاً يا باشا، أحضِر طبيبًا وإن كذَّب مرضَه، اقتله فورًا!" لم يهتم الرسول لهرتلة العجوز، صرخ مجددًا ببكار، الذي لم يستطِع حتى النظر إليه، جسدُه يهتز بعنف، أمسك بقدم الرسول، قبَّلها في مشقةٍ ومذلةٍ، يبكي بكار من الألم، من ارتفاع حرارة جسمه، التشنجات لا ترحمه، أيقن بكار أن الدقائقَ المُتبقية ستحدد حياته، إذا ما لحقه شخصٌ، بوضعه فورًا في مكانٍ باردٍ، أما إن استمر الرسول في تهديده، والحارس في عدم تصديقه، والعجوز في الدعاء له، سيترك للقدر تحديدَ مصيره، والقدر في تلك الظروف ينحاز إلى المُسيطر، الذي يملك سلاحًا وكلمته مسموعة، يهمس في أذنه بضرورة إتمام العملية، وفرض السيطرة على نحو قاسٍ، فيخاف المربوط والسائب، وتسجد له الكرامة والعزة، في كل خطوةٍ له.

سحب الرسول مُسدسه، ورسالة الغُفران، وبدأ بتلاوة نص الرسالة: "إلهي الذي خلقَ السماواتِ والأرض، وجزى الطيبَ من طيب فعله، وعاقبَ الشريرَ بخبث طبعه، هذا الوقح الذي ضل طريقَه، سنرد أمانةَ روحِه إليك، لتطهرها أنت، من كل ذنوبها،

بيدك المُباركة الماسحة لكل الخطايا، فتقبل يا رب نُبلَ تَصرفنا، وتقبل توبتَه"، ولأن بكار ضعيفٌ كارهٌ لحياته، عاشقٌ لعرائسه فقط، وُهِبَ الكلام بأصواتٍ مُتعددة، استقبل الرصاصتين بصدرٍ رحب، واحدة في رأسه، وزميلتها في قلبه، وسكرات الموت في تلك اللحظة، داعبته بلقطاتٍ لعرائسه، وكلها تتحرك ناحيته، لتحمله فوقها وتسير به، في جنازةٍ مُهيبة، تقودها العرائس الخشب، تمشي بلا خيوطٍ، تمشي بكامل إرادتها، تندد بموت خالقها، لقد اعترفتِ العرائس كلها، في صوتٍ واحدٍ مسموع، في عقل وتهيؤات بكار فقط، أن رب العرائس هو بكار، وفي موت خالقهم ستفرقهم الحيرة.

مات بكار ولم يعرف لماذا كل هذا العدد، وما الغرض من حياته في المُطلق، وكيف أنه عاش حياةً بلا معنى، تحاوطها العرائس والخشب، وبضع مسرحيات لم تظهر للجمهور، مات بكار والبؤس نديمه الأول، مات جاهلاً بأصول المواعدة، جاهلاً بمباهج الحياة، شخصٌ عقيدته الثبات دون حركة، كان إذا خرج إلى مشوارٍ، يضع كل الاعتبارات المُمكنة، بأنه قد يعود جثةً إلى أهله، مات من قابل بنتًا بالصُدفة، ولما تواعدا، عجز عن الذهاب يومها، بسبب ارتفاع درجة الحرارة.

كانتِ الجملة الأخيرة، التي سمعها الرسول والحارس، ولم يفهمها العجوز: "إلى متى كل هذا يا رب"، ثم فارق الحياة، ودمُه يرسم على الأرض أحبالاً كتلك التي تتحكم في عرائسه، كأن دورَه قد حان، ليصير واحدًا منهم.

يومَ الإعدامِ العظيم

مشـقة اليـوم عـلى صاحـب الأمـر، تكمُـن في خطبـةٍ قصـيرة، سـيقولها للواقفـين والمُشـاهدين والمحكـوم عليهـم، بعدهـا سـيتكرم بنطـق لفظـة: "نفـذ"، فيقـوم الرسـول الأكـبر بإعطـاء الإشـارة للحُـراس، الذيـن بدورهـم سيشـعلون النـار في حطـبٍ عظيـم، تقـف فوقـه المجموعـة المُـراد إعدامهـا، كل واحـدٍ منهـم مُكبـل مُقيّـد، لـن يفلـح في الهـرب مـن شـدة الألم، ولـيرى المُذنـب مـا يحـل بـه، ومـا يحـل بزمـلاء النكسـة والعـذاب، طلـبَ صاحـبُ الأمـر عـدم وضـع عمامـة عـلى أعينهـم، إذ في رؤيـة النهايـة بهـذه الطريقـة حـزنٌ مُهيـب، الحُـزن عـلى المـوت خائنًـا، وعـلى تسـاقط الجلـد واحتراقـه وتشـوه المعـالم، ليتعـظ كل شـخصٍ حـاضرٌ، فيفكـر مرتـين قبـل ارتـكاب الذنـب.

الرسـول الأكـبر نفـذ أوامـرَ صاحـب الأمـر، بإرسـال الحُـراس إلى جميـع المُحافظـات، ليعـرف النـاس بوجـود حلقـات إعـدام جماعية، في كل محافظـة، تحـت إشراف صاحـب الأمـر، ورسـل الخـير التابعين للمحافظـة، فيتفـرج النـاس عليهـم، ويعـودون إلى العبـادة بعدهـا، كـما أمـرَه بتشـييد مـسرح الإعـدام في ميـدان العباسـية بالقاهـرة، أمـام مسـجد النـور، وكانـت حجتـه في ذلـك وجـود العديـد مـن الكبـاري، فيقـف النـاس تحـت ظلالهـا، أو فـوق الكباري نفسـها، أما الحـراس والرسـل والمتهمـون، هـم فقـط المسـموح لهـم بالوجـود في مُحيـط مـسرح الإعـدام، وصاحـب الأمـر سـيجلس بجانـب النافـورة، فـلا تضايقـه الحـرارةُ تمامًـا.

أسـفل المظلـة، في المـكان الموضـوع خصوصًـا لصاحـب الأمـر، خرجـتِ الكلـماتُ مـن مُكـبر الصـوت: "كلمـة السـيد صاحـب الأمـر"، وبعدهـا بثـوانٍ، إثـر خبطـاتٍ عـلى المُكـبر، وهـزات السـلك الـذي يتحـرك نتيجـة نقلـه مـن الحـارس إلى صاحـب الأمـر، صمـتَ الجميـع منتظريـن رئيسـهم، ماتـتِ الأصـواتُ كلهـا، مـا عـدا بُـكاء المُقبلـين عـلى حتفهـم، يتابعـون مراسـمَ إعدامهـم، ويسـتنكرون قـدومَ مـلاك المـوتِ عـلى مهـلٍ.

"السـلام عليكـم يـا أهـل الدنيـا والأيـام الأخـيرة، لـن أتحـدث كثـيرًا، لاهتمامـي بوقتكـم الثمـين، واسـمحوا لي أن أشرحَ لمـاذا نحـن هنـا.

ببسـاطة.. هـؤلاء الذيـن يبكـون أمامكـم، بصقـوا عـلى ميثـاق الـشرف، الموجـود بيننـا، وأغواهـم الذنـب بـكل سـهولة، وقـد وضحنـا في مـا سبق عقوبـة المُذنـب والخـارج عـلى جميـل أفعالنـا، لذلـك أطلـب منكـم ضرورة التخلـص مـن الرحمـة، وعـدم النظـر إليهـم بعـين المسـكنة، إنهـم ليسـوا مسـاكين، بـل ذهبـوا إلى شرور أعمالهـم بكامـل حريتهـم، وفي عقابِهـم خـلاصٌ لنـا جميعًـا، مـن أن يسـألنا الله لمـاذا رأينـا منكـرًا ولم نغـيره، وفي عجالـةٍ سـأعرض عليكـم أسـماء المُذنبـين وتهمتهـم، حتـى تذكـروا مَـن عـلى وشـك سـلك دربهـم، كيـف كانـت نهايـة صاحـب الذنـب الـذي أغـواه.

آدم السـيد شـبانة، ضرب وسـب وقـذف رسـل الخـير في أثنـاء تأديـة عملهـم، وهرتلـة بـكلامٍ لا يليـق بالـذات الإلهيـة، عطـا الله الخـير، مُخـرج وكلكـم تعرفونـه، تقاعـس عـن العمـل، إلهـام كريـم،

الفنانـة المشـهورة، تقاعـس عـن العمـل، نبيـل جميـل، المُمثـل الـذي كنـا نحبـه ونُحـب أعمالَـه، تقاعـس عـن العمـل، مـاري مرقـس نجيـب، آه هـذه البنـت الصغـيرة، التـي سـاعدتْ مجرمـةً، اسـمها نعمـة متـولي، نعمـة تعـدت عـلى رسـولٍ مـن رسـل الخـير، وعاقبهـا الرسـول بقصـاص الرصـاص، وبسـبب هـذه الطفلـة، لم نتمكـن مـن معرفـة قـرار الله في أمرِهـا، كـما تعلمـون، نتركهـم لأسـبوعين، إذا عاشـوا فهـذه مشـيئة الله مـن أجـل فرصـةٍ ثانيـة، وإذا ماتـوا فهـذه مشـيئته مـن أجـل الخـلاص! ولكنهـا لم تتركهـا لهـذا القـدر، ظلـتْ تسـقيها وتُطعمهـا، وعرفنـا بالصدفـة، لمـا جـاء الرسـول المُكلـف بالمهمـة، بعـد أسـبوعين، ليرى هـل ماتـت نعمـة أم مـا زالـت عـلى قيـد الحيـاة، فوجدهـا جالسـةً عـلى جانـب الطريـق، وجراحهـا مُضمـدة، وبجانبهـا أكل وشرب!

تخيلـوا يـا محترمـين! بنـت صغـيرة تهـرب مـن أهلهـا، وتسـاعد مُذنبـةً، في طـور الـبرزخ، لا هـي بيننـا ولا بينهـم، وحذرنـا كل الموجوديـن وقتهـا، كـما بلـغ الرسـول، أن عقوبـةَ الإعـدام لمـن يسـاعد، حتـى لـو كان طفـلاً صغـيراً، ولكـن مـاذا عسـاي أن أقـول؟ ولأننـي رحيـمٌ، لـن أعـدم أبويهـا، وسـأتركهما عـبرةً.

المُهـم.. عنايـات عـدلي، تقاعـس عـن العمـل، تامر هاشـم سـليم، زنـا مـع خادمـة، يـا سـتير يـا رب، يـا سـيادة الرسـول الأكـبر، هـل توصلتـم إلى الخادمـة؟ أريدُهـا في يـوم الإعـدام العظيـم المقبـل. سأحاسـبُك أنـت إن لم تفعـل!

هـادي المحمـدي الشـهير ببـكار، صانـع عرائـس خشـب، تقاعـس عـن العمـل ومسـاعدة عـمال عـلى التخفـي والتقاعـس عـن العمـل، عُمـر حسـن، سرقـة مـن محـل إلكترونيـات، مـاذا سـتفعل؟ والله العظيـم فعـلاً مـاذا سـتفعل بهـذا الجهـاز؟ نحـن عـلى مشـارف القيامـة، وأنـت لديـك شـغف باللعـب والمُشـاهدة؟ الكاتـب عبـد الرحمـن عـزت، الكاتـب المُحـترم صاحـب التكريمـات والجوائـز، تقاعـس عـن العمـل.

أنـا حزيـنٌ والله، عـلى فقـدان أشـخاص مثلكـم، ولكـن الحـقّ حـق والعـدل عـدل، أهِلـة عبـد السـلام، تقاعـس عـن العمـل، عامـةً بقيـة الأسـماء تقاعـس عـن العمـل، وهنـاك حمـزة الجبيـلي، عجـوز مُتقاعـد، آه كان في الزنزانـة، هـذا الرجـل اغتصـب حفيدتـه، ومـا زال القلـب يسـأل لمـاذا يُعاقبنـا الله؟" صرخ حمـزة بعدمـا سـمع تهمتـه، وأقسـم إنـه لم يفعـل ذلـك، وهـذه تُهمـة تـم تلفيقهـا لـه. لأن رسـولاً مـن رسـل الخـير يريـد الـزواج بابنتـه الصغـرى، وهـو رفـضَ بـكل ذوقٍ، فجعلـه تحـت تهديـد السـلاح يغتصـب حفيدتـه، وطبعًـا ركـض حـارسٌ تجاهـه، وضربـه بعصـا كي يُخرسـه، وهـدده إذا مـا تحـدث مجـددًا، سـيثقب عينيـه.

لم يتمالـك صاحـبُ الأمـر أعصابـه، وفي أقـل مـن دقيقـةٍ، كان العجـوز حمـزة جثـةً هامـدةً، إذ تلقـى رصاصـة مـن رسـولٍ كعقـابٍ لـه عـلى مُقاطعـة صاحـب الأمـر في أثنـاء إلقـاء خطبتـه، وهـذا فعـلٌ مُحـرم، وكبـيرةٌ مـن كبائـر الخـروج عـلى الحاكـم.. لم يعـترض أي شـخصٍ مـن الواقفـين حـول مـسرح الإعـدام، كلهـم يتابعـون نهايـة المُذنبـين، في تشـتتٍ واضـح، مـا بـين القلـق والراحـة، القلق

مـن تشـابه المصائـر، والراحـة لأنهـم مـا زالـوا أحيـاء، يقفـون بـين جمـوع المُتفرجـين، وليـس فـوق مـسرحٍ أسـفله حطـب، سـيحرقهم بعـد لحظـات.

واجـه صاحـبُ الأمـر دنـاءة فعـل حمـزة بسـكوتٍ وتنهيـداتٍ، يهـز رأسَـه ولا يتكلـم، ثـم فتـح الورقـةَ التـي يقـرأ منهـا الأسـماء، وتابـع خطبتـه: "محيـي بـن طاهـرة، هـذا هـو الاسـم المكتـوب هنـا، محيـي ابـن طاهـرة، جريمتُـك توجـب صلبـك وحرقـك يـا محيـي، التسـتر عـلى كتـبٍ ممنوعـة! لمـاذا يـا محيـي؟ منعنـا الكتـبَ كي نخفـف عنـا حمـلَ الذنـوب، وأنـت بـكل بسـاطةٍ، تُخفـي في بيتِـك، نسـخَ الكتـب الممنوعـة؟ كأنـك يـا محيـي لا تهتـم إطلاقًـا بميثـاق الـشرف وخطتنـا للتأكـد مـن تخفيـف الذنـوب إلى أقـصى حـد ممكـن، فـلا يُحاسَـب شـخصٌ بذنـب شـخصٍ آخـر؟ قُـل لي يـا محيـي، لمـاذا هـذه الأنانيـة؟ أيرضيـك فعـلاً أن نكـون مواظبـين عـلى مصلحـة الجميـع، وأنـت في الخفـاء تقتـل كل مـا نفعلـه؟ أيهـا الغبـي، أتقتـل أمـة كاملـةً مـن أجـل روايـة، لكاتـبٍ خائـب، لا يعـرف الكتابـة ولا كيـف هـي الحيـاة؟ أمـن أجـل بضعـة اقتباسـات، تضـع الجميـع في خطـرٍ؟ أيـن الصليـب الـذي طلبتُـه منـك يـا أكـبر الرُسـل؟ نعـم هـذا هـو، مـن فضلكـم يـا حُـراس الخـير، ضعـوا محيـي عـلى الصليـب، واصلبـوه كأنـه المسـيح، دقـوا المسـامير في يديـه وقدميـه، ثـم أحرقـوا جسـدَه. عظيـم هـذا كل شيءٍ اليـوم، في النهايـة أقـول لكـم، هـذا مـا جنـاه حبُكـم للـشر، وتقبـل يـا الله منـا".

توجـه حـارسٌ مـن حـراس الخـير، وأخـرج محيـي بـن طاهـرة مـن صفـوف المذنبـين المحكـوم عليهـم بالحـرق، بأمـرٍ مـن الرسـول الأكـبر، الـذي أوصـاه الأنبـا بمعاقبـة محيـي أشـد عقـاب، فأمـرَ رجالـه بحـرق الآخريـن، ثـم صلـب وحـرق محيـي بمفـرده، فيتعـذب نفسـيًا أكـثر مـن أي وقـتٍ، وقـد يمـوت مـن الخـوف، ومـن المشـهد المعـروض أمامـه، وطبعًـا لم يأمـر رجالَـه بذلـك، إلا بعـد حصولـه عـلى الموافقـة مـن صاحـب الأمـر، لعلـه كان يفكـر مثـلاً في إعـدام الجميـع في الوقـت ذاتـه، ولكـن صاحـبَ الأمـرَ لمـا عـرفَ، ضحـك ووافـق فـورًا، لأنَ هـذا يعنـي مزيـدًا مـن المُتعـة والعظـة للمُتفرجـين.

تحـرك عـددٌ مـن قارعـي الطبـول، في حركـةٍ منتظمـة، لا يسـبق أحدهـم زميلـه، خطواتُهـم واحـدة، في ترتيـبٍ زمنـي واحـد، ليقفـوا أمـام المذنبـين، ويبـدأ كل شـخصٍ منهـم في تفريـغ شـحنة غضـبٍ، تحـت اسـم (عـزف أنشـودة النظـرة الأخـيرة)، مـع كل قرعـةٍ كان يقفـز قلـبُ مذنـبٍ، الخـوف يتسـلل إليهـم كقاتـلٍ، الـبرودة تـضرب أطرافهـم، يشـعرون باضطـرابٍ في تفسـير الموقـف، البنـتُ الصغـيرة تبولـت عـلى نفسـها، تـصرخ مـن الخـوف، تنظـر إلى أبيهـا وأمهـا، اللذيـن ركضـا تجـاه الرسـول الأكـبر، يقبّـلان يديـه وقدميـه ليفـرج عـن ابنتهـما، ويختـار مـن بينهـما مـا يريـد، فيصفعهـما في غـل واضـح، لتسـقط الأم في بـئرٍ مـن البُـكاء، وينهـزم الأب وتتكـسر كرامتـه، ولمـا جـرى ناحيـة المسرح ليحـرر ابنتـه مـن هـذا العـذاب، بطلقـةٍ واحـدةٍ مـن سـلاح حـارسٍ كان أبوهـا واقعًـا أمامهـا، يودعهـا بنظـراتِ أب كان يتمنـى أن تكـبر ابنتـه، ويُدخلهـا الجامعـة ويراهـا

عروسًـا، ودعهـا بنظـراتِ أبٍ حـاول طـوال حياتـه تأمـين حيـاة كريمـة لحريـم بيتـه.

فقـدتِ البنـت الصغـيرة وعيهـا، لكـثرة الضغـط النفـسي الواقـع عليهـا، ولرؤيـة والدهـا مقتـولاً، وكان آخـر مـا سـمعتْه: "ضـع ابـن القحبـة هـذا مـع الحطـب، جسـده سـيزيد مـن قـوة انتشـار النـار"، وهـو الأمـر الغريـب والعجيـب، أن يكـون أبـوك وقـودَ حرقِـك، وأن تُحـرَق بنـت صغـيرة لأنهـا كانـت تتـصرف بفطرتهـا، لمُسـاعدة نعمـة النتنـة، لأن الأطفـالَ أحبـابُ الله، لأنهـم خُلِقـوا بفطـرةٍ نقيـة، ومـع ذلـك، نهايـة هـذه البنـت، سـتكون أمـام الله، بسـبب حاكـم، يقتـص مـن مذنبـين، تقاعسـوا عـن العمـل، بالإعـدام وليـس بالخصـم مـن رواتبهـم، ويتـضرع إليـه بالقبـول.

مـع صـوتِ الطبـول توحشـت النـيران، تلتهـم أجسـادهم بتلـذذٍ، تحـرق ذكريـات وسـنين حيـاةٍ، كل مُذنـبٍ فاحـت رائحتـه، لم يتخيـل العـم آدم عـلى سـبيل المثـال أن أنفَـه سـيعرض عليـه رائحتَـه وهـو يحـترق، أو أنـه سـينظر إلى النـاس، وبـدلاً مـن نظـرة الاحـترام للرجـل الحكيـم، سـتصفعه نظـرات الشـفقة عـلى رجـلٍ يتسـاقط جلـده، وتفـوح رائحـة احـتراق جلـد، وملامـحٌ تتشـوه، ولأن العـمَ آدم كان صريحًـا، ولم يكـن جبانًـا طـول رحلتـه، فضَّـل المـوتَ في صمـتٍ، لم يـصرخ ولم يسـتنجد بأحـدٍ، قـاومَ بشـكلٍ ينكـره الحـاضر قبـل الغائـب، كان كل شـخصٍ فـوق المـسرح يـصرخ مـن آلام الحـرق، إلا العـم آدم، يحـترق وهـو ناظـرٌ إلى السـماء، يتحـدث بصـوتٍ غـير مسـموع إلى الـرب المُراقـب للموقـف، لا يطلـب منـه وقـف هـذه المهزلـة، لا يطلـب منـه نجدتـه، لم يطلـب منـه أن

تكـون النـار بـردًا وسـلامًا، بـل قـال بعدمـا هانـتْ قوتـه، وهـدأ غضبـه المُسـتمر: "نعمـة النتنـة، أوصيـك بالرأفـة بهـا، أنـت مـن جعلهـا مسـخًّا يمـشي بـين النـاس، وأنـت مـن سـيكرمها بنهايـةٍ، تليـق كاعتـذارٍ منـك تجاههـا، وأنـا مـدرك جيـدًا أن نهايتـي بهـذا الشـكل تخليـص ذنـوبٍ، وأولهـا، ذنـب اغتصابهـا وهـي صغـيرة"، وسـقط العـم آدم، سـقط الأسـطورة وملامحـه مشـوهة، تسـبح في بحـرٍ مـن الدمـاء، المختلـط بدمـاء مـن كانـوا معـه عـلى المـسرح.

شـعر خشـب المـسرح بـأن العـمَ آدم يضحـك عـلى سـخرية القـدر، وكيـف أن دمَـه الآن يختلـط بدمـاء صفـوة القـوم، وتشـابه ختامهـم جميعًـا، ليزيـد مـن حـدة النـار الماسـكة بغيـظٍ في جسـد العـم آدم المُتفحـم تمامًـا، لكـن المـسرحَ ينتقـم لكرامتـه، ولسـوء أخـلاق العـم آدم، حتـى وهـو ميـت.

في أثنـاء ذلـك، كان الحُـراس قـد انتهـوا مـن تثبيـت الصليـب بالأسـفلت، ووجـدوا المسـامير الكبـيرة التـي سـتحمل جسـد محيـي بـن طاهـرة، الرجـل الـذي يُشـبه المسـيح، والـذي سـيلاقي مصـير المسيح نفسـه، الرجـل الـذي لا يعـرف مـن أيـن جـاء، ولمـاذا هـو هنـا الآن، الرجـل الـذي رفـض حركـةَ غـش، ومهـما حـاول الدفـاع عـن نفسـه، وإخبـار النـاس بحقيقـة الأمـر، سـيقتلونه بحجـة الكـذب والافـتراء، سـيقذفونه بالتدليـس، وقـد يخـرج رجـلٌ مـن رجـال الكنيسـة، ويتهمـه بالهرطقـة، أو بمعـاداة الكنيسـة لأنـه، مسـلمٌ.

وقـف محيـي في استسـلامٍ تـام، ينتظـر إشـارةَ صاحـب الأمـر، ليرفعـه الحُـراس عـلى الصليـب، أو ليقتلـه الرسـول الأكـبر فـورًا، لـن يهمـه كنـه نهايتـه، يتسـاءل فقـط لمـاذا سـيموت مـن أجـل الكتب؟ وهـو الـذي قـرر أنـه مسـيحُ العـصر، بمسـح خطايـا الكُتّـاب، ألـن يحـاول أي كاتـبٍ يعرفـه أن يطلـب مـن صاحـب الأمـر تخفيـف العقوبـة وجعلهـا الإعـدام صلبًا فقـط؟ هـل يمكـن حـدوث ذلـك؟ أم عليـه تقبـل النهايـة الحتميـة، في صـبرٍ صـادقٍ، أو صـدقٍ صبـورٍ، لا فـارق بينهـما، فالأنبيـاء جميعهـم تقبلـوا مصيرَهـم وأمـرَ ربهـم، ولأنـه يشـبه أهـم الأنبيـاء، أقسـم أن يتحمـل مـا تحملـه المسـيح مـن قبـل، ولـن يتملـك منـه الخـوف، أو يجـبره عـلى اللجـوء إلى التذلـل، لعـل شـخصًا يسـاعده، ويطالـب بتخفيـف العقوبـة.

وهـو مـا لم ولـن يحـدث أبـدًا، عقوبـةُ محيـي بـن طاهـرة لم تكـن حُرمانيتهـا في الفعـل نفسـه، بـل في توصيـة الكنيسـة الرسـول الأكـبر بوجـوب قتـل هـذا الرجـل، الـذي عـرضَ أمـرًا بشـعًا عـلى الكنيسـة، وهـو ترجمـة الإنجيـل بنـصٍّ أكـثر احترافيـة، ومـن كلامـه يفهـم السـامع أنـه يقـر بتحريـف الإنجيـل، وضعـف الترجمـة المُقدمـة، والمُوافَـق عليهـا مـن قِبـل مجالـس كُنسـية، ولجـان متخصصـة، تعـرف دينَهـا وأصـول كتبـه.

ولمـا آن دور محيـي، فـرد ذراعيـه، وطلـب منهـم ربطـه الأول في الصليـب، ثـم دق المسـامير، ويمكنهـم بعدهـا نـزع الأحبـال، هـذه طريقـة أسـهل ليتـم الأمـر أسرع، وافـق الحُـراس فـورًا، ولم يرجـع أحدُهـم إلى الرسـول الأكـبر، وتحدثـوا في مـا بينهـم، أن ليـس المبـدأ في أسـلوب الصلـب، المبـدأ في النهايـة المطلوبـة، المـوت.

رفعوه، ربطوا جسده على الصليب، فردوا ذراعيه، وضعوا قدمًا فوق الأخرى، وقف حارسٌ على يمينه، والآخر على يساره، استخدما رافعةً عرباتٍ تعود إلى مراكز الصيانة، فيقف الواحد في مستوى الصليب، لأنه أعلى منهما بكثير، ثم وقف حارسٌ ثالث عند القدمين، قال الحارس الأيمن: "لما يشير إلينا صاحبُ الأمر، سنضرب المسامير كلنا في الآن نفسه، ضربة ثلاثية واحدة، بعدها يمكننا الانتظار، إذا لم يمُت سنحرقه، أو سنرى كيف ستسير الأمور، ربما يرفض صاحب الأمر حرقه"، ليجيب الحارس الأيسر: "لا مشكلة في ذلك، لكن ماذا لو طلب منا الصلب والحرق في الوقت نفسه؟" هنا تدخل الحارس الثالث بالأسفل: "سأركض أنا حينها تجاه الحطب، ألقيه لكم، ونُشعل النار فيه، لن يستغرق الأمر دقائق، المُهم ننتهي من هذه المراسم، رائحة الجلد المحترق بشعة، ومنظر المذنبين سيدفعني للتقيؤ".

أشار صاحبُ الأمر ببدء الصلب، كل مسمارٍ فض بكارة يديه، ضحك على محيي وهو يفقد الوعي، لم يتحمل الألم، لم يشعر بشيءٍ، لم يصرخ حتى ليعرف الناس هل تعذب أم لا، قال صاحب الأمر، في مُكبر الصوت: "يا سبحان الله! لقد تحمل المسيح أكثر من ذلك! وهذا الرجل الذي يشبهه فقط لم ينتصر لرجولته ولو لثوانٍ! يا سبحان الله! اسمعوني يا أهل البلد الكرام، سنتركه هنا، لا تحرقه يا أكبر الرسل، هذا الرجل سيموت في أقل من ساعةٍ، من الواضح أنني كنتُ مخطئًا لما ظننتُ أنه سيتحمل مثلما تحمل المسيح، لذلك طلبتُ حرقه أيضًا.

فليعـد الجميـع إلي ديارهـم، والعاملـون إلى الميادين، القيامـة علـى الأبـواب، رددوا خلفـي قبـل رحيلكـم.. تقبـل يـا الله، تقبـل يا الله، تقبـل يـا الله، لا أسـمعكم! أريـد صوتًا أعـلى! تقبـل يـا الله! تقبـل يـا الله! تقبـل يـا الله!"

أيام الدهشة الثانية

فيليب

أبانــا الــذي في الســماوات، إني أُحبــكَ وأعبــدُكَ وأُســبحُ لــك، أشــكرك على يســوع ابنــك، الــذي انتــصر عــلى الخطيئــة والمــوت، أشــكرك عــلى الــروح القــدس الــذي يقــويني، ويرشــدني إلى نعــم الحيــاة، أشــكرك على مريــم، أمــي التــي تتشــفع لي مــع الملائكــة والقديســين، وهــا أنــا أنطرح ســاجدًا أمــام صليبــك، الــذي أراه بقلبي قبــل عينــيّ، أيهــا الــرب يســوع المســيح، اغمــرني بالــدم الثمــين، الــذي تدفــق مــن قلبــك الأقــدس وجراحــك المقدســة، اغســلني بالمــاء الحــي المُتدفــق مــن قلبــك، وطوقنــي بالنــور المُقــدس.

ســاجدًا أمامــك أيُّهــا الأب، أســألك أن تصفحَ عنــي وعــن أهــلي وأســلافهم، وإن كان هنالــك مــا يخصنــي، مــادي أم روحــي، ولا زال

تحـت هيمنـة الشريـر، أسـالك أن تأمـره بالرجـوع إلى سـلطانك، وأن تُظهـرَ لي، أيها الأب، بقـدرة روحـك القـدوس، المظاهـر التي لا تُرضيك في حياتي، أو تلـك الأساليب والوسـائل التـي يَسرتْ للشرير التغلغـل في قلبـي وأفعـالي، وأطـرح أمامـك يـا رب كل خطايـاي وكل تقصـيرٍ، لعلـك يـا يسـوع تتقبـل منـي، وتهـون علينـا -أنـا وابنـي- مـا يحـدث حاليًـا.

منـذ سـاعتين وأنـا أصـلي مـن أجـل المُسـاعدة، أجهـل مـا الـذي يـدور بالخـارج، اهتـزازت عنيفـة، ولا أعـرف هـل هـذا زلـزال مثـلاً، أم أن اليـومَ الأخـير يقـترب؟ الحقيقـةُ أنـا لا تُهمنـي تمامًـا تقلبـات العـالم الخارجـي، مـا يقلقنـي الآن، كيـف سـأتصرف مـع هـذه الاهتـزازت؟ والمسـيح الحـي لا يعنيتـي جسـدي، أو أي أذي قـد يُصيبني، المُهـم هـو جسـد مينـا، لـن أتركـه ولـو خـرج مـاردٌ يريـد حرقـي حيًـا بنـار إبراهيـم!

يـا يسـوع أنقـذني، وإذا كان يوسـف هـو جـدي الأكـبر ونبيًـا، فأنقـذني أنـا وحفيـدي يـا يوسـف، أنـا عاجـزٌ عـن التـصرف، كائـنٌ ضعيـفٌ، مُلقـى في فـرنٍ، لا يسـتطيع الخـروج، ابنـه أضعـف منـه، ارتجـاج جسـده يـضرب في قلـب أبيـه، يحفـر بمثقـابٍ، يضـع الإبـر بـبرودة وبـطء.

الفـرن بـدأ في التمايـل، مـا يعنـي أنـه عـلى وشـك الانهيـار، وهـذه قمـة العجـب، لأننـي أشرفـتُ بنفـسي عـلى كل تفصيلـةٍ في أثنـاء بنـاء الأفـران، لأتأكـد مـن ثباتهـا في جـذور الأرض، وفي وقتنـا الحـالي يتمايـل الفُـرن بنـا بهـذه السـهولة؟ لقـد حـارب هـذا الفـرن

كل ركلات وصراخ الضحايا، فما الشيء المُختلف الذي يجبره على الترنح هكذا، بكل بساطة؟

في أقل من ثانيةٍ رماني الفُرن إلى الخارج، وشاهدتُ الأرض وهي تبتلعهما -مينا والفُرن- ثم تختفي، أدركتُ السببَ حاليًا وراء وجود عينيَّ طوال هذه المدة، ليس لتمكيني من الهرب، بل لتعذيبي برؤية ابني، مينا الفؤاد والروح، وجسده الذي تعتصره الأرض الغاضبة، رأيتُ دماءَ ابني، دماغَه وهو ينفجر، ذراعَه والصليب الموشوم عليه، ضعفَه وقلةَ حيلته، وهو غير مدرك لما يمر به، يهتز ويضرب بيديه في جميع الأرجاء، قبل أن تعصره الأرض كبرتقالةٍ، ماتْ ولدي أمامي، وهو لم يسمع كلمةً مني، مات وهو سبب راحتي المؤقتة، لأنني تظاهرتُ بأنه سمعَ كل ما قُلتُه.

بحثتُ عن أرضٍ ثابتة، الكون يبتلع نفسَه تقريبًا، وجدتُ البيوتَ القريبةَ تلتصق ببعضها، كأنها خائفةٌ، ومع ذلك لا تبتلعها الأرض، فركضتُ تجاهها، لعلها الحماية المقصودة، لماذا لم أحاول إنقاذ ابني؟ لماذا يا يسوع قتلتَ مينا، ولم تقتلني أنا؟ يوسف النبي قال لي كم أنه تضرع إليك، وكم صلى من أجلي، كي تُبعد الأذى عني، ولكن سهمَ الأذى أطلقتَه أنت، ليخترق كل جروحٍ، ويفتحها مجددًا.

صعدتُ إلى سطحِ البيت، وشعرتُ بكل حركةٍ من البيوت الأخرى وهي تدفع البيتَ الآوي لجسدي الهزيل، أتخيل لو أن السمعَ لم يفارقني، كنتُ سأموت خوفًا ورعبًا من أصوات

الانفجارات والهزات، التي أراها فقط، كمسلسل صامت، ولي حق في ما أقوله، حياتي كانتْ مُستقرةً، وفجأةً ظهرتْ كل المُعجزاتِ فيها، كتبٌ سقطتْ من السماء، ملامح غادرتِ الوجوه، جدي كان نبيًا، والآن الطرق تختفي، يا يسوع، أتمنى أن يكون كابوسًا سخيفًا، ما أمر به حاليًا، وستوقظني سهرة بحنانٍ، لتُخبرني بأن الفطورَ جاهزٌ.

ولأن الربّ لا يكره أبناءه، بعد هدوء الأرض، ولما رجعَ كل شيءٍ إلى سابق عصره، مع اختلافٍ مُخيف ألا وهو اختفاء الطرقات، لم يُدهشني وجود دراجة بُخارية، فوق سطحِ بيتٍ، أراه من مسافةٍ قريبة، قلتُ لعل صاحبَه كان يخاف من السرقة، فعرف كيف يضع الدراجة البُخارية فوق سطح بيته، وهذا هو ما قدره لي يسوع، قبل أن يضربني كتابٌ، جاء من حيث لا أدري، تقريبًا هو كتابي، مثله مثل الذي تساقط عليهم من السماء، من الواضح أن الرب يخبرني بشيءٍ، ولأنه عصيٌّ عليّ فهمه، أرسل كتابًا من السماء، أين أنت يا مينا يا ولدي، لقد حصل أبوك على كتابه، يا مينا الفؤاد، كتابي ها هو، لا أريده والمسيح الحي، إذا كان في غيابه رجوعَك!

الكتابُ لم يترك شاردةً ولا واردةً إلا وسجلها بتاريخ حدوثها، وكل ما فات أنا أحفظه، ما أريده هو الآتي، والآتي المكتوب هنا هو قيادة تلك الدراجة في خطٍّ مُستقيم، والبحث عن لوحٍ خشبي وحبلٍ وسُلم، لأنني سأحتاجها مع الدراجة، نظرًا إلى تباين مستوى علو البيوت، وطريقي سهلٌ، إلى الأمام فقط، وقد دونتُ في كتابي جملةٌ أعتقد أنني سمعتُها في مكانٍ ما:

"الشخص الواقف في نهاية رحلتِك، هو الجالس في قلبِك بإيمانٍ ويقين".

سرعة الاستجابة هي المطلوب.. ركبتُ الدراجة البُخارية، ولحُسن حظي لم يخسر المُحرك قدرتَه، تحركنا معًا، طوال رحلتي، وصورة ابني مينا لا تفارقني، وصورة ابنتي مريم البتول تظهر وتختفي، وصورة أمي المقتولة تُهدهدني، وصور ضحايا الباشا تبصق عليَّ، الحُزن يقود معي، يُساندني في وحدتي، وفي سيري نحو المجهول، وإذا كانتْ نهايةُ رحلتي شخصًا، فأمنيتي يا يسوع أن يكون أنت، أن أقابلك وأتحدث إليك، تضمني بين يديك، تحميني من هذا العالم الغريب.

يا مينا الفؤاد، أنا آسف لأنني عجزتُ عن حمايتك، ويا مريم البتول، أنا آسف، لأنني عجزتُ عن حمايتكِ، وبدلاً من ذلك، قتلتُكِ بدافع الخوف.

عبد القوي

تقريبًا شخصٌ ما عثرَ عليَّ، وغالبًا أنثى، أيقنتُ ذلك بعدما خبطتْ يميني ما بين فخذيها دون تعمد، ولم أجد ما أحفظ كيانه جيدًا، وحاليًا لا أعرف المطلوبَ مني. حيرةٌ سخيفةٌ أن تكونَ عديمَ الحيلة على هذا النحو المُزري، تجلس أمام أنثى، تجهل كيف عثرتْ عليك، وطبعًا هي تسألك بفضول أنثوي عن سبب وجودك بقاع النهر، وأعتقد أنها ستصفعني، وربما

تركلني، اعتقادًا منها بضياع مجهودها، وقد تضحك على تصرفها الغبي، وتسأل نفسَها: "هل قفزتُ إلى النهر من أجل هذا المسخ الممسوح؟ محاولة ضائعة إضافية للإنقاذ! وحظي العثر أنني عثرتُ على رجلٍ!" صدقيني يا آنسة، لو كنتُ في حالتي العادية، وكنتُ محمد عبد القوي، عامل الدوكو، كنتُ سأقدم نفسي بطريقةٍ لائقة، ونتحدث عن كل شيء، ولا مانع من ممارسة الجنس، فالعالم على وشك الانتهاء، والذنب المحبوب لدينا، نحن معشر الرجال، هي فتنة الست، الفتنة التي لا نقاومها، ونمشي إليها بكامل إرادتنا.

ما بين كل دقيقةٍ، تمسك بيدي، لا أشعر بشيء تجاه حاسة اللمس، لكنني أدرك أنها تفعل ذلك، لأنني لم أحرك يدي، وبالتالي هي السبب في تحريكها، والمعنى العام من تصرفها، هو حثي على فعل شيء، خاصة بعد استقرار يميني على سطحٍ ما، أجهل تفاصيله، على الرغم من تسلل فكرة داخل عقلي المُشتت بين ملايين الأفكار، فكرةٌ تُخبرني بمدى معرفتي لهذا السطح، وأن هناك ما يُميّزني عن غيري، بخبرتي الواسعة وعلمي الغزير، وقد تتأكد شكوكي، إذا حاولتُ الوصولَ إلى تفصيلةٍ أكثر وضوحًا، عن مجرد سطحٍ، قد يخص أي جهازٍ أو سيارة.

أتحرك برغبةٍ منها، تمسك بيميني مرة، وبيساري مرةً أخرى، تُضيف على حركتي نوعًا من الفوضى، التحرك في جميع النواحي، بلا سببٍ مُعيّن، الحركة من أجل الحركة ولا غيرها. ضحكتُ بيني وبين نفسي، وفسرتُ تصرفاتها على أنها نوعٌ من

أنـواع الرقـص، لم يعلمنـي إياهـا الوحـي، إن كان هنـاك وحـي مـن الأسـاس، أم ليسـت هنـاك أنثـى وأنـا أتخيـل؟

مُشـكلة خـط الدرامـا في سـيرتي، المرسـوم بغوغائيـة مُحترفـة، هـي إمكانيـة كل الاحتـمالات! لـو حيـاتي تحتمـل أكـثر مـن مليـون سـيناريو، كلهـا في طـور إمكانيـة الحـدوث، أنـا مثـلاً لسـتُ غارقًـا، أو موظـفٌ في شركـةٍ مُحترمـة، وهـذا كابـوس سـأصحو منـه، وربمـا عامـل دوكـو فعـلاً، ولكـن ملامحـي موجـودة، وهـذه قيلولتـي التـي طالـتْ كثـيرًا، وسـيجيء شـخصٌ حـالاً ويهـزني لأقوم وأسـاعده، فيعطينـي مبلغًـا وقـدره جـراء لـون لحـم الهوانـم فـوق كل تماثيلـه، ومـن الممكـن حقيقيّـةُ الأحـداث التـي أمـر بهـا، والوحـي موجـود، والأنثـى أيضًـا موجـودة، وفي النهايـة أنـا شـخصٌ غـير الشـخص الـذي عـاش حياتـه! يعنـي أنـا لسـتُ محمـد عبـد القـوي، وقـد أكـون أي واحـدٍ، كعـادل الفـولي، مديـر مـوارد بشريـة في شركـةٍ مرموقـة، متـزوج بهاجـر، ولديـه ابنـة اسـمها ميـار، عامـةً، أنـا دائـرة الاحتـمالات اللانهائيـة.

دون أي مُقدمـاتٍ هزتنـي الأسـتاذة، التـي قـررتُ أن اسـمَها هبة، فهـي نجـدة مـن السـماء، وهبـةٌ مـن هباتِـه القليلـة في حيـاتي، ولمـا حاولـتُ الفـرارَ مـن عنقِهـا، عرقلتنـي، ثـم بعدهـا سـاعدتني عـلى النهـوض، وركلتنـي بـين فخـذيَّ ركلـةَ غـل، كأنهـا تصـب جـام غضبها عـلى مخلـوقٍ ضعيـفٍ مثـلي، وتلومـه عـلى وسـاخة الموقـف، وعـلى كل مـا يمـر بـه العـالم مـن مصائـب، وأشـكر القـدرَ عـلى انعـدام الشـعور في الفـترة الحاليـة، وإلا رأيـتُ نفسـي بعـد ركلتهـا سـابحًا في الهـواء مـن شـدة الألم.

مـع توقعـي لشـعورها باليـأس، جربـتِ البنـتُ طريقـةً أخـرى، وجعلتنـي أمسـك شـيئًا حديديًـا، أعرفـه ويعرفنـي، وهنـا كانـتِ المُفاجـأة، هـل هـذا الـذي أتحسسـه، مُسـدس آلـة الـرش؟ كيـف جـاءتْ بـه إلى هنـا؟ أيـن أنـا؟ وهـل جـاءتْ هبـة وخاطـرتْ بحياتهـا مـن أجـل لـون لحـم الهوانـم؟ أتملـك عـددًا مـن المانيكانـات؟ كيـف سـأخبرها بالثمـن؟ قـد تغشـني وتقـول إننـي طليـتُ واحـدًا، وأنـا لعجـزي عـن البـصر، طليـتُ اثنـين! هـل تعـاني مـن جنـون الوحـدة؟ كيـف عرفـتْ طريقـي أساسًـا؟ مـع كل الأشـياء غـير المفهومـة، هـذا الأمـر الأكـثر غرابـةً!

عرفـتُ يـا هبـة أن هـذه آلـة الـرش، مـاذا تريديـن منـي يـا بنـت المجنونـة؟

نعمة

هـل قفـزتُ إلى النهـر، مـن أجـل هـذا المسـخ الممسـوح؟ محاولةٌ ضائعـة إضافيـة للإنقـاذ! وحظـي العـثر أننـي عـثرتُ عـلى رجـلٍ! يـا سـلام يـا نعمـة، حاسـة الشـم ممتـازة عنـدك، يجـذب انتباههـا الرجـال، حاسـةٌ وسـخةٌ كصاحبتهـا! وأنـت يـا خـراء البهائـم مـا فائدتُـك؟ هـل لـك علاقـة بهـذا الجهـاز؟ أم أنـه مرتبـطٌ بي وحـدي؟ تعـال إلى هنـا، وتوقـف عـن مقاومتـي، لقـد أقسـمتُ بركلـك، خـذ هـذه الركلـة بـين خصيتيـك، والمـرة المقبلـة وحيـاة روحـي الحلـوة، سأمسـكهما بـين يـديَّ، وأقتلعهـما بكراهيـة الدنيـا كلهـا!

لما أمسكَ بمسدس الرش، شعرتُ بأنه يعرف الجهاز، الأمر مُريح، قد تكون هناك علاقة بين الجهاز وبينه، ولأنني بحثتُ عنه، وعرفتُ طريقَه من الرائحة، وجب عليك يا أستاذ مجهول أن تشكرَ تاج رأسك نعمة، التي أنقذتك من الغرق، وأخرجتك إلى العالم من جديد، من غيري كان من الممكن أن تموتَ دون أن يُحركَ العالمُ شخصًا واحدًا، أو خُصلةَ شعر امرأةٍ، للبحث عنك!

حين خرجنا من النهر، قررتُ أن الحل المناسب هو التوجه إلى جزيرةٍ لمحتُها في منتصف النهر، تبعد عنا بقليلٍ، فركبتُ القارب الموجود عليه الجهاز، وسحبتُ هذا الغريب معي، أعتقد أنني فكرتُ في طريقةٍ ممتازة، وذلك بسبب الحلم المُستمر الذي أراه بخصوص الطرق التي ستختفي، ولصعوبة ركضي بصحبة شخصٍ عاجز، وجهاز ثقيل كهذا، سأظل هنا، مع مؤن محيي التي تركها، والمؤن الخاصة بي، وإذا فشلتُ في العثور على شيءٍ إضافي، ربما قد أضع هذا المسخ فوق نارٍ وأجهزه للشواء والأكل.

أنا واثقة بأنني مُباركة، وواثقة بتحقق أحلامي، وتائهةٌ لدرجة كبيرة، ماذا عليّ فعله حاليًا؟ هل أترك هذا الغريب مع جهازه؟ أم أبقى كما قُلتُ بسبب الطرق؟ هل أسعى خلف الرائحة الثالثة، رائحة المعدن؟ الاختيارات كثيرة، يا سلام يا نعمة، هل ستنقذين العالم مثلاً بروح أمك؟ فلنبقَ بمكاننا، نرتاح فقط، وعند اقتراب المؤن على النفاد نترك تلك الجزيرة بصاحبنا بجهازه، ونصعد إلى تلك الشوارع هناك، كما

فعـل محيـي، و.. و.. مـا هـذا؟ هـل هـذه تهيـؤات؟ حـين أتيـتُ إلى هنـا مـع محيـي، لم تكـن البنايـاتُ قريبـةً هكـذا مـن النهـر! هـل تحركـت أم مـا الحكايـة؟ ورحمـة عـم سـند لم يكـن المنظـر العـام بهـذا الشـكل! أذكـر كيـف رحـل محيـي، وأنـني تابعتُـه إلى أن صعـد، ثـم اختفـى، مـا الـذي حـدث؟

كيـف تلتصـق البنايـات كلهـا بمـرسى النهـر؟ إذا فتـح أحدهـم النافـذة، سـيقفز مُبـاشرةً إلى النهـر، دون أي خـوفٍ! في أقـل مـن ثانيـةٍ قفـزتُ إلى القـارب، كانـتْ أسرع مـرة جدفـت فيهـا، لم يهمنـي وجـع ذراعـيَّ، ومـع اقـترابي مـن الضفـة تركـتُ القـاربَ وأكملـتُ الطريـقَ سـباحةً، وصلـتُ في أقـل مـن ربـع سـاعةٍ، صعـدتُ السـلم وكانـتِ المُفاجـأة، لا وجـود لطـرقٍ، السـلم يُخرجنـي إلى مدخـل بنايـةٍ، ولا وجـود حتـى لمسـاحةٍ صغـيرة بـين البنايـة والسـور القصـير المبنـي عـلى ضفـةِ النهـر، أكملـتُ رحلـةَ طلوعـي إلى السـطح، لأصرخ مـن المشـهد!

الـصراخ مـن الخـوف بصـدقٍ شـعورٌ لم يرافقنـي كثـيرًا، صرخـتُ في فرحـةٍ، صرخـتُ ضاحكـةً، صرخـتُ لسـببين، الأول لأنَ الطـرقَ اختفـتْ كـما رأيـتُ في أحلامـي، والآخـر لأننـي ابتعـدتُ مسـافةً كبـيرة عـن الجهـاز ولم أشـعر بـالألم، ولم تتحـرك البُقـع أو تطلـب منـي البقـاء! أنـا حُـرة! حُـرةٌ ومُباركـةٌ فعـلاً! أنـا.. أنـا عرافـة مثـلاً؟ طبعًـا! عرافـة لا يُقيدهـا شيءٌ، ولا يقـدر عـلى قوتِهـا وأحلامهـا أي شـخصٍ! أقـرأ لـك البخـت، وأقـول لـك متـى سـتموت! المـوت! نعـم المـوت! هـل مـات محيـي؟ تقريبًـا رحـلَ عـن دنيانـا، لم يسـتطِع الركـضَ، ابتلعتـه الأرض، وهـي تسـبه وتشـخر لـه، وتقـول لـه كيـف

تـترك نعمـة، كيـف تـترك طبـقَ اللحـم، وتذهـب لتـأكل طبـقَ الكُـشري!

البلـد أصبـح قطعـةً واحـدةً! المنظـر غريـب جـدًا، بنايـاتٌ عـلى المسـتوى نفسـه، بنايـاتٌ عـلى طـول النظـر، وبنايـاتٌ أعـلى تظهـر مـن بعيـد، وتقريبًـا أنـا لـن أتحـرك مـن هنـا، يـا سـلام يـا نعمـة، محظوظـة وحيـاة جمالـكِ، سـأذهب إلى كل بنايـةٍ، وأنـزل مـن بـاب السـطح إلى بيوتهـا، سـأبحث في كل دورٍ، سـأدخل كل شـقةٍ، أنـام فيهـا، أضاجـع مـن يعجبنـي مـن الرجـال النائمـين في خـوفٍ، الطعـام والـشراب موجـودان بوفـرةٍ حاليًـا، لقـد وفـر الله عـليَّ مشـقةَ الترحـال، وكلَ فـترةٍ سـأصعد إلى هنـا لأرى مـاذا يفعـل الأحمـق الـذي أنقذتُـه، عديـم الفائـدة الموجـود عـلى الجزيـرة، سـأحاول ألا أبتعـد كثـيرًا عـن هـذا المـكان، في حـال حـدث شيءٌ، سـأقفز إلى النهـر مبـاشرةً، دون أي خـوفٍ، أنـا في أمـانٍ تـام.

إذًا تتحقـق نبـوءاتي، وأنـا مُباركـةٌ وتأكـدتُ مـن ذلـك، والمهـم حاليًـا هـو العثـور عـلى الرائحـة الثالثـة، والتـي لسـبب غريـب أشـعر باقترابهـا، يداعـب المعـدن أنفـي، الرائحـة تـزداد قـوةً، والشـكل العـام يقـول إننـي لـن أذهـب خلفهـا، ومـن الواضـح أنـه يـا قاعديـن يكفيكـو شر الجايـين، وأنـا عرافـة العـالم، فـلا خـوف عـليَّ، ولا شر ولا غـيره، يـا سـلام يـا نعمـة، أسـدٌ بحـق ورحمـة عـم سـند.

هـل لمحـتُ شـخصًا يتحـرك بالأسـفل؟ يـا مـن هنـا، اظهـر وبَـنْ، هـذا أفضـل لـك!

محيي بن طاهرة

إتقـان فـن المُسـاومة ميـزةٌ تنقـذ صاحبَها في أعتـى المواقـف، وتعـدد الخيـارات المُتاحـة نعمـةٌ تُبعـد مالكَهـا عـن النهايـات المأسـاوية، والحمـد لله أنـا خيبـة خـام تمشي عـلى قدميهـا، لا أتقـن الفـن الأول، ولا أملـك الخيـاراتِ المُتعـددة، والنعمـة الوحيـدة في حيـاتي هـي البنـتُ التـي تقريبًـا واقفـةٌ بالأعـلى، المُسـتعدة بسـلاحٍ لتقطـع رقبتـي أو تُهشـم رأسي، وقـد تغتصبنـي -آه والله العظيـم- بـلا رحمـة، والمُعجـزة المُنتظـرة في موقفـي أن تصعـدَ روحُ نعمـة إلى خالقهـا، فـلا يعرفنـي الأذى، ولا أشـكو لـه -بعـد ضربٍ مُـبرح- قسـوةَ نعمـة.

بحسـبة بسـيطةٍ، إذا صعـدتُ إليهـا، واعترفـتُ بحماقـة تـصرفي، ربمـا تُسـامحني، والبنـتُ كـما عرفـتُ منهـا تحبنـي، فاسـتغلال هـذا الحـب مـن الممكـن أن ينجـدني، ولـن ألومهـا إذا صفعتنـي أو ركلتنـي، شـحنةُ غضـبٍ أنثـوي سـتنفجر في وجهـي، ثـم ترجـع المـاء إلى مجاريهـا، حتـى لـو كان المجـرى هـو بالوعـة نعمـة الطافحـة.

طلعـتُ في ثقـةٍ تامـة، يسـندني أمـلٌ عـلى يمينـي، وصـبرٌ عـلى يسـاري، تقابلنـا أمـام بـاب السـطح، داخـل البنايـة الموجـودة مبـاشرةً فـوق السـلم الطالـع مـن النهـر، ولمـا عرفـتْ نعمـة أن الشـخصَ الـذي لمحتْـه هـو أنـا، صرخـتْ بـكل غيـظٍ: "أنـتَ حـي!" وقفـتُ عاجـزًا عـن تفسـير صراخهـا، هـل هـي مثـلاً فرحانـة؟ ظنـتْ أن الأرضَ ابتلعتنـي؟ أم أنهـا حزينـة؟ وكانـتْ تتمنـى المـوتَ لمُحيـي، الرجـل الظـالم المُفـتري، الـذي تركهـا بمنتصـف النهـر، وهـرب مـن

مواجهـة خوفـه؟ بخلـتْ نعمـة عـليَّ بفرصـة الاعتـذار، ركضـتْ تجاهـي بـكل غـل الدنيـا، وركلـتِ الهـواءَ بعدمـا تراجعـتُ في اللحظـة الأخـيرة!

طلبـتُ منهـا تكملـة حديثنـا، أو بدايـة اللـوم والعتـاب، بسـطح البنايـة، وهـذا هـو فـن الاحتيـاط أو الحيطـة، إذ إن المسـاحةَ كلـما زادتْ اتسـاعًا، زادتْ معهـا فرصـك لتتفـادى ضربـات العـدو، وللعثـور عـلى أقـرب الأسـلحة، في حالـة تغيـير خطتـك عـلى نحـو إجبـاري، مـن الهجـوم بالـكلام الناعـم إلى الدفـاع بقلـبٍ مُسـتميت.

لم تفلـح كل محاولاتِهـا، تفاديـتُ صفعاتٍ وركلاتٍ تُشـبه الرصاص في صدمـة الجـرح، حتـى الخنـق لم تتركـه، شرعـتْ في خنقـي بـكل الطـرق الممكنـة، والعبـد لله يفلـت بقـدرةٍ قـادر، نـار الزُّكـة تشـتعل أكـثر مـع كل محاولـةٍ فاشـلة للنيـل منـي، مـن الواضـح أن قتـلي هـو هدفُهـا، ولا رجعـة عـن قرارهـا نهائيًّـا، والكلمـة الوحيـدة التـي مهـدتْ لمُعاهـدة صلـح مؤقتـة كانـتْ: "أنـا آسـف"، وربـما نطقتُهـا بصـدقٍ، هـدأتْ ثورتهـا، وخلـف ذلـك الهـدوء عتـاب قاتـل، أراه آتيًـا في عينيهـا، ستجرحني بصخـر الكَلِـم، ولـن أقـدر عـلى منعهـا، لمـا فيـه مـن اسـتفزاز سـاذج، كأنني أقـول لهـا: "أنـا لسـتُ آسـفًا، وأعـلى مـا في خيالـك افعليـه".

سـكتتْ نعمـة لدقيقـةٍ كاملـة، مشـتْ ناحيـة طـرف السـطح كأنهـا تسـتعد للقفـز، أشـارت إليَّ بالاقـتراب، لم تعطِنـي الفُرصـةَ لأفتنهـا بنظـرات الرجـل النـادم، لا تُحـرك عينيهـا بعيـدًا، عـن جزيرةٍ موجـودة في المنتصـف، وعليهـا رجـلٌ وهـو تقريبًـا الـذي أنقذتْـه،

تراقبُ تحركاتـه العشـوائية، شـكله مُضحـكٌ جـدًّا، يقـع ويقـوم، يمـشي ثـم يقـع، يزحـف تجـاه الجهـاز العجيـب، يلمسـه فقـط، بعدهـا يبتعـد عنـه، ليكـرر دورةَ حركتـه القصـيرة ثانيـةً، الوقـوع والقيـام، الزحـف واللمـس.

صلبتنـي نعمـة بـكل كلمـةٍ خرجـتْ مـن إنجيـل حزنهـا المُقـدس: "آسـف عـلى مـاذا يـا محيـي؟ عـلى بُقعـي؟ عـلى كل ليلـةٍ كان يركبنـي رجـلٌ؟ عـلى مـوت عـم سـند؟ عـلى رفـض النـاس لشـكلي ولوجـودي؟ عـلى ضربي وسـحلي ثـم تـركي للمـوت؟ عـلى إعـدام البنـت الوحيـدة التـي سـاعدتني؟ عـلى الشـارع الـذي صـار بيتـي بعدمـا رمـاني الرجـل الخـول الـذي خلفنـي؟ عـلى ممارسـتي للشـذوذ مـع امـرأة ومـع أطفـالٍ؟ عـلى أمـراضي النفسـية؟ عـلى الكريـم الـذي يحـول فرجـي إلى اللـون الأحمـر ولم أعرفـه إلا منـذ فـترة؟ عـلى عـدم تحقيـق رغبتـي في الـزواج؟ آسـف عـلى أننـي إنسـانة تعيـش كأحقـر مـن أحقـر كلبـة؟ وحياتـك يـا محيـي أعـرف كلبـةً تـأكل الكفتـة والكبـاب يوميًـا! لقـد أثبـتُّ لـك أننـي مُباركـة يـا محيـي، حـين عـثرتُ عليـك ثـم عليـه، ولمـا تحقـق حلمـي، لمـاذا عاملتنـي يـا محيـي عـلى أننـي شرموطـة، أرسـلها الله لـك، فتسـمع صـوت الآهـات حـين تركبنـي، بـدلاً مـن مُضاجعـة النسـوان السـاكتات؟ لمـاذا يـا محيـي تركتنـي بـكل هـذه السـهولة؟ يـا محيي أنـت أقسـمتَ لي بجـمال حياتـك، لمـا دخلـتُ أنـا فيهـا، وأقسـمتَ إننـي واحـدة تعـرف كيـف تُغريـك بمفاتنهـا دون أي مجهـودٍ؟

بسـبب خوفـك مـن المـاء، تقـول ببسـاطة اذهبـي في سـتين داهيـة يـا نعمـة! والآن تقـول لي أنـا آسـف؟ لمـاذا لم يقلهـا عـم

سند حين مات وتركني؟ والست اعتدال لما طلبتُ مني لحس فرجها؟ وصاحب محل الكُشري وابنه التجس ابن النجسة؟ لماذا لم يهمس بها الخول الذي خلفني وهو يرميني إلى الشارع؟ لماذا لم يهمس بها العرص الذي اغتصبني وأنا صغيرة؟ لماذا لم يهمس بها كل رجلٍ بعد ما خلص مزاجه مني، وغرق وجهي أو فتحة الخراء بلبنه؟ لماذا لم يقلها الرجل ابن الوسخة، الذي جاء أيضًا إلى ورشة العم سند، واغتصبني بسبب تنورتي المرفوعة دون قصدٍ، فهاج على كُس طفلة ظاهر من تحت ملابسها الداخلية؟ ولما دافع عني عم سند، ضربه وقتله! الرجل الوحيد الطيب، مات وهو يدافع عن طفلة، لا تفهم لماذا يُخرج رجلٌ قضيبَه، بكل هذا الحجم والكبر، ويمرره فوق فرجي، ويسألني إذا كنتُ فرحانةً أم لا! عم سند مات شهيدًا! مات شهيدًا، والرجل ابن الوسخة ركض، ولم يرجع إلى الآن! كل رجلٍ مارس معي الجنس، قررتُ أنه اغتصبني يا محيي، لم يرجع أي منهم ثانيةً! تخيَّل يا محيي، هذا الرجل، الذي قتل العم سند، هو أول من دفعني إلى عالم السرير والجنس! تركتُ منزلَ العم سند بعد موته، لم أقوَ على الوجود في المكان نفسه، وظللتُ أقف كل يومٍ، بعدما استقررتُ في أبي حماد، أقف أمام مسجد العسال، وأدعو للعم سند، وأسأل الله لماذا! لماذا كل يومٍ كنتُ أرى الرجل المُغتصب القاتل في وجوه أولاد الوسخة، وهم يطلبون مني مص ذكرهم، أو لحس فلقة مؤخراتهم؟ وفي كل زنقةٍ أو ركوبةٍ من رجلٍ لي، كنتُ أقول في سري: أتمنى الموت يشوف الرجل ابن الوسخة، ويكون ميتًا. قُل لي يا محيي، لماذا

لم ينـزل الـرب إلى هنـا، إلى سـطح هـذه البنايـة، ويقـول لي يـا نعمـة أنـا آسـف عـلى هـذه الحيـاة بنـت الكلـب، ظننتُـكِ أقـوى مـن هـذا؟ أنـا آسـفة يـا محبـي، أنـت عـارٌ عـلى الرجولـة، ولـن أطلـب منـك مسـامحتي عـلى مـا سـأفعله.

الغلـط الأكـبر في أي علاقـةٍ هـو البـوح السـاذج الـذي يُفتـت كل جـدارٍ حاولـتّ أن تبنيـه حـول شيءٍ مـا، تُخفيـه عـن الناظريـن، تُرغـم العارفـين بالأمـور عـلى الاعـتراف بفشـل تنبؤاتهـم، لمعرفـة القصـة المُسـتقرة في أعمـق نقطـة داخلـك، قـد تظـل مبهـمًا لسـنين طـوال، وبمجـرد مقابلـة، دبرهـا القـدر، غلفتهـا الظـروف بطبقـةٍ من فتنـة الراحـة، وطبقتـين مـن خليـط الإعجـاب واللحظـة المُنتظـرة، وثـلاث طبقـاتٍ مـن الحُـب الفاخـر.

هـذه كانـت غلطتـي، البـوح في لحظـة ضعـفٍ، حـين ظننـتُ أن نعمـة لـن تسـتغل خـوفي مـن المـاء، وهـا هـو أنـا، الشـخص ذاتـه، المُعـترف بخوفـه لحبيبـة، أو لبنـتٍ كان يظنهـا حبيبـةً، هـا أنـا طائـرٌ في الهـواء، بعدمـا دفعتنـي نعمـة مـن فـوق البنايـة، وهـي تعـرف أننـي أخـاف مـن المـاء، وأننـي سـأغرق بعـد محـاولات واسـتغاثات عـد ، وفي أقـل مـن دقيقـة، سـتحاول غريـزة التمسـك بالحيـاة إنقـاذي أو العثـور عـلى قشـةٍ تُنقـذني، ثـم تفشـل وأمـوت، والحقيقـة سـأكون كاذبًـا إذا أقنعـتُ نفـسي بـأن الحُـب هـو مـن قتلنـي، أنـا لم يقتلنـي الحـب، أنـا قتلتنـي الثقـة بـرد الفعـل، كـما قتلـتِ المسـيح الحقيقـي، الـذي كان واثقًـا بـأن فعلتّـه سـتطهر ذنـوبَ البـشر، وبعدهـا سـيتعامل كل شـخصٍ بطيـب خاطـر،

وسيتذكر في كل الأوقات أن رجلاً مات من أجله، فلا يُقدم على أي ذنبٍ أو خطيةٍ.

أنا آسف يا نعمة، وآسف لي لما راوغتُ حذري، وقُلتُ له بكل ثقةٍ: "شحنةٌ غضبٍ أنثوي، ستنفجر في وجهي، ثم تعود الماء إلى مجاريها". أنا أكره الماء والمجاري ونعمة.

اليوم قبل الأخير

العامة

الهادمُ الأعظم

في مقر القصر الرئاسي، من الساعة السادسة صباحًا، داخل غرفة الاجتماعات، التي شهدتْ من النجاسة والقذارة ما يفوق قدر تحمل مكانٍ، جلس صاحبُ الأمر وحوله حاشيته، كل شخصٍ يُقدمُ الاقتراحاتِ الأخيرة، قبل المكوث بالبيوت، والتعبد إلى أن تقومَ القيامة، ووضَّحَ صاحبُ الأمر للموجودين ضرورة عرض الاقتراحات كلها، مهما كانتْ جودتها، ونسيان الحرج أو الخوف، لأن الوقتَ لم يعد متاحًا كما كان من قبل، ونبه لمبدأ التصويت على كل فكرةٍ، فلا وجود لموافقة فردية، والإجماع على الأمر هو سمة جلستهم الأخيرة.

كل واحدٍ منهم فتح أجندته، وأثبتَ للحاضرين كفاءةَ دوره، وكيفية الانصياع للأوامر من أجل مصلحة الجميع، وخاصة مصلحة صاحب الأمر، آخر حكام البلاد، الذي سيدخل الجنة بلا حساب ولا سابقة عذاب، ثم يتبع كلامه بخطبةٍ قصيرة عن فن إدارة الأزمات، وعن الرضا السابح في قلبه لأنه ترك شاطئ الفتن، وزهدَ كل شيءٍ يُغويه، وفتح بابَه للحسنات وأعمال الخير، ويختتم حديثَه بالدعاء لصاحب الأمر، مع وعدٍ صريحٍ واضحٍ: "لما يسألني الله عنك يا صاحب الأمر، سأقول يا ليت عمار الدنيا زاد، لنتعلم من علمه، ونشهد على عدله بين العباد". ثم بدأت الاقتراحات والأفكار تنهال على صاحب الأمر، كسيلٍ غادر فرج أنثى، لم تصل إلى ذروة نشوتها منذ فترةٍ طويلة.

تباين مستوى ما تم عرضه من أفكارٍ.. البداية لم تكن جيدة، ومع الاستمرار في الضغط من جانب صاحب الأمر، خرجتْ فكرة جعلتِ الكل صامتًا لأكثر من خمس دقائق، فقد قال المُتحدث الرسمي باسم الأزهر الشريف: "هذا الاقتراح يا صاحب الأمر يلازمني منذ اليوم الأول لتساقط الكتب، وكنتُ أرفضه نظرًا إلى تفضيلي الابتعاد عن الجدال العقيم، ولكن ما دمت تريد اقتراحًا يُضيف إلى رصيدك الكثيرَ من الحسنات، فسأخبرك بما يفيدك من ناحية الدين، والكلمة النهائية لك!"

بعد سماعه لكل كلمةٍ قالها المُتحدث الرسمي، رفع يمينه صاحبُ الأمر، وقال بصوتٍ جهوريٍ يُحرك الحماسَ داخل الأجساد: "الموافقُ منكم على هذا الاقتراح بهدم الأهرامات والمعابد وكل التماثيل الفرعونية وغير الفرعونية، التي كان

غرضُها تأريخَ الحضارات والديانات، وهدم متاحف الفنون التي تعرض لوحاتٍ عارية، والتماثيلَ المنحوتة للآلهة والمُفكرين وغيرهم، وذلك لحرمانية السابق ذكرهم، كعلاماتٍ واضحة على الكُفر والإلحاد، مع العلم أن التفكير في الأمر من جهة دينية بحتة، وليستْ من أجل تاريخ أو غيره، القيامة على الأبواب، ونحن آخر أجناس البشر، لا وجود لأجناس بعدنا، عرفنا ما عرفناه، وسنختتم معرفتنا بأمور الدنيا، على ما تم التوصل إليه، وهدمها طبعًا بدافع الغيرة على الدين، وإضافة ما يُساعد صاحب الأمر -وهو أنا- على نحو أكبر، في امتحان الآخرة، الموافق منكم، فليتفضل برفع يديه".

في أقل من نصف ساعة كان الخبر منتشرًا لدى رسل الخير وحراسهم بجميع المُحافظات، وكان الأمر واضحًا، هدم كل المعالم التاريخية والأثرية، تفجير القلاع والأهرامات والمتاحف، كل الأماكن التي شهدتْ فيما قبل أحداثًا منافيةً للدين، كل ما يخص الحضارات بمختلف السنين، وعندما فكر الرسول الأكبر، وسأل صاحبَ الأمر: "سؤالي يا سيدي غرضه الاستفسار وليس الاستنفار، هناك بعض المتاحف التي تجمع بين مختلف الحضارات والفنون، وهناك بداخلها ما يخص الديانة الإسلامية مثلاً، فهل نتركها أم نفجرها أيضًا؟"

لم يتأخر الرد من صاحب الأمر، الذي قاله بصوتٍ عالٍ في الهاتف، ليسمعه الموجودون الموافقون على أي قرارٍ: "اهدم كل شيءٍ! لا أريد متحفًا مهما كانتْ أهمية المعروض بداخله، يا غبي افهمني! نحن آخر الأجيال، لمن سنترك هذه المتاحف؟

مـن سـيتعلم بعدنـا أمـورًا تخـص الإسـلام أو المسـيحية أو اليهوديـة؟ غـدًا سـتقوم القيامـة وسنُحاسـب كلنـا، نفـذ الأمرَ حـالاً، واسـمعني يـا غبـي جيـدًا، كل مـا يفيـدك في تنفيـذ الأمـر اسـتخدمه، مختلـف أنـواع القنابـل، مـن أولهـا إلى أحدثهـا، قاذفـة صواريـخ، طائـرات حربيـة، مدافـع، اجعـل المهمـةَ كأننـا سـنخوض حربًـا! لا تبخـل عـلى طلبـي بـأي سلاحٍ، في أقـل مـن سـاعتين أريـد مكالمـةً تُبشرني فيهـا بإتمـام المهمـة!"

صفـق الحضـور لصاحـب الفكـرة، وقـام صاحـب الأمـر وقبّـل رأسَـه شـاكرًا، ثـم شـكرَ كل الموجوديـن لأنهـم وافقـوا عـلى هـذا الاقـتراح رغـم مسـاس التفجـيرات بمـا يخصهـم، ومـع ذلـك كانـتْ مصلحـة صاحـب الأمـر هـي المسـألة الأولى لديهـم، ولمـا شـعرَ سـفير الثقافـة العـام بعظمـة مـا فعلـه المُتحـدث الرسـمي، وكيـف سـاعدَ صاحـبَ الأمـر عـلى الشـعور بالراحـة النفسـية، تسـلل إلى نفسـه الحقـد والغـيرة، فذكّـر الجميـع بأنـه صاحـبُ فكـرةِ هـدم مكتبـة الإسـكندرية، ليصفـق الحـاضرون لـه، ويبـدأ السـفراء في التهليـل: "نحــن جاهــزون بعــون الله جاهــزون، نحــن جاهــزون بعــون الله جاهــزون"، ثــم بــدأ سـفير الثقافـة حفـلَ تملـق لصاحـب الأمـر، لمـا عـبر عـن جزيـل شـكره لإزالـة الهـم عـن قلبـه، لأنـه كثـيرًا مـا كان يسـأل عـن حُرمانيـة منصبـه، وأنـه لم ينـسَ قـط وعـدَ صاحـب الأمـر لـه بتحقيـق مـا هـو في مصلحتـه، وعـدم تركـه لمواجهـة المصير بمفـرده.

توالـتِ الاقتراحـات تباعًـا، هـذا يُخبرهـم بحتميـة الاحتفـاظ بزجاجـات مـاء، ربمـا يُصيبنـا العطـش، وذاك يُذكرهـم بالصفـح

والمسـامحة للجميـع، وواحدهـم طلـبَ مـن صاحـب الأمـر أن يخـرج إلى النـاس في بيـانٍ، يشـكرهم عـلى تعاونهـم في هـذه الفـترة، ويطلـب مـن النـاس الدعـاء لـه، فهـو يسـتحق الثنـاء، نظـرًا إلى أنـه سـاعدهم عـلى تقليـل الذنـوب، ومـن ثـم أصبـح جـزءًا مهـمًا في دخولهـم الجنـة، بعـد حسـاب الـرب.

وكان آخـر الاقتراحـات، قبـل أن يتجـه الموجـودون إلى بيوتهـم، صـلاة جماعيـة، يـأتي إليهـا مـن يسـتطيع، في ميـدان التحريـر، يتحـد صـوت الدعـاء، بقلـبٍ واحـد، باختـلاف الديانـات، أن تكـون حسـن الخاتمـة مـن نصيبهـم، وأن يدخـلَ صاحـب الأمـر الجنـة، لأنـه يسـتحقها، فهـو نعـم الحاكـم ونعـم الناصـح، قبـل أن يُقاطعـه سـفير الثقافـة: "ونعـم الهـادم.. لا تُسـئ فهمـي.. أقصـد.. أقصـد الهـادم الأعظـم لـكل الذنـوب طبعًـا!"

عامل الفخار

غـادر فيليـب نحـو عـالم الحقيقـة، وتـرك بـرزخَ الغيبوبـة ويهوذا والنبـي يوسـف، ولمـا فتـح عينيـه، وجـد الفـراغَ العظيـم أمامـه، لا وجـود لمـرضى أو ممرضـات، والأطبـاء طبعًـا مشـغولون، فأيقـن أن الونـسَ مـع سريـره والمحاليـل المُعلقـة.

الصمـتُ الـذي ضربَ المـكان، لم يقـدر عـلى فيليـب، لأنـه صرخَ بـكل قوتـه، وبعلـو صوتـه، ليعلـن عـن قيامتـه، وليحـاول الوصـولَ إلى شـخصٍ يعرفـه، وهـو مـا نجـح فيـه، لمـا رأى ممرضـةً تركـض

تجاهـه، وتطلـب منـه الهـدوءَ، وتعـده بحكايـةٍ خُرافيـة، لا يُصدقُهـا عاقـلٌ، سـتسردها بإيجـازٍ شـديد، وعليـه ألا يسـأل كثـيرًا، ففضيلـة الوقـت باتـتْ مُسـتحيلةً، وهـي ممرضـةٌ سـتقف أمـام الله غـدًا، وستُحاسـب عـلى التقاعـس عـن أداء دورهـا كمـلاك رحمـةٍ.

بـدأتْ كلامَهـا بجُمَـلٍ سـاحرة خاطفـة، تـارةً تطمئنـه، وتـارةً أخـرى تهـز كيانـه خوفًـا: "يـا عـم فيليـب، اسـمعني وغـلاوة المسـيح حبيبـك، ولا تطلـب مزيـدًا مـن التفسـير، سـأحكي لـك كل شيء، بنيـة عـدم تعرضـك لصدمـةٍ، حـين تواجـه.. والله مـا عارفـة مـاذا أقـول، اسـمعني يـا عـم فيليـب، هـذا الـكلام هـو الواقـع، كل مـا سـأحكيه الآن، هـو الوقائـع التـي حدثـتْ، في أثنـاء غيبوبتـك، وسـبحان الله، لقـد رجعـتَ إلينـا في اليـوم قبـل الأخـير، كأن اللهَ يريـد منـي تجهيـزك لمـا سـيحدث غـدًا!"

حكـتِ الممرضـةُ كل مـا فـات، لم تُخـبره بتفاصيـل التفاصيـل، بدايـةً مـن تسـاقط الكتـب، مـرورًا بالمدينـة الفاضلـة وقوانينهـا، تغيـير القوانـين طبقًـا للمُتغـيرات، تغيـير اسـم الحكومـة للسـفارة العامـة، الرئيـس صـار لقبـه صاحـب الأمـر، منـع الكُتب، رُسـل الخير والحُـراس، لجـوء الجميـع إلى الفقـر، النـاس كرهـوا الفلـوس تمامًـا، اكتشـاف اليـوم الأخـير بـكل الكتـب، وصـولاً إلى إعـادة تشـغيل الحيـاة، ثـورة النـاس عـلى الذنـوب، وإعـدام عاشـقي الذنـوب.

لم يتفاعـل مـع حكايتهـا، السـكوتُ كان رده الواضـح، ولم تُرهـق الممرضـةُ نفسَـها بسـؤاله عـن إدراكـه لمـا قالـتْ، ولم تقـل بعدهـا الممرضـة شـيئًا سـوى السـماح لـه بتبديـل ملابسـه، وأنهـا سـتهاتف

الرقـم الوحيـد الموجـود لديهـم، في حالـة رجـوع الوعـي إليـه، والـذي طلـبَ صاحبُـه ذلـك، بعـد موافقـة ابنـه مينـا وزوجتـه، ولم يمـر أقـل مـن ربـع سـاعة، إلا وكان الباشـا واقفًـا أمـام فيليـب، ينظـر إليـه بعـين المُعجـزة، ويطلـب منـه مرافقتـه إلى الخـارج.

أدرك فيليـب عنـد خروجـه إلى العـالم الصامـت أنـه كان طـوال هـذه الفـترة بالقاهـرة، تـم نقلـه مـن المشـفى الحكومـي، بعـد حادثـة القطـار، إلى المشـفى الخـاص رغبـةً مـن الباشـا، مـشى في عـالمٍ سـاكت، الشـارع وحيـدٌ، لا يفهـم شـيئًا مـما يـدور حولـه، ركـب بجانـب الباشـا، في سـيارته الفارهـة، الباشـا يتحـدث إليـه، وهـو يفكـر في كلام الممرضـة، وفي كلام يهـوذا والنبـي يوسـف: "السـائق تركنـي منـذ فـترةٍ طويلـة يـا فيليـب، يتعبـد لأن المخبولـين أوهمـوه باليـوم الأخـير، آه يـا فيليـب، يـا صديقـي العزيـز، أراك كـما المسـيح، عندمـا قـام ثانيـةً!" لم يُعلـق فيليـب، فأكمـل الباشـا آمـلاً في بدايـة حديـثٍ: "الحقيقـة يـا فيليـب أنـا كنـتُ متواصـلاً مـع الممرضـة، التـي عرضـتُ عليهـا كل السـبل، مـن راتـبٍ ثابـت أو ترقيـة، لتبقـى معـك، وفي النهايـة وافقـتْ، بـشرط أن أوفـر لهـا ولحبيبهـا كل مراسـم الـزواج! لا مفـر مـن الشـكر يـا فيليـب، لـولا مـا فعلتُـه، لكنـتَ نائمًـا في المشـفى بمفـردك!"

الطريـق طويـل، وصمـتُ فيليـب هـز ثبـاتَ الباشـا، الـذي حاول عـدة مـراتٍ فتـح حـواراتٍ مـع فيليـب، والأخـير لا يجاريـه، يكتفـي بابتسـامةٍ أو إيمـاءة رأس، وقـد ينطـق كلمـةً واحـدةً أو جملةً قصيرة، مثـل (مضبـوط) و(لا بـأس) أو(حكمـة الـرب)، توتـر الباشـا يتزايـد مـع كل ميـلٍ، وفيليـب يحـاول تفسـير مشـاعره، شـخصٌ غائـبٌ عـن

الوعـي لمـدة عـام، يرجـع فيجـد النـاس يخبرونـه بانتهـاء العـالم، وهـذه حقيقـة وليـس فيلـمًا أجنبيًـا، والصدمـة الأخـرى هـي عـدم وجـود أهلـه بجانبـه، سـأل نفسـه وسـط كلام الباشـا: "إذا كان فعـلاً غـدًا هـو اليـوم الأخـير، فلـماذا لم يقـف مينـا بجانبـي، وأيـن زوجتي التـي كانـت تُقسـم لي بالمسـيح الحـي عـلى وجودهـا معـي في أي مـكانٍ، حتـى لـو القـبر؟"

علامـاتُ الأرق وعـدم الفهـم، الظاهـرة بوضـوح، عـلى وجـه وتصرفـات فيليـب، وسوسـتْ للباشـا بسرعـة التدخـل، والحديـث معـه، لمـرور الوقـت بسرعـةٍ، لا تحتمـل أي تأجيـلٍ: "فيليـب، أنـت تعرفنـي جيـدًا، منـذ اليـوم الأول، وتعـرف كـم أكـره المـوتَ، وغـدًا سـنقف أمـام المسـيح، لذلـك أريـد منـك آخـر خدمـة تُقدمهـا لرجلٍ يحترمـك كثـيرًا، أريـد منـك حرقـي في الفُـرن يـا فيليـب! نعـم كـما سـمعتَ، لا أريـد أن أكـون موجـودًا وحـاضرًا غـدًا، أريـد أن تذهـب روحـي المُتعبـة، لتتحـدث إلى يسـوع، عسـاه يغفـر لي، بسـبب صفـاء الـروح دومًـا! أخبرونـا ونحـن صغـارٌ أن الـروحَ طيبـةٌ، لأنهـا مـن الـرب، لذلـك لا توسـوس للإنسـان، مـن يفعـل ذلـك هـو طـين الإنسـان نفسـه، المُتمثـل في النفـس البشريـة، التـي تكـره الإنسـان، وتريـده مُعذبًـا، لأنهـا مـن طـين، وتشـعر بالدونيـة دائمًـا، تشـعر أنهـا أحقـر المـواد التـي نُفخـتْ فيهـا الـروح!"

طلـبٌ كذلـك يُحـرك أعمـدةَ السـماء، ولكـن الإنسـانَ الصَمـوت، الجالـس في عـالمٍ آخـر، لا يتكلـم ولا يـرد، لأنـه في عـالم مـن آلاف الأسـئلة، التـي تضربـه بعـدم منطقيـة الأحـداث، والـذي يفشـل هـو في منطقـة الواقـع، والباشـا يتحـدث عـن أسـباب طلبـه،

يـشرح ويوضـح، يهـز كتـفَ فيليـب ليتأكـد مـن مجاراتـه، وفيليـب يـرى أمامـه جثامـين ضحايـاه، عـلى زجـاج السـيارة، وعـلى المقعـد الخلفـي، وعـلى الصليـب المُتراقـص النـازل مـن المـرآة الأماميـة، الباشـا يخبـط بيديـه عـلى المقـود، يـصرخ في شـخصٍ رحلـتْ روحـه مُبكـرًا، وتقريبًـا مـن يُحـرك الجسـد الآن هـو الفضـول البـشري لمعرفـة كيـف سـينتهي الأمـر.

انتبـه فيليـب لكلمـةٍ عرفـتْ بمكـرٍ ودهـاء كيـف تقتحـم خلوته، لما قـال الباشـا: "لا تحرقنـي"، ومـع تكملـة الجملـة، اقـترح الباشـا عـدة طـرق للقتـل، مثـل الغـرق أو إطـلاق الرصـاص، ويمكـن عـن طريـق شُرب السـم، أو الخنـق باليـد أو الغـاز، وإن رفـض فيليـب، سـيحاول الباشـا البحـثَ عـن آخـر، أو قتـل نفسـه، الموضـوع ليـس في هويــة القاتــل، الموضــوع بالنسـبة إلى الباشــا إيجــاد شــخصٍ سـيحقق المطلـوبَ فعـلاً، اليقـين في تنفيـذ الأمـر هـو المُـراد، يعـرف جيــدًا أن الإنســانَ قــد يــتردد في إنهــاء حياتــه بيديــه، ودائمًــا مــا يحتـاج إلى مصيبـةٍ تسـوقه إلى الانتحـار، أو شـخصٍ ينفـذ في مُتعـةٍ خالصـة.

"طـوال غيابـك عـن عالمنـا يـا فيليـب وأنـا يوميًـا كنـتُ أفكـر في قتـل نفـسي، والصراحـة فكـرتُ مـرةً في قتلـك، تجنبًـا لبوحـك بأسرارنـا في أثنـاء غيبوبتـك، ثـم قُلـتُ لـن يصدقـه أحـدٌ، بحجـة التخريـف وغيـاب العقـل والوعـي، وهـذا آخـر مـا أطلبـه منـك يـا فيليـب، أن تقتلنـي، وتجعلنـي أبعـث مـن جديـد، لأواجـه مصـيرًا مجهـولاً، سـأحاول الدعـاء ليسـوع، الأرواح طيبـة، يـا فيليـب تحدث إليَّ! أترفـض فعـلاً مُسـاعدتي! يـا بـن القحبـة يـا حيـوان! أترفـض

مُساعدة ولي نعمتك، الذي جعلك تعيش في نعيم! عامةً يا فيليب، سأقول لك آخر جملة، قبل أن أسكت حتى نصل إلى الفيوم، أنا ذهبتُ كثيرًا إلى القرية في غيابك، كي أطمئن على عائلتك، وأدفع لهم كل ما يريدونه، والحقيقة يا فيليب، ضاجعتُ زوجتك حد الاكتفاء، جعلتُها تصرخ أكثر من مرة، تلعن اليوم الذي تزوجتك فيه، جعلتُها تُقسم إنها لم تمارس الجنس إلا معي، وإنها معك كانتْ تُدغدغ فرجها قليلاً لعله يضحك".

العامة
الهَدمُ الأعظم

في أثناء تحرك حُراس الخير إلى جميع الأماكن المطلوب هدمها، سار بجانبهم سؤالٌ مُخادعٌ، وبدأ يقنعهم بحجته، وسرق عقلَ حارسٍ منهم، ليظهر لهم في هيئة استفسارٍ بسيط، هدفه عظيم، فسأل الحارسُ زملاءه: "لماذا لا نهدم كل ما هو مُحرم عامةً؟" وحين عرفَ أنهم لم يفهموا مقصده، وضح بطريقةٍ مُباشرة يسهل فهمها: "الرسول الأكبر طلبَ منا هدمَ المتاحف والمعابد والأهرامات وغيره، ووصل الكلام إلينا من رسل الخير، أن المهمةَ بغرض تأمين صحيفة صاحب الأمر، وما تم ذكره ليستِ المُحرمات كلها، فلماذا لا تُهدم أيضًا مقاماتِ وأضرحةَ الأولياء، وقبور القديسين، وكل هذه الخزعبلات؟ ما رأيكم؟ وأعتقد أن أمرًا كهذا سيضيف إلى صحيفة أعمالنا الكثير

من الحسنات، لأننا حاربنا جهلَ التقاليد والمُعتقدات، فالواهب هو الله، وصاحب المُعجزات هو الله!"

في البداية واجهتْه بعض الاعتراضات، وكيف أن الأولياءَ ساعدوا أشخاصًا في جلب الرزق والعيال وفك ضيقة، وحكى لهم حارسٌ عن قصته وكرامة ولي، الشيخ السيد عبد القادر الدشطوطي، لما أنقذه من الغرقِ وهو عيِّل، يسبح في البحر مع والده، ووقتها أصاب الشد العضلي أباه، فلم يقدر على السباحة، ولا على حمل الطفل معه، وأقسم الحارس إنه رأى الشيخ الدشطوطي ماشيًا على سطح البحر، وحمله على ظهره، ومشى به إلى الشاطئ، ثم عاد وعالج أباه، الذي ظن بزوال الشد من تلقاء نفسه، وحين سأله إذا ما شاهد هذا الرجل، فكانت إجابة أبيه: "أي رجلٍ؟ وكيف سبحتَ هكذا إلى الشاطيء؟ وكيف تترك أباك يواجه الموت يا ابن الكلب؟"

تعالتِ القصص مع كرامات الأولياء، ليقترح حارسٌ من الموجودين استشارة الأمر مع رسولٍ، وحسب أوامره سيمتثل الجميع، وقد وافق المُهتم بالموضوع على ذلك، ولم يمنحهم الحظ فرصةً، إذ إن الرسلَ مشغولون بعبادتهم الأخيرة، ولحُسن حظهم رد الرسول الأكبر على اللاسلكي، ووافق على الاقتراح فورًا، وكلف حارسين في كل منطقة، بجميع المحافظات، بتحطيم المقامات والأضرحة.

في أماكن متفرقة، في محافظات مختلفة، لم يهتم شخصٌ واحدٌ بما يحدث بالخارج، رجلٌ يبكي بحرقةٍ داخل منزله، وصوتُ

الانفجار يصرخ بالخارج، امرأةٌ تتضرع للخالق، والهرم الأكبر يتضرع ليبقى، ولدٌ صغيرٌ يسأل عن إمكانية جلب لعبته معه، في أثناء الوقوف أمام الرب، وأبو الهول يستفسر عن سبب تفجيره، ولماذا يقتلونه وهو لم يفعل شيئًا؟ بنتٌ تُخرجُ فستانَ فرحِها، تلبسه للمرة الأولى والأخيرة، والمتحف المصري تتساقط دموعه، مومياوات وتماثيل العظماء وبرديات، عجوزٌ يتكئ على عصاه، ويمجد الرب، يسأله أن يُسكنه الملكوت، ومعابد الأقصر وأسوان تركع بعد آلاف السنين، ولا تصدق كيف هُزم شموخها بفعل الإنسان الجبان.

كل معلم من المعالم الأثرية، كل ضريحٍ ومقامٍ، كل معبدٍ ومتحفٍ، كل رسمةٍ وتمثالٍ، كل هرمٍ ومنحوتةٍ، كلهم سألوا في صوتٍ واحد، من وسط البارود والمدافع، من بين القنابل والقاذفات، سألوا أربابَ حضاراتهم، سألوا صانعيهم، لماذ قد يمحو الإنسان تاريخَ أخيه الإنسان، بكل هذه السهولة؟

لماذا يجحد الإنسان فضلَ الحجارة، وفضلَ الألوان، فضلَ الجير، وفضلَ الماء والزلط والجبس والأسمنت، فضل السحر والدعاء، على مدار القرون، منذ بدء الخليقة، وكلهم كانوا شهودًا على سريان الأيام، كل مبنى كان واقفًا، كل تمثالٍ كان حاضرًا، كل رسمةٍ كانتْ شاهدةً، على تعب وإلهام وحزن وسعادة إنسانٍ، حاول توصيل رسالة، رسالة فحواها، لقد كنتُ هنا يومًا ما، فلا تنسَ زماني ولا تجحد جهدي، لقد كنتُ هنا، وصنعتُ هذا من أجلك، لتقف أمام العالم، تتفاخر بصنيعة ابن جنسك، وابن حضارتك الذي سبقك، وابن دولتك الذي

ينتظـر منـك الكثـيرَ، والـذي ينتظـر منـك أن تضيـفَ إلى التاريـخ، الـذي حاولنـا كتابتـه جميعًـا، اكتـب معنـا تاريخًـا لا يُنـسى، اصنـع معنـا معـالمَ الأجيـال، ولا تكـن جبانًـا!

أقسـم حـارسٌ إنـه شـاهد آلهـة الفراعنـة وهـم يخرجـون مـن تماثيلهـم، ينظـرون إلى رسـل وحُـراس الخـير بعـين الغضـب وعـدم الفهـم، يركضـون في محاولـةٍ أخـيرةٍ بائسـة للحـاق بتمثـالٍ أو معبـدٍ مـن الهـدم والضيـاع، وأقسـم حـارسٌ آخـر، في محافظة الإسـكندرية، إنـه سـمعَ ورأى سـيرابيس، إلـه الشـفاء عنـد القدمـاء المصريـين، وهـو يصفـق للحُـراس ويشـكرهم، ويقـول لهـم: "لقـد دمـروا كل حجـارة بالسـيرابيوم، ونسـيني النـاس بسـبب كنيسـة هنـا، بُنيـت فـوق أنقـاض معبـدي، السـيرابيوم العظيـم، أشـكركم عـلى منـاصرة الإلـه المنـسي!"

طـوال اليـوم، ورسـل وحُـراس الخـير، في كل المُحافظـات، يركضـون بحثًـا عـن المعابـد والمتاحـف والمقامـات والأضرحـة، يلهثـون خلـف كل مـا قـد يوضـع في سـجل سيئات صاحـب الأمـر، ويدمـر أحدُهـم الأثـر العظيـم، بنفـس راضيـة، وبضحكـةٍ وأمنيـةٍ في دخـول الجنـة، يـضرب الرسـول الحـارسَ، إذا لم يُصـب الهـدف مـن أول رميـة، ويـضرب الحـارسُ زميلَـه الأقـل خـبرةً، إذا لم يخـبره بمـكان متحـفٍ أو معبـدٍ، ويـضرب الحـارسُ قليـل الخـبرة زميلَـه الأحـدث في الخدمـة، إذا لم يحـضر شربـةَ مـاء أو كـوبَ شـايٍ، كما طلـب منـه، وفي النهاية، بعدمـا ينتهـي كل شـخصٍ مـما كُلِّـف بـه، يرسـلون إلى رسـول الخـير، المسـؤول عـن جماعـة الحُـراس، فيهـدأ قلبـه، ويرسـل بـدوره إلى الرسـول الأكـبر، الـذي يُطمـئن صاحـبَ الأمـر، مـع كل أثـرٍ يـزول.

أغبى خطيئة قد تُذكَر في قصة البشر، أن محوَ تاريخِهم تم بأيديهم، تمَ بموافقتهم وتأييدهم، تم والجميع سعيد بالفعل العظيم الذي سيدخله الجنة، وأعظم خطيئة، لا مفر من ذكرها، في سجل الأفراد، هو عدم تحرك أي شخصٍ، عاش حياته يردد مقولةَ الشغف، والجملة الأكثر شيوعًا: "أنا مُبدع حقيقي، شغوفٌ بموهبتي وفني وعملي، أحب الفن، وأنتم جهلاء، يجذبكم التصنع والكذب!" لكل شخصٍ منهم، عرفَ من منزله أو مكتبه، عرفَ أن المتحفَ الذي لطالما عرض به لوحاته، أو المعبد الذي كتب عنه كثيرًا، أو المنحوتة التي منحته درجةَ التفوق، أو اللوحة التي جعلته الأشهر بين الفنانين، عرفوا أن تم محوها، ولم يتحرك أحدهم، ليقف أمام جرار أو سلاحٍ، كلهم دفنوا رؤوسهم، بطريقةٍ أكثر جبنًا من النعام، في طين أكذوبة الولاء، وضياع العُمر في الأبحاث والعمل، كلهم سجدوا لخوفهم، للخوف من الغد، وكانتْ هذه المرة الوحيدة التي لم يُخاطر فيها الناس بمقولة: "لا تخف من الغد". الناس كانوا خائفين، من الساعات ومن اليوم ومن الغد.

وليختتم البشر سجل تأريخهم، قال الحارس المسؤول عن هدم الأضرحة إنه شاهد الأولياء جميعًا يقفون صفًّا واحدًا في السماء، يتقدمهم وليٌّ لا يعرفه، يصلون صلاةَ جماعة، ويدعون في الوقت ذاته: "اللهم نصرًا مُبينًا، على البشر الجاحدين، لكل سجدةٍ سجدناها لك، من أجل مصالحهم وأزماتهم، اللهم نصرًا مبينًا على الإنسان، قاتل أخيه الإنسان، ومعتنق مبدأ المحو، الإنسان الذي مسحَ آلاف السنين، في لحظةِ ضعفٍ وعدم يقين،

اللهـم نـصرًا مُبينًـا عـلى الإنسـان، غالـب طبـاع الشـياطين والجـان، والراقـص فـوق جثامـين الأوليـاء، ومُدمـر تاريـخ العشـق الإلهـي، اللهـم نـصرًا مبينًـا عـلى الإنسـان، الـذي سـيقابلك في وقـتٍ قريـب، فـرده إلى حيـاةٍ قاسـية لا تطيـب".

ابنة الشوارع

بفضـل البنـت الصغـيرة مـاري مرقـس نجيـب، عاشـتْ نعمـة ورجعـتْ تتحـرك في الشـوارع، ولم تفعـل شـيئًا وقتهـا، لما جاء رسـول الخـير وقبـضَ عـلى الطفلـة الصغـيرة، التـي احترقـت حتـى المـوت، مـن أجـل مُسـاعدة ابنـة الشـوارع، توسـلتْ أم البنـت، وركـع أبوهـا لنعمـة، ولكنهـا قالـتْ لهـما: "ابنتكـما مخطئـة، مـن طلـب منهـا إنقـاذي؟ يـوم الهنـا هـو يـوم تـركي لهـذه الدنيـا بنـت الوسـخة، ولكـن الشرموطـةَ الصغـيرة هـي التـي حافظـتْ عـليَّ، ورجعتنـي مـن جديـد إلى الحيـاة، عامـةً، أتمنـى أن تلحقـا بهـا في أقـرب وقـت، لا أريـد كلمـةً أخـرى يـا أولاد الوسـخة".

مشـتْ نعمـة إلى أرض الله الواسـعة، وشـعرتْ في كل خطـوةٍ بـألمٍ في فخذيهـا يُبطـئ مـن حركتهـا، مـع ضعـفٍ ينخـر في عضـلاتِ يديهـا، فكلـما حاولـتِ الإمسـاك بحجـرٍ، خانهـا التوفيـق وسـقط منهـا، فعرفـتْ أن الوهـنَ سـيكون آخـر صفـة تُصاحبهـا، إلى أن تقابـل خالقَهـا غـدًا، وسـتلوم عليـه وتُفـرغ كل مـا بداخلهـا مـن حُـزنٍ وغضـبٍ، وأقسـمتْ إنهـا لـن تهتـم بـأي شـخصٍ يقـف خلفهـا

في طابـور الحسـاب، سـتتحدث وحـين تنتهـي، ربمـا -وتقـول ربمـا- تتحـرك خـارج الصـف، ليدخـل مكانهـا آخـرٌ، ويُحسـابه الله.

سـقط الاهتـمام مـن نعمـة، تمـشي بـلا فائـدة، قالـتْ بصـوتٍ مسـموع: "بنـت الوسـخة الصغـيرة، ترفـض الخـروجَ مـن دماغـي، كل يـومٍ أفكـر فيهـا، أحـاول طردهـا ولا فائـدة! لمـاذا يـا بنتـي فعلـتِ ذلـك؟ لمـاذا؟ المـوتُ هـو النهايـة الحتميـة، كلهـم ماتـوا وتركـوني، أبـوكِ وأمـكِ جـاءا إليَّ آملـين في مسـاعدةٍ، كيـف أسـاعدُكِ يـا حبيبتـي؟ تطلبـين المُسـاعدةَ مـن واحـدةٍ يكرهـا خالقهـا؟ كنـتِ السـببَ الوحيـد في بقـاء روحـي، ابتسـامتُكِ كل يـومٍ وأنـتِ تُعطينـي المـاءَ أو رغيـفَ خبـزٍ مبلـول، كنـتِ شـجاعةً، أشـجع مـن ربـكِ الـذي تركنـي هكـذا، ولم يفعـل شـيئًا ليُنقـذني، كنـتِ أكـثر اهتمامًـا منـه أيضًـا، هـو خلقنـي ببقـعٍ، جعـل الـكل يكرهونـني، ولكنـه هُـزمَ أمامـكِ أنـتِ وعـم سـند، فشـل في وضـع الكراهيـة داخـل قلبيكـما! وحياتـكِ يـا مـن لا أعـرف اسـمَكِ، نسـيتُه مـن كـثرة التعـب والوجـع، شـاهدتُهم وهـم يأخذونـكِ، وشـعرتُ بقطعـةٍ منـي تذهـب معـكِ، حاولـتُ الركـض تجاههـم، لكـن الضعـفَ منعنـي، رأيـتُ السـماءَ تضحـك عليـكِ، كأنهـا تُعاقبنـي، كأنهـا تقـول لي وهـا هـو شـخصٌ آخـر تُحبينـه، سـنحرمكِ منـه، يـا حسـرة قلبـي عـلى بنـتٍ صغـيرةٍ جميلـةٍ مثلـكِ، ماتـتْ مـن أجـل مسـخ، تكرهـه الرحمـة والحنـان، مسـخ تكرهـه الحيـاةُ بشـكل عـام، مسـخ يمسـح البـشرُ فيـه خـراء أفكارهـم، يـا ليتنـي أنـا مـن أخـذوني، وبقيـتِ مـع أهلـكِ يـا غاليـة".

بعد أقل من دقيقةٍ، بدأتْ نعمة في لعن البنت الصغيرة، وشكرتِ الظروف التي جعلتْها تموت، وأنها لم تعد إلى أهلِها، فلماذا تقتصر المُعاناة عليها فقط؟ لقد نسيتْ نعمة كلامها منذ دقيقة، عن الفقد والخير، عن الأمل الذي زار نعمة بسبب أفعال البنت الصغيرة، شتمتْ نعمة الأم والأب ورسول الخيرَ وصاحبَ الأمر، ثم فتحتْ كتابَها، لترى تفاصيلَ اليوم قبل الأخير، فوجدتْ كل الدلائل التي تقودها إلى محل ملابس، تعجبتْ نعمة من الجهة، وذلك بسبب مكوث الناس في بيوتهم للتعبد ولطلب المغفرة من خالقهم، ومع ذلك توجهت إلى المكان، وقالتْ: "من الواضح أنني سأموت هناك، يا سلام يا نعمة، ميتة تليق بهانم مثلكِ".

لما وصلت إلى وجهتها، لمحتْ رجلاً يجلس أمام المحل، يقرأ كتابه، يبتسم مرةً ويبكي مراتٍ، يقول بصوتٍ مسموع: "أذكر هذا اليوم، سبحان الله، كنتُ قد نسيتُ هذه الذكريات، سبحان الله"، اقتربتْ منه، وسألته عن سبب وجوده، ليخبرها بأنه الكتاب، الذي وصف له مقابلةً مع امرأةٍ مُباركة، وأن يُريها المخزنَ الكبير أسفل المحل، ولا يعرف ماذا سيفيد المخزن امرأةً مثلها، لكنها أوامر خالقه، وتجب عليه الطاعة.

دخلتْ معه المحل، لم يشرح لها شيئًا بخصوص المكان، المحل صغير، مساحته ضيقة، أرفف الملابس خالية، وفي آخر المحل هناك باب، فتحه ليُكشف عن سلمٍ قصير، نزلتْ خلفه، أضاء صفًّا من اللمبات الصفراء، في منتصف سقف المخزن، لترى بنفسها مساحةً هائلة، حيطان رمادية، والكثير من القماش

والأكيـاس البلاسـتيكية، عرفـتْ أن شـغلَها مرهـقٌ، ولـن تكـون الزيـارة خفيفـة، قـال لهـا، لما أحـس بخيبـة أمـل في نظراتهـا: "هـذا هـو المخـزن، سـامحيني يـا بنتـي، أنـا أصـلاً تركـتُ هـذا المحـل منـذ تسـاقط الكُتـب، مـن وقتهـا أو قبلهـا بقليـلٍ، وأشـعر أن المـكانَ مسـكونٌ! آه والله العظيـم، أسـمع بالمخـزن أصـوات بـكاءٍ، وفي بعـض الأحيـان ضحـكات، نزلـتُ إليـه كثـيرًا لأعـرف مـن بالأسـفل، خصوصًـا أن الأصـواتِ كانـتْ كثـيرة، مـا يعنـي أنهـم أعـدادٌ، ومـع ذلـك، لم أجـد كلبًـا حتـى! نهايـة الـكلام، المطلـوب منـكِ البقـاء بداخلـه وتنظيفـه، لكـن قبـل ذلـك، وهـو يـا بنتـي المكتـوب والله العظيـم عنـدي، وأعتقـد أيضًـا أنـه المكتـوب عنـدك!"

سـحبتْه تجاههـا، وفتحـتْ لـه سـحّاب بنطالـه، وأخرجـتْ ذكـره، وجعلتْـه ينتصـب أسرع مـن قطـارٍ، ولم تعطـه الفُرصـة ليفـرض سـيطرته، طرحـتِ الرجـل أرضًـا، ثـم ركبتْـه في غيـظٍ وحنـقٍ، عضـوه اختفـى داخـل فتحـة شرجهـا، الرجـل يبـكي مـن فـرط اللـذة، ظلـتْ تقـول لـه: "عجيـب يـا جـدي أن تـودع الدنيـا بذنـبٍ كهـذا"، ليقـول لهـا الرجـل الـذي يقـاوم قـذف منيـه: "لم ألمـس امـرأةً منـذ ماتـت زوجتـي في حادثـةٍ ونحـن بالثلاثـين مـن عمرنـا، وأنـا الآن بالخامسـة والسـبعين، أعتقـد أنهـا آخـر لـذة لعجـوز سـيموت غـدًا، سـامحيني يـا بنتـي، ولكننـي أريـد فعلهـا مـرةً ثانيـةً، والله نسـيتُ طعـمَ الجنـس، أنـا مخلـصٌ جـدًا لصبـاح زوجتـي، حتـى العـادة السريـة لم أمارسـها، كانـتْ تـزورني بـين الحـين والآخـر، ونتضاجـع في الحلـم، آه يـا بنتـي، يـا ليـتَ الدنيـا تبقـى ليـومٍ آخـر، يـا ليـتَ الدنيـا تبقـى ليـومٍ آخـر!"

تُدخل عضوه بسرعة وتُخرجه، لم تهتم تمامًا للجنس، تنظر حولها في استغراب، ما المطلوب منها هنا؟ ولماذا هنا بالتحديد؟ الرجل أسفلها يصرخ من المُتعة، وعقلها يصرخ من اللامنطقية، الرجل يصفع مؤخرتها، وهي تصفع بنظراتها الفراغ الماثل أمامها، وتسأل آهاتِ العجوز، لماذا طلب منها كتابها المجيء إلى مكانٍ قذرٍ كهذا، وما الفائدة من تنظيفه؟ الدنيا ستنتهي غدًا، أو بعد ساعاتٍ لأن اليومَ على وشك الانتهاء، ولكن كيف تنتهي الدنيا ولا ينتهي شقاء نعمة؟

الرجل قذف منيه أكثر من ثلاث مراتٍ، وهي تقوم ليتساقط لبنه من فتحة شرجها، فيضع يديه على خصرها، لتنزل عليه مجددًا في تأفف، قالتْ له في سخرية: "لا تتعجل الموتَ يا عجوز، غدًا كلنا سيموت، على الأقل متْ نظيفًا وليس نجسًا، وكفاك قذف منيٌّ بداخلي، يخرب بيتك غرقتني، صدقتُك حين قُلتَ إنك نسيتَ الجنس، لبنك غزير يا عجوز يا شقي، فلنجعل المرة الأخيرة جنسًا فمويًا، فليكن لبنك هو آخر ما أشربه، ما رأيك؟"

لم يرفض العجوز الموافق على أي شيء ستطلبه نعمة، حتى حين قالتْ ضاحكةً إنها ستأخذ خمسين جنيهًا مُقابل هذه النكحة الممتازة، التي لن تنساها وستذكرها بفخرٍ وسط كل الناس، ولن تخجل من فعلتها هذه، يجب أن يخجلَ الناس من كذبهم، والافتراء على ممارسة الجنس، والنظر إلى المُتحرر من أفكارهم بعين الغضب، نعمة تكره البشر وخالقهم، وتحب نفسَها والجنس.

تركـتِ الرجـل أرضًـا، يرتـاح مـن مهـرةٍ عتيـة لم يسـتطِع ترويضها كـما ينبغـي، وبـدأتْ في التنظيف، فتحـتِ الكيس الأزرق البلاسـتيك، أخرجـتْ منـه قطعـةَ قـماشٍ، ومسـحتْ قـذف الرجـل مـن مؤخرتها، وهـي تـردد: "يـا سـلام يـا نعمـة، مـلاك قـال إنـكِ مُباركـة! كيـف أكـون مُباركـةً وأنـا أنظـف وأُضاجـع؟" قـال الرجـل لهـا: "غـدًا يـا نعمـة، سـيزورنا رجـلٌ، لا أعـرف مـا السـبب وراء زيارتـه، ولكننـي سـأكون موجـودًا، لأتأكـد مـن أن كل شيء بخـير". فشـتمته في سرهـا، وبـدأتْ في ترتيـب المخـزن.

عامل الدوكو

بعـد إعـدام العـم آدم، وجهـل العـمال بمـا حـدث لبـكار، قـررَ عبـد القـوي الاختبـاء في مـسرح العرائـس، بعيـدًا عـن أعـين رسـول الخـير وحُراسـه، إذ إن تفكـيرَه هـداه إلى الزحـف بـين العرائـس، الموضوعـة في مخـزن المـسرح، والوصـول إلى أبعـد نقطـة، فتصعـب عـلى أي حـارسٍ رؤيتـه أو الإمسـاك بـه مـن بـين كل هـذه الكائنـات الخشـبية المرصوصـة بشـكلٍ مرعـب.

ضحـك عبـد القـوي حـين رأى عـددًا لا بـأس بـه مـن رافـضي الوجـود بالخـارج، فعلـوا مثلـما فعـل تمامًـا، ولكـن واحـدًا منهم قال لعبـد القـوي بصـوتٍ خفيـض: "هـذا مـا أمـرني بـه كتـابي، الشـكل العـام يقـول إن هنـاك مصلحـة يـا عبـد القـوي!" وكلامـه جعـل عبـد القـوي يفتـح الكتـابَ ليقـرأ السـطور الأخـيرة قبـل الصفحـة البيضـاء، ليتعجـب مـن المطلـوب، ويغلـق ويفتـح الكتـاب مجـددًا،

لعـل القـدرَ يتغـير، ومـع ذلـك يجـد المكتـوب ذاتـه، لم يمسسـه التغـيُّر نهائيًّـا.

سـأل عبـد القـوي العامـلَ الـذي حدثـه عـن المصلحـة، كـم عـدد الموجوديـن، فعـرف أنهـم عـشرة بالتـمام والكـمال، بعدهـا سـألهم جميعًـا: "أبيننـا مـن يعـرف كيـف يقـود عربـةَ النقـل الواقفـة بالخـارج تلـك؟" رفـع واحـدٌ يديـه، ليتأكـد مـن أن الأمـرَ مـدروسٌ ومكتـوبٌ، فسـأله مجـددًا: "هـل تعـرف الطريـق إلى أبي حـماد بمحافظـة الشرقيـة؟" فهـز رأسَـه السـائق بالإيجـاب، فأيقـن أن كل تفصيلـة، مـن قبـل خالـق كل التفاصيـل، صحيحـةٌ ومرسـومةٌ ومدروسـةٌ، وعليـه البـدء بتنفيـذ مهمتـه الأخـيرة، ليُقابـل وجـهَ ربـه الكريـم غـدًا، ويشـكره عـلى حياتِـه، التـي لم تكـن رائعـةً، ولكنهـا أصبحـتْ كذلـك، في هـذا العـام الغريـب.

شرح لهـم الخطـة في وضـوحٍ تـام: "سـنضع كل مـا نقـدر عليـه مـن تلـك العرائـس الخشـبية، في صنـدوق عربـة النقـل، ثـم سـنتجه إلى محـل ملابـس، ونضعهـا في مخـزنٍ موجـود أسـفله، وأتمنـى ألا يسـألني أحدكـم عـن السـبب، ورحمـة الغالـين لا أعـرف شـيئًا!" خـرج عامـلٌ مـن بـين العرائـس، عـرضَ عليهـم البقـاءَ قليـلاً، إلى أن ينتهـي مـن تأمـين المـكان، والتأكـد مـن عـدم وجـود أي شـخصٍ يراقبهـم. وافقـوا جميعًـا بمـن فيهـم عبـد القـوي، الـذي حـدث نفسَـه بوجـوب الانتبـاه لمـا يفعلـه، فهـو لا يبحـث عـن نهايـةٍ مأسـاوية لحيـاةٍ وسـخة مثـل حياتـه.

عـاد العامـل وحثهـم عـلى البـدء، ركـض عبـد القـوي إلى خـارج المـسرح، خـاف مـن صمـتِ العـالم، راعـه المنظـر المُخيـف، قـال في البدايـة إن المـسرحَ موجـودٌ بشـارعٍ جانبـي، فطبيعـي هـذا الهـدوء، لكنــه تراجــع عــن فكرتــه، وقــال: "الحيــاة عــلى وشــك الانتهــاء عامـةً".

الوقـت يمـر، ورجـال اللحظـات الأخـيرة يركضـون مـن المخـزن إلى العربـة، ومـن العربـة إلى المخـزن، كل واحـدٍ يحمـل في المـرة الواحـدة مـا يفـوق الخمـس عرائـس، إذا سـقط منهـم شيء تركـوه، الثانيـة في موقفهـم -حقًـا وصدقًـا- مُهمـة، ومـا بـين فـترات ركضهم، يقـف واحـدٌ منهـم، يرتـاح وفي الوقـت ذاتـه يُراقـب هـل لمحهـم حـارسٌ أوِ رسـول خـير، ثـم يعـود بعـد ثانيـة أو اثنتـين، ويسـاعد زُمـلاء المُهمـة المجهولـة، وكـما تعـوَّد العـمال، مـع كل نقلـةٍ تتعـالى الأناشـيد، هـذا يشـدو بكلـماتٍ، فـيرد عليـه الآخـر، بعدهـا يُكمـل الجملـةَ ثالثهـم، فيرقـص رابعهـم بشـكلٍ مُضحـك وهـو يركـض، فيهلـل خامسـهم مـن داخـل صنـدوق العربـة، ويطلـب سادسـهم حاجـةً لأم كلثـوم، فينتفـض سـابعهم ويبـدأ: "أغـدًا ألقـاك؟" لـيرد عليـه ثامنهـم: "يـا خـوف قلبـي مـن غـدي"، ليُصحـح تاسـعهم لثامنهـم، وهـو يتنفـس بسرعـة: "يـا خـوف.. يـا خـوف فـؤادي.. آه يـا نفـسي.. وليـس قلبـي.. يـا مُغفـل"، فيلومـه الثامـن: "وهـل تفـرق الآن؟ هـذه آخـر أغنيـة سـنغنيها! المعنـى واحـد يـا أخـي!"

وقـف عاشرهـم مُصفقًـا لهـم، نظـر عبـد القـوي والبقيـة إليـه، ليـترك الجميـع المُهمـة، ويرقصـون عـلى أنغـام تصفيقـه، وبـدأ يغنـي أغنيـةً مـن تأليفـه: "فلنرقـص كالإسـكندرانية والبورسـعيدية، عـلى

نغـمات الحلـوة السمسـمية، تعالـوا معنـا يـا إسـماعيلاويّة، قولـوا للشـمس الواقفـة فـوق، هـذا القمـر ليـس القمـر، لكنـه أصـلاً مـسروق، هـذا القمـر الظاهـر لنـا، هـو رغيـف خبـز محـروق، يطلـع مـن فـرن حبيبتنـا أم فـاروق، وفـاروق سـافر للصحـراء مـن أجـل العيـش، وأهـل الحـارة كلهـم شـتموه يـا شـاويش، قالـوا كيـف تسـافر يـا بـن الكلـب يـا جاحـد، وأمـك تملـك كل العيـش بـإذن الواحـد، تعالـوا نرقـص كأنهـا الرقصـة الأخـيرة، ونـوزع بـين الأحبـاب لحـمًا وبـيرة، أو نـشرب مـن كأسِ الخمـر ونشـكر، ونتأمـل صـورةَ يسـوع ونُفكـر، هـل صلبـه الخمـر في ليلـةِ أُنـسٍ، أم طهـره مـن خطايـا شر الجنـس، فلنرقـص يـا زمـلاء النيكـة الأخـيرة، هـذه المـرأة فلقتهـا كبـيرة، فلنرقـص يـا زمـلاء النيكـة الأخـيرة، هـذه المـرأة فردتهـا خطـيرة!"

ضحكـوا عـلى مفرداتـه السـافلة، وعرفـوا منـه أنـه كان شـاعرًا، حـاول كثـيرًا نـشرَ دواوينـه، ولكـن كل محاولاتـه فشـلتْ، بسـبب غرابـة مـا يكتبـه، والسـبب الحقيقـي، أنـه كان بمفـرده دائمًـا، يكـره جماعـاتِ الأدب والوسـطَ الثقـافي، لا يرتـاح للمجامـلات أو لحفـلات التوقيـع، وكان يصيبـه القـيء إذا مـا دعـاه أحدهـم لأمسـية شـعرية في أماكنهـم المعروفـة، وحـكى لهـم عـن شـاعرةٍ، نجحـت في الحصـول عـلى جائـزة، بعدمـا مصـت ذكـور أعضـاء لجنـة التحكيـم.

سرقهـم عبـد القـوي مـن المُتعـة والحكايـات، حـين أخبرهـم بوجـوب الرحيـل، وامتـلاء صنـدوق السـيارة بعـددٍ ممتـاز مـن العرائـس، ليقـف الجميـع أمـام السـيارة، ويقـول الشـاعر: "هـذه نهايـة رحلتنـا معًـا يـا عبـد القـوي، عرفـتُ منهـم أن المكتـوب هـو

المُساعدة فقط، ستكمل طريقَك مع السائق، بالمُناسبة، اسمي كيرلس، والسائق اسمه محمود، وهؤلاء أحمد وأيمن وعماد وكريم وبولا وياسين وأدهم وحاتم، ربما نتقابل غدًا، فيعرف بعضنا بعضًا، أو نذكر للرب أننا كنا على علاقةٍ طيبة، فيدخلنا الملكوت جميعًا، لأننا صُحبة مُباركة، تستحق الخير، تستحق كل الخير، وشُكرًا لكم على سماعكم لآخر قصيدة كتبتها، ولأنكم لم ترفضوا المحتوى، بل ضحكتم ومنكم من مدح شعري، هذه أفضل نهاية لشاعر يبحث عن التحقق، الآن أقول إن الجمهورَ أحبني، وإنني لستُ في حاجةٍ إلى التملق أو الكذب، مع السلامة يا أسطى محمود، مع السلامة يا عبد القوي، في رعاية سيد الرعاية والحنان والأرض".

طوال الطريق يُحادث عبد القوي نفسه بالغرض من مهمته، وكلام العم آدم، عن أصله ونسبه، عن حياته التي عاشها طويلاً، عن عقله الذي لا يفكر ويعرف الكثير، ثم بصق على يمينه وقال: "ملعون عم آدم وجنونه، أنا ابن الأسطى عبد القوي، وحياتي هي حياتي، الله يحرقك ويحرق اليوم الذي قابلتُك فيه يا عم آدم".

وقف الأسطى محمود السائق، قبل المحل بمسافةٍ، وقال لعبد القوي إن كتابَه يخبره بضرورة دخوله بمفرده، وأن المُهمة ستنتهي مع الشخص المُرافق عند معرفة المكان المنشود فقط. ووعده بتوصيله إلى أي مكانٍ يريده، حتى لو رجع من الشرقية إلى الأقصر، فشكره عبد القوي على نبل أخلاقه، وأراد التأكد من كلامه، فوجده في كتابه، مع جملةٍ أخرى: "الاعتراف بكل

شيء، هـو مـا تبقـى، سـينتظرك البـوح أمـام المـرسى، الـذي هـو صباح اليـوم الأخـير، ولا تقـرب المسـافة المنشـودة، فتصيبـك لعنـة وتمـشي ألـف ألـف ألـف عـام، بـلا هـدفٍ أو مصلحـةٍ". شـكره عبـد القـوي مجـدّدا، وأخـبره بأنـه سـيسرق أي سـيارةٍ بالخـارج، ويعـود بهـا هـو، فخـرج السـائق وأقسـم أن يُسـاعده هـو في تشـغيل أي سـيارةٍ يُريدهـا، فضحـك عبـد القـوي وأشـار إلى سـيارة مـن طـراز نيسـان، كانـتْ تقـف بالقـرب مـن المحـل، ليكـسر زجاجهـا السـائق، وبعـد معافـرة معهـا دارتْ، وقـال لـه بصـوتٍ عـالٍ: "حظـك حلـو يـا عبـده، البنزيـن يكفيـك للوصـول إلى القاهـرة، نلتقـي أمـام الله يـا رجـل يـا طيـب!"

غـادرَ عبـد القـوي، بعدمـا ودع الأسـطى محمـود، ليُكمـل سلسـلة الأسـئلة، في أثنـاء القيـادة، مـن طريـق الإسـماعيلية الصحـراوي، إلى القاهـرة، لم يُربكـه غيـاب النـاس جميعًـا، كلهـم في بيوتهـم، يصلّـون لخالقهـم، ويطلبـون منـه الرحمـةَ والغُفـران، إلا محمـد عبـد القـوي، يمـشي بمفـرده، لم يشـعر بأنـه داخـل سـيارة، بـل رأى نفسـه كطفـلٍ فقـير، لا يعـرف أبـاه ولا أمـه، ينتظـر حسـنة أو فعـلَ خـيرٍ مـن شـخصٍ مـار، فتـح كتابَـه والصفحـة قبـل الأخـيرة، قـرأ عنـوان المـرسى، وسـأل نفسـه: "مَـن البـوح الـذي سـأقابله؟ هـل سـيخبرني شـخصٌ بـكل مـا أجهلـه؟ أم سـأحدثه أنـا عـن نفـسي ومـا أعرفـه؟"

اليوم الأخير

محيي ابن طاهرة

أهل المدينة كلهم صاروا بلا ملامح.

صحا الناس على صراخ أحدِهم، ومع كل بابٍ يُفتَح، تخرج الصرخة قبل صاحب الدار، لم تتمكن الحكومة من فهم ما حدث، رجال الدين قالوا: "طردنا الله من سلطانه!" صرخ رسولٌ من رسل الخير: "هذه ليستِ القيامة!" رجال السياسة لم يتحدثوا، كانوا أسرع المتأثرين بمسح الحياة عنهم، كيف سيسمعهم شخصٌ وتفاصيلهم مبهمة، لن يصدقهم أحدٌ مطلقًا!

كل أهلِ المدينةِ صاروا بلا ملامح، إلا هو، محيي ابن طاهرة، الذي وقف في الشارع، لا يفهم ما يدور، نسى كل شيءٍ، الناس تجري هنا وهناك، الملامح تتساقط من عليهم، الصرخات

تتعالى ثم تهدأ فجأة، وهو يقرأ الكتاب، الذي تلاشى في يديه كذرات ترابٍ مُسحتْ من فوق خوانٍ، تناثر الكتاب في الهواء، ثم تبع كتابه كتب الآخرين، تتطاير الصفحات، بعدها تتحول إلى قصاصاتٍ، ومن قصاصاتٍ إلى ذراتٍ، ومن ذراتٍ إلى الاختفاء الأبدي.

ما حدث لهم يؤنب ضميره، ومن بين دهشته كان يمشي سعيدًا سعادةَ الخليل إبراهيم حين أتاه أمر الكبش، أخيراً لن يبهت أحدٌ لرؤيته، لن يمجده مسيحي، لن تمسك عجوز بصليب وتقبِّله، لن يستغفر مسلمٌ، ولن يمزح معه آخر ويدعوه للإسلام!

أول ما سأله نفسه محيي: "إلى متى سيستمر وجودي بمفردي هكذا؟ هل ستقع عني معالم وجهي، مثلما حدث لهم، أم سأظل على هيئتي؟ أفداني الإنسان هذه المرة؟ هل قالوا كلهم لربهم خذ ملامحَنا واترك ابن طاهرة؟ أم أن اللهَ غضبَ عليهم، فتركني لأنني نسخة من المسيح، وعذبهم بما يستحقونه، بعدما خذلوا المسيحَ الذي حمل عنهم الخطايا؟ والسؤال الأهم، هل هذا هو اليوم الذي تحدث الناس عنه؟ إنها ليستِ القيامة. ما الذي يحدث بالضبط؟"

نظر محيي خلفه فوجد صليبًا كبيراً عليه آثار دماء، ضحك وقال: "خرافات اليوم جعلتني أرى الصليبَ، هل صلبني أحدهم مثلاً؟ ولماذا أنا هنا أساسًا؟"

لمح محيي بنتًا صغيرة، تقوم وتركض ناحيته، لم تكن البنتُ في أحسن حالٍ، قالتْ له: "اسمها نعمة! لا تنسَ.. اسمها نعمة!" وركضتِ البنت واختفتْ.. لاحظ محيي أن ملامحَ البنت لم تقع كما يحدث للبقية، وأن الأطفالَ كلهم بخيرٍ، لم يمسهم المحو، لكنهم يركضون فجأة دون أي مقدماتٍ، كأنهم يعرفون مكانًا سيذهبون إليه، حاول محيي الركض معهم، ففشل من المحاولة الأولى لما تفاجأ بسرعة الأطفال غير الطبيعية! الطفل الواحد منهم قد يسبق طائرةً ويعود إلى مكانه من جديد، قبل أن تتحرك هي!

صرخ محيي في غضبٍ: "ماذا يحدث يا رب؟ هل هذا يوم القيامة أم ماذا؟ وأين ذهبت الكتب! ماذا يحدث يا رب؟"

عامل الفخار

لم يُصدق مينا كلامَ العيل الذي جاء وأخبره بوجود أبيه أمام فرنه المعروف، وركض معه فرحًا، وحين وصل، شاهد طرف جلباب أبيه وهو يدخل الفُرن، فعرف أنه إما يضع فخارًا بالداخل، أو يُخرج ما قد صنعه في عدد السويعات التي لم يعرف بوجوده هنا، فصعد إلى فوهة الفرن، وصاح به: "والمسيح الحي إذا لم تكن أبي، لكنتَ كرهتَ تصرفي معك! لا يصح يا أبا مينا أن تخرج من المشفى دون علمنا وتأتي إلى هنا، ثم تبدأ في العمل! يا فيليب، توقف عن العمل الآن، وتعالَ، قلبي مقبوض، أنتَ لا تعرف ما الذي سيحدث اليوم".

ضحـك فيليـب، وقـال لابنـه: "بسـلامة أضطجـع بـل أيضًـا أنـام، لأنــك أنــت يــا رب منفـردًا في طمأنينــة تســكنني.. انــزل يــا مينــا، انـزل يـا بـن أمـك، تعـال وسـاعدني"، حـين نـزل مينـا، سـمعَ فيليـب صـوتَ سـقوط شـيئين واصطدامهـما، ظـل واقفًـا بـلا حـراك، قـال فيليـب في عصبيـةٍ: "يـا مينـا، الجـو هنـا ليـس سـاحرًا كي نبقـى طـوال اليـوم يـا.." لكنــه صرخَ لمـا وجـدَ جسـدًا فقـط، لا ملامـحَ، وجهـه ممسـوح، أمسـكَه وهـزه لربمـا يتوقـف عـن هرجـه، إذا كان هـذا هرجًـا!

لم يتحـرك مينـا وبقـي مكانـه، في ضعـفٍ وخنـوعٍ، كأنـه مسـافرٌ يجهـل أي بلـدةٍ نـزل إليهـا، يمسـح عـلى رأسـه، بحركـة عصبيـةٍ، يحـك دماغـه بسرعـة كدليـل عـدم فهـمٍ وخـوفٍ، يمسـك بيـد أبيـه في استسـلامٍ تـام، الفـرن حولهـما شـديد السـواد، وبـين قطـع الفخـار يـرى فيليـب حمـرةً، ونـور الـرب بالأعـلى، يدخـل مـن الفوهــة العاليـة فوقهـما، والسـلم الخشـبي الـذي يسـاعد عـلى الطلـوع والنـزول، بجانـب مينـا، سـقط معـه نصفـين، هـمَّ فيليـب بالـصراخ، ولم يُطعــه الصــوت، فوضــعَ يديــه عــلى رقبتــه، ثــم حركهــما إلى فمــه، ليتراجــع إلى الخلـف، ويسـند ظهـره إلى الفخـار مـن قـوة الصدمـة النفسـية، لقـد مُحيـت ملامحـه هـو الآخـر، بـكى فيليـب، وشـعر بـأن عينيـه عـلى وشـك الخـروج مـن مقلتيهـما، للمـرة الأولى الحـرارة تؤلمـه، بـدأ فيليـب في الصـلاة والدعـاء، بصـوتٍ بينـه وبـين نفسـه: "أبانـا الـذي في السـماوات، احمـل عنـي الـكأسَ إذا أمكـن، يـا يسـوع، حَمَـلُ الله الـذي يمحـو الخطيئـة مـن العـالم، أنـت تحـب البشريـةَ كثـيراً، بحيـث إنـك لا تتواضـع فقـط بتأنسـك، بـل أنـت

الحمـل الوديـع، الـذي يحمـل جميـع خطايانـا، شـكرًا عـلى هبـة تواضعـك ورحمتـك ومغفرتـك، أبانـا الـذي في السـماء، أنـا خائـف والطمأنينـة والتحنـان في يـدك، التحنـان في يـدك يـا يسـوع، لقـد غـادرتُ المشـفى، بعدمـا سـاعدتني بيـدك الرحيمـة، وأخرجتنـي إلى العـالم مـن جديـد، قُـل لي يـا يسـوع، مـا الـذي يحـدث، أنـا عبـدُك الضعيـف الآثـم الجاهـل بمـا يـدور حولـه!"

تأكـد فيليـب مـن أن مينـا مـا زال حيًـا، ثـم نظـرَ إلى الفخـار الموجـود بالمـكان، وخلفـه رمـاد مخلـوط برفـات جثـةٍ، فابتسـم لمـا تخلـص أخـيرًا مـن الباشـا الـذي ضاجـع امرأتـه، وكانـتْ هـذه السـيئة الوحيـدة التـي لم تشـفع للباشـا كي يرفـض فيليـب قتلـه، كـما طلـبَ منـه!

لم يقتلـه فيليـب لأنـه كان ظالمًـا، السـببَ وراء تحولـه إلى قاتـلٍ، ولكنـه قتلـه بدافـع الغـيرة عـلى زوجتـه سـهرة، التـي لطخـت شرفَـه، وهـذه جريمـةٌ، في حـق فيليـب مجيـد، الرجـل الـذي يُحـب المسـيح ويهـوذا في آنٍ واحـد.

ابنة الشوارع

ظلـت تتحـدث إلى الرجـل الغريـب، الواقـف أمـام عربـة نقـل، الـذي يُقسـم لهـا إن المطلـوبَ منـه هـو وضـع كل العرائـس الخشـبية داخـل المخـزن، ونعمـة تسـبه وتقـول لـه: "امـشِ مـن هنا يـا بـن الوسـخة! لقـد فشـخني التنظيـف، وأنـت تريـد بـكل هـذه

السهولة أن تضعَ العرائس الخشبية، وتُعيد الفوضى من جديد! امشِ أحسن لك وإلا سأقطع عضوك وأضعه على باب المحل!"
جثا الرجل على ركبيته وقبّل يديها، بكى بحرقةٍ، يتلعثم في الكلام، وهي تأمره بالصمت، لصعوبة فهم ما يقوله، ولكرهها للإزعاج.

وفي وسط حربهما القائمة، جاء الرجل العجوز مجددًا، وبكلمات لائمٍ أخبرها بأنه قال لها أمس في أثناء كلامهما -وغمز لها- عن مجيء هذا السائق ومساعدته في وضع العرائس بالمخزن، كآخر ما سيفعله طبقًا لأوامر الكتاب، فتراجعتْ في تأففٍ، وأقسمتْ على عدم تنظيفه مرة أخرى، ولو نزلت السماء إلى الأرض.

شكرها السائق على تفهمها، وبدأ في وضع العرائس داخل المخزن، دون أي ترتيبٍ، وبطريقةٍ عشوائية، ما أثار غضبَ نعمة، لتركله عدة ركلات مُتلاحقة، بسبب عدم اهتمامه بمجهودها الذي بذلتْه في تنظيف هذا المخزن، فيتدخل الرجل العجوز، ويعدها بتنظيف المخزن بعدما ينتهي السائق من مهمته، ويغمز لها ثانيةً، ثم يضع يديه على قضيبه، فتبتعد نعمة عنهما، وهي تسب وتلعن كل صنف الرجال.

في أقل من ساعة كانت العرائس في مكانها، والسائق داخل سيارته، وقضيب العجوز بمؤخرة نعمة، التي صفعته وقالتْ له: "اسمعني! أنا لن أموت وأنا عذراء! ما رأيك أيها العجوز! تفتحني اليوم، وسأجعلك تقذف منيك في أي مكانٍ، سواء هنا

أو بالخلف!" رقص العجوز تحتها من جمال ما عرضتْه عليه، ثم تراجع عن موقفه، لما لمح البقع الخضراء، ومنظرها الذي لا يسر الناظرين، وكيف تعامد عددٌ من البقع مع تفاصيل فرجها، فصار شكله بشعًا، يرفض الاقتراب منه كلبٌ جربان.

انتهى الرجل العجوز بسرعة من متعته الأخيرة، وعندما بدأت في إدخال ذكره إلى فرجها، تحجج بأنه يحتاج إلى الراحة، وعامل السن لا يسمح له بالكثير من الجنس في يومين، وظل مُستلقيًا على الأرض، يعتذر لنعمة عن عدم الوفاء بوعده، ولكنه سيعطيها ما تريد من المال، لتوافق نعمة بلا أي تردد، وتقول لنفسها: "حتى لو كانتْ آخر خمسين جنيهًا، لن أتركها لابن القحبة هذا"، وبعدما نظفت مخزنَ محل ملابسٍ مجددًا، وقميصها الأبيض الملطخ بحيواناته المنوية، خرج العجوز المنتشي، البخيل في كل شيء، إلى محله وهي خلفه، فتحَ درجَ مكتبه، وأخرجَ ورقةً لم تتبينها، لأن عينيه سقطتا فجأةً!

صرخَ في فزعٍ، صرخته مختلفة تمامًا عن تلك التي أخرجها وحيواناته الصغيرة تهاجم فتحة مؤخرتها وقميصها، ثم وقع أنفه ولحقه فمه، وفي دقيقةٍ تكوم بجانب المكتب، جسده يهتز بعنفٍ، كأنه يبكي لموت أحدِهم، قالتْ له: "الخمسون جنيهًا، موافق؟" بالطبع لن يرد إليها إجابةً، سحبتْ ما طالته يمينها من المكتب، ورحلتْ عن الكتلة المُشوهة، التي صارتْ مجهولةً.

في الخارج، يمينًا ويسارًا، الناس على الأرض، فوق الرصيف، ومنهم من وقف مكانه، الجميع بلا ملامح، أجسادٌ مبهمة، ضعفٌ مُبهِج، تضحك نعمة من قلبها، أخيرًا رأتهم مذلولين مُهانين، تتمنى أن يكونَ الأمرُ حقيقيًا، وليس حلمًا أو دعابةً سخيفة كسخفهم المزعج.

السيارات واقفة بمنتصف الطريق، الحافلات والدراجات البخارية، الحياة تعطلتْ كساعةٍ قديمة، تصرخ نعمة فيهم: "يا أولاد الكلب، هذه نهايتكم لما فعلتموه بي، من هذه اللحظة لن أضع المرهمَ الذي وصفه لي طبيب الجلدية، واصفًا استخدامه لتهدئة البقع، نعمة ستتحرر من ملابسها، وحجابها، وكل ما يخفيني عن أعينكم، يا أولاد الكلب، أنا عارية بينكم، أنا الوحيدة الكاملة الآن وكلكم ناقصون!"

تجري وسطهم وترقص، أجسادهم تتساقط من حولها، الناس يصرخون حُزنًا وهمًّا، ونعمة تصرخ من الفرحة، الأجساد تهتز خوفًا، ونعمة جسدها يهتز رقصًا، تنظر إلى ضعفهم، تمسك برجلٍ ممسوح الملامح، تصفعه وتلكمه وتشد عضوه، والمسكين لا يقدر عليها، ركلته بين خصيتيه فسقط أرضًا في صمتٍ تام، ثم شاهدت امرأةً تمسك بقدميها لتساعدها، فتدوس على رأسها بكامل قوتها، وتسبها على طلب المساعدة منها، تطوف نعمة حول الأجساد والجثامين، تضع رأسَ شخصٍ في مؤخرتها، ثم تضع رأسَ آخر على فرجها، أمسكتْ بواحدٍ يظهر من لبسه أنه من رسل الخير، وركضت به بأسرع ما يمكن، إلى أقرب

حائط، ليُسعدها صوتُ ارتطام الجلد بالحجر، ويسيل الدم من رأسه، ويقع أرضًا.

إذا كان عدلاً ما حدث، إذا كان انتقامًا سماويًا، أو تصحيحَ خطأ إلهي، أو اعتذارًا رسميًّا من صاحب العَرش عما عانته نعمة منذ سنواتٍ، فمن ملامحها ومعالم فرحتها، هي موافقة وتقبلتْ رد الكرامة، كرامة بنت مسكينة، وجسدٍ تستعمره بقعٌ خضراء، جعلتِ البشر يلقبونها بنعمة النتنة، مع أن البقعَ لا رائحةَ لها، ولم تَضر أحدًا.

وجهتْ نعمة كلامَها إلى السماء: "ربما هو اليوم الذي تحدثوا عنه في كل مناسبةٍ، أنا لا أعرف معالم يوم القيامة، ولكنني سعيدةٌ جدًّا بهذا الضعف، وأتمنى أن تدوم عليهم نعمة الضعف وعدم المُقاومة والذل!"

تركض نعمة هنا وهناك، تشعر بوجود عم سند وماري بجانبها، يرقصون كلهم فوق أجساد البشر، ونعمة تصرخ: "يا سلام يا نعمة، الحرية أخيرًا، والموت والذل لهم! موتوا يا أولاد الوسخة!"

عامل الدوكو

أمام مرسى المراكب، الموجود في ميدان التحرير، المعروف لكل المشائين والواقفين، يستند عبد القوي إلى السور الذي يعتليه الأحباب والأشخاص كارهو الحُب في الآن ذاته، ويجيء كل

واحـدٍ منهـم ليشـاهد الحبيبـين ويعكـر صفـو جلسـتهما في معظـم الأحيـان، لأنـه حاقـدٌ، وفي أحيـانٍ أخـرى بسـبب فـراغ حياتـه مـن أي دورٍ يُفيـد نفسـه قبـل المُجتمـع.

تفاصيـل سـيرة عبـد القـوي تسـير مـع مـاء النهـر، بدايـةً مـن المهنـة المملـة التـي لا يعـرف غيرهـا، وتوارثهـا عـن أبيـه، مهنـة مـن لا مهنـةَ لـه، ثـم يتذكـر كلامَ العـم آدم، ويبـدأ في سـؤال النهـر: "مـن أنـا؟" فيجيبـه النهـر بمركـبٍ يتهـادى فـوق سـطحه، ويمـر في بـطءٍ رتيـب، إلى أن شـعر بيـدٍ تهـز كتفـه، ليلتفـت ويجدهـا منـة، واقفـةً بشـحمها ولحمهـا الموجوديـن في مناطـق معينـة فقـط، ودون أي تقدمـةٍ تليـق بالموقـف، أو بالوصـول والمقابلـة بعـد مـدة طويلـة، أخبرتـه بأنهـا حجـزتْ قاربًـا صغـيرًا، مـن رجـلٍ أراد فعـلَ الخـير، في اليـوم الأخـير، وعبـد القـوي لم يعـترض، مـشى معهـا بكامـل إرادتـه، وبعـد التحيـة والسـلام، قـال المراكبـي: "حبـل هـذا القـارب طويـلٌ جـدًا، سـأترك القـارب يحـرك النهـر، ولـن يبتعـد بكـما كثـيرًا، لـن أركـب معكـما طبعًـا، هـذه آخـر مُحادثـة بينكـما".

بعـد ابتعـاد القـارب بمسـافةٍ جيـدة، طلـبَ عبـد القـوي مـن منـة أن يقـول لهـا كل شيءٍ دون أدنى مُقاطعـة لكلامـه، ومـن ثـم تسـتطيع هـي الـكلام، وذلـك لانتهـاء الوقـت، وعـدم معرفـة متـى تحديـدًا سـتقوم القيامـة، النـاس كلهـم في انتظـار الحـدث الأكـبر والأهـم، إمـا داخـل بيوتهـم سـاجدين، وإمـا في المسـاجد والكنائـس بالبـكاء والحسـرة.

أسرع مـن قطـارٍ، حـكى قصـةَ حياتـه، المهنـة وكلام عـم آدم وأبـوه، السـبب وراء فسـخ خطبتـه منهـا، تذبـذب قراراتـه، عقلـه كاره التفكـير، الـذي يعـرف الكثـيرَ ظاهريًّـا فقـط، عـدم شـعوره بالنـدم عـلى مـا فعلـه معهـا، جهلـه بالسـبب مـن وراء المُقابلـة، العرائـس والمخـزن، الفكـرة التـي جاءتـه ولم يسـعَ لتنفيذهـا، ولمـا سـألته عـن أي فكـرةٍ يتحـدث، ذكَّرهـا بالشـهور المفـروض إضافتهـا إلى عُمـر الإنسـان، ثـم كلام عـم آدم مجـددًا.

سـكتَ بعدهـا، ففهمـتْ أن دورَهـا قـد حـان، فقالـتْ مـا جاءتْ لتُخرجـه مـن عبـاءة الكتـمان: "كلنـا في الشـارع كنـا نعـرف يـا محمـد، لقـد ظهـرتَ مـن العـدم، وجـدك الحـاج عبـد القـوي أمـام بـاب دكانـه، كلام العـم آدم صحيـح، والحقيقـة يـا محمـد، أنـت مـن قـال في أحلامـه أحبـك يـا عبـد القـوي يـا أبي العزيـز، والحـاج لم يرزقـه الله بالأطفـال، فقـال أنـت ابنـي، ومـن يومهـا والنـاس يعاملونـك -بأمـرٍ منـه- عـلى أنـك ابنـه الوحيـد، الـذي كـبرَ معـه، وعـاش ليحمـل اسـمه مـن بعـده، وكان الحـاج عبـد القـوي عاشـقًا للحكايـات، لذلـك كلـما كنـتَ تسـأله عـن شيءٍ يخـص طفولتـك، عـرف كيـف يزرعـه في عقلـك، بصـورٍ لأطفـالٍ لـن تُقابلهـم في حياتـك، صـور رخيصـة مـن محـل تصويـر مجهـول، لتقتنـع أنـه أنـت في مراحـل عمريـة مختلفـة".

أقسـمتْ منـة بالمصحـف الشريـف عـلى كل الأيـام التـي بكـتْ فيهـا وكانـتْ سـتبوح لـه بالسر، لـولا وعـد جميـع مـن في المنطقـة للحـاج عبـد القـوي الرجـل الطيـب، الـذي لم يـؤذِ أحـدًا طـوال عمـره، وتأكيدهـم لـه عـلى أن سره في بـئر، وأضافـتْ وهـي عـلى

وشك البُكاء: "أنا حظي عامةً مثل خراء الكلب، أحببتُ الرجل الوحيدَ الذي يجهل الكل أصلَه وفصله، ولكنني أقسمتُ بيني وبين نفسي على أنني لن أخذل الحاج عبد القوي، على الرغم من عدم معرفته بقصة الحب التي بين.. آسفة يا محمد، قصة الحب التي كانت بيننا، ولكن الوعدَ وعد!

المنطقة كلها صدقت المُعجزة التي حدثت، بعدما أقسم الحاج عبد القوي أنه لما رآك للمرة الأولى كنتَ عجوزًا، ولما نظفك وحلق لك شعرك ولحيتك، رجعتَ شابًا، بملامح جميلة، كملامحك يا عبد القوي"، الصدمات تتوالى، وعبد القوي لا يتكلم، ينظر إلى منة، وعيناه تائهتان، يحركهما بسرعة، كأنه يبحث في وجهها عن أي مظهرٍ من مظاهر الكذب، قبل أن تقول له منة: "والشيء الأخير الذي أود قوله لأموت وأنا مرتاحة، أنا كنتُ سعيدةً بفسخ علاقتنا يا محمد، حاولتُ في البداية الحفاظ عليك، وعندما وجدتُك مصممًا، عرفتُ أنها إشارة من الله ليُبعد عنك عاهرةً مثلي، نعم يا محمد عاهرة، الحقيقة صاحب المحل الذي أعمل لديه، زنقني وركبني أكثر من عدد مرات شروق الشمس وغروبها على منطقة السيدة زينب، والصراحة كنتُ محتاجة إلى مال تلك المُداعبات، نعم يا محمد أكثر من ألف مرة، والرجل يضع قضيبه في فمي، ويجبرني على ابتلاع قذفه، أو وضع ذكره في فتحة مؤخرتي، إلى أن أصرخ من الوجع، وأطالبه بإخراجه، وبحثتُ كثيرًا عن طرقٍ قد تُعيد فتحتي إلى سابق عهدها، وتنظيف المنطقة من سوادها، بسبب الاحمرار والالتهابات الناتجة عن المضاجعة، فعندما

تهـدأ تتحـول إلى سـوادٍ، فيعـرف العـالم بالأمـور أن هــذه الأنثـى قـد ركبهـا ذكـرٌ يعشـق الجنـسَ الخلفـي، إلى أن لفظتـه مؤخرتهـا إلى غـير رجعـة".

كـثرة بُـكاء منـة دفعـت عبـد القـوي إلى احتضانهـا، وهو مُشـتتٌ بـين نكـران فعلتهـا، وجهلـه بحقيقـة أصلـه، يربـت عـلى كتفهـا، ثـم بـدأ يشـعر بيديهـا تنـزلان بصدفـةٍ عجيبـة فـوق قضيبـه، فـلا يتحـرك ولا يطلـب منهـا رفعهـما، بـل يرفـع هـو وجههـا ويـشرع في تقبيلهـا، ليـصرخ لمـا وجـد شـفتيها تسـقطان أرضًـا، فيقـوم ويرجـع متأرجحًـا، ليسـقط إلى مـاء النهـر، التـي لم تمانـع استضافة رجـل بـلا هويـة، رجـل ينـازع المـوتَ، ليعـرف مـن هـو، وهـل يسـتحق هـذه النهايـة، أم هنـاك قصـة ستُحكى.

آخـر مـا شـاهده عبـد القـوي، قبـل سـقوطه في النهـر، كانـتْ ذرات الكتـب المتطايـرة، ثـم سـقطت ملامحـه كلهـا، وكان آخـر مـا قالـه: "هـل هكـذا سـتكون القيامـة يـا رب؟"

العجيـب في الحكايـة، أن شـخصًا عاديًـا مثـل عبـد القـوي، تحفـه نهايــة غــير عاديــة، خاصــةً أنــه ابــن الأشــياء العاديــة، الســجائر المحليــة، عصــير "جهينــة" الرخيــص، المقهــى الشــعبي، الفطائــر الشرقيـة، الأماكـن التـي يذهـب إليهـا الجميـع، عبـد القـوي ابـن الانتشـار، حتـى منـة، التـي كانـت خطيبتـه، كانـتْ تضـع الهاتـفَ فــوق خدهــا الأيمــن، وتســنده بحجابهــا، هــذا المخبــأ الســري، وضعــتْ بــه تذاكـر السـفر والأنفـاق ومـرآةً صغـيرة، لتتأكـد مـن رسـمة حاجبيهـا! لم يعرفـه التفـرد يومًـا، يسـتقبحه الاختـلاف، وحـين

يأتيه ملك الموت في أثناء رحلته النهرية التي ينتظر مقابلة نهايتها، سيندهش من روتينية حياته السابقة، سيستفسر: "إذا طلبتُ من الجبار أن يمد في عمرك، هل ستتغير؟" سيجيبه حينها، ولا يعرف كيف دون فمٍ أو حتى أذنٍ تسمع: "سأتعرف على أشياء عادية جديدة، لن أصير مميزًا أبدًا".

العامة وصاحب الأمر

الناس كلهم صاروا بلا ملامح، وكل الأطفال ركضوا بطريقةٍ عجيبة، وسوادٌ عجيب طفح بالسماء، ولم يهتم واحدٌ بالنظر إلى أعلى، لما يمر به كل مُصابٍ حاليًا، ولأن الغالبية العظمى صارتْ بلا أعين، صفحاتُ الكتبِ تناثرتْ في الهواء بعدما أدتْ مهمتها، ورجعت إلى خالقها، دون تفصيلةٍ زيادة أو سطر ناقص، السؤال العام، الذي ظهر في أدمغة الناس، كنبيٍّ طلع لهم برسالةٍ سماوية: "هل هذا يوم القيامة؟ لم تخبرنا أي ديانةٍ بمحو الملامح!"

المشهد العام واضح، الركض بصورة هستيرية، البُكاء للجميع، الأطفال إلى مصيرٍ مجهول، الضعَفُ يسود، الخنوع يضحك على أشكالهم، خليفة الله على الأرض يجلس في صمتٍ تام، يسأل نفسه في الثانية الواحدة ألف سؤال، كل مشاعره الإنسانية، التي تباهي بها دومًا، وتفاخر بوجوده في قمة السلسلة، وأنه الجنس الأسمى، صار الآن مثله مثل أحقر خراء كلب، الكل يمر بجانبه، يبصق عليه أو يتأفف من رائحته، الفارق الوحيد

في موقفـه، لـن يمـر بجانبـه مـن يبصـق أو يتأفـف، لأن مـن كان يفعلها منعتـه محنتـه، الإنسـان بـات ممسـوخًا، الإنسـان صـار فعلاً عديـم الفائـدة، حتـى قدرتـه عـلى التعبـير، فقدهـا في لحظـةٍ! كان يـصرخ ويضحـك ويـأكل ويـشرب، يدعـو ويتكلـم ويشـعر ويُعـبِّر، وحاليًا، هـو كتلـة مـن جلـد، تقـف في مكانهـا، تنتظـر مـن يحملهـا، أو يُشـكلها.

في حركـةٍ خاطفـة، ومـع ابتعـاد مناسـبٍ عـن المشـهد العـام، ندخـل مـن نافـذة قـصرٍ، موجـود ضمـن قصـور صـلاح سـالم، ومـن زاويـة مختفيـة، في ركـن غرفـةٍ أنيقـة، تليـق بمقـام صاحبهـا، نـرى صاحـبَ الأمـر جالسًـا، لا يُصـدق مـا يـدور حولـه، سـواء داخـل القـصر أو خارجـه، يهاتـف كل رجالـه، لا يـرد أحـد، أو يرفـع السـماعة أحدهـم فيـصرخ ثـم يحـل الصمـت، ليغلـق صاحـب الأمـر الخـط ويبحـث عـن حلـولٍ أخـرى قـد تُفيـده في محنتـه وربمـا تُخرجـه منهـا، لاعتقـاده بـأن لقـبَ "آخـر زعـماء الوطـن" شيءٌ يسـتحق نوعًـا مـن التكريـم، أو أضعـف الإيمـان، هـو تأخـير تعرضـه للمصيبـة، لأنـه زعيـم عـادل مثـلاً.

رأى فمـه وهـو يسـقط، حـاول بيـأسٍ بـشري أن يُعيـده إلى مكانه فسـقط مجـدّدا، ثـم تبعـه الأنـف، وتوقـف الزمـان حولـه لمـا رأى رجـلاً يمـشي داخـل غرفتـه، بكامـل حريتـه، يتأمـل عيشـة الـثراء التـي كان يتمتـع بهـا صاحـبُ الأمـر، حتـى توقـف العجـوز عـن المُشـاهدة، واقـترب منـه لُيسـمعه آخـر كلـمات: "لم أظهـر لكـم، ولم يُفكـر واحدكـم في الموضـوع عـلى نحـو صحيـح، أيـن شـكوك حـول عـدم ظهـوري؟ ألم ينتظـرني النـاس كثـيرًا؟ ألم يلصقـوا الانتظـار

باسـمي؟ يـا صاحـب الأمـر، أنـت لسـتَ الحاكـم الأخـير للوطـن، هنالـك لقـبٌ أعظـم ينتظـرك، الحاكـم الأخـير لجنسـه، تخيـل يـا صديقـي؟ الوطـن بـاقٍ، وأنتـم إلى زوال! كل يـومٍ كنـتُ أصـلي مـن أجلكـم، ولكـن الأمـرَ لـن يتوقـف مهـما حـدث، سـألقاكم يـوم يـؤذن لي.. قُـل لي، أيـن القِبلـة؟ أريـد أن ألحـقَ الظهـر".

آخـر مـا رآه صاحـبُ الأمـر، كان الرجـل المجهـول وسـجادة الصلاة، بعدهـا غـاب في عـالم المحـو، صاحـب الأمـر لم يجـد تكريمًـا مناسـبًا يليـق بمـا قدمـه مـن خدمـاتٍ لصحائـف الشـعب، ولـن يجـد مـن يكتـب عنـه ويمجـده، صاحـبُ الأمـر أصبـح أضعـف مـن المواطـن الضعيـف، لا يملـك جيشًـا مـن الإعـلام، لا يحاوطـه سـفراء الآراء والتعريـص، صاحـبُ الأمـر صـار وحيـدًا، وللأمانـة ليـس مقبـورًا أو يُحاسـب، بـل صـار وحيـدًا فـوق الأرض، عـلى نحـو عـادي جـدًا، وليـس وحيـدًا وحـدة المنبـوذ أو وحـدة كاره الحيـاة، وحـدة المُختلـف أو وحـدة المكتئـب، وحـدة بكامـل إرادتـه أو وحـدة الباحـث عـن شريـك حيـاة، صـار وحيـدًا بأمـرٍ مـن السـماء، مثلـه مثـل الملايـين بـل المليـارات، يهتـز في عنـفٍ، يقـوم ويقـع، يـضرب الفـراغ أمامـه في إحبـاطٍ بشـع.

نـسي أماكـنَ الأشـياء، نـسي أن هنـا كان سريـره، وفي تلـك الزاويـة كرسـيه المُفضـل للقـراءة، وعـلى مقربـةٍ منـه المنضـدة الصغـيرة، الحاملـة في حـزنٍ تـام لمجموعـة غبيـة مـن الكتـب والرسـائل، وطلبـات العمـل والتوصيـات، نـسي كل شيء، وسـأل سـؤالاً واحـدًا فقـط: "هـل أنـا فعـلاً حاكـم الوطـن الأخـير أم أننـي مجـرد حاكـم جـاء للوطـن، وبعدهـا -وفي حالتـه تحديـدًا- سـيُنسى؟ لـن يذكـر

التاريخ شيئًا عنه، لن يدون شخصٌ واحدٌ ساذج أو غبي عن إنجازات مُزيفة، أو عن حلولٍ كانتْ مُقدمة من قبل، ولم ينفذها الحاكم السابق، لن يمدحه شخصٌ يأمل في وظيفةٍ، سيموت صاحبُ الأمر، وهذه المرة الوحيدة التي لن يكتب فيها المُنتصر التاريخ، ولن يكتبه الذكي أو اللئيم، سيموت صاحبُ الأمر، لا من الخوف بل من النسيان، سيقتله التجاهل الأبدي، سيقتله سقوطه من فعل التأريخ، سيلتهمه على مهلٍ وحش الخيبة، سيضعه في إبريق، ويصنع منه كوبَ شايٍ، ليشربه مع الحسرة والندم، ويحكي لهما عن نكهة شايه، نكهة بطعم حاكمٍ، أقنعوه في أواخر حكمه بأن الرب سيعد له احتفالاً خاصًا على شرف ولايته الأخيرة للبلاد.

كل ذكريات صاحب الأمر ماتتْ، خططه واستعانته برجاله للتوصل إلى حلول تُخفض من جبال السيئات، وتضيف إلى سطح الحسنات ما قد يحوله إلى هضبةٍ أو مرتفعٍ على الأقل، فيعرف كيف يقف بين الناس مختالاً فخورًا بما صنعه، ليضمن لشعبه الجنة، وليضمن لنفسه جنتين، أو كرسيًّا بجانب عرش الرحمن، فيتباهى به الله، ويقول لخلقه: "انظروا! هذا الرجل كان حاكمًا عادلاً!" ضحك صاحبُ الأمر بينه وبين نفسه، وهو يقول بصوتٍ لا يسمعه سواه: "الحاكم الأخير للبلاد".

أيام الدهشة الثانية

محيي بن طاهرة

سمعتُها بصوتٍ جلل، سمعتُ نعمة التي دفعتني، كي أسقط في الماء، وأموت بعقدة خوفي، وأموت غرقًا بسبب غضبها: "محيي يمشي على النهر! أحا! محيي يمشي على النهر!" حين لمسني ماء النهر، شعرتُ بومضةٍ تضربني، رأيتُ أكثر من ألفي عام، رأيتُ نفسي صغيرًا، يمسك بالطين ويُشكّله على هيئة عصافير، ثم ينفخ فيها لتطير، ويصفق الأطفال، وتصفق معهم الدهشة، من لذة المعجزات.

رأيتُ نفسي بجانب رجلٍ عجوز، أعرفه جيدًا، يوسف النجار، يصنع منضدةً، ولما ذهب ليُحضر الخشب ورجع، اكتشف بعدما قطعه وهذبه أن لوحًا أطول من الآخر، فأمرتُ

اللـوح القصـير بمجـاراة أخيـه في الطـول والسـمك، فشـكرني يوسـف النجـار عـلى مُسـاعدتي بنظـرة كلهـا فخـر، وبكلـمات كلهـا دعـم، وطلـبَ منـي وقتهـا التوقـف عـن قتـل مـن يضايقنـي مـن زمـلاء العلـم، فقـد أخـبره مُعلمـي بوفـاة طفـلٍ بمـرضٍ خبيـث، أصابـه فجـأة، وقـال لـه التلاميـذ وقتهـا: "هـو مـن فعلهـا، قـال لـه أكرهـك وأتمنـى أن يُصيبـك مـرضٌ لا تقـدر عليـه وتمـوت فـورًا!"

في لحظـة نورانيـة فُتِحَـتِ السـماءُ مـن فوقـي، ورأيـتُ كل شيءٍ كـما تعـودتُ أن أراه، وفي لحظـة صـدقٍ، وإيمـان بمـا يحملـه قلبـي وصـدري، مشـيتُ على سـطح المـاء، وشـاهدتُ خيالات لي ولشـخصٍ، يقـول يـا رب نجنـي، فظهـرتُ لـه وقلـتُ: "يـا قليـلَ الإيمـان، لمـاذا شـككتَ؟" كان بُطـرس الرسـول، آه يـا بُطـرس، يـا سـمعان ابـن يونـا، أنـا مـن سـمَّاك "بطـرس"، كنـتَ تلميـذًا ليوحنـا المعمـدان، وجئتنـي معـه، ورأيـتُ نـورَ الـرب في قلبِـك، قَبِلتُـك كتلميـذٍ، ثـم جعلتُـك رفيقًـا يلازمنـي باسـتمرار، وفي النهايـة، سـمعتُ صـوتَ الأب يقـول لي: "بُطـرس الرسـول"، فمنحتُـك شرفَ الرسـولية.

أمـشي عـلى المـاء، أشـعر بوجـود العـالم عـلى يمينـي، وبقعـود بـشره عـلى يسـاري، أرى وجـوهَ العائديـن إلى الحيـاة، بأمـرٍ منـي، أرى ابتسـاماتِ الشـفاء، بأمـرٍ منـي، أرى البنـتَ التـي اتهموهـا في شرفهـا، وحـين دافعـتُ عنهـا، وقُلـتُ لهـم: "مـن كان منكـم بـلا ذنـبٍ، فليرمهـا بحجـرٍ".

أسـمع دروسي وتعاليمـي، أرى الحواريـين، ثـم فجـأة لمحـتُ أمـي، المُباركـة بـين النسـاء، نـور السـماء والأرض، أمـي التـي عرفـتُ

أنهـا مصـدرَ النـور الكـوني، مريـم العـذراء، الحُـزن المؤقـت الـذي زارني، عنـد موتهـا، والسـعادة الأبديـة التـي وزعتُهـا بـين النـاس لما صعـدت إلى السـماء، أذكـر وقتهـا يـا مريـم، حـين أرسـلتُ مـلاكًا، ليـزف إليـكِ خـبرَ انتقالـكِ إلى الأمجـاد السـماوية، وعندمـا طلبـتِ منـي جمـع الرسـل كلهـم، وفعلـتُ مـا تمنيـتِ يـا روح قلبـي، وجـاء كل رسـولٍ إلى الجسـمانية، في الوقـت ذاتـه بمعجـزةٍ إلهيـة، بعدمـا كانـوا في دولٍ مُتفرقـة، يكـرزون بالإنجيـل وينـشرون تعاليمـي.

الجميـع انتظـرني، إلى أن جئـتُ محمـولاً عـلى مركبةٍ شـاروبيمية، وجالسًـا عـلى العـرش الإلهـي، حـولي الملائكـة ومعهـم آدم وحـواء، وصاحـب المزامـير العـذب داوود النبـي، مجيئنـا كان بدايـة نهايـة وجـودك في هــذا العــالم الزائــل، رأينــا روحَــكِ الطاهــرة وهــي تصعــد إلى السـماء، وقـال داوود النبــي: "كريــم في عينَــي الــرب مـوت قديسـيه"، وعندمـا حملـك الرسـلُ فـوق أعناقهـم، ومشـوا بصنــدوق جســدكِ المُقـدس، لندفنـكِ في حقـل يهوشـافاط بجبـل الزيتـون، هاجمهـم اليهـود الأشرار، وضربتُهـم أنـا بالعمـى، إلا هـذا النجـس الـذي وصـل إلى التابـوت، واعتـدى عليـه، ففصلـتُ يديـه عـن جسـمه، وبقيتـا ملتصقتـين بالتابـوت، وظـل هـو يبـكي ويطلـب منـي الرحمـة، سـألتُ نفسـي يـا مريـم، وأنـا أنظـر في أمـره، وهـل أرحمـه أم أجعلـه عـبرةً: "مـن أيـن لهـم بـكل تلـك الوقاحـة؟ لماذا رفضـوا تعاليـم ابـن الإنسـان والمُعلـم الوحيـد؟"

وهــا أنــا يــا مريــم، لقــد عــاد يســوع، ابــن الإنســان، ابــن الله، الكائــن في صـورة الله، المُخلـص، المُعلـم الوحيـد، نـور العـالم، القـدوس البـار، رب السـبت، واهـب الحيـاة الأبديـة، الفـادي،

آدم الثـاني، ملـك الملـوك، الكاهـن الأعظـم، حجـر الزاويـة، الراعـي الصالـح، رجعـتُ بأمـرٍ مـن أبي، مـن إلهـي العظيـم، سـأنفذ كل مـا يطلبـه، دون أي استفسـارٍ عـن مشـيئة الـرب، ولـن يمنعنـي هـؤلاء، عاشـقو الخطايـا، هـؤلاء مـن أعطيتهـم فرصـةً وفديتُهـم بحيـاتي، ليعيشـوا بمعنـى التضحيـة، وفي النهايـة هـا هـم يـا سـيدة السـماء والأرض، الإنسـان الغـارق في الخطايـا، ويطلـب الرحمـة مسـاءً، ثـم يعـود إلى خطيتـه نهـارًا، كأن الـرب طفـلٌ صغـير، سيسـامحه في كل مـرةٍ ويُصـدق توبتـه.

نعمة والمسيح

يـا سـواد نهـارك وأيامـك يـا نعمـة! محيـي الـذي تُحبينـه غـرق، وظهـر المسـيح! يـا سـواد نهـارك ونهايتـك يـا نعمـة! يـا سـواد نهارك وأيامـك، ونهايتـك وحياتـك كلهـا يـا نعمـة! يـا رب أنـا تعبـتُ مـن كـثرة الصدمـات! لمـاذا يظهـر لي المسـيح؟ هـل محيـي كان وليّـا مـن الأوليـاء الصالحـين؟ هـل سيقسـمني المسـيح نعمتـين؟ وكل نعمـةٍ منــي تركـض، إلى أن تجـد أوسـخ بنزيــن، وتحـرق جسـدها ابــن الهرمـة! يـا سـواد السـواد، والنهايـة بنـت الوسـخة!

في عـز حُـزني، طلـع محيـي -أقصـد المسـيح- ووقـف قدامـي، يبتسـم في حنـانٍ، جسـده أضخـم مـن محيـي، رجـلٌ مصنـوعٌ مـن ثقـة، يلبـس عبـاءةً بيضـاء، نـوره يُغطـي عـلى كل شيءٍ، تُحيـط برأسـه هالـةٌ مـن نـور تقريبًـا، يقـف في الهـواء، يـا خـراب الدنيـا وعمـرك يـا نعمـة، المسـيح سـينتقم مـن أجـل المسـكين الـذي

كنـتُ أتلـذذ بمضاجعتـه، وقتلتُـه بعدمـا رميتُـه بالمـاء! لمـاذا يـا رب أرسـلتَ المسـيحَ ليقتلنـي؟ عرفـتُ أننـي مُباركـة، ولكـن ليـس إلى الدرجـة التـي تجعلـك تُعاملنـي بهـذه الطريقـة، وتضـع نبيًّـا أو رسـولاً أو مهـما يكـن أمامـي ليُعاقبني عـلى فعلتـي! أنـا أعـرف عنه معلومـات خفيفـة، مـن شـكل الصلبـان وصورتـه التـي كانـت في بيـوت ومحـلات المسـيحيين الذيـن ضاجعـوني، ومـن محيـي نفسـه، الـذي قـال لي عـلى مشـكلته، والشـبه بينـه وبـين المسـيح، يـا رب وحيـاة أغـلى حاجـة لديـك، يـا أجـدع رب في الدنيـا كلهـا، أنقـذني!

يـا سـاتر يـا رب، المسـيح يقـترب منـي، كيـف يسـير في الهـواء هكـذا؟ عـارف يـا رب، هـذه المـرة الأولى التـي أعـرف فيهـا طعـمَ الخـوف! الصراحـة، المسـيح هيبـةٌ تربكنـي، وتجعلنـي أبحـث عـن مخـرجٍ، ولكـن أيـن؟ إذا خرجـتُ مـن هـذه المحنـة، سـأحاول أن أثبـت للمسيح أننـي لسـتُ سيئةً إلى هـذا الحـد. يـا حـلاوة نهايـة أيامِـك يـا نعمـة! تُقابلـين المسـيح بهـذه البسـاطة! وقـف المسـيح قدامـي، وقـال بصـوتٍ هـادئ لا يُشـبه صـوتَ محيـي تمامًـا: "نعمـة المُباركـة.. يـا سـلام يـا نعمـة، كـم تمنيـتُ مُقابلتَـكِ، سـمعتُ عنـكِ الكثـير، وعـن شـجاعتكِ واختلافـك، إلهـي أوحـى إليَّ بالاسـتفادة مـن قدراتـكِ"، كيـف يقـول جملتـي نفسـها؟ أنـا فقـط مـن يقـول يـا سـلام يـا نعمـة!

نـزل إلى أرض السـطح، ومـشى إلى أن تقابلنـا، جسـدُه طويـلٌ جـدًا، مـا أجمـل ملامحـه، ومـا أجمـل الراحـة النفسـية في وجـوده، ومـا.. أيـن البقـع؟ هـل تختفـي البُقـع إذا ظهـر المسـيح؟ لمـاذا لم تظهـر مـن زمـان؟

"اسمعيني يا نعمة يا مُباركة، هوني على نفسِك، بالحق أنطق وللحق أقول، كنتُ تائهًا كحملٍ حاد عن مسيرة قطيعه، كنتُ بذاكرةٍ أخرى، وبجسدٍ إنساني، وبمعجزة ربانية أمره بأن يحتملَ هالةً وكينونةً المسيح، محيي المسكين الضعيف، لم يكن موجودًا، جسده خلقه أبي، وجعلني إنسانًا وليس ابنَ الإنسان، تجربتي مع البشر غريبة، خطاياكم ومشاعركم، كيف يريد الإنسان الملكوت وهو غارق في بئر الخطيئة، يمسكه الذنب من رقبته، ويهدده بالموت إذا لم يفعله، فيقوم به الإنسان، ثم يطلب التبرك بي، أو بغيري، من أجل مغفرة ومسح خطايا، وبمناسبة الخطايا يا نعمة، كل خطايا علاقتكما، أنتِ ومحيي المسكين، عفوتُ عنها، كيف أحاسبُكِ على خطايا مع بشري ليس موجودًا؟ كيف أحاسبُكِ وأنتِ الضحية؟ نعم يا نعمة، ضحية المجتمع الظالم، العاشق للتنمر، العاشق للذنوب ولتعذيب الضعفاء، العاشق للتكبر على من خلقهم الله بصفاتٍ خاصة، ولم يخلقهم مثلهم، بصورتهم التي يرونها أعظم الصور! أنا أعتذر لكِ يا نعمة، عن كل يومٍ شرعتِ فيه بالحزن والألم، وها أنا أطبطب على قلبكِ، وأمسح عنه الحزنَ كله، والآن يا مُباركة في السماء قبل الأرض، استخدمي حاسة التتبع، واجلبي لي كل العرائس الخشب من المخزن، أنا أعرف أين هي، ولكنني أثبتُ لكِ كيف أنك مُباركةٌ، وسترين بنفسكِ حين تعودين إليَّ، من أجل الهدف الأسمى، المخلوقة أنتِ من أجله، يا مُباركة في السماء والأرض، وسأرسل معكِ مَلكًا، ستخبرينه بالمكان، وهو سيضرب الأرض والحائط، وسيجلب العرائس، لا تُجهدي نفسَكِ

بحمـل الأشـياء، لا يتعـب مـن يحبـه المسـيح، وأنـا أحبـكِ يـا نعمـة يـا مُباركـة".

عبد القوي والمسيح

تركتنـي الأنثـى العجيبـة مـع شيءٍ أعجـب، جهـاز أو آلـة مثـلاً، وعـادت الحـال كـما كانـت، أتمنـى أن ينقـذني الله أو شـبح العـم آدم مـن تلـك الوحـدة البائسـة، أو يرجـع الوحـي ويتحـدث إليَّ عـن معلومـات لا أعرفهـا، عـن مـن أنـا؟ وعـن ذكريـات طفولتـي وشـبابي، وقـد يُفـسر لي أحلامـي العجيبـة، عـن الصغـير الـذي أقتلـه في كل مـرة، وقـد.. هـل.. هـل يتحـرك جسـدي دون إرادتي؟ هـل أنـا طائـرٌ في الهـواء؟ مـاذا يحـدث يـا رب؟ جسـدي يهتـز ويتحـرك، وأنـا عاجـزٌ عـن تفسـير مـا يجـري!

بعـد فـترة مجهولـة، كعادة رحلتـي منذ المُصيبة، أشـعر باسـتقرارٍ مألـوف، كتلـة جسـمي مُسـتقرة، على سـطحٍ أعرفـه، أو كنـتُ أعرفه، التـوازن العـادي، الإحسـاس بمدخـلات الحيـاة الإنسـانية، المُعادلـة المحسـوبة نسـبيًّا، جسـدٌ في حيِّـزٍ مُخصص لـه، يجاريـه في حركته وفي وجـوده عامـةً، الأمـر لم يعـد كـما كان، عضـلات الجسـد في انتكاسـةٍ، بطريقـةٍ غريبـةٍ وغامضـة، بـدأتْ حاسـة الشـعور ترجـع إليَّ، وهـذه المـرة أشـعر بأننـي لسـتُ أنـا، الجسـد بـاتْ قديمًـا، وحكـة غريبـة، بـل حـكات مُتفرقـة غريبـة، في مُحيـط وجهـي وتحديـدًا ذقنـي، هـل تنبـت لي لحيـةٌ؟ هـذا شـعور مخيـف! هـل توقـف الوقـت طـوال المحنـة؟ ونحـن عـلى وشـك الرجـوع إلى المعـروف، ولأننـا لم

نحسب التوقيت، سنعود -وبحسبةٍ بسيطة- طبقًا للعُمر الذي يفترض أن نكونه؟

تثقل حركة جسدي، يغادرني الشباب وتهجرني الحيوية، أنا أسمع من يناديني؟ انتظرني لا تُغادر أرجوك، من المؤكد أن المحنةَ تنتهي، انظر! أنفي أيضًا عاد، وفمي أشعر بشفتَي، أصرخ لمن يناديني: "أنا هنا! أنا أتكلم! سبحانك يا رب أنا أتكلم وأسمع! انتظرني يا من تناديني"، أبكي من شدة فرحتي بعودة كياني الطبيعي إلى حالته الطبيعية، أسقط أرضًا وأبكي من جمال المعجزة، وفي سياقٍ غير حكايتي، سيعود النظر إلى فاقده، سيعود طبيعيًا، ويرى أمامه الأشياء، بألوانها وبهيئتها، أما أنا، فقد عاد النظر إليّ، وأرى أنني فوق سطح بنايةٍ أعتقد، ولا وجود لأي فواصل، ومن الواضح أن الطرقَ اختفتْ، والأكثر وضوحًا أنني أقف أمام شخصٍ هائم في الهواء بطريقةٍ غريبةٍ، ويُشبه سيدنا المسيح عليه السلام، إذًا، أنا ميت أو هذه القيامة وقد جاء المسيح، وبعثني الله عجوزًا، والبقية ستأتي هي الأخرى بهذا العمر.

خرجتْ كلماتٌ من فمه، الحياة تعود إلى سابق عهدها، إلى المعطيات التي تربينا كبشر عليها، شخصٌ يتكلم وشخصٌ يسمع، شخصٌ لديه ملامح، وشخصٌ آخر لديه ملامح مختلفة، مناقشة بين شخصين، الشيء العادي الروتيني المعروف، الذي اختفى بقدرة قادر، وعاد بعد فترةٍ نجهلها: "بمشيئة الرب نمحو، وبمشيئة الرب نهدم، وبمشيئة الرب نُحيي، وبمشيئة الرب نُعيد إليك ذاكرتك، كلام الحياة الأبدية عندي، باسم الأب

والـروح القـدس، أنـت إليسـع بـن أخطـوب، الـذي لُقِّـب في عهـودٍ مختلفـة بالكثـير والكثـير، مـن ضمنهـم الخـضر الشريـف، أنـت نبـي يـا إليسـع، مشـيتَ مثـلي عـلى المـاء، وأحييـتَ المـوتى، وبـرأتَ الأكمـة والأبـرص، وكنـتَ مـع النبـي مـوسى يـا إليسـع، بمشـيئة الـرب تذكـر سـيرتك، وتذكـر تعاليمـك عـلى يـد إيليـا، مُبجـل أنـت في كل الدهـور".

حيـاةٌ كاملـة تُمسـح، حيـاةٌ كاملـة أخـرى تومـض فجـأة، ولادتي وحيـاتي، طفولتـي وتربيتـي، تعاليـم إيليـا، يـوم جـاءني الوحـي، يـوم صرتُ نبيًّـا، بعـد مـوت إيليـا، أدعـو النـاس إلى الله، مُستمسـكًا بمنهـاج إيليـا وشريعتـه، أذكـر نهـر الأردن لمـا اسـتيبَس فمشـيتُ فوقـه، أذكـر الطفـل الـذي قـام مـن المـوت، بأمـرٍ مـن الله، وعـلى بركـة يـديَّ، لمـا ظـل عبـدٌ صالـحٌ لعـشر ليـالٍ كاملـة لا يـبرح مكانـه، يُصـلي مـن أجـل عودتـه، وجـاءني الوحـي في منـامٍ، وسـمعتُ صـوتَ الـرب يقولهـا لي: "بأمـرٍ منـي يقـوم وبأمـرٍ منـي يعيـش حيـاة الهنـا"، أذكـر الخـلاف الـذي دار في فـترةٍ، عـن عبـادة النـاس لي، والاختـلاف القائـم بينهـم، وتكفـير مـن اتبعـوا عيـسى لهـم، أذكـر جيِّـدا كيـف سـمعتُ هـذا الرجـل، الـذي قـال بصـوتٍ مسـموع: "إذا كان عيـسى يُحيـي المـوتى ويمـشي عـلى المـاء ويـبرئ الأبـرص والأكمـه، فإليسـع جـاء قبلـه، إذًا نتبـع تعاليمـه ونـراه هـو مـن ضمـن الثالـوث المُقـدس، وليـس عيـسى!"

لقبـوني بالخـضر، في حكايتـي مـع مـوسى، تلـك الحكايـة العجيبة، وتصرفـاتي الأغـرب، سـألتُ المسـيح: "قُـل لي يـا يسـوع، لمـاذا كانـتْ تصرفـاتي عجيبـة هكـذا؟ لمـاذا قتلـتُ الطفـل وهدمـتُ الجـدار

وأغرقتُ السفينة؟" ليبتسم المسيح، ويضع يمينه على كتفي، ونمشي معًا في الهواء، إلى أن نستقر على سطح الماء، فيجيبني بصوته الهادئ، المعروف في السماء، المحبوب لكل كائن خُلق: "الذاكرة ستعود إليك على نحو أسرع، عامةً يا إليسع دعني أخبرك شيئًا، أنت لم تفعل كل هذا يا صديقي، هذه عظاتٌ وُضِعَت في كتابٍ، ليعرف السامع ويتعظ من الحكمة، هل من المعقول يا إليسع أن تُعلم أنت كليمَ الله بهذه الطريقة؟ هذا نبي كان يتكلم إلى الرب مباشرةً، دون وحي أو ملاك ينزل ويطلع مع كل أمرٍ، قصتك مجرد عظة، ليعرف الناس ويخافوا، ويبحثوا دومًا عن الحلول، ثم اسمعني جيدًا، هل يقتلُ نبي طفلاً؟ لأنه كان مُزعجًا وعاقًا؟ ألم يكن من الأولى الدعاء له بصلاح الحال؟ وفي هذه القصة، لماذا لم تطلب من موسى التكلم إلى ربه، وطلب الهداية لهذا الطفل؟ لماذا القتل كان الحل الأقرب والأول؟ هذه عظة، ليخاف الناس، ويعرف كل أب وأم أن الابنَ العاق قد يكون مصيره القتل من قِبل ناسٍ لا يعرفونه، إذا لم يحسن كل شخصٍ في تأدية دوره.

أما السؤال الآخر، الذي أسمعه بوضوح، كأنك تسأله داخل رأسي، نعم لا تتعجب يا إليسع، أنا أسمع أفكارك، هوِّن على نفسك، يا إليسع أنا قررتُ أن تكون معي، في ما أمرني به الرب، لأنك أقرب الأنبياء، إلى ما خصني به الرب من معجزاتٍ، لذلك ستكون مساعدتك شيئًا يتحدث به أهل السماء لقرونٍ من الزمان، والحق أقول لك يا إليسع، اليوم الأخير لكل ما يحدث هنا يحتاج إلى معجزتين في الآن نفسه، وليست معجزة تليها

مُعجـزة، وأنـا لا أقـدر عـلى ذلـك، وفي الوقـت الحـالي يـا إليسـع، توقـف عـن التفكـير في حياتـك المؤقتـة التـي جعلنـاك تعيشـها وسـطهم، كل شيء كان مُقـدرًا، لقـد عشـتَ هائمًـا، تجهـل مـن أنـت، رجـلٌ عجـوزٌ، يعتـبره النـاس مجذوبًـا، لدرجـة أنـك نسـيتَ معجزاتـك ونبوءتـك، مـن قلـة إيمـان النـاس بـك، تخيَّـل! نبـي منـسي!

عامـةً حـان اليـوم الأخـير للبـشر، كان الاعتـماد عليـك هـو الأمـر الأكـثر يقينًـا، إليسـع، يـا صديـق الرحلـة، يا مـن سـبقتني في الدعوة، وعرفـتَ عنـي كثـيرًا، يـا خالـدًا بسـبب حكمـة ربانيـة، لا يعلمهـا أحـدٌ إلا الـرب، لقـد شـكرت الأرضُ السـماءَ عـلى حملهـا لنبيـين، هـل تسـمعها يـا إليسـع؟"

فيليب والمسيح

أبانـا السـماوي نرفـع اسـمَك ونُعظمـك، لأجـل عمـل عنايتـك فينـا، نحـن الخطـاة غـير المُسـتحقين، نشـكرك مـن أجـل حفظـك لأولادك، في الدخـول والخـروج، في الليـل والنهـار، في المحنـة والكـرب، كـما في السـعة والفـرح، نشـكرك لأنـك تسـهر عـلى راحتنـا وحفظنـا وسـلامتنا، نشـكرك لأنـك علمتنـا الاهتـمام بـكل أحـدٍ، والصـلاة مـن أجـل الجميـع، نشـكرك أبانـا لأنـك قائدنـا في السـفر، ومُرشـدنا في الطـرق، ومُدبـر أمورنـا في الحـاضر والمُسـتقبل.

رحلتـي كانـتْ أغـرب مـن الخيـال، دراجتـي البُخاريـة كادتْ تنطـق، مـن فـرط العجائـب والغرائـب، وأقلهـا كان نـزول المبـاني

إلى مستوى واحد، فلم أجد في مسيرتي بنايةً واحدةً أعلى ولو بقليلٍ، ما دفعني إلى التخلص من الخشبة والحبل، والقيادة بسرعة وسلاسة، لا يشوبهما مبنى يجبرني على التسلق، أو آخر يعوق حركتي ورحلتي عامةً.

أميال سفري كانت بصحبة النبي يوسف، يظهر خلفي تارةً، ويظهر أمامي ويقود هو تارةً أخرى، يُحدثني عن نهاية الدرب السعيدة، ويذكر لي اللوح الذهبي المفقود، ويأمرني بنسيان كلام يهوذا، وبضرورة طاعة المسيح، في كل وقتٍ وزمانٍ، واليقين التام بقلبٍ مؤمن، بمعجزاتِ المسيح، ومقدرته على فعل ما يريد، وأنه العالِم بكل الأمور، الذي يحرك حياتنا طبقًا لإرادته المُباركة، وكلنا مسافرون في سفينة، قبطانها يسوع، وحتمًا سيصل إلى بر الأمان، ولن يعرفنا الأذى أو الشرير.

لشعوري براحة وأمان مطلقين، أغلقتُ عينيَّ عن الطريق، ماذا سيحدث لي؟ الطريق ممهد دون عوائقٍ، وأرهقني الفراغ الأبيض العظيم الذي أقود فوقه، مجرد درب طويل، لا وجود لأشجار أو لافتات، لا وجود لأي شيءٍ قد يلفت نظرك، فتجد الاختلاف ولو كان بسيطًا.

أغرب ما في رحلتي هو ظهور رجلين، أراهما بوضوح، وعرفتُ من شكلهما أنني أوشكتُ على الوصول إلى النهاية المرجوة، وخُيِّل إليَّ في البداية وقوفهما فوق سيارة أو جبل من الأحجار مثلاً، ومع كل اقترابٍ منهما، ومع وضوح الشوف والبصر، وإيمان القلب حاليًا بإمكانية حدوث أي شيء، اقتنع

عقـلي قبـل قلبـي بوقوفهـما في الهـواء، أعـلى عـن الأرض بمسـافةٍ واضحـة، للناظريـن، إذا مـا كان هنـاك ناظـر.

وفي لحظـة اقـترابي العظمـى، التفـت واحـدٌ منهـما تجاهـي، وفتـح ذراعيـه، وبانـتْ ملامحـه، وأنـا سـأفقد الوعـي حـالاً، إذا كان هـذا يسـوع المسـيح، الواقـف بالأعـلى بصحبـة رجـلٍ، وطبعًـا لأنـه معـه، فإمـا هـو مؤمـنٌ صالـحٌ، أو معجـزةٌ مـن معجزاتـه، ولأن المسـيحَ متواضـعٌ، وتواضـع معنـا عامـةً بتأنسـنه، نـزل إليَّ ومعـه رفيقـه، يسـوع المسـيح، قلبـي يـدق بقـوةٍ، سـيخرج مـن مكانـه ليقبـل رأسَ المسيح، وإذا كانـتِ الحكمـة مـن بقـاء عينـيَّ في أثنـاء المحنـة لتحـين نهايتـي وأنـا آخـر مـن رأيتُـه حبيبـي يسـوع المسـيح، فليقبـض روحـي، وسـيذكرني أهـل السـماء في مـا بينهـم، بحقـدٍ مـن رجـلٍ، كان قاتـلاً ولكنـه مؤمـن، وقابـل المسـيح بنفسـه، في آخـر أيامـه.

يتكلـم المسيح وأنـا لا أسـمع، فضحـك وشـعرتُ بضحكـة، تخـرج مـن الأرض والعـالم والكـون كلـه، مسـح عـلى وجهـي، فرجعـتُ إلى مـا كنـتُ عليـه، إنسـانًا عاديًـا، بكامـل ملامحـه، ولم يعطنـي عقـلي فرصـةً لنرسـل إلى أجـزاء جسـدي إشـارةً برجـوع كل مـا يخصهـا مجـددًا، بـل ضربنـي بإشـارة، مفادهـا أن أسـجد للمسـيح، وأقبّـل قدميـه أو صـدره، وهـو مـا نفذتـه بالحـرف الواحـد، صرتُ سـاجدًا، أطلـب منـه المغفـرة والصفـح، بصـوتي الـذي كـدتُ أنسـاه، بدموعي النديمـة، التـي كانـتْ معـي طـوال المحنـة، بسـمعي الـذي رجـع ويسـمع المسـيح، وهـو يقـول لصاحبـه: "هـذا حفيـده يـا إليسـع".

ساعدني على القيام، جسدي يرتجف من عظمة اللقاء، أن تقف أمام ابن الإنسان، تسمع المسيح صاحب المعجزات، المُعلم الوحيد والأوحد، ويُساعدك هو على الوقوف، حرفيًا وليس مجازًا، كمن يقول لك شعرتُ بالمسيح يُساعدني، وهو يقصد المُساعدة المعنوية، الوضع مختلف! أنا فعلاً وحقًّا يساعدني المسيح على الوقوف.

"فيليب حفيد يوسف النبي، المؤمن بي وبعدوي يهوذا الإسخريوطي، انظر يا إليسع، هذا رجلٌ من الذين رجعوا إلى الوراء، ولم يعودوا يمشون معي، هذا رجل جمع بقلبه حُبي وحب يهوذا، الخائن الذي أوقع بابن الإنسان، هذا يا إليسع، لقبه في السماء، حامل الأكذوبتين، وصاحب القلب المريض، تعالَ يا فيليب، ولا تقل شيئًا، سأخبرك بكل ما تريد معرفته، وسواء أصدقتني أم لم تُصدقني، فأنت ملعونٌ يا فيليب، ودورك في الحياة الجديدة سيستمر، لن تترك المُعاناة بكل سهولة، ودَع ابن الإنسان يرد إليك كل الأكاذيب دون أن تنطقها، فتؤمن به وتتكر الكاذبين، أعداء المسيح والحق.

فأما المريض بالشر يهوذا، فكيف صدقتَ يا فيليب أنه هو من صُلِبَ؟ كيف صدقتَ يا فيليب أن ابنَ الإنسان الفادي، سيترك من يموت بدلاً منه؟ أنا من خلص البشرية من خطاياها، سأهرب مثل الخونة؟ وإذا كان يهوذا هو المصلوب، كيف تحدث إلى المصلوب عن يمينه، اللص التائب، وقال له إنك اليوم تكون معي في الفردوس، أيعقل يا فيليب أن يدخل الخائن الفردوس؟ ولا تُفكر بأن هذه مكافأة إلهي له، لأنه

اختـار المـوت ليفدينـي، كل مـن كان في أورشـليم شـاهد جثـمان يهـوذا المشـنوق، بعدمـا عرفـوا جـرم فعلتـه بتسـليمي لليهـود!

هـل شـاهدتَ الثقـوب الخمـس يـا فيليـب؟ ثقـوب المسـامير في يديـه وقدميـه، وجـرح الرمـح، وجـراح إكليـل الشـوك؟ يهـوذا روحٌ هائمـة، طردهـا الـرب مـن سـلطانه، يحـوم في العـالم بعـذاب أبـدي، يبحـث عـن كل روحٍ ضالـة، ويمـلأ كأسَ تفكيرهـا بخمـره المغشوشـة، المصنوعـة مـن أفـكارٍ وأكاذيـب، يهـوذا مريـضٌ بالكـذب والغـش، يريـد مـن يربـت عليـه، ويقـول لـه أنـت المُخلـص، والمسـيح لم يفعـل شـيئًا!

أمـا مـا يخص جـدك الأكبر، يوسـف سـميث، فاعـذرني يـا فيليـب، يوسـف نبـي كاذبٌ، مريـضٌ هـو الآخـر، يبحـث عـن الشـهرة، يبحث عـن معجـزةٍ إلهيـة، ولأنـه جاحـدٌ، لم ينظـر إلى النعـم والمعجـزات التـي قـررتُ أن يعيـش فيهـا البـشر بأمـر مـن إلهـي، وجعـل جماعتـه تؤمـن بي، وإيمانُهـم النيقـاوي ناقـصٌ، يتبعـون كتابًـا لا يحمـل تعاليمـي ولا سـيرتي، تخاريـف نُقشـتْ مـن ألـواحٍ ذهبيـة تحمـل تاريخًـا فرعونيًـا للفراعنـة وأسرارهـم، عـثر عليهـا مقـاولٌ شـاب، كان يعيـش في الأقـصر، وأخـبره سـائحٌ بقدرتـه عـلى بيـع هـذه الألـواح لرجـلٍ يجيـد التعامـل معهـا، وسـيعطيه ثمنًـا رائعًـا، ولأن تعاليـم الـرب واحـدة في مختلـف العصـور والدهـور، ظـن المعتـوه يوسـف أنـه وجـد إشـارةً سـماوية، وأحـضر مـن يترجـم لـه، ومـع إضافـاتٍ مـن خيالـه، صـار نبيًـا وقديسًـا، يتبعـه النـاس، ضـلالٌ بـيّن يـا فيليـب، والإنسـان روحـه ضعيفـة، تركـض خلـف المُعجـزات ولـو بالسـماع.

لقد طلبتُ من إلهي أن تكون أنت العبرةَ الأبدية لكل المُذنبين، لأنك خارجٌ من بيتٍ لم يعترف بابن الإنسان كما ينبغي، ولأنك ركضتَ خلف شهوتك، وقتلتَ الروحَ العظيمة التي فديتُها بنفسي، لتعيش وتنجب وتعبد إلهي، فعلتَ ذلك بقلة إيمان، لا يا فيليب لا! فعلتَ ذلك بإيمان قاتلٍ مهووس، يقتل ليلاً، ويطلب مني المغفرة صباحًا! أنت أكثر أهل هذه الحياة دناسةً، أنت غلبتَ بفعلتك السحرة والشياطين، هم طريقهم مرسوم من البداية، ولا يؤمنون بي ولا بإلهي، ولكن رجلاً مثلك، يحفظ كلامي ويُصلي من أجلي، ويقتل من أجل مينا؟ وعقلُك المسكين يخبرك بمقتل أمك؟ فلا تحاول علاج روحك ونفسك من شرور الإنسان، ثم تسعى خلف القتل؟ أتصلي من أجل المسيح؟ ثم تُصلي من أجل دم الشرير وأتباعه؟ ستعرف نهايتك المأساوية يا فيليب.

الدهشة الثالثة

السارد الأول

الجزء الأهم في حكاية كتلك تلزمه خبرة السرد، كما أخبرت الساردة بأنني سأتدخل في وقتٍ مُعيَّن، ولأنني خُلقتُ من الكلمات والسطور، ومعروف باسم "وحي الحكايات"، سأكمل الحكاية من هنا، من الجزء الأهم، لأكثر الحكايات عظمةً، الحكاية التي عرفتُها من ملايين السنين، منذ خلقني رب العالم والحكايات كلها، الذي أوجدني مع آدم، في الوقت نفسه، نفخ فيه من روحه، فقام الطين، ونفخ فيَّ من حكمته وكلامه، فقام الوحي، وحيٌّ دمه من حكايات، عقله معجزةٌ قصصية، وعرفتُ اسمي، السارد الأول، السارد الذي لديه القدرة على التكاثر مع

الحكايات، فيُخرِج للدنيا الساردين الذين يتكون جسدهم من كلماتٍ، وعقلهم من حكايتهم الوحيدة التي سيحكونها.

غيرتي الحقيقية لم تكن من جنسي، أو من كياني وتفسيره، غيرتي الحقيقية كانتْ من عدم وجود حواء كالتي حظي بها آدم، حواء بوابة الخلود والولادة، حاولتُ كثيرًا معرفة طعم الجنس، ولكن فشلاً عظيمًا حاوطني، الجنس في حيِّز معطياتي، جنس افتراضي، أتخيل نفسي فوق كلماتٍ، وبعد مداعبات وقبلات، يطلع ساردٌ، كلهم شكل واحد، كلهم نسخة مني، وكلما فكرتُ في ساردةٍ، في أنثى، يكون شكلها مختلفًا عنهم، لا يتم الأمر! ولما تكلمتُ مع رب العالم والحكايات، وطلبتُ منه أنثى، تكلم بحكمته وقال: "ساردةٌ؟ ساردةٌ أيها السارد الأول، تعني أنك تبحث عن معجزةٍ، قديسة مثلاً، وقديسة في حالتك تعني حكايةٌ مختلفةٌ، لم يسردها ساردٌ من قبل، الموضوع لطيف جدًا! لك ما طلبتَ!"

سمعتُ كل الحكايات، التي خرجتْ للعالم، والتي لم تخرج بعد، عاصرتُ البداية وبداية البداية والفراغ العظيم، عاصرتُ آدم وحواء وإبليس، عاصرتُ النزول إلى الأرض، وفرت حكايات للعالم، بكل اللغات، من أول اللغات غير المفهومة، مرورًا بلغات الإشارة، وصولاً إلى اللغة المنطوقة، واختلافها في الحضارات، ومختلف العهود.

أنعم الرب عليَّ بحكايةٍ، وأمرني بخلق ساردٍ، وهذه المرة ستكون ساردة، ولأن الحكايةَ عظيمةٌ، أوصى بضرورة حضوري

في نهايتهـا، لأنهـا لـن تتحمـل مـا تحكيـه، وسـتخرج عـن سـياق الحكايـة، وتبـدأ في طـرح الأسـئلة، ولم يكـن السـارد لحوحًـا إطلاقًـا، السـارد هـو بـاب العبـور إلى عـالم حكايـةٍ لم تكـن معروفـةً، لذلـك وجـب عليـه حضـور الحكمـة، وسرد الأحـداث لا غـير، دون إظهـار الدهشـة، أو التعجـب مـن معجـزات لـن يتقبلهـا عقلـه، المصنـوع مـن حكايتـه وحكايتـه فقـط، فسـحبتها لمـا حـان وقتـي، وأدخلتهـا إلى ملكـوت السـاردين.

عرفــتُ مــن رب العــالم والحكايــات أن هــذه الحكايــة هــي مرحلــة الانتقــال إلى عــالم جديــد، يوجــب وجــود مســتوى أعــلى وأكــثر شــموليةً مــن مجــرد حكايــات جديــدة أو قديمــة.

المُهـم في مـا تبقـى مـن الحكايـة هـو أنهـا ستُدخلنا إلى مرحلـةٍ جديـدةٍ تمامًـا، وهـذا يعنـي خلـق سـاردين جـدد، وخلـق حكايـات أكـثر، وحـذر الـرب مـن ملـل الحكايـات القديمـة، وأمَـرَ بحكايـاتٍ أكـثر متعـةً وإبداعًـا، لأن القادمـين مختلفـون، عقلهـم لـن يتقبـل حكايـةً عاديـة، كعقـل البـشر العـادي الروتينـي الممـل.

فباسـم رب العـالم والحكايـات، نُكمـل حكايـةَ المحـو، مـن منظـور سردي، يهـدف إلى السـرد لا غـير، غرضـه التعريـف بمـا تبقـى، ولا يضمـر في خفايـاه أي نوايـا سـيئة أو خبيثـة، ليسـتفسر أو يقـول رأيـه، أو يعـترض ويقـول لمـاذا، سردٌ خالـصٌ بـلا رأي أو تنظـير.

نعمة المَباركة

بعدما حملها الملاك، وطار بها أسرع من الضوء تجاه رائحة الخشب التي كانتْ تتبعها، الموجودة في محافظة الشرقية، لتصل إلى البناية المنشودة، المدفون تحتها المحل، المُختفي بداخله المخزن، المقبورة بداخله العرائس، الحاملة بين ثناياها سرًّا عجيبًا، أشارت إليه بتحديدٍ صائب، ودقةٍ قديسة تعرف دعوتها، ليضعها فوق سطح البناية، ويتضخم الملاك، فيصير بحجم السماء، وتنفذ يمينه من بين الحجر، ويُخرجها بكل العرائس الخشبية، ونعمة صامتة ومدهوشة، وهنا لا يجوز استخدام كلمة (كأنها)، لأنها بالفعل رأتْ معجزةً، فلا يصح قول (كأنها رأتْ معجزةً)، بل يجب الوصول إلى جُملٍ أدق، تصف حال المُباركة نعمة، وهي في حالتها، وقفتْ صامتةً ومدهوشةً، بفعل إحساسٍ غرائبي يسري في تفكيرها، يخبرها بحقيقة المعروض أمامها.

لما عاد الملاك إلى المسيح، وفي غمضة عين، رص العرائس الخشبية، وجعل نعمة المُباركة تقف بجانبها، تنتظر تكليفًا جديدًا، أو انتهاء حياتها، أيهما أقرب لحكمة المسيح أو رفيقه اليسع.

نظر المسيح إلى السماء، وتضرع إلى الأب: "إلهي، ها هم، بمشيئتك وقدرتك، تنفخ فيهم من كلمتك المُقدسة، أما أطفالي، البراءة الكامنة ونقاء السريرة، فأصنع لهم جسرًا، من الأرض إلى السماء، فيصيرون ملائكةً إذا شئتَ، أو يبقون أطفالاً في الملكوت،

يلعبون ويمرحون، وستعتني مريم العذراء بهم جميعًا، وستحكي لهم الحكايات، وتُعد الكعك والحلويات والخبز، إلهي، بأمرٍ منك، أنادي على الأطفال، يصعدون كلهم إليك، أعطني إشارةً، لنبدأ المحو الأول!"

والإشارة كانتْ حاضرةً، والسماء صارتْ مفتوحة، وظهر ملاكٌ بيده بوابة، حولها ألعابٌ وكعك وأشكال كارتونية، ليُرحب بالوافدين الجُدد، إلى السماء، ونعمة فقدتْ وعيها، لما شافتِ الأطفال يطيرون في الهواء، ويدخلون من هذه البوابة، ومع كل طفلٍ يدخل، تدب الروح في الخشب، فتقوم العرائس الخشبية، واحدةٌ تلو الأخرى، ففهمتْ نعمة أن روحَ الأطفال انتقلت منهم إلى العرائس الخشب.

بأمرٍ من المسيح، عادتْ نعمة إلى وعيها، وكلفها بدورها الأخير: "قديسة مثلكِ، يجب أن تتحمل المعجزاتِ! والآن مهمتك الأعظم يا مُباركة، الحق أقول لكِ يا نعمة، أنتِ الشجرة المُباركة، هذا سبب وجود البقع الخضراء، البقع هي فروعك، التي ستصعد إلى السماء، وسيلان دم أبيض منكِ، عند الجراح أو الحيض، يرجع إلى أصلكِ، وبمشيئة الرب تتحولين إلى الشجرة المُباركة، أضخم شجرة في تاريخ البشرية، سيراكِ كل شخصٍ على وجه الأرض، سيراكِ من بالصين ومن في كهف عظيم، فيسترشد الناس بكِ، ويسيرون إلى المسيح أبيهم، الذي سيخلصهم من خطاياهم إلى الأبد.. إلهي، فلتحل معجزتك على الشجرة المُباركة، نعمة التي عانتْ كثيرًا، وها هي عرفتْ، كم توجد في شقوق المعاناة قطرات ماء المعجزات".

ابتسمتْ نعمة، وهي تتحول إلى شجرةٍ، طولها يرتفع إلى الدرجة التي شعرتْ بها بأنها ستدخل إلى مملكة الرب، تخرج منها فروعٌ وأوراق خضراء، شجرةٌ ضخمةٌ زاهية، لا عيب فيها، خشبُها متينٌ لم يعرفه أهل الأرض قط، تبتسم نعمة وهي راضية، يسقط من ذاكرتها كل أيام الحُزن والفقر والخوف، يهجر ذاكرتها البغاء والجنس، تسقط ملامح محيي وأهلها، ترى رسولَ الخير الذي عذبها يحترق، ترى العم آدم الذي اغتصبها وهي صغيرة يصرخ من شدة عذابه. طلبتْ من المسيح طلبًا أخيرًا: "هل يمكن أن تُعيِّن حارسًا عليّ؟ هو أطيب خلق الله، اسمه العم سند، مات شهيدًا، حين دافع عني وأنا صغيرة، هل يمكن أن يكون حارسي؟ الذي يهتم بي ويُهذب أوراقي؟ وقبل أن أنسى، هل يمكنني أيضًا الاطمئنان على البنت الصغيرة التي أنقذتني من الموت؟ اسمها ماري. وطلبي الأخير، الكيس البلاستيكي الأزرق، أريدُه مُعلقًا على أفرعي، هذا الكيس كان أماني دومًا يا محيي، أقصد يا يسوع!"

ابتسم المسيحُ وهز رأسه موافقًا، فضحكتْ نعمة، وشكرته على نُبل مواقفه، ثم قال لها: "أمرِكِ عجيبٌ يا نعمة! ظننتُكِ ستطلبين أن يكون حارسُك حبيبَكِ محيي!" ضحكتْ نعمة بصوتٍ عالٍ، كانتْ أصدق ضحكة تخرج منها، ولا نكذب إذا قُلنا إنها الضحكة الحقيقية الوحيدة التي خرجتْ منها بصدقٍ وإيمان!

وكان آخر ما قالته قبل أن يكتمل شكلها: "يا سلام يا نعمة، النهاية لم تكن سيئةً كما توقعتِ، والله لم يكن يُعذبكِ،

بـل يُجهـزك، لا سـلام عليكـم يـا أهـل الـشر، تعالـوا واهتـدوا بنـور المُباركـة، نعمـة النعـم".

اليسع

لم يكـن إليسـع مقتنعًـا بمـا قالـه المسـيح عـن رمزيـة قصتـه مـع النبـي مـوسى، وكان التفكـير في كل خطـوة، منـذ عـودة الذاكـرة إليـه، عقيـدةً اعتنقهـا، ليُحـرر روحَـه المُتعبـة مـن أحـلامٍ أنهكتـه، ومـن خلـودٍ رمـاه في حـروب النسـيان.

المسـيح مشـغولٌ بمـا كُلـفَ بـه، وإليسـع مشـغولٌ بحياتـه وتقلباتهـا، ولمـا طلـب يسـوع منـه القيـام بمهتمـه، قالهـا إليسـع بصراحـةٍ واضحـة: "لـن أتحـرك يـا يسـوع، قبـل أن يرسـل إليَّ الـرب إشـارةً، فأعـرف أننـي مـا زلـتُ إليسـع النبـي، أو الخـضر، أو مهـما كان الشـخص الصالـح الـذي كنـتُ عليـه، ذاكـرتي مشوشـة، تومـض بلقطـاتٍ أعرفهـا وأخـرى أجهلهـا، وهـذا أمـرٌ عجيـب يسـتحق إيمانًـا تامًـا، مـن أدراني أن كل مـا يـدور حـولي يحـدث بالفعـل؟ وليسـت تهيـؤات مـن عجـوزٍ، نـسي نبوتـه ونفسـه، فصـار يرافـق الخـرف والهذيـان؟"

الإشـارة لرجـل عـادي قـد تكـون قطـةً تظهـر وتمـوء، أو خـبرًا في جريـدة، وربمـا تظهـر آيـة مـن كتـابٍ سـماوي عندمـا تفتـح الكتـاب صدفـةً وبيـأس الباحـث عـن معجـزةٍ، فيقتنـع يقينـك بمـا أرسـله لـك رب المُعجـزات والإشـارات واليقـين!

ولكـن إشـارة إلى نبـي؟ نبـيٌّ يـرى المسـيح أمامـه؟ ومـن خلفهـما شـجرةٌ ضخمـة كانـت مـن ثـوانٍ إنسـانةً؟

ولأن المسـيحَ حـقٌّ، والحـق جاهـزٌ لترسـيخ اليقـين، أشـار إليـه بالنظـر إلى نهـر النيـل، فتراجـع إليسـع إلى الخلـف، لما انشـق النهـر، وبقـي فـوق سـطح طميـه ممـشى مـائي، يسـمح بنقـل الأشـياء فوقه، فتسير ببـطءٍ وتصـل إلى وجهتهـا، ليتفاجـأ إليسـع بهجـرة المانيـكان المُقدسـة، حـين رأى مانيكانـات، تـأتي مـن العـدم، كلهـا عـلى ظهرها، تتجمـع أسـفل المـكان الطاهـر، الـذي يقـف عليـه إليسـع والمسـيح، تتراكـم المانيكانـات عـلى نحـو هسـتيري، والنيـل مشـقوقٌ ومـاؤه إلى أعـلى، فقـال يسـوع لرفيقـه: "هـل تؤمـن برسـالتي الآن يـا إليسـع؟ هـل تذكرهـم؟ كنـتَ ترميهـم كل يـومٍ وأنـت محمـد عبـد القـوي، وكنـتَ تدهنهـم بلحـم الهوانـم، وتكسـب بالـكاد، وحاليًـا سـتعرف مهمتـك، وأنـك لم تكـن نبيًّـا منسـيًّا بالصدفـة، أو مـن أجـل لا غـرض، بـل بأمـرٍ إلهـي يتـم تجهيـزك، يـا رفيـق معجـزاتي، ويـا تلميـذ حبيـب الـروح إيليـا".

إليسـع إيمانـه يتعاظـم مـع كل مانيـكان يصـل، فطلـب مـن المسـيح معرفـةَ دوره، ليثـق قلبـه تمـام الثقـة والإيمـان، وهـذا ليـس تكذيبًـا لمعجـزة المسـيح أو إشـارة الـرب، بـل ليطمـئن قلبـه أكـثر، فأشـار إليـه المسـيح بالركـوب عـلى ظهـر ملاكٍ، سـيحوم بـه فوق كل منطقـة وشـارع، في كل المحافظـات والبـلاد، سـيلف العـالم في ثـوانٍ قليلـة، سـيحوم بـه فـوق الـدول كلهـا، وعليـه أن يُحيـي النـاس، مـن ميتـة المحـو المؤقتـة، سـيقوم النـاس إليـه، برهـن إشـارته، وبعدهـا سـيتوافدون إلى مـكان المسـيح، بسـبب الشـجرة المُباركة، التـي يراها

مـن في الصـين، ومـن في كهـفٍ مظلـمٍ عظيـم. لمـا انتهـى يسـوع مـن كلامـه، كان إليسـع راكبًـا عـلى ظهـر مـلاكٍ شـفاف كالزجـاج، يقـف بـه في كل مربـعٍ سـكني كبـير، ويهـز رأسـه لإليسـع، ليفهـم أنهـا علامـة البـدء، فيأمرهـم بمشـيئة الـرب وبمقدرتـه، المتمثلـة في معجـزات النبـي إليسـع، أن يقومـوا وأن تعـود ملامحهـم إليهـم، فيـضرب المـلاك بجناحيـه العظيمـين، فيقـوم النـاس بأمـر ربهـم، وبمباركـة نبيهـم إليسـع، وبرفرفـة المـلاك العظيـم.

كل شـخصٍ، في كل دولـةٍ، في كل مـكانٍ، قـام مـن مكانه، وإليسـع يؤمـن مـع كل قيامـةٍ لفـردٍ ضعيـف، يخـبره قلبـه بأنـه هنـا أخـيرًا، بأنـه إليسـع والخـضر وكل الرجـال الذيـن وصفهـم التاريـخ، بأنهـم عظـماء الأمـة، وأعمـدة حضاراتهـا.

أيقـن إليسـع، وصرخ بعلـو صوتـه: "أنـا إليسـع، عـليَّ السـلام، أنـا الخـضر الشريـف، رضي الله عنـي وأرضـاني، أخـيرًا أيقنـتُ بقلبـي، مـن أنـا، وعرفـتُ مـن أنـا، أخـيرًا سـيرتاح بـالي مـن طوفـان الأسـئلة، أنـا إليسـع، النبـي الخالـد، أبـد الآبديـن!"

العامة

مشـاعرٌ مختلطـة، مـا بـين الدهشـة والفرحـة، بُـكاء ودعـاءٌ، صلـواتٌ مـن أجـل الـرب، صرخـاتٌ لشـدة البهجـة، عـدم تصديـق زوال المحنــة، أحضـــانٌ لغربـــاء، قفــزات ورقــص، أغــانٍ بتمجيــد الإنســان، وســيرته الباقيــة، والقضــاء عــلى أي شيء، المهــم هــو

الإنسـان، خليفـة الأرض سـيبقى، وأي شيءٍ آخـر، إلى زوالٍ، بـلا رجعـة أو نــدم.

قامـوا بداخـل بيوتهـم، لم يفهمـوا في البدايـة مـا الـذي حـدث، ولمـاذا صـارتْ بيوتهـم تحـت الأرض، ثـم بجـزءٍ مـن التفكـير عرفـوا أن الطـرقَ اختفــت، وأن البيــوت لم تُدفــن، فصعــدوا جميعًــا إلى أسـطح بناياتهـم، بغريـزة البقـاء، بغريـزة البحـث عـن هـواءٍ نقـي، كـرد فعــلٍ للتمتـع بالعيشـة مجـددًا، واستنشــاق مـا يـدل عـلى عودتهــم إلى الحيــاة، راعهــم المنظــر، سـطح أبيــض كامــل، فــراغ أبيــض مُخيــف، لا لافتــات أو أشــجار، باســتثناء شــجرة ضخمــة كبـيرة، فتعالــتِ الصيحــات بالركــض تجاههــا، قــد تكــون هــذه الشـجرة المُباركـة، التـي سترشـد النـاس إلى الطريـق الصحيـح، ومـن ثــمَّ إلى بــدء الحســاب.

اختلفـت التفسـيرات بينهـم، نغمـة القيامـة حـاضرة، مـا زالــتْ حــاضرة، يرفــض العامــة تفســير الأمــر عــلى نحــو آخــر، لم يهتــم شــخصٌ منهــم بتشــغيل دماغــه، والســؤال عــن ســقوط الملامــح، المهــم هــو الرجــوع إلى الطبيعــة، ومعرفــة كيــف ســينتهي الأمــر، مســيراتٌ ضخمــة، تركــض بتحفيــزٍ مــن المســرات، وتنفــض عــن روحهـا تـرابَ الأوجـاع الفائتـة، سـنصل إلى الشـجرة، وسـينتهي كل شيءٍ، سيُحاسـبنا الله برحمتـه الواسـعة، ولــن نـرى حزنًـا مُـرًا.

وسـط فرحتهـم، سـألتْ أم، بصـوتٍ عـالٍ وصُراخ: "أيـن ابنتـي؟ هـل رأى أحدكـم ابنتـي؟" وهنـا تنبـه معظـم الأمهـات الموجـودات في محيـط تلــك السـيدة، وتعالــت صيحاتهــن بالســؤال نفســه،

فيجيبهـن رجـلٌ: "يـا معتوهـات! نفـسي نفـسي! نفـسي نفـسي!" فهـدأت منهـن مـن هـدأت، ولكـن السـيدة ذاتهـا ركضـت تجاهـه وقالـت: "وأيـن تأثـير الأمـر فينـا؟ أيـن غيـاب عقلنـا بسـبب المنظـر والعـذاب والحـروب؟ نفـسي نفـسي سـنقولها جميعًـا عـلى نحـو لا إرادي، وسـنرى بيننـا الأنبيـاء! يـا غبـي!" أعـادتْ كلامهـا بصـوتٍ أعـلى، وسـاندتها سـيداتٌ أخريـات، والدفـع مـن الخلـف مسـتمر، وبـات مسـتحيلاً الرجـوع إلى الخلـف، الأعـداد الغفـيرة سـتقتل مـن يسـقط سـهوًا.

الأعـداد تتدافـع، كتـل بشريـة كبـيرة متفرقـة، تركـض تجـاه الشـجرة المُباركـة، بينهـم في حـرجٍ بالـغ، ويـأس متصاعـد، مـن يسـأل عـن زوجتـه أو زوجهـا، مـن يسـأل عـن ابنـه أو ابنتـه، مـن يسـأل بجانبـه هـل رأى هـذه العجـوز؟ هـي جدتـه ويحبهـا، والدفـع اللاإرادي مسـتمر، حتـى وصلـت رسـالةٌ مـن الأمـام، مفادهـا: "إنـه المسـيح! إنـه المسـيح!" فبـكى النـاس وزاد الدفـع، ركضـوا بشـكل أسرع تجاهـه، يجـري واحدهـم ناحيـة أملهـم الأخـير.

توقفـوا فجـأة لمـا شـاهدوا المسـيح فوقهـم، يطالبهـم بالهـدوء، وأنـه سـيزيح أي غمـةٍ: "أحبـاب المسـيح، ابـن الإنسـان، بمشـيئة الـرب تجمعنـا عـلى الخـير، وعـلى إرادة الـرب، نحمـد الله عـلى رجـوع الملامـح إليكـم، نحمـد لله عـلى رجوعكـم إلى الحيـاة، والآن كل مـا أريـده منكـم هـو شيءٌ أبسـط مـن المـاء، أريـد الرجـال في ناحيـةٍ، والسـيدات في ناحيـة، والأمهـات بمختلـف أعمارهـن في ناحيـة، ولا تخافـوا عـلى أطفالكـم، أنـا أعـرف مكانهـم وهـم تحـت رعايـة ونظـر الـرب، حرفيًـا".

المسيح
(خطبته الأخيرة إلى العامة)

"أحباب المسيح، الحق أقول لكم، لأن يعمل في قلبي حزنٌ، ويغرقني بنهرٍ من الشك، شك أصله الإنسان، الذي هو أنتم، والذي كانتِ الحياة بين أيديكم، ونعمة الروح بداخلكم، ونعم الرب تحاوطكم، أحباب المسيح، أقولها لكم في آخر كلماتٍ ستُنطَق على وجه الأرض.

فديتُ الإنسان، ظننتُ أن تضحيتي ستفتح لكم أبواب التأمل، وينظر كل شخصٍ منكم، على مر العصور، إلى الحياة بقلبه، بنواياه الطيبة، ومع ذلك، فتح كل واحدٍ فيكم باب بيته وحياته وقلبه للشر والشرير والأشرار، ترك الطهارة وحلو الإيمان واليقين بالأفعال الجيدة تغادر حياته دون عناء.

صليتُ من أجلكم كثيرًا، وقفتُ أمام إلهي أكثر، أسأله بكل الأسباب الممكنة أن تظل الرحمة موجودة، تجاه كائنات ضعيفة مثلكم، كائن الإنسان غير الجدير بالنعم، سرق ونهب، زنا وسب وشتم ولعن، قتل دون حق، الجشع استوطن قلبه، مات ضميره، سعى نحو المال والمصالح، قتل الحيوانات والنباتات، قتل أخاه الإنسان إذا ما كان على غير وفاقٍ مع آراء عقله المُتشددة، قتل أخاه الإنسان المختلف معه في المُعتقدات، حرك الشر تجاه حيوات البشر، حرك الشر بالحروب والمكر، حرك الشر بالاحتلال والسعي تجاه الضلال، بخطى ثابتةٍ، لم ينكر أفعاله.

لهث الإنسان غير الجدير بالنعم خلف المال والزنا، ونسي الفقراء، وتلذذ بفقرهم، واستغل فقرهم للظهور في مختلف المناسبات، ليقول للناس كذبًا إنه مناصرهم، وهو أول من ترك أخاه الفقير يلتهمه وحش الفقر ذو المخالب، ويضحك على منظره المسكين، ويقول لأولاده احذروا من الفقر، واعملوا على جلب الأموال، بكل الطرق المشروعة وغير المشروعة، ثم استغفروا الرب ليلاً، أو في صلوتكم، فهو الرحمن الرحيم، لن يتركنا وسيغفر لنا مهما حدث، نحن أبناء الرب، خلفاء الإله على الأرض، ولن يتركنا أبدًا.

ظلمَ الإنسان أخاه الإنسان، حين سرق منه مكانته المُستحقة، وتعمد تجاهله وتشويه سمعته، وسرق حقه في منصبٍ أو وظيفة أو ثناء أو جائزة، وخلق كل الحجج والأعذار والردود، ومنطق كلامه، ليعرف كيف يرد على من يتهمه، ثم ابتعد عن الرد، وسب من يهاجمه، وسب المُطالبين بحقوقهم، وسجنهم وقتلهم، وقال بصوتٍ عالٍ في وجه أصحاب الحق: لا حقوق لكم هنا، الحق سيتم تقسيمه بيني وبين الأصدقاء والرفاق.

ظلمَ الإنسان أخاه الإنسان، لما ثار أخوه ضد الظلم، وخرج يهتف بسقوط الحاكم الظالم في مختلف العصور، ووقف ضده، من أجل مصلحته، لا من أجل المصلحة العامة، ولا من أجل الوطن، وسحله إلى المتاهات، ودفنه في السجون، وقتله بدمٍ بارد، قتله ضاحكًا، ونام هانئًا، لأن إنسانًا مثله، يملك السلطة الأعلى، أصبح راضيًا عنه وعن ظلمه لأخيه الإنسان.

ظلـمَ الإنســان أخـاه الإنســان، عندمــا قتــل كل المواهــب الحقيقيــة، وتجاهلهــا وهــو معــترفٌ بجديــة مــا تقدمــه، وســعى نحــو التافهــين وأصحــاب المصالــح، وطلــع في كل المناسـبات يمجـد في التافــه والســارق وعديــم الموهبــة، وينــسى صاحــبَ الموهبــةَ الحقيقيــة، وإذا حــاول شــخصٌ مــا تذكــيره بالمفــروض والمرفــوض، ثــار وهــاج، وتكلــم عــن خبرتــه وعلمــه بالمفــروض، والمرفــوض هــو اعــتراض الأشــخاص، أصحــاب المواهــب الحقيقيــة، عــلى رأيــه في تلميــع فــلان، وإخفــاء فــلان.

ظلـم الإنســان أخـاه الإنســان، لمـا مـات المظلـوم هــمًّا، ســواء مــن الفقــر أو قلــة المــوارد أو عــدم التقديــر.

ظلـمَ الإنسـان أخـاه الإنسـان، لمـا دمـر كل العلاقـات البشريـة الصحيحـة، فركـض خلـف الزنـا مـن باغيـة، أو سـيدة متزوجـة، أو شـابة تعشـق الذنـوب، وهـو متـزوج، وركـض خلـف الفواحـش، وهـو غـير متـزوج، لأنـه غـير قـادر عـلى تكاليـف الـزواج، بسـبب تعنـت أخيـه الإنسـان في طلباتـه.

ظلـمَ الإنسـان أخـاه الإنسـان، لما كان كاذبًـا، في وسـائل الإعـلام بمختلــف أنواعهــا، وعــرض لــه كذبًــا خالصًــا، ولم يهتــم بعــرض الحقيقـة، لأنــه خائــفٌ عــلى وظيفتــه، وليــس خائفًــا مــن تنويــم شـعب بكاملـه، وتغطيتـه بالأكاذيـب، بـل وقتـل مـن يناضـل منهـم.

ظلــمَ الإنســان أخــاه الإنســان، وهــو يتحــدث عنــه في الــسر، ويهـزأ مـن شـكله أو جسـده أو حالتـه الخاصـة، وهـو يهـزأ بإصابتـه أو جمالـه غـير الموجـود، وهـو يهـزأ ويسـخر مـن تصرفـات حقيقيـة،

وهـو يكـذب الشـخص، مهـما كانـتْ ظروفـه، لأنـه المُتحكـم وصاحـب السـلطة، فـلا يعنيـه ظـرف مـرضٍ أو حالـة وفـاة، المهـم وجـودك بالعمـل.

ظلـم الإنسـان أخـاه الإنسـان، بالخيانـة والزنـا، مـع زوجـة أو أخـت أو أم أخيـه الإنسـان، بالـكلام عـن شرفـه وشرف عائلتـه، بنـشر الأكاذيـب ليحصـد عطـف الآخريـن، أو استحسـان المديريـن.

ظلـم الإنسـان أخـاه الإنسـان، في كل زمـانٍ ومـكان، وحاليًّـا كلكـم أمامـي، تريـدون منـي الرحمـة والمغفـرة؟ أقولهـا لكـم يـا أهـل الأرض، فحـزن الـرب أنـه عمـل الإنسـان في الأرض، وتأسـف في قلبـه، وغفـر ورحـم كثـيرًا، ولكـن الإنسـانَ لا يسـتحق رحمـة الـرب.

هـذه لحظتكـم الأخـيرة، وبعدهـا سـيظهر لـلأرض الخليفـة الجديـد، سـترون بأنفسـكم الـذل، وكيـف أنكـم فرطتـم بمنتهـى السـهولة في حياتكـم، لطمعكـم وحبكـم للشـهوات والمـال، لكرهكـم للفقـر والفقـراء، لخبثكـم وطبيعتكـم الشريـرة، الـرب رحيـم ولكنـه يغضـب، أتتكـم الكـوارث كتنبيـهٍ، وكلـما خرجتـم مـن كارثـةٍ، وتغلبتـم عليهـا بحفـظ الله، رجعتـم إلى ذنوبكـم وشرور أنفسـكم، بشـكل أكـثر بشـاعة.

لا سـلام عليكـم يـا أهـل الأرض، ولا حـب لكـم يـا أعداء المسـيح، أمـر مسـتحيل أن تكونـوا أحباب المسـيح.

لقـد أوحيـتُ إليكـم، بأفـكارٍ تُسـاعدكم عـلى محـو أنفسـكم بأنفسـكم، أوحيـتُ إليكـم بهـدم تاريخكـم، أرسـلتُ إليكـم الكتـبَ، وإذا كان حـكام الـدول حاضريـن، أقـول لكـم يـا أظلـم أهـل الأرض،

أنا من نشرتُ خبرَ القيامة في دولكم، أنا من هاتفتُ الخطوط في مصر، ومن أعلنتُ في الجرائد بالسويد، ومن دخلتُ على حسابٍ شخصي لوسيلة تواصلكم الاجتماعي، وغردتُ لملايين المُستخدمين بقرب القيامة في ألمانيا، وأنا من أخرج التصريح من الكونجرس في أمريكا، وأنا من وضعتُ لافتةً كبيرةً بحجم بنايةٍ في الصين، مفادها: القيامة تقترب! بعد العام تأتي القيامة!

إلهي، بمشيئتك وبسرك وبقدراتك، اللانهائية، أدعوك أن تمحوهم جميعًا، أن تخرج الروح منهم، وتذهب إلى جسد خليفتك الجديد، أدعوك إلهي بمحو تاريخ الإنسان بكامله، كأنه جنسٌ لم يحضر إلى الحياة نهائيًا، كأنه لم يكن هناك آدم أو حواء.

امحهم جميعًا يا رب، وامحُ تاريخهم وأعمالهم، سنين وجودهم، ذكرياتهم واختراعاتهم، مشاعرهم وذنوبهم، خيراتهم وخيرهم، حسناتهم وسيئاتهم، امحُ الإنسان يا رب، كأنه لم يكن إطلاقًا".

العامة

(صوت جماعي)

لقد استبدلنا الله..

طـوال هــذه المــدة، كنـا نعتقــد أننـا عــلى مشــارف القيامــة، بعـض العلامـات لم يظهـر، صدقنـا بظهـور تلـك المعجـزات، كعلامـة واضحـة وصريحـة عـلى اقـتراب نهايـة الأيـام، بدايـةً مـن تسـاقط الكتــب، مــرورًا بمحــو ملامحنــا، حتــى وصلنــا إلى عـودة الملامــح وظهــور المســيح.

حـين عـادتْ ملامحنـا، وركضنـا تجـاه الشـجرة، ولمحنـا المسـيح، لم نشـعر براحـةٍ، نحـن هكـذا، البـشر وحاسـتهم السادسـة، الشـعور بالمصيبــة أو نذيــر الشــؤم، ظهــور المســيح كان غريبًــا، ابتســامته الظاهــرة بجهــدٍ، علامــات القلــق الباديــة عــلى رفيقــه، الــذي لم نعــرف اســمه، وكان هائمًــا في الهــواء مثلــه، إلى أن وقــف فوقنــا، وطلــب منـا الانقسـام إلى جماعـاتٍ، رجـال ونسـاء وأمهـات، دثـر كل شيءٍ يخـص أطفالنـا، فعرفنـا أن هنـاك أمـرًا، لـن نحمـد الله عـلى عواقبــه.

بـدأ المسـيح بـكلامٍ عـادي، لم نبتهـج حتـى لمـا سـمعنا (أحبـاب المسـيح)، ثـم قـام بتوبيخنـا جميعًـا، منظـر مُـذل جـدًا، كلـماتٌ كالخناجـر، تسـكن قلوبنـا بجـروحٍ، يتكلـم بشـكلٍ عـام، لم يُحـدد مـن الـذي فعـل ذلـك، ومـن كان عبـدًا صالحًـا في حياتـه، ومـن كان عبـدًا شــقيًا يرتمــي في أحضـان الذنـوب، كعشـيقةٍ لم يُقابلهـا منـذ فـترةٍ.

لقد استبدلنا الله..

وها نحن، نتساقط واحدًا تلو الآخر، نرى بأعيننا، والمسيح يمسح على واحدنا، فيقع دون كلمةٍ واحدة، ويطلع من نهر النيل، الموجود على حافة البنايات، بعد اختفاء الطرق، يطلع مانيكان، يتحرك مثلنا، الشكل ذاته، لكنه ليس إنسانًا، عيناه بهما روحٌ، ومن الواضح أن أرواحَنا غادرتْ أجسادنا، واستقرت في أجساد المانيكان، الذي كان يذهب تحت قدم المسيح، يُقبلها ثم يذهب إلى الرجل الصالح، الواقف مع المسيح في الهواء.

يقترب المانيكان من الرجل الصالح الواقف بجانب المسيح، والذي عرفنا أنه إليسع، فيرش عليه بمسدسٍ خارج من جهاز عجيب، ، ليتحول لون المانيكان إلى لون جلودنا، كأن المانيكان يحصل على جلده من هذا الرجل، ثم يُقبل يديه وقدمه، ويذهب بعدها إلى المسيح، يقبل يديه وقدميه هو الآخر، ثم يجلس المانيكان، بجانب زملاء الخلق الجديد، في أدبٍ تامٍ، وحكمة كاذبة.

لقد استبدلنا الله..

وسمعنا من المسيح أننا سيتم محونا من التاريخ كله، ولن نصعد إلى الله ليُحاسبنا، لقد قرر الله أن يمحو جنس البشر بكامله من سجلات الكرة الأرضية، لم نتخيل في يومٍ من الأيام أن نسمعها بأنفسنا: "لم يكن البشر في يومٍ موجودين، والجنس الجديد هو المانيكان". لقد محا الله البشرَ تمامًا، ولم يعطهم الفرصةَ للحساب، ولا لدخول الجنة أو النار، لم نفهم كيف

يحدث هذا؟ بعدما تم محونا إلى أين سنذهب؟ هل سنتبخر في الهواء؟

لقد استبدلنا الله..

ولم نعرف قبل أن نموت، من كان المُحق؟ وأي ديانةٍ هي الحق؟ وأي طائفةٍ في الديانة الواحدة هي الأصح؟ لم نعرف من هو المهدي المنتظر، لم نشهد المعركة الأخيرة، لم نتحدث إلى المسيح، ونطلب منه الطمأنينة، لم يعطنا المسيح فرصةً للكلام، ولا حتى لنُخرج من بيننا من يستحق معاملةً حسنة، لأنه كان صالحًا في دنياه.

لقد استبدلنا الله، بكائنٍ مِن صُنعِنا، صنعناه لأننا لن نقف في واجهة محل إلى الأبد دون إرادة، يُحركنا من يشاء، ويهشمنا من يشاء، ويُهمشنا من يشاء، ومتى شاء صاحبُ المحل، فعل بنا ما يحلو له، من تغيير لون أو خلع رأس وكتف، ولم يتوقف الرب عند هذا الاستبدال، بل جعل أجسادنا ترجع إلى طينها، إلى حالتها الأولى، وبمعجزةٍ وأمر إلهي، أجسادنا تتداخل، لنصنع طرقًا جديدة، فيدوس علينا المانيكان، أو الإنسان الجديد، إذا كان إنسانًا.

لقد استبدلنا الله، صرنا طرقًا، يدوس عليه المانيكان والحيوانات، يمشي عليها كل ما اخترعناه، أي ذلٍّ هذا؟ بعدما كانت الدنيا كلها طوع أمرنا، أصبحنا جزءًا من الدنيا، ونعيش لخدمة المانيكان، وبقية الكائنات الموجودة.

لقـد اسـتبدلنا الله، وسـمعنا المسـيح وهـو يتكلـم إلى الأمهـات، ويقـول لهـن: "الأمهـات الفاسـقات صرن طينًـا وطرقًـا، أمـا أنـتن أينهـا الأمهـات الصالحـات، قديسـات العـالم الجديـد، لـن يحـدث لكـن أي شيء، سـيتم اسـتخدامكن لتعليـم جنـس المانيـكان، الإنـاث منهـم طبعًـا، التربيـة وتكويـن الأسرة والاسـتقرار في البيـوت، وسـنقيم طائفـة اسـمها القديسـات، الأم نعمـة مُباركـة، لا تسـتحق كل مـا حـدث، رأيـتُ حياتكـن كلهـا، رأيـتُ كـم المعانـاة والتضحيـة مـن أجـل أزواجكـن وأولادكـن وبناتكـن، ومـع ذلـك كانـوا جاحديـن لكـن، تعالـوا معـي يـا قديسـات! لتتعارفـوا مـع المانيكانـات الإنـاث"، وكان الـذل الأكـبر، أن المانيـكان رفـض تسـميته بإنسـان، وطلـب مـن المسـيح أن يظـل التصنيـف الجنـسي "المانيـكان"، ولـن يعـترض عـلى شيءٍ آخـر، وطبعًـا الأسـماء باقيـة، وليصـل الـذل إلى السـماء السـابعة، كل مانيـكان سـيكون عـلى اسـم صاحـب الـروح.

لقـد اسـتبدلنا الله، وانتهـى عـصر البشريـة، وبـدأ عـصر جنـس جديـد، وكنـا نظـن أن النهايـة لدينـا، وأننـا آخـر مـن سيشـهد علامـات القيامـة، اسـتبدلنا الله ولم نسـأل سـؤالاً واحـدًا فقـط، مـن الـذي فعـل ذلـك؟ هـل هـو الله؟ أم أن المسـيحَ فعلهـا كـما سـمعنا مـن شـخصٍ يـذوب معنـا، ظـل يـصرخ: "المسـيح هـو مـن فعلهـا! لأنـه لا يعـرف يـوم القيامـة! المسـيح هـو مـن محـا البـشر، لأنـه كرهنـا بعدمـا أحبنـا وضحـى، لقـد تحدثـتُ إلى يهـوذا وقـال لي، المَـسي..." وكان هـذا الشـخص الوحيـد، الـذي سـحبه المسـيح إلى السـماء، ولم نعـرف مـا الـذي حـدث لـه.

هـل هـذه القيامـة الحقيقيـة؟ نقصـد هـل هـذا شـكل القيامـة الصحيـح، والـذي لم تقـدر أي ديانـةٍ عـلى توضيحـه، فكـذب علينـا الأنبيـاء لنتقبـل المـوتَ ونهاياتـه المأسـاوية؟

لقـد اسـتبدلنا الله، ومحـا خليفتـه مـن عـلى وجـه الأرض، بـدأ خليفتـه جاهـلاً، وانتهـى جاهـلاً جـدًّا.

محانـا الله واسـتبدلنا.. وسـمع الإنسـانُ الجاحـد، ورأى الإنسـان الشريـر، وعـرفَ الإنسـان القـذر، بنفسـه، كلهـم عاشـوا ثـلاث دهشـات لحيـاةٍ أخيرة، وأيقنـوا بعـد كل معجـزةٍ أن الكتـبَ لم تكـن لمسـاعدتهم، وأن القيامـة لم تكـن قريبـةً، وأن كل مـا عرفـوه طـوال حياتهـم، بمشـيئة الـرب تغـيَّر، وهـو القـادر عـلى كل شيءٍ.

كان آخـر مـا رأينـاه، المسـيح ورفيقـه، وهـما يصعـدان إلى السـماء، يضحـكان في رضـا تـام، كأنهـما لم يقتـلا البـشرَ كلهـم، صعـدا إلى ربهـما، بعـد إتمـام المهمـة عـلى أكمـل وجـه.

وكان آخـر مـا عرفنـاه، أن الواحـدَ منـا لم يتـلُ كتابـه ليمحـو الغيـب ويعـرف مصـيره، بـل قرأنـا كلنـا بـلا اسـتثناء، في صـوتٍ واحـدٍ، في غبـاءٍ بـشري واحـد، بتفكـير سـاذجٍ، يخبرنـا بأننـا أسـياد العـالم، لأننـا محونـا الغيـب، ولم نـدرك حينهـا، أنهـا كانـت تـلاوات محـو جنسـنا، بمشـيئة الـرب، وبغضـبٍ مـن الـرب، الـذي مـنَّ علينـا بـكل الفـرص، ولم نسـتغلها.

نتمنـى أن تذكرنـا الأمهـات لـدى الـرب، وأن تحـكي للأجيـال الجديـدة القادمـة عـن كائـن كان موجـودًا، اسـمه الإنسـان، ويعتـذرن لهـم عـن عـدم وجـود مـا يثبـت كلامهـن، بعـد محـو

كل تاريخنـا، بأيدينـا وبقراراتنـا، إلا إذا أبقـى الـرب عـلى الأمهـات، بأشـكالهن الحاليـة، حينهـا سـنطمئن.

وإذا ذهــبن إلى العــالم الجديــد، بأشــكال غــير أشــكالهن، ولم يصـدق خليفـة الأرض الجديـد، بوجـود الإنسـان مـن قبلـه، قولـوا لهـم: "كانــتْ أسـطورةً، تسـتحق أن يحكيهـا الواحـد".

بداية جديدة

آدم

اسمي آدم، وأنا أول مانيكان على وجه الأرض، وهذه زوجتي حواء، ستساعدني على اختيار ذرية صالحة، من الأطفال الخشب، وسأجتهد في تعليمهم، والمُحافظة عليهم من أي شر.

وهذا مخلوقٌ عجيب، وهبه لي المسيح، وأخبرني بضرورة تربيته، لأنه مُسلٍّ جدًّا، وسيبهجني بما يفعله، فهو عبارةٌ عن جسد رجلٍ، ورأسه على شكل فرنٍ كبير، يُخرج لي منها أي شكل فخار أريده، فإذا قُلتُ مثلاً: "يا فيليب! تمثال للمسيح!" فيُخرج لي تمثالاً من الفخار على هيئة المسيح، ثم يتساقط سائلٌ أحمر

مـن الخلـف، مـن فتحـةٍ غريبـةٍ توجـد أسـفل ظهـره، ويجلـس عـلى الأرض، ويهتـز جسـده بعنـف، ثـم يعـود إلى هيئتـه الطبيعيـة.

مخلوقٌ عجيبٌ الصراحة، عجيب ومسكين.

تمتْ بمباركة

رب العالم والحكايات.

2019/9/25

نبذة عن الكاتب

مصطفى منير، روائي مصري من مواليد القاهرة 89، تخرج في كلية الألسن جامعة عين شمس، قسم اللّغة الإنجليزية.

صدرت له عدّة مؤلفات، مثل رواية (قيامة الظّل) عام 2018، وكتاب حانة الفوضى عام 2017، عن دار بردية، ورواية رهف عام 2016، ورواية باب عام 2015، عن دار الحلم للنّشر والتّوزيع.

تِلاواتُ المَحو

"ثَلاث دهشات لحياةٍ أخيرة"

كان آخر ما رأيناه، هو ورفيقه، وهما يصعدان إلى السّماء، يضحكان في رضا تام، كأنهما لم يقتلا البشرَ كلهم، صعدا إلى ربهما، بعد إتمام المهمة على أكمل وجه.

وكان آخر ما عرفناه، أن الواحدَ منا لم يتلُ كتابه ليمحو الغيب ويعرف مصيره، بل قرأنا كلنا بلا استثناء، في صوتٍ واحدٍ، في غباءٍ بشري واحد، بتفكير ساذج، يخبرنا بأننا أسياد العالم، لأننا محونا الغيب، ولم ندرك حينها، أنها كانت تلاوات محو جنسنا، بمشيئة الرب، وبغضبٍ من الرب، الذي منَّ علينا بكل الفرص، ولم نستغلها.



تصميم الغلاف: ميجو

مركز المحروسة

للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات